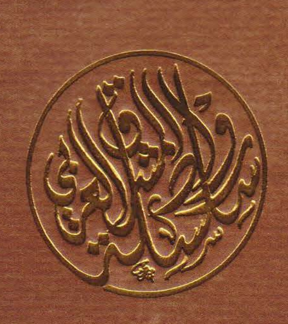


العامر والغامر

رحلة من القدس إلى أنطاكية عام 1905 م

تأليف: غرترود بل
ترجمة: وفاء الذّهبي
تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش



رَوّاد المشرق العربي

العامر والغامر

رحلة من القدس إلى أنطاكية

في عام 1905

للرحّالة البريطانية

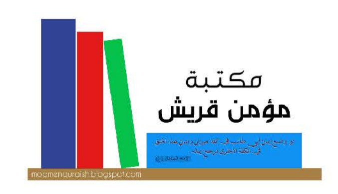
غرترود لوذيان بِل

ترجمة

وفاء الذّهبي

تحرير وتعليق

د. أحمد إيبش



© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.
DS94 .B412 2013
Bell Gertrude Lowthian 1868-1926.
[desert and the sown]
العامر و الغامر : رحلة من القدس إلى أنطاكية في عام 1905 / للرحالة البريطانية :غرترود لوذيان بل ؛ ترجمة: وفاء الذهبي ؛ تحرير وتعليق: أحمد إيبش. ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.
ص. ؛ سم.- (رواد المشرق العربي)
ترجمة كتاب : The desert and the sown
تدمك : 978-9948-17-164-5
1. سوريا -- وصف ورحلات. 2. سوريا -- الأحوال الاجتماعية. 3. لبنان -- وصف ورحلات. 4. لبنان -- الأحوال الاجتماعية. 5. فلسطين -- وصف ورحلات. 6. فلسطين -- الأحوال الاجتماعية. أ. ذهبي، وفاء. ب. إيبش، أحمد. ج. السلسلة. د. العنوان





دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae

العامر والغامر

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروپيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيليوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثّمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة

هذا الكتاب

بعد الاحتلال البريطاني للعراق (خلال الحرب العالمية الاولى) وفي السّنوات الاولى لقيام الحكومة العراقية تحت الانتداب البريطاني، ظهرت في مجتمع بغداد امرأة إنكليزية فريدة احتلّت مكانة بارزة ومارست نفوذاً واسعاً في تأسيس الإدارة الجديدة وفي حكم البلاد، وشاركت في حياتها السياسية، ودخلت مجتمع الرّجال بلا تحفّظ، فجالست ساسة البلاد وحكّامه من عراقيين وبريطانيين، وشيوخ العشائر من عرب وأكراد، ورجال الدّين من سنّة وشيعة، وزعماء البلد ووجوهه من موالين للسّلطة ومعارضين.

تلك هي مِس غرترود بِل (1868-1926) التي وإن كانت صفتها الرّسمية سكرتيرة شرقية للمعتمد السّامي البريطاني في العراق، فإنها في الواقع كانت كما لقبها الكثيرون «ملكة العراق غير المتوّجة».. كان العراقيون يسمّونها «الخاتون» ويدعوها الملك فيصل الاول «أختي العزيزة»، ويخاطبها السّيد عبد الرّحمن النّقيب بـ «ابنتي»، ويلقّبها عبد المجيد الشّاوي مازحاً بـ «أم المؤمنين»، ويسعى إليها السّاسة والوجوه والشّيوخ وأصحاب الحاجات، ويستأذنها بعضهم حتى في زيارة المعتمد السّامي، أو مواجهة الملك فيصل الأول، ويستشيرونها في الأمور المهمّة ويعملون بتوجيهاتها. هذه هي المرأة التي كانت تضع مشروعات القوانين، وترشّح الوزراء، ويُحسب لرأيها حساب في وزارتي الخارجية والمستعمرات، وتعدّ من موجّهي سياسة بريطانيا في العراق في عهدي الاحتلال والانتداب.

كانت مِس بِل إحدى الشخصيات التي رسمت مستقبل العراق السياسي لسنوات عديدة بعد الاحتلال البريطاني، وكان لها دور كبير في تأسيس الحكومة العراقية الجديدة، وكانت هي وتوماس إدوارد لورَنس (لورَنس العرب) وراء تنصيب الشّريف فيصل ملكاً على العراق، ولعبت كذلك قبلها دوراً في إطلاق الثورة العربية الكبرى. وهناك عدّة ترجمات أعدّت للتقارير السّرّية التي كانت غرترود بِل ترسلها إلى مكتب الاستخبارات البريطانية الخاص بالعالم العربي في القاهرة (المكتب العربي) عن الأوضاع في جزيرة العرب، ونشرها المكتب في نشرته الخاصّة *Arab Bulletin*.

كانت ذات شخصية مؤثرة شاركت مجالس مجتمع ذلك الزّمن، كما كانت معروفة على المستوى الشعبي، وهناك قصة لها مع أحد الثّوّار (الشّقاوات) «ابن عبدكه» الثّائر الكردي الشّهير، الذي ذاع صيته في مناطق شمال بغداد في مطلع القرن العشرين، وحدث أن استولى على القطار الصّاعد من بغداد، فالتقى فيه بـ «مِس بِل» المسؤولة الإنكليزية المعروفة التي كانت تستقلّ القطار، وحين عرفها أكرمها وعاملها بحفاوة، فتوسّطت له وأسقطت عنه الملاحقات القانونية ووظّفته في الدولة.

بين عامي 1960-1961 نشرت إليزابِث بورغوين سيرة غرترود بِل مستقاة من رسائلها وأوراقها الشخصية في جزأين يتضمّنان فقرات طويلة مقتبسة من تلك الرسائل. وقالت في مقدّمتها: كان التنقيح ضرورة سياسية، ولكنني في هذين الجزأين تمكنت من الإفادة بصورة كاملة من جميع رسائلها ويومياتها، فلم أحذف منها شيئاً ذا أهمية سياسية كانت أم شخصية، ولم أقم بأيّ تحريف في معانيها الأصلية في أيّة موضع. ففي رسائلها التي بلغ عددها الألوف، وفي 14 مجلداً من اليوميات التي خلّفتها، كتبت غرترود بِل حياتها، كما أنها عرضت الخفايا السياسية في عهدها.

وعلى الرّغم من أنّ الجزأين اللذين نشرتهما إليزابِث بورغوين يحتويان على أهم المعلومات عنها، فإنّ قصة المِس بِل لم تُكتب بعد كما ينبغي. وهي قصة امرأة عاطفية، ذكية، مثقفة، تهوى الآثار، وتعشق الأسفار، ولا يقرّ لها في مكان قرار. أحبّت مرتين وفُجعت بحبّها في كلتيهما، فالتمست النّسيان والسّلوى في الرّحلات، تارة في مدن

إيـران تتعلّم الفارسـية وتدرس آدابها، وطـوراً في جبال الألـپ تتسـلّق قممها وتغالب ثلوجها وأعاصيرها. ثم في صحارى جزيرة العرب، تتحدّى رمالها وتقتحم مجاهلها، وتتعـرّف علـى قبائلهـا. وأخيراً في العراق تسـهم في تأسـيس دولته الجديدة، ورسـم مستقبله وتوجيه سياسته.

* * *

يضـمّ كتابهـا الحاضر هـذا (نشـرته دار هاينمان في لنـدن عـام 1907) وقائع أولى رحلاتهـا في المشـرق العربي، من القدس الشّـريف إلى أنطاكية عـام 1905، وفيه نقرأ رواية شـخصيّة ممتعـة تطفو عليها آراء المؤلّفة الرّحّالة وتفاعلاتها الإيجابيّة والسّـلبيّة مع ما صادفها من مجتمعات وأشخاص وأماكن، كما نلمح فيه صوراً حيّة وجذّابة عن حياة المجتمع السّوري في تلك الفترة، وعن أوضاع الدّولة العثمانيّة وهيئتها الحاكمة، إضافـة للأحـوال الاجتماعيّة السّـائدة، وملامح من حيـاة عامّة النّاس آنـذاك ممّا تغيّر كثيراً اليوم بعد مضي قرن وسـبع سـنوات على رحلتها الجريئة والرّائدة التي قامت بها بمفردها، وهذا في عُرف ذلك العصر أمر يخرج عن المألوف بشكل صارخ.

هـذا ولقـد أضافت بِـل إلى كتابهـا مجموعة فريـدة مـن الصّـور الفوتوغرافية التي التقطتهـا بنفسـها ووثقـت بها رحلتهـا وتقاريرهـا، ومن الجديـر ذكره أنها قـد خلّفت وراءها أرشـيفاً ضخماً من الرسـائل والصور الفوتوغرافية بلغت حوالي 7000 صورة أودعـت في مكتبـة جامعة نيوكاسـل Newcastle، أغلبهـا يتعلق بالمظاهـر المختلفة لحياة شـعوب منطقة الشّـرق الأوسـط. وكنتُ قد اطّلعت على قسـم منها فيما يخصّ رحلتها إلى دمشـق، وفيها بالفعل أشياء ثمينة حول حياة المدينة وأعيانها وحكّامها في السّنوات الأخيرة من عهد الحكم العثماني في بلاد الشّام، وصور لآثار قديمة وكتابات بدمشق لم تعد موجودة اليوم.

نُشر في الآونة الأخيرة عن حياة هذه الرّحّالة المثيرة للجدل كتابان مهمّان: «غرترود بل» *Gertrude Bell* تأليف ڤيكتور ونستون (لندن 1978) و«ملكة الصّحراء» *Desert Queen* تأليـف جانيـت والَـك (نيويـورك 1996)، نـالا شـهرة كبيـرة، ممّا أثار شـهيّة

المخـرج البريطاني الشّـهير ريدلي سـكوت Ridley Scott لإخـراج فيلم تاريخي عن حياتها يجري العمل عليه حالياً، ويتراوح اختيار البطلة التي سـتمثّل شـخصية مِس بِل بين آنجلينا جولي ونعومي واطس.

* * *

أمّا هذا العنوان «العامر والغامر» فقد أحببتُ نقله عن علّامة الشّـام المرحوم أحمد وصفـي زكريّـا، الـذي كان ببلاغتـه الرّفيعة ترجـم به العنـوان الأصلي لكتـاب المِس غرتـرود بِل *The Desert And The Sown* عندما أشـار إليها وأشـاد برحلاتها وكتبها في كتابه «عشائر الشّام».

بذلتُ كالعادة جهداً كبيراً في تحرير النّص وضبط أسـماء الأعلام والأماكن بشـكل صحيح، كما رددت الأشعار الفصحى والعاميّة إلى منطوقها الأصلي بدلاً من ترجمتها عن الإنكليزية. وميّزتُ حواشي المؤلفة عن سواها، وكل ما عداها فهو لي. وأرجو أن يكون في عملنا هذا ما يمتع ويفيد.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، 7 فبراير 2012

د. أحمد إيبش

SYRIA

THE DESERT & THE SOWN

BY

GERTRUDE LOWTHIAN BELL

*WITH MANY ILLUSTRATIONS
AND A MAP*



NEW AND CHEAPER EDITION



LONDON: WILLIAM HEINEMANN

«سوريا. العامر والغامر»

نموذج عنوان طبعة قديمة صدرت عام 1919

عن طبعة لندن الأولى بدار وليَم هاينمان 1907



غرترود بِل وتوماس إدوارد لورَنس
في مؤتمر القاهرة 12 مارس 1921



صورة نادرة تمثّل بعض أعضاء مؤتمر القاهرة 12 مارس 1921
وبينهم: سير ونستون تشرشل، غرترود بِل، توماس إدوارد لورَنس



الملك عبد العزيز 2 – سير پيرسي كوكس 3 – غرترود بِل

4 – شيخ المحمّرة 5 – شيخ الكويت

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سَلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في التّركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چِستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمّةَ أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة

والبرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż والچيكيّة ž.

3 - أمّا عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڤوڤل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كِلوقز، قَلف. ومن مظاهر التشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلَنط Galant، كتالوج Catalogue جَندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: (ڠ) تمييزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن بقلم المُسنَد الحِميَري اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللسانيّات التّيمانيّة» تحتمل الإقلاب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم اللّهويّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المفتقرة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسّريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم

شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما في اسم: Guillaume (غيّوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گـ. وفي التّركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشّجريّة، كقولهم: geceler (غِجلار)، Avcı (آوجى)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجريّة أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غِڤير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربيّة لقوا التباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسپان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهويّة (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragon: «آراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) يمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع

الكلمات الأجنبيّة، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرتُجال، بلجاريا، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركيّة bulgur).

4 - ثمّة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أوGervais ، ونظراً لانعدام وجود الكسرة الممالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورحّالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتّاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أربيه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وسنتّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليه، رُنيه، غارنييه، جِرڤيه. والأسماء الإسپانيّة: خوسيه، پيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مَدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسپاني Condé كوندِه، أو Enrique إنريكِه، والألماني Porsche پورشِه، أو Pritzke پريتسكِه، والهولندي Goeje خوْيِّه، والپولوني Tyskie تيسكِه، والإيطالي Simone سيمونِه، أو Michele ميكيلِه.

5 - نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا

كمـا تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسـيّة. فالأصح بالألمانيّة: مدينة لايپتسـيك وليس لايبـزغ، زولنغِن وليس سـولنجن، كولن وليـس كولونيا، ڤِلهِلم وليـس وليَم، ريخارد وليس ريتشـارد. ثم نكتب أميركا وليس أمْريكا، ڤارشـاڤا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليـس بـراغ، بيجينغ وليـس پكين. وفـي الپرتغاليّة الأصح لفظ: كريشـتيانو، كوشـتا، جوزيه، جُواو. ولكن ثمّة أسماءً رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربيّة مثل: برشلونة (وصوابهـا بالقطلانيّة: بارثيلونا)، دون كيشـوت (وصوابه بالقشـتاليّة: دون كيخوتِه)، باريـز أو باريـس (وصوابه بالفرنسـيّة: پاري)، لويس (لوي)، ملـك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دى لوزينيان)، وليَم الصُّوري (غِيّوم)، برج إيڤِل (وصوابه: آيفِل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسيّة يصرّون على لفـظ الكنى الأرمنيّة المنتهية جميعها بلاحقة: ian بلفظ فرنسـي فيـه غُنّة، كما لو كانوا يلفظـون اسـم Evian أو Christian، حتى لم يسـلم من ذلك الاسـم التّركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسـي ابن فرنسـيّ، علماً أنّ ثمّة شـيئاً في التركيّة يسـمّى: Yumuşak Ge أي الجيم الطريّة، تلفظ كمَدّة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آآچ.

6 – حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينيّة: الإيطاليّة والإسـپانيّة والپرتغاليّة والفرنسيّة والرّومانش والرّومانيّة، ما خلا حالة في الپرتغاليّة بآخر الكلمة مع الألف والواو فيقرأ ياءً، مثل: Covilhã كوڤيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسـم الفرنسي Henri هنري بل أُنري، وهو بالإيطاليّة إنريكو، والإسپانيّة إنريكِه. وأيضاً ڤيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7 – وأغـرب الأمثلـة هي الأسـماء العربيّة التي ترد على ألسـنة المسـلمين من غير العرب، فنسـتوردها بصيـغ لفظيّة مختلفة دون انتباه لأصولها العربيّة، كالاسـم التُّركي ميرڤَـت Mervet الـذي ترنّمـت بـه الأسـماع دون إدراك أنّ أصله: مَروَة. أو اسـم فتاة الشاشـة التّركيّة Tuba الـذي يُكتب لدينا بالعربيّة «توبا» على أنّه اسـم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبَى.

وثمّة كنية عريقة في لبنان: جانْبَيْه، يطيب للنّاس أن يلفظوها بلكنة فرنسيّة: -Jean Béy بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتّركيّة: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نّفْس. وكذلك اسم قَبلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتّركيّة: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلّينيّة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سمّيت بها بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أن حرف الشين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأُقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة.

وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش

مقدّمة

السّتّ خاتون - غرترود بِل

«بالنّسبة إلى هؤلاء الذين نشأوا في وضع اجتماعي منمّق، ما أندر لحظات البهجة التي يمكن أن تنتابهم كتلك التي تقف عند عتبة السّفر البرّي». (غرترود بِل في كتابها «العامر والغامر»).

في السّنوات المئة التي سبقت الحرب العالميّة الأولى، لم يكتفِ الأوروبيون باستعمار مناطق كبيرة من العالم، لكنّهم أبدوا أيضاً توقاً ملحّاً للسّفر والاستكشاف. كانوا يسافرون في بعض الأحيان للبحث عن أسواق أو معلومات سياسيّة أو عسكريّة، وأحياناً ليعثروا على خرائب أثريّة وقبائل مفقودة، وأحياناً أخرى وببساطة لمجرّد حماسهم للسّفر في مناطق مجهولة. لقد حازت منطقة الشّرق الأوسط بشكل خاص ولقرون عدّة على مهتمّين ورحّالين أوروبيين، ولكن كان شيئاً مميّزاً أن تنطلق امرأة أوروبية برحلة في جبال وصحارى الشّرق الأوسط دون صحبة رجل أوروبي. إنه أمر مفاجئ بما فيه الكفاية في المجتمع المقيّد للعصر الڤيكتوري والإدواردي المتأخّر في إنكلترا، بأن تبدأ غرترود بِل Gertrude Bell بأيّ حال رحلات مثل هذه. وهو أيضاً أمر غير عادي بشكل كبير، ففي السّنوات الأخيرة كان عليها أن تصبح ذات تأثير كبير في توجيه الحكومة البريطانيّة في سياسة الشّرق الأوسط.

وجدت غرترود بِل في العالم العربي متعة وإثارة هيمنت على حياتها. وقد حازت أيضاً على مكان بين عظماء المستكشفين البريطانيين في الشّرق الأوسط - إلى جانب أسماء مثل ريتشارد بُرتون Richard Burton، وتشارلز داوتي Charles Doughty،

وولفريد سكاون بلَنت Wilfred Scawen Blunt – وذلك بسبب رحلاتها الرّائعة إلى قلب جزيرة العرب. كانت شجاعتها الشخصيّة وقدرتها على الاحتمال أمرين يفوقان كلّ التوقعات، كما كانت لديها قابلية لوصف ما رأت بشكل حرفي واضح. ولقد شاركت هؤلاء الرّحّالين الآخرين بشخصيتها المستقلة التي ظهرت في بعض الأحيان على نحوٍ مدهش.

وُلدت في عام 1868 لعائلة ثريّة صاحبة مصانع في بلدة دُرهام Durham، وكان جدّها لأبيها، سير لوذيان بِل Sir Lowthian Bell، رائداً في مجال تكنولوجيا الحديد والفولاذ، في حين كان والدها سير هيو بِل Sir Hugh Bell، وهو مالك مصنع حديد ومنجم فحم، رجلاً ذا مكانة اجتماعية محلية هامة أيضاً. كان قاضي صلح ثم أصبح ملازماً مسؤولاً لجمعية North Riding of Yorkshire في 1906. كان طوال عمره يسارياً، وترشّح للبرلمان مرتين لكن دون أن ينجح.

تُوفيت ماري Mary والدة غرترود في عام 1871 بعد ولادتها مباشرة، لكن زوجة أبيها السيدة فلورنس بِل Florence Bell تركت تأثيراً عليها كان هو التّالي بعد تأثير والدها. كانت السيدة بِل Bell امرأة ذات قدرة أدبية هامة، وقد كتبت عدّة مسرحيّات مُثلت على مسرح لندن وتعدّ الآن مسرحيّات كلاسيكية لوصف حياة الطبقة العاملة في ميدلزبورو Middlesbrough: «في العمل» *At the Works*، وهي دراسة لبلدة صناعيّة، وتتبع إلى حدّ ما الخط المسرحي لمسرحيّتي هنري مايهيو Henry Mayhew: *London Labour* و *London Poor*.

كانت غرترود كما وصفتها مارغريت تابور Margaret Tabor، إحدى كبريات كتّاب السِّير الذاتيّة: «طفلة الثّروة الموهوبة»، ليس فقط لكونها وُلدت في طبقة اجتماعيّة موسرة، ولكن بسبب أنّ والديها قد لاحظا مواهب طفلتهما الحركيّة الجسديّة الدّائمة وذهنها المتّقد. وبعد بحث مطوّل، قاما بإرسالها في عمر الخامسة عشرة إلى كليّة الملكة Queen's Colledge في لندن لتتابع دراستها الثانويّة، ومن ثمّ، وبإلحاح من أستاذها في مادة التّاريخ، إلى السّيّدة مارغريت هول Margaret Hall

في أوكسفورد (1886–1888)، حيث نالت المرتبة الأولى في اختباراتها النّهائيّة في التّاريخ الحديث، ولقد وصفتها جانيت Janet شقيقة داڤيد جورج هوغارث D. G. Hogarth في ذلك الوقت بأنّها «امتزاج غريب من النّضج والطفولة».

لكن هذه السّيرة الفكريّة المبكّرة، التي كانت مميّزة بشكل واضح لامرأة في ذاك الوقت، لم تكن تعني أنّها نشأت بعيدة عن عائلتها. بل على العكس تماماً، فقد بقيت مرتبطة بوالديها بشدّة طوال حياتها. وعلّقت أختها من أبيها إلزا ريتشموند Elsa Richmond، بقولها: «لقد كان بيتها ووالداها صخوراً في أساسات بنية حياتها، وهذا الاعتماد المحفوظ الذي طلبت تركه بكلّ تفاصيله ولم تلقِ له بالاً، كان بداية غريبة لمهنة أصبحت مليئة بالمغامرة والأصالة».

يمكن لهذا أن يفسّر فقدانها الظاهري للأسى عندما رفض والداها رغبتها بالزّواج في سنّ الثّالثة والعشرين. وفي العام 1892 كانت قد شرعت في رحلتها الأولى إلى الشّرق الأوسط، متجوّلة في بلاد فارس كضيفة لزوج أخت السّيّدة بِل Bell السّيّد فرانك لاسِلز Frank Lascelles، الذي شغل مؤخّراً مهمّة سفير في طهران. كان اعتراض والديها على دبلوماسي شابّ من رتبة وضيعة في الخدمة في ذاك الوقت، هو هنري كادوغان Henry Cadogan. ويبدو أن افتراقهما عن بعضهما وموت كادوغان المفاجئ بعد تسعة أشهر كان أحد الأزمات العاطفيّة الرّئيسيّة الأولى في حياتها.

في السّنوات التي تلت زيارتها إلى إيران، والتي أنتجت خلالها أوّل كتابين لها «سَفَرنامه» *Safar Namah*، صور فارسيّة (1894) وترجمة لكتاب شعر فارسي يُدعى «قصائد من ديوان حافظ» (1897) *Divan of Hafiz*، أصبح السّفر اهتمامها الأساسي. وسمح غنى والديها وإرادتهما بالاستجابة لاهتماماتها بأن تسافر على نحو واسع في رحلتين عالميتين، وكان هذا أيضاً خلال تلك الفترة التي قامت فيها برحلتها الأولى إلى القدس. لكنّ خبرتها في بلاد فارس كانت هي التي أثارت أوّلاً اهتمامها بـ «الشّرق». ولكونها لغويّة بارعة، فقد بدأت بتعلّم اللّغة العربيّة – وعلى ما يبدو دون أيّ هدف محدّد في ذهنها، لكن في الواقع لتحظى بتركيز لاهتمامها ولقدرتها الاستثنائيّة

للعمل. ولقد مارست لغتها العربيّة خلال إقامتها في القدس في 1899 وقامت لاحقاً برحلة قصيرة في أرجاء فلسطين قبل مباشرتها لرحلة في عام 1905 إلى الأراضي السّوريّة والتي هي موضوع كتابنا هذا «العامر والغامر».

في عام 1905، عندما بدأت غرترود بِل رحلاتها، كان الحكم العثماني يدخل عقده الأخير. ولقد حافظت هذه الإمبراطوريّة الآيلة للأفول على سيطرة غير ثابتة على جزئها العربي المتبقّي الأكثر أهمّيّة من إقليم سوريا الأكبر، وهي منطقة حدوديّة في ولايات الأيّام الحاليّة في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والضّفّة الغربيّة المحتلّة وقطاع غزّة. وقد علّقت غرترود في عام 1916 وهي تنظر فيما مضى على سجل القانون العثماني:

«لم تكن هناك أيّ دولة جذبت إلى أنظار العالم مظهراً من قانون رسميّ وحكومة مركزيّة أكثر من الإمبراطوريّة العثمانيّة». بلاد الخيال (أرض الأكاذيب). (حرب العرب، ص 9). كانت القصّة هي أنّ سلطان الحكومة كان يُقبَل في كل مكان من مقاطعات الإمبراطورية، واستطاع موظّفوها جمع الضرائب ورفع قوّاتها المجنّدة. وأظهرت خبرة بِل في جبل الدّروز بشكل قوي ضعف الموظّفين الأتراك الذين أُرسِلوا إلى هناك.

وإذا كان القانون العثماني ضعيفاً في بعض المناطق «المأهولة» فقد وُجد بصعوبة في الصّحاري الشّرقيّة والجنوبيّة، حيث تسيطر أحلاف القبائل البدويّة، مجبرة المسافرين على مفاوضة إدارة آمنة من إقليم بدوي إلى التّالي. ولقد جلب ضغط من القوى العظمى في أواسط القرن التّاسع عشر بعض الإصلاحات الإداريّة ودرجة أعظم من الأمن للمسافرين في سوريا. ويمكن أن تكون غرترود بِل قد لاقت صعوبة أكبر لو أنّها قامت برحلتها قبل ثلاثين سنة أو أربعين. هذه السّهولة في السّفر بالإضافة إلى وصول خدمات السّفن النّظاميّة إلى المرافئ المتوسّطية الشّرقيّة جلب أيضاً تدفّقاً من السّيّاح والحجّاج الأوروبيين الذين اندفعوا إلى القدس والمدن السّاحليّة السورية. كانت غرترود تريد أن ترحل عن طريق مألوفة عندما عبرت نهر الأردن لزيارة الصّحاري والجبال في الدّاخل. وبقيت دمشق «عاصمة الصّحراء» كما وصفتها، خالية

من الحجّاج والسّيّاح نسبيّاً، بينما في جبل الدّروز «كان هناك بعض الاهتمام يحيط بي، كوني المرأة الأجنبيّة الأولى التي زارت تلك الأجزاء على الإطلاق». (رسائل ص 63).

لكن النّفوذ الأوروبي السّياسي والاقتصادي للمنطقة كان هامّاً عند بداية القرن. وحُكِم الأجانب أيضاً من قِبل دستور شرعي منفصل. وقد بدأت بعض الأعراق المختلفة والجماعات الدّينية في سوريا بالظهور، والتي عمل العثمانيّون طويلاً على تحريضها بعضها ضدّ بعض، وبدؤوا يتطلّعون إلى القوى الأجنبيّة المتعدّدة للحماية، أو للمنافع التجاريّة، في ظلّ سلطة عثمانيّة متهالكة آخذة بالزّوال. وعلى سبيل المثال، فقد تطلّع الدّروز إلى البريطانيين من أجل الدّعم، وهو الشّيء الذي يفسر على الأقلّ التّرحيب الحارّ التي تلقّته غرترود بِل منهم. وقد بدأت في ذلك الوقت الهجرة من سوريا إلى القارّة الأميركيّة بشكل خاصّ.

وفي كتاب «العامر والغامر» تبيّن غرترود بِل وضعها الأكثر حيويّة وخبراتها في التّرحال خارج رسائلها المعروفة، والتي صدرت لأوّل مرّة من قِبل زوجة أبيها السّيّدة بِل Bell في عام 1927، مع اختيار إضافي يظهر في كتاب إليزابِث بورغوين Elizabeth Burgoyne: «غرترود بِل من خلال أوراقها الشّخصيّة» *Gertrude Bell- From her Personal Papers* الذي صدرت في عام 1985. كانت كاتبة رسائل خصبة الإنتاج، وظهر هذا في الأوصاف المفصّلة والطّويلة للأحداث، والشّخصيّات والحوارات التي كتبتها بشكل أساسي لعائلتها وصديقها المقرّب سير ڤالنتاين تشيرول Sir Valentine Chirol والتي تُخبر (أي الرّسائل) عن تجاربها بشكل مفعم بالحيويّة. ويعتمد كتاب «العامر والغامر» في الحقيقة إلى حدّ بعيد على أوصاف لرحلتها السّوريّة المقدَّمة في رسائلها بالإضافة لتفصيل أكثر على نحو فعلي لأبحاثها الأثريّة.

تحتفظ كتابتها بالحداثة والحماسة لاكتشاف جديد. ولقد امتزج فضولها واهتمامها النّهم بالنّاس الآخرين وطرق حياتهم بإصرار جريء لدورها في الحكاية حاملة بعض الشّبه لكتابة فريا ستارك Freya Stark، إحدى النّساء البريطانيّات الأقلّ شهرة التي

تبعتها في رحلاتها إلى أجزاء من العالم العربي غير المشهورة. ويحول اهتمام غرترود بل بالعالم من حولها دون وقوع كتاباتها في الانحراف عن مسارها، أو اتّسامها بدوافع نموذجيّة كروايات توماس إدوارد لورنس T. E. Lawrence لرحلة الشّرق الأوسط، أو نثر كطريقة كتابة فيلبي Philby في التّعبير المجازي، أو التّنصيب التّذكاري الرّائع لكتاب رحلات في شمالي جزيرة العرب *Arabia Deserta* لتشارلز داوتي Charles Doughty. وهي تصف متاعب الطّريق والحرّ والغبار والأمطار مع الرطوبة بحسّ فكاهي ومتعة مع القليل من الجِدَّة وحتّى المازوشيّة (التّلذّذ بالاضطهاد)، لتكون مكتشفة في داوتي Doughty أو لورنس Lawrence.

هذا ولقد حازت أيضاً على مهارة جديرة بالاعتبار كراوية للأحاديث التي خاضتها والشّخصيّات التي قابلتها، هذا الشّيء هو الذي جعل حتّى تقاريرها الفكريّة الرّسميّة اللاّحقة مقروءة على نحو رفيع. ولقد سمحت لها كفاءتها - المتزايدة باللّغة العربيّة من خلال رحلاتها في سوريا - باكتشاف وجهات النّظر لهؤلاء الذين سافروا معها: خادماها ميخائيل وفتّوح؛ وأفراد الظابطيّة zaptiehs، والجنود الأتراك الذين أُرسلوا لمرافقتها، والكثير من النّاس الذين بقيت معهم. وكان لديها أيضاً مراجعها المفضّلة: على سبيل المثال: الدّروز الذين أكبرتهم بسبب مقدراتهم العسكريّة، وأسلوبهم المباشر في الكلام وحسن ضيافتهم؛ والبدو الذين أحبّتهم - كعدّة مسافرين أوروبيين - عموماً أكثر بكثير من أهل المدن والقرويين.

في البداية يبدو أمراً مفاجئاً أنها كرست اهتماماً قليلاً جدّاً للمرأة في الجماعات التي تقابلها، وهنّ (أي النّساء) في الخلفيّة، منكبّات على حاجاتها، ولكنهنّ يوصفن بالتّفصيل فقط عندما تأتي امرأة على وجه التّخصيص لتتكلّم معها، ولكنّها أظهرت اهتماماً قليلا بقضايا تؤثّر بالنّساء في بريطانيا، لذلك كان موقفها في الشّرق الأوسط مختلفاً قليلاً، وكان هذا التّصرّف مدعوماً من قبل النّساء اللّواتي استضفنها والتي استغلّت حسن ضيافتهنّ، وعلى الرّغم من كونها امرأة أوروبيّة منفردة وحيدة لم تقم بأيّة محاولة لإخفاء جنسها، فقد استُقبلت كضيف «ذكر» تأكل وتتكلّم مع الرّجال في

منـزل الضّيوف أو في بيت القهوة أكثر من إمضاء الوقت في شـقق النّسـاء أو خيامهن، وفي معظم المجتمعات التي زارتها كانت قوانين الفصل بين الجنسـين في الأمكنة في الأسرة صارمة جدّاً. وكشخص كان اهتمامه الرّئيسي في السّياسات والشّؤون العالميّة، كان صعباً بالنّسبة لها أن تتمنّى أشياء مختلفة، طالما أنّ تلك الأمور كانت تقريباً ميداناً للرّجال على وجه الحصر.

وبالطبع فإنّ الصّعوبات التي واجهتها كانت بشـكل خـاص عندما تنتقل من حماية قبيلـة أو جماعـة لأخرى. ولكن فكرة غرترود كانت أنّه لو أنّ الرّحّالة الأوروبي يرغب بقبـول واحترام المبادئ السّـلوكيّة والعـادات التي يقابلها ولا يحـاول أن يقلّد اللّباس المحلّي أو السّـلوك فإنّ كلّ شيء سـيكون جيّداً، وتضيف غرترود أنّه، بالنّسبة للمرأة، فـإنّ هـذه القاعدة هي إحدى القوانين الأكثر أهمّيّة، نظراً لأنّ المرأة لا تسـتطيع أبداً أن تخفي نفسـها بشـكل فعليّ. «وينبغي أن تعرف بأنّها تأتي إلى قبيلة عظيمة وشريفة تُعدّ عاداتها رفيعة، وتعتبر هذه الشّهرة أفضل طريقة للتّعريف عنها».

لقد اعتُبرت رحلة غرترود بِل في عام 1905 شيئاً من الحدّ الفاصل في ذلك الوقت، وسـيطر الاهتمام بالسّفر وبالشّرق الأوسـط على حياتها. ولقد قادها اهتمامها بالآثار، كما يتضح في كتاب «العامر والغامر»، إلى عدّة بعثات في سوريا وآسيا الصّغرى، وفي كتابـي «أديرة طور عَبدين» (1910) *Tur Abdin* و«قصر ومسـجد الأخيضِر» (1910) *Ukhaidir*، بالإضافة إلى كتاب سَـفرٍ آخر هو «من مُراد إلى مُراد» (1911) *Amurath to Amurath*. لكـن، وكما أذعنت لاحقاً، فلم يكـن لديها التّدريب ولا الصّبر للبحث الدّقيـق لعالِم الآثار الحقيقي، ولقد كان الشّـيء الأكثـر أهمّيّة هو تصميمها الذي صيغ خلال رحلتها السّـوريّة في عام 1905، لاكتشـاف صحاري المناطق الدّاخليّة لسـوريا والعـراق وجزيرة العرب، وقامـت برحلة كبيرة عبر الصّحراء السّـوريّة إلى العراق في عامـي (1910-1911)، وشـرعت فـي عامـي (1913-1914)، فيمـا يمكـن أن يُعتبر إنجازهـا الأكثـر أهمّيّـة في الاستكشـاف، بالرّحلة إلـى حائـل (Hail)، جزيرة العرب المركزيّة، مقرّ سـلالة آل الرّشـيد الحاكمـة. ولو أنّها في رحلاتها السّـوريّة لم تر عائقاً

شخصياً في كونها امرأة، فإنّ الصّعوبات لبعثة حائل، الجسديّة والسّياسيّة على حدّ سواء، أجبرتها على الاعتراف بأنّها ربّما بلغت أقصى الحدود التي كانت ممكنة بالنّسبة لها في مجال الاستكشاف، ولقد دوّنت ذلك في مذكّراتها:

هناك طريقتان لسفر مريح في جزيرة العرب. الأوّل طريق صحراء جزيرة العرب، بأن تعيش مع النّاس، وأن تعيش مثلهم، لأشهر وسنوات. وبذلك يمكنك أن تتعلّم بعض الأشياء، كما فعل داوتي Doughty، مع أنك قد لا تكون قادراً على قول ذلك مرّة أخرى كما فعل هو. ومن الواضح أنّه لا يمكنني سلوك ذلك الطّريق، لأنّ حقيقة كوني امرأة تمنعني عنه. والآخر هو طريق ليتشمان Leachman، أن تركب بخفّة عبر البلد وفي يدك بوصلتك للاستكشاف، وليس لأيّ شيء آخر، ومن الممكن أن أكون قادرة على فعل ذلك في مدّة محدّدة من الزّمن ولكنّي لست متأكّدة، وعلى كلّ فليس هذا هو ما أقوم به الآن. (Burgoyne I, pp.296-7).

وبالنّسبة لغرترود بِل، فقد كانت لهذه الرّحلة الأخيرة نتائج مهمّة جداً، ووفقاً للمستعرب والرّحّالة هاري سنت جون فيلبي Harry St. J. Philby، فقد كانت هناك صلة مباشرة بين رحلة حائل Hail وبين عملها اللاحق (بعد فترة فاصلة وجيزة قامت بأعمال إغاثة بارزة في فرنسا زمن الحرب) كمراسلة لمكتب البَصرة Basra وهو مكتب عربي مقرّه القاهرة. لقد كان هذا المكتب عبارة عن فريق من «الخبراء العرب» - تأسّس في عام (1914-1915) - لتوجيه النّصح لمكتب الخارجيّة والمخابرات العسكريّة عن أحسن الطّرق لاستثمار استياء العرب من الأتراك، والذين هم الآن أعداء لبريطانيا. قال فيلبي Philby بأن رحلة حائل «كانت عملاً مهماً لاستكشاف خطير، وكنتيجة مباشرة لذلك حازت بعد سنتين على وظيفة في قسم دائرة الاستخبارات العسكريّة في البَصرة للمساعدة في المحافظة على توجّه السّياسات العربيّة المركزيّة خلال الحرب العظمى». كتب فيلبي H. St. J. Philby تقديراً لغرترود بِل في عام 1945، (نسخة آلة كاتبة في أوراق فيلبي، كلّيّة أنطوني Antony أوكسفورد).

خلال هذه المرحلة الأخيرة من مهنتها، أصبحت غرترود بِل مضطربة بشدّة في

صيغة السّياسة البريطانيّة تجاه العرب. كانت السّياسات الاستعماريّة، حتّى أكثر من السّفر، تستبعد النّساء بشكل طبيعي، ولكن بالاعتماد على قوّة خبرتها وعملها خلال الحرب فقد أُعطيت مركز السّكرتير الشّرقي للمدير المدني للعراق في عام 1919، وهو مركز شبه رسمي براتب ضئيل. وأصبحت متورّطة إلى حدّ بعيد في التحرّكات البريطانيّة الهادفة إلى وضع ملك عربي موالٍ على عرش العراق، تستطيع بريطانيا من خلاله أن تحكم بشكل غير مباشر تحت مسمّيات من (عصبة انتداب الأمم). وكانت غرترود بِل في ذلك الوقت قد لُقّبت من قبل البعض، ولكن بشيء من المكر: «ملكة العراق غير المتوّجة»، بسبب تأثيرها السّرّي على الملك الجديد فيصل، خلال السّنة الأولى من حكمه (1921-1922).

نادراً ما تفسَّر دوافع غرترود بِل في كلّ مرحلة من حياتها في التّرحال والمغامرة على نحو مباشر في كتاباتها. ولقد أصبح السّفر بسرعة أسلوب حياة بالنّسبة لها، وقد مكّنها دعم عائلتها المالي من جعلها غير محتاجة لكسب الرزق. وبالطّبع، ومن حين لآخر، فإنّ السّفر وعيش حياة في ثقافة مغايرة كان يمثّل هروباً من المشاكل الشخصيّة ومن الحزن.

على الرّغم من عدم ذكر ذلك إلا بشكل نادر، فإنّ حزنها بعد موت هنري كادوغان Henry Cadogan ربّما شجّعها لاستغلال كلّ فرصة لمغامرة جديدة، وأوضح مثال على ذلك رحلتها إلى حائل Hail، وانهماكها الشّديد في الحياة، وشؤون العراق منذ عام 1916 وما بعد. كانت على الأقلّ طرقاً لمواجهة الصّدمة العاطفيّة في حياتها - قصّة حبّها مع الموظّف البريطاني والرّحّالة، الكابتن تشارلز داوتي وايلي Captain Charles Doughty Wylie (ابن أخ تشارلز داوتي Charles Doughty) التي بدأت في عام 1912، واستمرّت حتّى وفاته في غاليبولي Gallepoli في عام 1915، كان داوتي وايلي Doughty Wylie متزوّجاً وغير مستعدّ لترك زوجته، بالإضافة للسّرّيّة التّامّة التي تحتاجها مواقف كهذه، فقد سبّب لغرترود بِل توتّراً شديداً ومعاناة، تبدّت بشكل واضح في يوميّاتها التي كتبتها لوايلي Wylie خلال رحلتها إلى حائل (نُشرت

في كتاب بورغوين E. Burgoyne «غرترود بِل – من خلال أوراقها الشّخصيّة»، ج 1، ص 284-313). وبعد موته، فإنّ رغبتها الضّعيفة في العودة إلى إنكلترا لأيّ شيء أكثر من زيارات قصيرة لرؤية عائلتها، كانت قد تلاشت تقريباً.

ساعد أيضاً الإحساس المتزايد بالابتعاد عن العيش في لندن على تفسير طريقة حياتها التي اتخذتها حياتها المهنيّة. ومنذ الأيّام الأولى لزيارتها لبلاد فارس تخلّلها حسّ من الإثارة والاكتشاف، ومن حاجة أساسيّة ضمنيّة، لإيجاد مخرج لطاقتها الهائلة ومواهبها الجديرة بالاعتبار، وفي إنكلترا، لا تتاح لها إلا مخارج قليلة مثل هذه. كانت حياتها هناك قد قيّدت بشكل كبير بالدّائرة الاجتماعيّة لقاعات الاستقبال، الذي سرعان ما أصبحت معها نافذة الصّبر. وعلى الرّغم من انهماك والديها بالسّياسات البريطانيّة، والعمل الخيري المحلّي، فإنّ غرترود بِل نفسها أظهرت اهتماماً عمليّاً قليلاً بتلك القضايا.

كانت في الحقيقة، كنتيجة لرحلاتها، قادرة على تحقيق نوع من التأثير السياسي تمّ تطبيقه بشكل نادر من قِبل نساء من خلال المراحل التّقليديّة للسّياسات البريطانيّة.

ساعدها الوضع غير السّوي للشّرق الأوسط على وضع السّياسات الاستعماريّة في السّنوات التي سبقت الحرب العالميّة الأولى مباشرةً. ولم يكن هناك فقط نزاعات بين الحكومة الأجنبية والحكومة الهنديّة حول كيفيّة تنفيذ السّياسة، ولقد شعر موظّفو الحكومة البريطانيّة بأنّ لدى الحكومة فهماً ضئيلاً بأحداث المنطقة. إن طبيعة هذه العلاقات قد جعلت صنّاع السّياسة يلتفتون إلى النّصيحة من هؤلاء الذين أعطاهم عملهم أو أسفارهم معرفة بالظّروف المحلّيّة في المناطق المفهومة على نحو ضئيل ضيّق مثل سوريا وجزيرة العرب والعراق. بعض هؤلاء الذين تشملهم هذه الفئة هو العالِم دافيد جورج هوغارث D. G. Hogarth الذي ترأس «المكتب العربي» Arab Bureau، والذي كان عنصراً مؤثّراً بشكل نسبي في دوائر صنع القرار، ولكن الآخرين – بِل نفسها وتوماس إدوارد لورنس T. E. Lawrence، وجورج لويد George Lloyd، وأوبري هربرت Aubrey Herbert، وهاري سنت جون فيلبي H. St. J.

Philby، ومارك سايكس Mark Sykes – كانوا شباناً نسبيّاً، ومع ذلك فإنّ ارتباطهم العائلي لم يؤمِّن لهم منزلة عالية في الحكومة أو في القوّات المسلّحة وربّما كان فقط في هذه الظّروف الخاصّة، مع الضّرورات المُلِحَّة للحرب، هو ما جعل من الممكن لامرأة أن تُقبل بسهولة كمستشار سياسي في شؤون إمبراطوريّة.

لقد زكّاها اللّورد كرومر، الذي كان صديقاً شخصيّاً لها، في رسالة إلى اللورد بلفور A. J. Balfour (ديسمبر 1915)، ولكنّه أضاف ملاحظة بتحفّظ على حكمها السّياسي الأوسع (والقبول الحسن لامرأة ذكيّة جدّاً لا يعني بالضّرورة أن تُزكّى للعمل في دوائر القرار الذّكوريّة):

«إنّها امرأة ذكيّة جدّاً، ولها تأثير غير مشكوك به في كلّ شيء يتعلّق بالعرب وجزيرة العرب وبلاد ما بين النّهرين [العراق]، ولا أعني بهذه الشّهادة أن أقول بأنّ حكمها على القضايا العامّة لسياسات الشّرق الأدنى موثوق تماماً». (PRO/FO 633/24).

لم تكن غرترود نفسها غافلة عن كونها غالباً ما تُعد متجاوزة لميادين الرّجال. ولقد علّقت على استقبال التّقرير الحكومي الرّسمي الذي كانت قد كتبته في عام 1921 عن الحكومة المدنيّة للعراق: «إنّ الخطّ العامّ المأخوذ من قِبل الصّحافة يبدو أنّه من الملفت للنّظر أن يتمكّن كلب من الوقوف على أقدامه الخلفيّة – أعني أن تقوم امرأة بكتابة تقرير حكومي رسمي. وآمل أن يكفّوا عن التّعجّب وينتبهوا للتّقرير نفسه». .(Burgoyne Vol II, p. 198)

كان وضعها الاستشاري شّبه الرسمي في العراق وتعّهدها للصّداقات مع العراقيين قد جعلها موضع شك واستياء بين بعض الموظّفين الرّسميين، وليس فقط مديرها، مدير التّمثيل الوطني ويلسون A. T. Wilson (1919-1920)، الذي تجادلت معه في أمور شخصيّة وسياسيّة. وقد سعى ليطلب (على نحو غير ناجح) نقلها بسبب ما اعتبره مراوغة وخداع من وراء ظهره.

كانت آراء بعض الموظّفين البريطانيين الشّبّان بها يظهر جليّاً في رسالة كُتبت في

1924 إلى فيلبي Philby من قِبل أليك هولت Alec Holt، الموظّف في إدارة السّكك الحديديّة:

لا أعتقد أنّ الملك المفروض [فيصل] هو في مأمن الآن ممّا كان عليه في (يونيو 1921)... ولكن بالتّأكيد إن «الملكة غير المتوّجة» لم تعد هي الوحيدة في هذه البلاد.

وعلى الرّغم من ذلك فإنّ غرترود كانت على الأرجح عرضة للتّحيّز العلني الذّكوري بشكل أقلّ من معظم محاولات النّساء في ذلك الوقت لممارسة عمل أو مهنة عامة في بريطانيا. كان موقفها الخاصّ أحد أكثر أنواع الثّقة بالنّفس الجديرة بالاعتبار، مؤكّداً بأنّها كانت مساوية، فكرياً، لأغلب الرّجال الذين عرفتهم.

لكن بقدر ما كان لديها نصحاء مخلصون، فقد كانوا جميعهم رجالاً: أوّلاً، وفي المقام الأوّل، والدها الذي غالباً ما كانت تأخذ منه النصيحة؛ وداڤيد جورج هوغارث D. G. Hogarth في المكتب العربي، والأكثر أهمّيّة سير پرسي كوكس Sir Percy Cox الذي خلف ويلسون A. T. wilson في عام 1920 كمدير مدني في العراق وأصبح لاحقاً مندوباً سامياً. ولقد احترمت بشكل كبير أسلوبه التحرّري الاستعماري والعنيف، والذي في بعض الأحيان كان كأسلوب مكياڤيللي في السّياسة. ولم تعانِ من سذّج، ذكوراً وإناثاً، لحسن الحظّ، ولكن على الرّغم من أنّه كان لديها أصدقاء نسوة وعلاقات مع من اعتمدت عليهم عاطفيّاً، فقد كانت ترجع إلى الرجال لتحفيزها فكريّاً. لقد كانت بالتّأكيد متكبّرة فكريّاً، وأوصافها للنّساء، وبشكل خاصّ لزوجات الزّملاء، ساخرة غالباً أو وقحة.

جعلتها حريّتها الخاصّة المطلقة ونجاحها تتعاطف بشكل قليل مع القيود التي كانت معظم النّساء البريطانيات ترزح تحتها، وفي الحقيقة فقد صوّتت ضدّ عدم اقتراع النّساء، وأمضت عدّة فصولَ صيف في لندن منظّمةً حملة مع عصبة معارضة التّصويت المنشأة حديثاً ضدّ الحركة المنادية بمنح المرأة حقّ الاقتراع الفعّالة على نحو متزايد. كانت العصبة قد أنشئت في العام 1908 من قِبل عدّة نساء غنيّات، بما فيهن ليدي جرزي Lady Jersey ومسز همفري وارد Mrs Humphry Ward بالإضافة إلى

القنصلين الإمبراطوريين العظيمين السّابقين اللورد كرومَر Lord Cromer واللورد كُرزون Lord Curzon اللّذين عرفتهما غرترود وأعجبت بهما، وقد وجّها دعمهما للعُصبة.

لقد كتبت القليل من آرائها عن هذا الموضوع، ولكن كان موقفها، بحسب الظاهر، مفاجئاً لامرأة مع آرائها التحرّريّة نسبيّاً وعدم احتمال التعصّب الأعمى، وربّما كانت مشاعرها الخاصّة من الثّقة قد قادتها لاعتبار بأنّه باستطاعة الآخرين عمل الشّيء ذاته كما فعلت فيما لو حاولوا فقط بجهد كاف. في الوقت نفسه شاركت العصبة أيضاً في دور بريطانيا الاستعماري، والتي ناقش أعضاؤها بأنّ «مسؤوليّات» الإمبراطوريّة جعلتها غير ملائمة للنّساء ليكون لهنّ تأثير مباشر على بنية السّلطة السّياسيّة في بريطانيا. ومهما كانت سخرية هذا النّقاش قابلة للظهور الآن، فإنّ حقبة الملك إدوارد كانت مع ذلك الذّروة من الوعي الاستعماري، الذي شاركت فيه غرترود بِل إلى أقصى حد.

وفي الحقيقة فإنّ غرترود بِل قد شاركت في العديد من الأفكار والمواقف التي ميّزت الرّحّالين الآخرين من الحقبتين الڤيكتوريّة والإدواردية المتأخّرة، وضمّت الشّعور بالإثارة والمغامرة التي دفعت الكثير منهم للسّفر، حتّى تحت الظّروف الأكثر صعوبة كان شعوراً بالحرّيّة والقوّة. كانت الحرّيّة التي خبروها من ضرورات الطّبقة الاجتماعيّة التي انتموا إليها. ويمكن لغرترود بِل أن تضع تعليقها عند بداية كتاب «العامر والغامر» حول متعة «السّفر البرّي» في سوريا برغم إدراكها بأنّ البلد كانت تضمّ وضعاً اجتماعيّاً مركّباً. ويتجلى مفهوم الحرّيّة بأنّها في الحقيقة لم تكن مقيّدة بهذا الوضع، ما عد متطلّبات الحصافة والكياسة.

يُعتقد بأنّ الرّحّالين الأوروبيين قد وجدوا أنّه من الأسهل الفهم والتّكيّف مع السّلطات من العالم العربي، وبشكل خاص أولئك من قبائل الصّحراء، أكثر من التّكيّف مع النّماذج الاجتماعيّة المتغيّرة في الوطن. وعلى سبيل المثال، يعلّق توماس أسد Thomas Assad في كتابه *Three Victorian Travellers* «ثلاثة رحّالين من العهد الڤيكتوري» بأنّ ولفريد سكاون بلَنت Wilfred Scawen Blunt، وهو ذاته ينتمي إلى

طبقة أعيان الرّيف، «قد شاهد في الحياة القبليّة العربيّة النّوع من البنية الاجتماعيّة الذي راق له». (ص 135) وقد فُتِنت غرترود بِل أيضاً بالتّسلسل الهرمي للمجتمع القبلي مدركة على نحو مرهف للمنزلة سواءٌ كانت في صحراء أو قرية أو ريف.

مع ذلك، فإنّ الأماكن العظيمة الفارغة من صحراء جزيرة العرب كانت تشكّل فتنة ساحرة لمعظم هؤلاء الرّحّالين؛ فقد كانت تُعد ذروة التّحرّر من تجاربهم الخاصّة. عند جلوس غرترود بِل على ضوء نار المخيّم تشرب القهوة مع مجموعة من البدو في هضاب الأردن مستمعة لحديثهم، فإنّ إثارتها كانت جدّ واضحة: «وهكذا فقد استمرّت القصّة خلال المراحل المألوفة من العداء الدّموي وتحميل الجِمال، وإشاعات الصّحراء ـ وكدت أبكي من متعة الاستماع لها مرّة أخرى». («العامر والغامر»، ص 15) وأيضاً، حتّى بالنّسبة للبدو أنفسهم، ليس هناك وجود سحري كهذا. «لا يتكلّم العرب عن الصّحراء أو البرّيّة كما نفعل نحن. لماذا يتوجّب عليهم ذلك؟ بالنّسبة لهم فهي ليست صحراء ولا برّيّة، ولكن أرض يعلمون جميع تفاصيلها، الوطن الأم والذي يحتوي أصغر محصول على استخدام مناسب لحاجاتهم». (المصدر ذاته، ص 60) ولكنها، مثل العديد من معاصريها، كانت مدركة بأنّ التّأثير المتنامي للغرب في العالم العربي، والتّغيّر الدّاخلي، يمكن أن يدمّر تدريجيّاً الطّريقة البدويّة لحياة كانت من أشدّ المعجبين بها. وفي رسالة مكتوبة خلال رحلتها في عام 1905 تعلّق في جملة معترضة: «بعد زمن طويل، لن يبقى هناك بدو في جزيرة العرب - ولكن هذا الزّمن ما يزال بعيداً وهو ما يجعلني سعيدة». انظر:
Letters, ed, Lady Bell, p. 174.

كان التّاريخ مصدراً آخر للرّومانسيّة والفرار للغربي في الشّرق، وعلى سبيل المثال فقد «التمس داوتي Doughty في الشّرق جذور النّصرانيّة والبشريّة» (Assad, p. 134)؛ وتأخذ بِل كملحدة قديمة، نظرة متعصّبة إلى حدّ ما لثقافة العرب والإسلام. وبالنّسبة لها فإنّ الإثارة تكمن في آثار الثّقافات الغابرة التي تفرّقت في كلّ مكان من سوريا والعراق. وعن العراق كتبت:

«لقـد كتبتُ عـن السّياسـات والتّجـارة، عن البواخـر ووسـائل التّنقـل، ولكنّي لـم أتلفّـظ الكلمـة التي تعبّر حقيقة عن العراق؛ إنّها الرّومانسـيّة. في أيّ مكان تبحث عنها ستجدها، في النّهرين التّوأمين العظيمين، المسمّيين على نحو متألّق، والسّهول البابليّة الهائلـة، التي هي الآن صحـراء، والتي كانت ذات مرّة حديقة العالـم. تمتدّ القصّة إلى الـوراء فـي الأعماق المظلمة من الزّمن - كلّ شـيء فيهم يضجّ بالرّومانسـيّة». (حرب العرب، نسخة عن مخطوطة كُتبت خلال الحرب العالميّة الأولى).

ولكن هذه المشـاعر في الرّومانسـيّة والحرّيّة نادراً ما كانـت مختلطة باللّطف. ولـم تغفـل غرترود بِـل ولا زملاؤهـا الرّحّالون عن مقدار القـوّة والتّأثيـر لثقافة حضارتهم الخاصّـة، أو مـن وجهة نظرهـم، لتفوّقهـا الأساسـي. إنّ قوّتهم كأوروبييـن كانت في القدرة على التّحرّك بحرّيّة والحكم بحرّيّة على ثقافة الآخرين. وبطرق متنوّعة تشرّبوا نظرة «المستشرق» الشّائعة في وقتها بأنّ الشّرق من الممكن الحكم عليه من قِبل معايير جوهريّة تُعدّ غير مقبولة في تقييم ثقافة غربيّة.

لـم تُطبّق هـذه النّظريّة على العلماء والرّحّالين فقط في القرن التّاسـع عشـر، ولكن على هؤلاء الذين أصبحوا منهمكين بشدّة في السّياسات الاستعماريّة للحرب العالميّة الأولى، كما فعلت غرترود بِل. ويلخّص إدوارد سعيد أفكارهم على نحو ملائم:

لقد شـكّلوا «عُصبة» كما سـمّاها لورنـس ذات مرّة – وقُيّدوا معـاً ضمن انطباعات متناقضة وتشـابهات شخصيّة. شـخصيّاتٌ عظيمة، تعاطفٌ وتماثلٌ بديهيٌّ مع الشّرق، شـعورٌ متحفّظٌ على نحو غيور للمهمّة الشّـخصيّة في الشّـرق، غرابةٌ مصقولة ورفضٌ حاسم للشّرق. وبالنّسبة لهم جميعاً فقد كان الشّرق تجربتهم الشّخصيّة المباشرة عنه. ("الاستشراق، ص 224).

تخلـط كتابات غرترود بِل المبكرة بين ملاحظـة قريبة للأفراد والتّعليق على آرائهم وبيـن تعميمـات شـاملة حول «العـرب» و«الشّـرقيين» و«الشّـرق» مشـتركين في هذا العصـر. وهكذا فقـد كانت قادرة على تقديـم موضوعها في «العامـر والغامر» مع هذا التّعليق: «إنّ الشّـرقي بمثابة طفل كبير جدّاً، فهو غير مطّلع على كثير من فروع المعرفة

التـي أصبحنـا نعتبرها ضـرورة أوّليّة. وعلـى نحو متكـرّر، لكن ليس دائمـاً، فإنّ عقله مشغول قليلاً بالحاجة لنيلها، وهو نادراً ما يقلق نفسه بأيّة حال بما ندعوه منفعة عمليّة» (المقدمـة، ص ix). تتبع هذه نظرة واسـعة بأنّ العصر الذّهبي للحضارات في الشّـرق كان منصرماً منذ عهد بعيد، ولقد غرقت الآن على نحو نهائي في الانحطاط.

في الوقت نفسـه، كانت بِل مدركة دوماً لقوّة ونشـاط بريطانيا، التي اعتبرتها أنّها يمكن أن تقدر بشكل أفضل على إنقاذ عالم العرب من السُّبات والاستبداد العثماني. ومصر التي حُكمت من قِبل بريطانيا منذ عام 1882، كانت بالنّسبة لها مثالاً كيف ينبغي للأشياء أن تتم. وتعلّق في رسالة من عام 1905: «إن مصر نوعٌ من أرض موعودة، ليس لديك أدنى فكرة ما هو الانطباع الذي صنعته حكومتنا هناك على العقل الشّرقي». (رسائل، ص 158).

وعلى غرار اللورد كرومَر Lord Cromer في مصر، كانت مزدرية لتلك القوميات العربية التي طالبت بالاسـتقلال أكثر من التّبديل من سـيّد أعلى لآخر. ومثل Cromer أيضاً، كانت ميّالـة لاعتبار أشـخاص كهؤلاء «زعمـاء الدّهماء والمهيّجين». ومنـذ الوقت الذي أخذت فيـه غرترود بِل دوراً رسـميّاً في العراق خلال الحـرب العالميّة الأولى، أصبحت تقديراتها الشّـخصيّة العنيفة (اللاذعة) للعـرب مُغرضة أكثر وأكثر بهدف إلصـاق التّصنيفات بهم كـ «معتدلين» أو «متطرّفين»، أو «مؤيّدين لبريطانيا» أو «مناهضين لبريطانيا». ولكن، وبسـبب أنّهـا ومـن دون شـكّ كان لديها أصدقاء عرب شـعرت معهـم برباط وثيق وبشـكل خاصّ بيـن الوجهـاء من بغـداد وبين القبائـل من الصّحـراء المحيطة، فقد كان لديهـا مثل لورنس Lawrence وفيلبي Philby في أسـلوبيهما المختلفين، فلم تستطع دعم الإمبريالية الفاشيّة قديمة الطراز في النظام الهندي، كما مُثلت من قِبل رئيسها الأوّل في العراق ويلسون A. T. Wilson. وقـد أخـذت الفكرة بأنّ التّأثير البريطاني يمكن أن يكـون أكثر فعاليّة وأقلّ كلفة، فيما لو استُخدم بشكل غير مباشر. نقد كان هذا الاعتبار هو الذي حثّها لدعم تنصيب الأمير فيصل الهاشمي في العراق كملك، بعد أن كان قد أُجبر على الخروج من دمشق على أيدي الفرنسيين، مع أنّها كانت قد عارضت الفكرة أصلاً.

ولكـن من وجهة نظـر القوميّات الأكثـر تطرّفاً، كانـت السّياسـة الإمبرياليّة للإقناع

والدّسائس والتّأثير من وراء الكواليس والتي تمثّلت من قِبل غرترود بِل وسير پرسي كوكس Sir Percy Cox لم يكن هناك أكثر قبولاً من أسلحة ومراسيم A. T. Wilson. والتّوصيف التّالي لغرترود بِل في أيّامها الأخيرة في العراق من قِبل الكاتب اللبناني «أمين الرّيحاني» يقترح إثارة الشّكوك حول دورها في العراق، وأيضاً مفاجئة للرّيحاني في أن يجد امرأة بمثل تلك المقدرة:

يسمّيها العراقيّون خاتون، وهي سيّدة القصر التي تُبقي على عين وأذن مفتوحة لمصلحة الدّولة. لقد وجدتُ الآنسة بِل قد حازت على فارسين مخلصين آخرين - لسانها وعقلها - والشّعور في كونها كأنّها في منزلها عندما تكون في بغداد. إنّ شكلها إنكليزي تماماً - طويلة ونحيلة؛ ووجهها أرستقراطي - طويل وحاد إلى حدّ ما، وشعرها الفضي غير متنافر مع أناقتها ورقّتها.

بشكل عام... فهي تسيطر على الحوار في يدها. وهي تتكلّم العربيّة من دون لكنة تقريباً، مازجة إيّاها غالباً مع إنكليزيّتها وتؤكّدها بجزم مع إيماءات لبقة. ولقد أذهلني نشاطها ورشاقتها.

مقتبسة في كتاب:
H.V.F. Winstone *Gertrude Bell*, London 1978, pp.243-4.

وعلى الرّغم من ذلك، فقد أظهرت غرترود بِل قليلاً من القلق على العالم الذي فاجأ لورنس T. E. Lawrence في العشرينيات من القرن الماضي، أهوال الحرب العالميّة الأولى، والتي كانت مدركة لها بشدّة، هزّت ثقتها بالوضع العالمي والتي كانت واضحة جدّاً في «العامر والغامر» وكتبت السّيّدة بِل في 1920:

...آمل في بعض الأحيان ألا يكون ما أشاهده هو انهيار العالم، ولكن الانهيار المألوف لهذا الجزء من الصّخرة وذاك الجزء من العشب الذي ينهار مع كلّ مد - والآن فقط إنّي مدركة بشدّة لاندفاع كلّ منها تباعاً... وعلى الرّغم من أنّي لن أقول إنّ هذه الفوضى لم تكن موجودة في الماضي، فأنا أقرّ بأنّه نادراً ما كانت هناك ظروف أسوأ ربّما منذ سقوط الإمبراطوريّة الرّومانيّة... (Burgoyne, II, p. 188).

وببقائها في العراق، فقد وجدت بعض الهروب من هذا الشّعور لانحلال العالم المألوف، فالسّياسة بشكل عام وأسلوب «تجهيز الملوك» كانت تمدّها لفترة بالانتعاش والشّعور بالقوّة الذي كانت تجتنيه. وعلى الرّغم من ضبابيّة وضعها الذي شغلته في العراق فقد أصبح بمثابة بلدها الأمّ حتّى ماتت في عام 1926 عن عمر يناهز 58 عاماً. ولقد كان المركز الاجتماعي الاستثنائي الذي شغلته في السّياسة في السّنوات التي سبقت الحرب مؤقّتاً، وقد تآكل تدريجيّاً حيث أنّ الخبراء استُبدلوا بمنتدبين في نوع جديد من سياسة الاستعمار الجديدة. وفوق ذلك فلم تستطع أن تقطع روابطها مع الشّرق الأوسط، وبقيت في بغداد، ملتفتة إلى اهتمامها بعلم الآثار وثقافات الماضي العظيمة. وبالنّسبة لها، فإنّ الشّرق كان قد بدأ في مطلع القرن كمثال وميدان للإثارة والتّحدّي، وكهروب من خيبة الحياة العليا للطّبقة الوسطى الإنكليزيّة. ولقد أصبح أخيراً نوعاً صعباً من الواقعيّة بين بريطانيا الاستعماريّة وعراقٍ نامٍ سَعَت لجعله موطناً لها.



مقدّمة المؤلفة

لا ريب أنه ينبغي لأولئك الذين يغامرون لإضافة كتاب جديد للأدب الواسع للسّفر أن يكونوا قد هيّأوا عذراً ما لم يكونوا رجال معرفة أو سياسيين، وبالنّسبة لي فإنّ عذري جاهز وأرجو أن يكون هذا العذر جديراً بالتّصديق. لم أكن أرغب بأن أؤلف كتاب سفر، بل أردتُ أن أكتب رواية عن أولئك الأشخاص الذين قابلتهم أو الذين رافقوني في الطريق، ولأظهر ماهيّة العالم الذي يقطنونه وكيف يبدو لهم. وحيث أنّه من الأفضل أن يرووا، بقدر الإمكان، قصّتهم الخاصّة، فقد نظّمتُ كلماتهم على مسار الطّريق، أروي القصص كما سمعتها منهم والتي أمضى بها الرّعاة والجنود السّاعات من السَّير، الكلام الذي مرّ من فم إلى فم حول نار المخيّم، في خيمة العرب السّوداء ومضافة الدّروز، بالإضافة إلى الكلام الحذِر للمسؤولين الأتراك والسّوريين.

إنّ فنّ الحكم عندهم يتألّف من ظنون لاذعة غالباً، وهي النّتيجة التي تنبثق ربّما من التّصادم مع القوى غير المعروفة، حيث تكون القوّة والهدف لهذه القِوى عصيّين على الفهم؛ وحكمتهم هي حكمة أناس تُعدّ قنوات المعرفة لديهم ومقاييس المقارنة مختلفة عن مقاييسنا، وهي تقدّم مجموعة مختلفة من التّصوّرات المسبقة ليتمكّنوا من تحمّل المعضلات المطروحة أمامهم. يُعتبر الشّرقيّ بمثابة طفل كبير، فهو غير مطّلع على الكثير من فروع المعرفة، التي أصبحنا نعتبرها كحاجة أوّلية؛ وعادة، ولكن ليس دائماً، ما يشغل عقله بالحاجة لإحرازها، ونادراً ما يشغل نفسه بكلّ ما ندعوه منفعة عمليّة، وهو لا يزيد في مقدراته العملية عن طفل إذا صح التعبير، ومتطلّباته

تختلف عن متطلّباتنا. ومن جهة أخرى، فإنّ عمله محكوم بعادات السّلوك والأخلاق التي تعود إلى بدايات الحضارة، عادات لم تتغيّر حتّى الآن بأيّ تغيير مهمّ في أسلوب الحياة التي يطبّقونها وبعيداً عن التي نشؤوا فيها.

وإذا أقصينا تلك الأشياء جانباً، فإنّه إنسان مثلنا؛ فالطّبيعة البشريّة غير خاضعة للتّغيير في شرقي السّويس، وليس من المستحيل أن تكوّن علاقات صداقة وانسجام مع المقيمين في تلك المناطق. وهي في بعض الجوانب حتّى أكثر سهولة منها في أوروبا. وبإمكانك أن تجد في عادات الشّرق في التّواصل تقيّداً بالقيود الزّائفة بدرجة أقلّ، وتتمتّع بتسامح أوسع نتيجة تنوّع أكبر. ينقسم المجتمع إلى طبقات وفرق وقبائل في عدد غير متناهٍ من المجموعات، تتبع كلّ واحدة منها قانونها الخاصّ، ومهما بدا هذا غريباً بالنّسبة لنا فإنّ هذا القانون هو بالنّسبة للشّرقي رحب ويتمتّع بتفسير مُرض لكل غرائب الحياة. ويمكن للإنسان أن يجول بين النّاس وهو ملثّم حتّى العينين، أو مرتدٍ لو أراد إزاراً فقط، دون أن يثير أي انتباه. ولماذا يفعل ذلك؟ فهو مثل أيّ شخص آخر يتبع قانونه الخاصّ.

وقد يسير الأوروبيّ هنا أيضاً، هنا وهناك وفي الأماكن الأكثر وحشيّة، مواجهاً فضولاً قليلاً وحتّى انتقاداً أقل. ويمكن أن يستمع للأخبار التي يحضرها بعناية وإصغاء، كما ويمكن لآرائه أن تحظى بالاهتمام، ولن يُعدّ شاذّاً أو مجنوناً ولا حتّى مخطئاً وذلك لأنّ ممارساته وطرقه في التّفكير متفاوتة عن هؤلاء النّاس الذين يجد نفسه بينهم. إنّها «عاداته»: ولهذا السّبب فإنّه سيكون حكيماً جدّاً إذا لم يطلب أن ينال الحظوة لنفسه عند الشّرقيّين بمحاولة تقليد عاداتهم ما لم يكن ماهراً جدّاً بتقليدها حتّى يستطيع أن يمرّر نفسه كواحد منهم. عليه تطبيق قانون الآخرين باحترام، ولكنه سيقابَل هو نفسه باحترام أكبر فيما لو تقيّد على نحو تام بعاداته، وبالنّسبة للمرأة فإن هذا القانون هو الأكثر أهمّية، وذلك لأنّ المرأة لا تستطيع أبداً أن تخفي نفسها بالكلية. ولذلك عليها أن تعرف أنها قادمة إلى عرق عظيم ومحترم لا تُنتهك عاداته، ومن الأفضل لها احترامها.

لا يُعـد أيّ بلد من البلـدان التي زرتُها أرضاً عذراء بالنّسـبة للرّحالين، فهناك أجزاء منها تمّت زيارتها ولكن بشـكل نادر، ووصِفت فقط بأعمال مكلفة ويصعب الحصول عليها غالباً. لقد أوليتُ تلك الأماكن اهتماماً بسيطاً، وعدداً كبيراً من الصّور عندما يبدو الأمـر مهماً. وقد لاحظت أيضاً في المدن الجنوبيّة لسـوريا آثـار العصور القديمة التي تلفت نظر المراقب العابر. ولا يزال هناك الكثير من الأماكن التي تحتاج للاستكشـاف في سـوريا وعلى حافّة الصّحراء، وهناك أيضاً الكثير من المشـاكل الصّعبة التي تحتاج إلـى حـل. لقد تـمّ العمل بشـكل جيد مـن قِبـل: دى ڤوغيـه de Vogüé، وڤِتسشـتاين Wetzstein، وبرونّوڤ Brunnow، وزاخاو Sachau، ودُسّو Dussaud، وپوخشتاين Puchstein وزملائـه، أعضاء إرسـاليّة پرنسـتون Princeton وآخرين غيرهـم. وأشـير إلـى كتبهـم لهؤلاء الذيـن يودّون أن يعرفوا كم هـي غنيّة تلك البلاد بالآثـار المعماريّة وبالسّجلاّت المنقوشة من التّاريخ البعيد.

لم تنتهِ رحلتي في الإسـكندرون Alexandretta كما تنتهي قصتي هذه. وعلى كلّ، فقـد كنت في آسـيا الصّغرى مهتمّة بشـكل أساسـي بعلـم الآثار؛ ولقد تمّ نشـر العمل الذي قمت به هناك في سلسـلة من مقالات على صفحات «المجلة الآثاريّة» "Revue Archéologique"، حيث وجد محرّرها السيد سلومون رايناخ Mosnieur Salomon Reinach متلطّفاً أن نشرها هنا يتيح الاطّلاع عليها أكثر من نشرها في كتاب كهذا.

إننـي لا أعرف السّـكّان أو اللّغة في آسـيا الصّغرى على نحـو جيّد بما يكفي لأكون علـى تماس قريب مـع البلاد، ولكنّني مهيّأة، ولو باطّلاع بسـيط، لأقـدّر صفات فلاح تركي. فقد مُنح فضائل عديدة، وتُعدّ فضيلة حسـن الضّيافة فوق كلّ الفضائل الأخرى التي مُنحها.

وأشعر ببعض الألـم لسرد الظّروف السّياسيّة الحاليّة للأشخاص غير المهمّين، فهم لا يظهرون كذلك بشـكل كبير لمن يعيش بينهم، ومن جهتي فإنّي شـاكرة دوماً لهؤلاء الذين زوّدوني بمعلومات عن علاقاتهم مع بعضهم البعض. ولكنّي لست مهتمّة بتبرير او إدانـة أفعـال الحكـم التّركي. فلقد عشـت لمدّة طويلـة كافية في سـوريا لأدرك بأنّ

حكمـه كان بعيـداً جدّاً من أن يكون الحكم المثالي، وشـاهدتُ مـا يكفي من العناصر المتمرّدة التي يحتفظ بها بطريقة أو بأخرى من أجل العلم بأنّ مهمّته صعبة. ولا أصدّق بأنّ أيّة حكومة يمكن أن تنال رضى عالميّاً؛ وفي الواقع، فإنّ الحكومات التي حصلت على الحظوة المطلوبة حتّى في أكثر البلاد اتّحاداً هي قليلة حقاً. وكوني إنكليزيّة فإنّي مقتنعة بأنّنا الأشـخاص الذين اسـتطعنا رعاية سـوريا بشـكل أفضل مـع إمكانيّة نجاح أفضل من ذلك الذي يمكن إحرازه من قِبل سلطان عاقل معتدل. ولقد اعترفنا منذ مدّة طويلة بأنّ المهمّة يمكن ألا تقع على عاتقنا.

ولسـوء الحظّ فقد قمنا بأكثر من ذلك، فقد سمحنا في جميع أرجاء الأقاليم التّركيّة بإضعاف مكانتنا التي كانت عالية جداً وانحدارها، حيث رفضنا قبول المسـؤوليّة فيما يتعلّق بالمسـألة الشّـرقيّة وضـرورة تدخّلنا، بل وسـمحنا للاحتجاجـات التي يعوزها الحسّ بالمسـؤوليّة بأن تظهر بحماس على نحو عاطفي. وأسـمح لنفسـي أن أقيّم هذه السّياسة بوصفي جاهلة فأقول: إنّ تعاملاتنا مع الأتراك أظهرت جوّاً من التّذبذب الذي يمكن أن يُصفح عنه بسـبب غدر يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار. تلك المشاعر مجتمعة مع فزع راسخ لإمبراطوريّة آسيويّة عظمى والتي هي أيضاً قيّمة على مصر وعلى البحر، أعتقد أنّها دفعت الباب العالي (الإمبراطوريّة العثمانيّة) لأن ينتهز الفرصة الأولى لفتح باب مقاومة للمطالب الإنكليزيّة، سواء بسبب خطأ حسابي بسيط للجروح التي يمكن أن تستيقظ، أو بالأمل بعون أجنبي، لم يحسم بعد.

إنّ النّتيجة بائسـة على حدّ سـواء، وإذا حاكمتُ القضيّة بأيّة حال على نحو صحيح، فإنّ جذورها تمتدّ في تواري التّأثير البريطاني في إسطنبول. فإن النّفوذ الذي شغلناه قد أُخذَ منا من قِبل آخرين، وهو كذلك ويجب أن يكون موضع اهتمام أكبر لنا أكثر من أي أحد آخر بأنّه يجب علينا أن نكون عند الضّرورة قادرين على توجيه السّياسات الملتوية لقصر يلدِز Yıldız Kiosk. ولا تسـتطيع جميع القوّات الإسـلاميّة السـماح لعلاقاتها مع خليفة المسـلمين بأن تكون منتظمة أو مسـتقرّة على نحو بسيط جدّاً، وفيما إذا كان عنـاد السّـلطان في نزاع Tabah يمكن أن يبرهن لنا مـدى انفلات الأعنّة من بين أيدينا،

فإنّه يمكن أن يفيد في عودتها. وفي وجودنا مسيطرين على البحر المتوسط ونمتلك تحت سيطرتنا كما أعتقد مقداراً معتبراً من الودّ داخل الإمبراطوريّة التّركيّة والذّكريات لصداقة قديمة، ويجب أن يكون من المستحيل عدم استرداد المكان الذي خسرناه.

ولكن هذه قضايا تقع خارج نطاق الكتاب الحالي، وسيحظى اعتزازي بنهاية أفضل بالتّعبير الذي يبدأ به كلّ كاتب شرقيّ كتابه قائلاً: «بسم الله الرّحمن الرّحيم».

* * *

قالَ تأبَّطَ شرّاً

يَرَى الوَحشَةَ الأنسَ الأنيسَ ويَهتَدِي * بِحَيثُ اهتَدَتْ أُمُّ النُّجومِ الشَّوابِكِ

He deems the Wild the sweetest of friends, and travels on
where travels above him the Mother of all the clustered stars.
TA'ABATA SHARRAN.

الفصل الأوّل

بالنّسبة إلى هؤلاء الذين وُلدوا في مجتمعات متطوّرة، نادرة هي اللّحظات التي تماثل في بهجتها تلك التي يقفون فيها على مستهلّ رحلة متهوّرة. فعندما تفتح بوّابات الحديقة المسوّرة، وتنخفض السّلسلة عند مدخل المنزل، مع نظرة حذِرة نحو اليمين واليسار تشعر بأنّك تخطو إلى الأمام وتنظر نحو العالم غير المحدود. إنه عالم المغامرة والمخاطرة، المظلم بالعواطف الصّاخبة، المتألّق في ضوء الشّمس المحرقة، سؤال بلا جواب وشكّ غير قابل للتّفسير يختبئان في زاوية كلّ تلّة. في ذلك العالم عليك أن تذهب وحيداً، منفصلاً عن جيوش الأصدقاء الذين يمشون على الطّرقات الورديّة، متجرّداً من الملابس البنفسجيّة والكتّانية النّاعمة التي تعوّق الجيش المقاتل، عليك أن تذهب بلا مأوى، بلا دفاع، ومن دون ممتلكات.



مسجد عُمر في القدس

سيُسمع صوت الرّياح بدلاً من أصوات المستشارين المقنّعة، وينبغي لبلل المطر ووخز الصّقيع أن يكونا محفزين أكثر من الإطراء أو اللّوم، وعلى الرّغبة الملحّة أن

تتكلّـم بثقـة غير معلومة لتلـك الحكمة المسـتعارة التي يخضع لها النّـاس أو ينبذونها عندمـا يريـدون. لـذا فإنّك تتـرك المأوى مغلقـاً، ومثل الرّجـل في قصـص الجنّيّات، ستشـعر بـأنّ القيود التـي ثُبتت بإحكام حول قلبك تتكسـر وأنت تدخـل الطّريق الذي يمتدّ عبر المنعطف المستدير للأرض.

لقـد كان صباحـاً عاصفاً، في الخامس من فبراير. اندفعـت الرّياح الغربيّة من البحر المتوسط، وأسرعت عبر السّهل حيث خاض الكنعانيون Canaanites حرباً مع السّكّان العنيديـن مـن بريّـة اليهوديّـة Judaea، وتخطّوا حـدود الجبال إلى حيـث كان الملوك الآشـوريّون Assyrian والمصريّون قـد قادوا حصاراً عقيماً ضدّهـم. أعلنت الأخبار عـن الأمطـار في القدس التي تقدّمت أسـفل المنحدرات الشّـرقيّة القاحلة، منطقة قاع الأردن بوثبة واحدة، وتلاشت عبر التلال من مؤاب في الصحراء. تبعتها جميع كلاب العاصفة في الخلف في قطيع ينبح وهي تجري نحو الشّرق صاخبة بمرح.



كنيسة قبر المسيح في القدس

لا يمكن لأي أحد يتمتّع بالحياة في جسـده أن يبقى في البيت في يوم كهذا، أما بالنّسـبة إلـي فقـد كان هناك خيـار ضئيل. في فجر الشّـتاء الكئيب كانـت البغال قـد تقدّمت حاملة كل أغراضـي الدنيويّـة وهـي عبارة عن خيمتين، صنـدوق أدوات المائدة، مؤونة شـهر من وسـائل الرّفاهية التي يمكن أن يقتنيها رحّالة بسـيط، وصندوقين صغيرين على البغل يوجد

فيهما ـ بشكل أساسي ـ أدوات التّصوير، وبعض الكتب وحزمة كبيرة من الخرائط. كنت قد أحضرت البِغال وثلاثة من البَغّالين معي من بيروت، وودت بشكل كبير أن يتابعوا معي لرحلة أبعد. كان الرّجال جميعهم من لبنان؛ أب وابن كلاهما مسيحيّان، جاءا من قرية تقع بأعلى بيروت: كان الأب شخصاً مسنّاً ومن دون أسنان، يتمتم، وهو يقود البغل حاملاً الصّناديق، راكباً منفرج السّاقين. امتزجت البركات والهتافات التّقية مع احتجاجات عن تقواه، وكونه مستخدماً أكثر اعتدالاً، ولكن لم ير أيّة حاجة للمساهمة بمساعدة أخرى لصالح المجموعة ـ كان اسم هذا المُسنّ إبراهيم؛ والابن حبيب، شابٌّ في الثّانية والعشرين أو الثّالثة والعشرين من عمره، أسمر، منتصب القامة، عريض المنكبين، بهيئة يمكن أن يحسده عليها إغريقي، ونظرة جريئة تحت حاجبين سوداوين.



شارع في القدس

كان الثّالث درزيّاً، وهو رجل ضخم متثاقل الحركة، كسول بشدة، مختال في طريقته المتواضعة، على الرّغم من أنه استطاع دوماً أن يقلّل من نقمتي المشروعة في قضية السّكّر المسروق أو قروش (بيزو) المفقودة بعينين لامعتين مستغيثتين تنظران دون أن تطرفا مثل

عيني كلب. لقد كان جشعاً وأحمق إلى حدّ ما، وهي علل من الصّعب تجنبها في حمية من الخبز الجاف، والأرز والزبد الفاسد؛ ولكن عندما وضعته في الوسط بين أعدائه الدمويين أبطأ في عمله وسار خلف بغله وحماره بهيئة منعزلة كسولة كالتي أظهرها في شوارع بيروت. كان اسمه محمّداً. أمّا العضو الأخير من القافلة فقد كان الطّبّاخ - ميخائيل، وهو مواطن مسيحي من القدس. لم يكن قويّ الإيمان كثيراً، وكان قد سافر مع السّيّد مارك سايكس Mark Sykes ونال منه الوصف التّالي: «فهو لا يعلم الكثير عن الطّبخ، باستثناء ما تعلّمه منّي عندما كان معي، ولكن لم يبدُ أنه مهتمٌ أبداً فيما لو كان على قيد الحياة أو مقتولاً». وعندما أعدت تلك الكلمات على مسامع ميخائيل انتكس في نوبات من ضحك مكتوم، وتعاقدتُ معه في الحال. لم يكن سبباً كافياً ولكنّه لا بأس به مثل كثيرين غيره. لقد خدمني جيداً وفقاً لفلسفته في الحياة؛ ولكنّه كان رجلاً ضئيل الجسم متّقداً شديد الحساسية، مستعدّاً دوماً لمواجهة أيّة إهانة متوقّعة في منتصف الطّريق، مع تخيّل للحدود التي لم أصل إليها أبداً خلال معرفتي به لمدة ثلاثة أشهر، ولسوء الحظّ كان قد تعلّم أشياء أخرى بالإضافة للطّبخ خلال السّنوات التي قضاها عندما غرق هو والسّيّد سايكس Sykes معاً في حادث تحطّم سفينة في بحيرة وان Van.



بوّابة القدّيس إسطفان في القدس

لقد كان أمراً عادياً أنه لم يكلف نفسه عناء إخباري بقصّة المغامرة، على الرّغم من أنّني عندما ألمحت إليها أومأ برأسه وعلّق قائلاً: «لقد كنا قريبين من الموت كاقتراب شحاذ من الفقر، ولكن كما تعلمين سعادتك فإنّ الرّجل يموت مرّة واحدة فقط»، في حين أمطر أذنيّ بقصص السّائحين الذين أكّد أنهم لم يستطيعوا ولم يرغبوا بالسّفر من سوريا دون أن يثقوا بفنونه في الطّهي. كانت زجاجة العرق عائقه الدائم؛ وبعد محاولة كلّ النّظريات الوقائيّة، المتعلّقة بمداهنة نتاجه انفصلت عنه على نحو مفاجئ على ساحل كيليكيا Cilician coast، دون إحساس بالنّدم أكثر من رغبة طبيعيّة ليخنته كثيرة التوابل وفطائره المحلاّة الباردة.

كانت لدي رغبة شديدة في السّير وحدي عبر الطّريق القفر إلى أريحا Jericho، كما فعلت من قبل عندما كانت وجهتي باتّجاه الصّحراء، ولقد كان لميخائيل رأي آخر يمكن أن يتعارض مع وقاري، ولقد علمت بأنّه حتى صحبته المثرثرة لا يمكن أن تتسلّل عبر ذاك الطّريق المقفر. كنّا في السّاعة التّاسعة على سروج الخيول، نسير بوقار حول أسوار القدس، أسفل الوادي من جَتسِمَني Gethsemane عابرين بستان الآلام Agony صاعدين جبل الزّيتون. توقّفتُ هنا لبرهة لأسترد الانطباع لحميميّة لا يمكن أن تُنسى، للمدينة المسوّرة على التّلّة، رماديّة في منظر حجري رمادي أسفل السّماء المثقلة بالغيوم، ولكنّها مُنارة بالأمل والرّغبة التي لا يمكن إطفاؤها لأجيال الحجّاج. طموح بشري، الوصول الأعمى خارج الرّوح المقيّدة باتّجاه هدف حيث تتحقّق جميع الرّغبات وتجد الرّوح سلاماً. أحاطت هذه الأشياء بالمدينة مثل هالة نصف متألّقة، نصف هزيلة، متألّقة بالدّموع وملطّخة بكثير من الأوهام. أدارت الرّياح الغربيّة حصاني وجعلته يعدو فوق حافّة التّلّة وينزل الطّريق الذي يخترق براري اليهوديّة Judaea.



موكب إسلامي يمرّ في غياض الزّيتون

يوجد عند سفح المنحدر الأول نبع «عين الشمس» كما يسمّيها العرب، ولكن يطلق عليها الحجّاج المسيحيّون اسم «بئر الحواريّين». ومن النّادر أن تمرّ هناك في الشّتاء دون أن ترى بعض الفلاحين الرّوس يستريحون في طريقهم المجهد الآتي من الأردن. يتدفّق عشرة آلاف منهم سنويّاً إلى الأرض المقدّسة، معظمهم رجال ونساء مسنّون قتّروا على أنفسهم وكرّسوا كلّ حياتهم ليجمعوا الثلاثين جنيهاً أو أكثر التي ستحملهم إلى القدس. يأتون من أقاصي الإمبراطوريّة الرّوسيّة على أقدامهم إلى البحر الأسود، حيث يركبون على سطح المركب في قوارب روسيّة صغيرة وقذرة. ولقد سافرت مع ثلاثمئة منهم من إزمير إلى يافا، وكنتُ المسافرة الوحيدة التي أخذت قُمرة.



حجّاج روس

كان الوقت منتصف الشّتاء، وكان الطّقس عاصفاً وبارداً لهؤلاء الذين ينامون على السطح، حتى ولو كانوا يرتدون معاطف من جلد الأغنام ويلبسون أحذية عالية. كان رفاق سفري قد جلبوا مؤنهم الخاصّة معهم لحاجة اقتصاديّة: كتلة من خبز، قليل من الزّيتون، بصل نيئ، ومن ذلك كان يتألّف طعامهم اليومي. كانوا يجتمعون صباحاً ومساءً في صلاة مقابل أيقونة معلّقة على قادس مطبخ السّفينة، ويرتفع صوت ابتهالاتهم إلى السّماء ممزوجاً مع ارتجاج النّابض ورذاذ رشاش الماء. يصل الحجّاج إلى القدس قبل عيد الميلاد ويبقون إلى ما بعد عيد الفصح حيث يمكنهم إشعال شموعهم من النّار المقدّسة التي تخرج من الضريح في صباح البعث. ويتجوّلون على الأقدام عبر جميع الأماكن المقدّسة، مقيمين في فنادق كبيرة بُنيت لهم من قِبل الحكومة الرّوسيّة. يموت الكثير منهم بسبب التّعرّض للعوامل الجوّيّة والتّعب والمناخ غير المألوف؛ لكن الموت في فلسطين يُعد أفضل الهبات التي يمكن أن تمنحها القدرة الإلهيّة، أن ترقد عظامهم بسلام في أرض الميعاد وتحلّق أرواحهم مباشرة إلى الجنّة.

يمكنك أن تقابل هؤلاء المسافرين شديدي البساطة على كلّ طريق رئيسي، يمشون مجهدين بصبر تحت الشّمس المحرقة أو تحت أمطار الشّتاء، مرتدين دائماً من فراء

بلادهـم ويحملون في أيديهم أعواداً من قصب قيعان نهر الأردن، مما يضفي علامات الشـفقة على منظر عام يلامس الكثير من مواضيع الشعر الحزين. لقد سمعت قصّة في القـدس تعبّر عن حالهم أكثـر من كتابة صفحات من الوصـف. إنها تتحدّث عن رجل كان لـص منـازل وتمّ التقاطه متلبّسـاً بالجرم وأُرسـل إلى سـيبيريا، حيـث أمضى عدة سـنوات في الأشـغال الشّـاقّة. ولكن عندما انتهت مدّة عقوبته عاد إلى موطنه إلى أمّه المُسـنّة بقلب جديد، وسـافر كلاهما إلى الأرض المقدّسة حيث يمكن له أن يكفّر عن خطايـاه. هنا وفي الفصل الـذي يكون فيه الحجّاج في القدس، فإنّ الرّعاع من سـوريا يحتشـدون هناك ليخدعوا بساطتهم ويزعجوهم من أجل الصّدقات، وجاء أحد هؤلاء المتشـرّدين إلى هذا الحاجّ الرّوسـي وتوسّل إليه في الوقت الذي لم يعد لديه أيّ شيء ليعطيه. سـخط السّـوري من رفضه، وطرحه البقيّة على الأرض وجرحوه جراحاً بليغة كل علـى حدة حيث بقي في المستشـفى لمدّة ثلاثة أشـهر. وعندمـا تعافى جاء قنصل بـلاده إليـه وقال: «لقد قبضنا علـى الرّجل الذي كاد أن يقتلك؛ وعليـك أن تقدّم ادّعاءً ضده قبل أن تغادر»، لكنّ الحاجّ أجاب: «لا، دعه يذهب. فأنا أيضاً مجرم».



حجّاج يتمّ تعميدهم في نهر الأردن

كان الطّريق فيما وراء النّبع خالياً، وعلى الرّغم من أنّي كنت أعرفه جيّداً فقد فوجئت مرّة أخرى بقفره الذي لا يصدّق. حيث لا حياة، لا أزهار، ما عدا السّويقات الجرداء لأشواك السّنة الماضية، والهضاب الجرداء والطّريق الحجري. وكأنّ قفر جبال اليهود قد تغذى بالرّوح المتّقدة للإنسان. لقد مشى عليه أنبياء متجهّمون يتوعّدون بهلاك عالم لم يكونوا جزءاً منه ولم يفهموه؛ والوديان ممتلئة بالكهوف التي خبّأتهم، ليس هذا فحسب، فالبعض منها مسكون حتّى الآن بصنف من أناس جائعين ومتنسّكين هزيلين متمسّكين بعادات التّقوى التي وجدت الفطرة السّليمة أنّه يصعب تكذيبها. وصلنا قبل الظّهر إلى الخان في منتصف الطّريق إلى أريحا، الذي تقول الأسطورة إنه المكان الذي قابل فيه السّامري الصّالح الرّجل الذي سقط على جانب الطّريق، ودخلتُ لتناول طعام الغذاء بعيداً عن وصول الرّياح العاصفة. كان ثلاثة من التّجّار الألمان يكتبون على بطاقات بريديّة مصوّرة في غرفة الخان، ويتّفقون مع صاحب الخان من أجل خناجر بدويّة مزيّفة. جلستُ واستمعت لحديثهم السّوقي التّافه ـ لقد كان آخر ما سمعته من كلام أوروبي لعدّة أسابيع، ولم أجد أيّ سبب للأسف على الحضارة التي كنت أتركها. ينحدر الطّريق شرق الخان، ويعبر مجرى ماء جاف كان مسرحاً للعديد من المآسي. فقد اعتاد بعض قطّاع الطرق أن يتمدّدوا تحت الجُرف ينتظرون أن ينهبوا الحجّاج ويقتلوهم وهم يعبرون. وقبل خمس عشرة سنة كان طريق أريحا غير مأمون مثله مثل المنطقة التي تقع وراء الأردن الآن: امتدّ الأمان لعدّة أميال شرقاً خلال العشر سنوات الأخيرة. وصلنا أخيراً إلى أعلى آخر تلّة وشاهدنا وادي الأردن والبحر الميت، وخلفه المنحدرات الضبابيّة لمؤاب، وحدود الصّحراء. كانت أريحا تمتدّ تحت أقدامنا، وهي قرية غير جميلة تتألّف من فنادق متداعية وأكواخ يسكن فيها العرب الوحيدون الذين سيتعرّف عليهم السّائحون، وهم سلالة متواضعة، مجموعة من أدنى السّلّم العرقي، نصف مولّدين من عبيد زنوج. تركت حصاني مع سائسي البغال الذين كنّا قد أخذناهم على المنحدر - «وفقك الله!» «الحمد لله!» «إذا كنت سعادتك بخير فنحن بخير» - ونزلوا أسفل التّلّة إلى القرية.

لكن لم يكن دخول أريحا كافياً لذاك اليوم الأوّل المشرق من الطّريق. لقد تشوّقت بشـدّة لترك السّـائحين خلفي، وكذلك الفنادق والبطاقات البريديّة المصوّرة. ساعتان إضافيّتان ونصل شـاطئ الأردن، وعند مقدّمة الجسـر الخشـبي الذي يؤدّي من الضّفّة الغربيّـة إلى الشّـرقيّة حيث يمكن أن نخيّم في مكان مسـتور تحت روابي طينيّة وسـط أجمات من القصب والطرفاء (وهي شـجرة نحيلة الأغصان)، توقّفنا برهة لشـراء ذرة مـن أجل الجيـاد والبغال، وخرجنا مرة أخرى عبر المسـار الضّيّق لـلأرض المزروعة الممتدّة حول أريحا، وخارج الغور، وادي الأردن.



دير القرنطل فوق أريحا

يُعدّ طريق أريحا منعزلاً بما يكفي، ولكن لوادي الأردن مظهر من الوحشـيّة هي شـريرة غالباً. وإذا كان أنبياء العهد القديم قد قاموا بشجب مَن أنكرهم بعنف، كما فعلوا في بابل أو صور، فسيكون هذا أفضل برهان على قوّة بصيرتهم؛ ولكنّهم كانوا صامتين، وعلى الخيال أن يعود إلى الوراء لرؤى متوهّجة لبلدتي سـدوم Sodom وعمورة Gomorrah، الأساطير المبهمة للخطيئة التي لازمت طفولتنا كما لازمت طفولة الشّعوب السامية. خيّم جو خانق ثقيل فوق هذا المسـتوى الأكثر انخفاضاً على سـطح الأرض؛ وكانت الرّيح تهبّ مسـرعة عبـر قمـم التّلّة فوقنا في المناطـق حيث يتنفّس النّـاس الهواء الطّبيعي، ولكـنّ الوادي كان

راكداً ودون حياة مثل قعر بحر عميق. مررنا بسرعة عبر أجمات منخفضة من شجر سدر شائك، وهو عوسج القدس Spina Christi الذي يقال إنّ أغصانه تُجدل ويصنع منها تاج الشّوك Crown of Thorns. وهناك نوعان من أغصان السّدر تلك، التي يسمّيها العرب الزّقّوم والدّوم. ويستخرجون من الزّقّوم زيتاً طبياً، ويحمل الدّوم فاكهة صغيرة مثل تفّاح برّي تصبح عندما تنضج بلون أحمر بنّي مغري المظهر. إنها من فاكهة البحر الميت جميلة المنظر وتترك على الشّفاه مذاقاً رملياً مرّاً.

تضاءلت أشجار السّدر واختفت، وإلى الأمام منا تمتدّ قطعة من طين قاس لا ينمو فيها أيّ شيء أخضر. كان أصفر اللّون ملطخاً بملح سام رمادي أبيض، وغالباً لا تدرك العين بوضوح عداوته للحياة. وبينما كنّا نسير هنا هطلت علينا دوّامة من مطر غزير من العالم الأعلى. بدا البغّالون شاحبي الوجوه، واستطال حتى وجه ميخائيل، وذلك لوجود آبار الحُمَر (القطران) المذكورة في سفر التكوين The Slime Pits أمامنا، ولا يمكن لأيّ حصان أو بغل عبورها ما لم تكن جافة. استمرّ هطول الأمطار لبضع دقائق، ولكنّها كانت كافية ليتحول طين السّهل الجاف إلى ما يشبه الزّبدة، وغاصت أقدام الخيول فيها حتّى كواحلها، وعوى كلبي كُرت Kurt وهو يسحب أقدامه من الطّين الأصفر الذي يشبه الغراء، وهكذا أتينا إلى آبار الحُمَر (القطران) Slime Pits المظهر الأقوى لتلك الأرض الغريبة. وعلى بعد ربع ميل إلى الغرب من الأردن - يصبح الحزام أكثر ضيقاً إلى الشّرق من النّهر - ويحوّل الطّريق النّاعم نفسه فجأة إلى سلسلة من ضفاف طينيّة منحدرة تقاطعت بأخاديد ضيّقة من فعل مياه الأمطار.



عبور الغور

والضّفاف ليست عالية، فهي تقارب ثلاثين أو أربعين قدماً على الأكثر، ولكنّ ذراها حادة جداً والجوانب شديدة الانحدار حيث يتوجب على الرّحّالة أن يجد طريقه عبرها وحولها بحذر أكبر. ولقد جعل المطر تلك المنحدرات زلقة مثل الزجاج، وكان من المستحيل حتّى أثناء السّير على الأقدام البقاء منتصباً. سقط حصاني وأنا أقوده؛ ولحسن الحظ فقد كان سقوطه على حافّة صغيرة بين رابيتين، وبفعل مرونة مدهشة استطاع إنقاذ نفسه. تنفّست الصّعداء شاكرة الله عندما رأيت قافلتي تظهر من آبار الحُمَر Slime Pits، وفيما لو استمرّت الأمطار بالهطول فقد كان من الممكن أن نُحبس هناك لعدّة ساعات، لأنّه لو سقط فارس إلى القاع من الحفر اللّزجة فعليه الانتظار هناك حتّى تجف.

كانت هناك حياة على طول ضفّة النّهر. اكتست الأرض بعشب نضر وزهر ربيع أصفر، وأظهرت الأعشاب الصّغيرة من أجمات الطّرفاء بعض الإشارات الباهتة للرّبيع. خببتُ بجوادي على الجسر العظيم بجوانبه المعرشة وسقفه الخشبي ـ القطعة الأكثر إثارة في فن العمارة في العالم، حيث أنّها بوّابة الصّحراء. لقد كان هناك المكان المكشوف كما أذكره، المغطى بطبقة رقيقة من التّربة، المحميّ بضفاف طينيّة عالية، كان فارغاً والحمد لله! وكان لدينا سبب للقلق عند هذا المرتفع.



الجسر على نهر الأردن

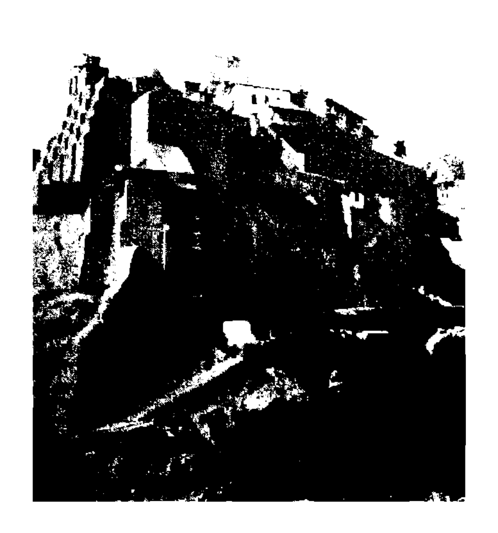
كانـت الحكومـة التّركيّة في ذلك الوقت ترسـل كل الفِـرق التي أمكنهـا تجنيدها لقمع العصيان المسلّح في اليَمَن. كانت الأفواج من جنوب سوريا قد أرسلت سيراً نحو الأسفل إلى الجسـر، ومنها إلى عمّان، حيث أُركبت في قطار وأُرسـلت على طول السّكّة الحديديّة إلـى مكّة حيث كانت هناك بلـدة مَعان الحدّ النّهائي قرب البتـراء[1]. ومن مَعان كان عليهم القيام بسير رهيب عبر قفر رملي إلى رأس خليج العقبة. وقد هلك المئات من الرّجال وعدّة آلاف مـن الجِمـال قبـل أن يصلوا إلى الخليج، ذلك لأنّه لا يوجد فـي ذاك الطّريق إلاّ ثلاثة آبار فحسـب (حسـب قـول العرب)، وتقع إحدى هـذه الآبار على بعد يقـارب الميلين من الطّريق ولا يمكن أن يكتشفها من ليست له دراية بالمكان.

نصبنا الخيام، وربطنا الخيول، وأشعلنا ناراً كبيرة من أغصان شجر الطّرفاء والصّفصاف. كانـت اللّيلة رماديّة وسـاكنة؛ كانت هنـاك أمطار على التّلال، ولكن لا شـيء عندنا ـ وكان المعـدّل السّـنوي للهطول في وادي الأردن بضع إنشـات. لم نكن لوحدنـا تماماً إذ تفرض الحكومة التّركيّة رسماً ضئيلاً على من يعبر ذاهباً وعائداً عبر الجسر، وتحتفظ هناك بموظّف لهذا الهدف. إنه يعيش في كوخ من القصب عند بوّابة الجسـر، ويشاركه في عزلته واحد أو اثنان من العرب الشّعث من الغور. ومن بينهم كان زنجي أشيب الشّعر، قام بجمع الحطب مـن أجل نارنا، ونظـراً لخدماته فقد أمضى اللّيلة معنا. كان ذا روح مرحة واسـمه مبروك[2] Mabūk. رقص بفرح حول نار المخيّم، غير آبه لكونه مشوّهاً على نحو غير طبيعي بالنّسبة لكائن إنساني. أخبرنا قصصاً عن الجند وكيف أتوا وهم في أسمال بالية، وتسقط أحذيتهم من أقدامهم على الرغم من أنه كان لا يزال اليوم الأول فقط من مسـيرهم، نصف جائعين، بائسـين فقـراء. اجتاز طابور (مكوّن مـن 900 رجل) في ذاك الصّباح وتـمّ توقّع طابور آخر غـداً ـ كنّا قد افتقدناهم. قال ميخائيل: «ما شـاء الله! سـعادتك محظوظة. فقد نجوت أوّلاً

(1) جرت العادة حتى اليوم تسمية هذه العاصمة النبطيّة العظيمة بصيغتها اليونانيّة: بترا، والمفترض أن نطلق عليها اسمها الحقيقي باللغة النبطيّة: سِلَع، التي تعني الصّخرة أصلاً وعنها تُرجمت التسميّة اليونانيّة بترا Πετρα التي تعني الصّخرة.

(2) تكتب المؤلفة الاسم بالإنكليزية: Mabuk، وتحت حرف k نقطة كدلالة على التفخيم، أي قاف، ولكن ماذا يكون الاسم في هذه الحال؟ مبوق؟ أم مبروك كما كتبناه؟

مـن التـلال الطّينيّة ثمّ من الرّدفاء[1] Redifs». تمتم مبروك: «الحمد لله!»، ومنذ ذلك اليوم اعتُبر نجمي نجم الحظ. وسمعنا من مبروك الإشاعة الأولى للصّحراء. كان كلامه دوماً عن ابن الرَّشيد[2]، الزّعيم الشّاب لقبيلة شمَّر، الذي ترك له عمّه القوي محمّد ميراثاً صعباً جداً من السّيادة في وسط الجزيرة العربيّة. لم أسمع في السّنتين الأوليين أي أخبار عن نجد ـ وعن التّنافس بين ابن سعود، حاكم الرّياض وابن الرَّشيد؟ إلى أين وصلت الحرب بينهما؟ كان مبروك قد سمع عدة شائعات؛ وقال الناس بأن ابن الرَّشيد كان في وضع صعب، ربما لأن الرُّدفاء كانوا مرتبطين بنجد وليس باليمن، من يعلم؟ وكنا قد سمعنا بأنّ شيخاً من قبيلة الصّخور Sukhur كان قد قُتِل من قِبل العجارمة Ajarmeh فور عودة القبيلة من المراعي الشّرقيّة.... لذا فقد انتقلت القصّة عبر المستويات المألوفة للعداوات الدّمويّة وتحميل الجِمال، وإشاعات الصّحراء ـ كدت أبكي من الفرح عند سماع ذلك مرّة أخرى.



دير مار سابا في بريّة اليهوديّة

---

(1) الرّديف في المصطلح العسكري للدّولة العثمانية يعني المجنّد في قوات الاحتياط.

(2) المقصود به عبد الأمير العزيز بن متعب بن عبد الله بن رَشيد، سادس حكّام إمارة آل الرّشيد في حائل بين 1897-1906. تولى الحكم بعد وفاة عمّه محمّد بن عبد الله الرّشيد، الذي لم يعقب ذكوراً، وكان تزوج من ابنته نورة. قتل في مناخ روضة مهنّا عام 1906.

كان هنـاك جلبـة مـن اللّهجـات العربيّة حول نـار مخيّمي ذلك المسـاء، وبالنّسـبة لميخائيـل فقـد تكلّـم بلهجة القـدس الدّارجة، وهي لغـة تفتقر للوقـار، وتكلّم حبيب بلهجة لبنانيّة بسـرعة هائلة، وكان محمّد يتشـدّق باللّهجة البيروتيّة بإيقاعها الخالي من التّعبير، في حين صدر من فم الزّنجي شيء مما يقارب كلام البدو القوي والفخم. وقد شُـدِه الرّجال أنفسـهم من اختلاف اللّهجات، والتفتوا إليّ فوراً وسألوني أيّها الأصح. ولم أستطع إلا أن أقول: «الله أعلم! لأنّه هو العليم»، واستُقبل جوابي بضحكة القبول على الرّغم من أنّي أعترف بأنّي قدّمته ببعض الرّيبة.

كان الفجـر سـاكناً ورماديّـاً. اسـتيقظت قبل سـاعة ونصـف من الفجر حتّـى أجهّز البغـال لبدء الرّحلة وهي القاعـدة التي التزمتها، ولكنّنا كنّا في بعض الأحيان نسـتيقظ أبكر بعشـر دقائق، وأحياناً للأسـف متأخّرين عشـر دقائق. أمضيت الوقـت بالتّحدّث مـع حارس الجسـر، وهو مواطن من القـدس. وقد أفضى إليّ بأسـراره وأحزانه نتيجة تعاطفـي معه، تحدّث عـن الحِيل الدّنيئة التـي اعتادت الحكومة العثمانيّـة فعلها معه، والعـبء الثقيـل خلال حرّ الصّيف. ومن ثمّ وبالنّسـبة للتّعويض! لا شـيء في النّهاية! كانـت مكاسـبه أكبر على أيّة حـال أكثر ممّا صرّح به، لأنّي اكتشـفت فيما بعد بأنّه أخذ منّي ثلاثة قروش بدلاً من اثنين عن كل واحد من حيواناتي السّبعة. من السّهل أن تكون علـى علاقـات ممتازة مـع الشّـرقيّين، وإذا كان لصداقتهم ثمن فإنه ثمـن غالباً ضئيل. عبرنـا نهر اليرموك[1] Rubicon مقابل ثلاثة قروش للشّـخص الواحد، وأخذنا الطّريق الشّمالي الذي يؤدّي إلى السّلط.

يتّجه الطّريق الأوسـط إلى حسـبان[2] Heshban، حيث يقيم الشّـيخ العظيم لكلّ عرب البلقاء، سـلطان بن علي ذياب العدوان، وهو رجل ماكر بكلّ معنى الكلمة، ويتجه الطريق الجنوبـي إلى مأدبا في مؤاب. والجانب الشّـرقي من الغور أكثر خصوبة من الغربي. يتدفّق

---

(1) تطلق المؤلفة على النّهر تسمية: روبيكون، وهو اسم نهر معروف في إيطاليا.
(2) ترد التسمية في الكتاب بالإنكليزية: حشبان، وهذا بحسب اللفظ الكنعاني القديم، لكن الشين تنقلب في العربية كما هو معروف إلى سين.

ماء غزير من التّلال الجميلة من عجلون ليحوّل السّهل إلى بستان، ولكنّ الكمّيّة غير كافية لتُختزن، ويكتفي عرب من قبائل العدوان بزراعة كمّيّات قليلة من الذّرة، ولم يأتِ أوان الإزهار بعد. وعند نهاية مارس يصبح الجانب الشّرقيّ من الغور بِساطاً من أزهار جميلة متنوّعة، تبقى لمدّة شهر واحد فقط في حرارة الوادي الشّديدة، وفي الحقيقة فهو شهر ترى فيه النّباتات خلال مرحلة التبرعم والإزهار والنّضج. أرانا عربي أشعث الطريق، كان قد نزل لينضمّ للرُّدفاء Redifs، وكان قد تمّ شراؤه كشخص بديل بسعر خمسين نابوليوناً (ليرة ذهبيّة فرنسيّة) من قِبل ثري من سكّان السلط. وعندما وصل الجسر اكتشف أنّه تأخر جدّاً، فقد اجتاز فوجه قبل يومين. شعر بالأسف، فمن الممكن أنّه كان يريد السّير مباشرة إلى الحرب (علاوة على ذلك، فأنا أتصوّر أنّ عليه إعادة خمسين ليرة إلى أصحابها). ولكن ابنته ستكون سعيدة، حيث أنّها بكت عندما رأته يذهب. وقف ليخلّص أحد خفّيه الجلديين من الطّين.



حائط المبكى في القُدس

قال وهو يلحق بي مرّة أخرى: «في السّنة القادمة، سوف أسافر إلى أميركا إن شاء الله».

نظرت مندهشة إلى شخص نصف عارٍ، وقد خرج حذاؤه من قدميه الحافيتين، وانزلقت

العباءة الممزّقة عن أكتافه، وغطاء رأسه الصّحراوي وعقاله المصنوع من وبر الجِمال.

سألته: «هل بإمكانك تحدّث الإنكليزية؟».

أجاب بهدوء: «لا، ولكن عليّ توفير تكاليف الرّحلة، والله لا يوجد هنا أيّ طائل من العمل».

سألته ماذا سيفعل عندما سيصل إلى الولايات المتّحدة.

أجاب: «أشتري وأبيع، وعندما أوفّر مبلغ مئتي ليرة سأعود».

يمكن سماع القصّة ذاتها في جميع أنحاء سوريا؛ يهاجر المئات خارج البلاد كلّ سنة، حيث يجدون في أيّ مكان يقيمون فيه بعضاً من أهل بلدتهم فيمدّون لهم يد المساعدة. يتجوّلون في الطّرقات ببضائع رخيصة، وينامون تحت الجسور، ويقتاتون على طعام يأبى أيّ مواطن حرّ النّظر إليه، وعندما يوفّرون مبلغ مئتي ليرة تقريباً، يعودون رجالاً أغنياء من وجهة نظر أهل قريتهم. أما في شرق الأردن فإنّ الهجرة الجماعيّة ليست كبيرة جدّاً، وذات مرّة في جبال حوران عندما توقّفتُ لأسأل عن الطّريق شاهدتُ درزيّاً، فأجابني بلهجة أميركيّة واضحة جداً. كتمتُ إعجابي عندما أخبرني قصّته، وسألته عند نهايتها إذا كان سيعود مرّة أخرى. نظر حوله إلى الحجارة، وأكواخ القرية، ثم ركع على ركبتيه في الطّين والثّلج الذّائب وأجاب: «ثقي تماماً!» وعندما التفت بعيداً أجاب مبتهجاً من خلفي «إلى اللّقاء!».



يهوديّان من بُخارى

بعد أن مشينا لمدّة ساعتين دخلنا التّلال عند وادٍ متعرّج سمّاه صديقي وادي الحَسَنيّة Wād el Hassaniyyeh، وفقاً لاسم القبيلة التي تحمل الاسم ذاته. كان مليئاً بشقائق النّعمان ونبات الرّتم أبيض اللّون (يسمّيه العرب rattam)، وبخور مريم، والمكحلة الياقوتيّة الحدقيّة وأشجار لوز برية. وبالنّسبة للنّباتات التي لا استخدام لها، مهما تكن جميلة، فليس لها اسم بالعربيّة؛ فهي جميعها حشيش؛ في حين أن أصغر الخضراوات المستخدمة معروفة ومميّزة في كلامهم. بدأ الطّريق يرتفع تدريجيّاً، وكان مجرّد طريق مبطئ للحركة. وفي الحال وقبل أن ندخل الضّباب الذي غطّى قمّة التّلّة رأينا البحر الميّت أسفل منّا إلى الجنوب، يمتدّ تحت السّماء الرّماديّة مثل قطعة كبيرة من مرآة غير صافية. وصلنا السّلط عند السّاعة الرّابعة في جوّ جبلي حقيقي، رطوبة وضباب متحرّك. فضلاً عن ذلك كانت الأرض قرب القرية عبارة عن أرض سبخة، بسبب المطر الذي كان قد هطل هنا، والذي انهمر علينا في اللّيلة الماضية.

تردّدت في أن أخيّم إلى أن استطعت إيجاد مأوى أكثر جفافاً. كان الأمر الأوّل هو أن نبحث عن بيت حبيب أفندي فارس Fāris، الذي أتيت إلى السّلط لرؤيته، على الرّغم من أنّي لا أعرفه. وكان طلبي له (لأنّي اعتمدت بشكل كامل على مساعدته لمتابعة رحلتي) بسبب هذه الحكمة: لقد كان متزوّجاً بابنة مبشّر محلّي في حيفا، وهو رجل مسنّ نبيل وصديق حميم لي. كانت أورفة Urfa على الفُرات موئل العائلة[1] *Stammplatz*، وكان أبو نمرود قد عاش طويلاً في السلط وعرف الصّحراء، وأمضى الجزء الأكبر من السّاعات التي كان من المفترض أن يعلّمني فيها قواعد اللّغة العربيّة في الاستماع إلى قصص العرب وابنه نمرود، الذي عمل مع حبيب فارس، والذي كان اسمه معلوماً لكل عرب البلقاء.

قال أبو نمرود: «إذا ما رغبتِ في أي وقت بالدّخول هناك، اذهبي إلى نمرود». وبناءً عليه ذهبت إلى نمرود.

وبعد استفسار قصير دلّنا على منزل حبيب فارس. استُقبلتُ بحفاوة، كان حبيب في

(1) تستخدم المؤلفة العبارة بالألمانية «شتامپلاتس»، وتعني: الموئل، المركز.

الخارج، بينما كان نمرود مسافراً (هل تخلى عنّي حظي؟)، ولكن ألا يمكنني الدّخول والاستراحة؟ كان المنزل صغيراً ومن الأطفال كثرة غامرة، وبينما كنت أفكّر فيما إذا كانت الأرض المغمورة بالماء في الخارج لن تقدّم مسكناً أفضل، ظهر هناك رجل مُسنّ مهيب بكامل الثّياب العربيّة، أخذ بلجام جوادي معلناً بأنّ عليه هو وليس أحد غيره أن يؤويني، وهكذا قادني بعيداً. تركت جوادي في الخان، وتسلّقت سلّماً طويلاً موحلاً ودخلت فناء مرصوفاً بالحجارة. أسرع يوسف أفندي إلى الدّاخل وفتح باب حجرة الضّيوف، كانت الأرض والأريكة مغطّاة بسجّاد سميك، والنّوافذ زجاجيّة (على الرّغم من أنّ الكثير من الألواح الزّجاجيّة كانت مكسورة). كان هناك خزانة أوروبيّة ملتصقة بالجدار: هذا أكثر من جيّد. وفي دقيقة كنت قد جلست، وأنا أشرب قهوة يوسف وآكل كعكي الخاص.

كان يوسف أفندي سكّر Yusef Effendi Sukkar (حيّاه الله!) مسيحيّاً، وأغنى سكّان السّلط. وهو رجل مقتضب في الكلام، ولكن لا يوازيه بكرم ضيافته أحد، فقد جهّز لي عشاءً ممتازاً، وعندما انتهيت قدّم البقايا لميخائيل. وبعد أن قدّم لي حاجاتي المادّية لم يستطع أو لم يرد فعل أيّ شيء لتهدئة قلقي الفكري حول جولتي الأبعد. ولحسن الحظ وصل في تلك اللّحظة حبيب فارس وأخت زوجته پولينا Paulina، وهي امرأة مسنّة مطّلعة، وعدّة أشخاص معروفين، وأسرع الجميع لينالوا شرف قضاء أمسية في الحديث معي. (لا وأيمُ الله! فقد كان الشّرف لي!) جلسنا من أجل شرب القهوة، القهوة العربيّة المرّة، والتي هي أطيب من أيّ طعم آخر. يُقدّم الفنجان مع كلمة «تفضّل»، وتعيده فارغاً متمتماً «عشت!» وأنت ترتشف رشفة، «صحتين»، وتردّ «على قلبك!»، وبعد أن دارت الفناجين مرة أو مرتين وتمّ تبادل جميع العبارات المؤدّبة الضّروريّة دخلت في موضوع عمل اللّيلة.



كاهنان جشيّان

كيـف يمكننـي الوصـول إلى جبل الـدّروز؟ ربما ترفـض الحكومـة إعطائي الإذن بذلـك، وهناك فـي عمّان مركز عسـكري على مدخـل طريق الصّحـراء؛ وقد عرفوني فـي بصرى، فقـد أفلتُّ من بين أصابعهم قبل خمس سـنوات، وهي حيلة سـيكون من الصّعـب لعبهـا مرّة ثانيـة في المكان نفسـه. واهتمّ حبيـب فارس بالموضـوع، واتّفقنا أخيراً على خطّة فيما بيننا. سوف يرسلني غداً إلى طنيب Tncib، إلى أرضه المزروعة بالحبوب عند حافّة الصّحراء؛ وهنالك سـوف أجد نمرود، الذي سيرسـل رسـالة إلى إحـدى القبائل الكبيرة وسـأتمكّن مع مرافق منهم من السّـير بأمان إلـى التّلال. جلس ابنا يوسـف الصّغيران يسـتمعان مذهولين، وفي نهاية الحديث أحضر واحد منهما لي قصاصـة ورق لإعـلانٍ عليها خريطـة أميركا. وعندهـا أريتهم خرائطـي وأخبرتهم كم العالم كبير وكم هو مكان جميل، وهكذا حتّى انفضّ الجمع عند السّاعة العاشرة، وبدأ يوسف يمدّ الأغطية من أجل سريري.

لم أكن قد رأيت مضيفتي بعد. كانت امرأة ذات جمال اسـتثنائي، طويلة وشـاحبة،

وكان وجهها بيضاوياً ممتلئاً، وعيناها الرائعتان مثل نجمتين. كانت تلبس ثياباً عربيّة، عبارة عن ثوب ضيّق بلون أزرق غامق يصطدم بكاحليها وهي تمشي، وربطت حجاباً قطنياً أزرق اللّون حول جبهتها مع منديل آخر سقط إلى الخلف على ظهرها حتّى الأرض تقريباً. وقد وُشِم كل من ذقنها وعنقها بوشم جميل أزرق اللّون وفقاً لعادة النّساء البدويات. أحضرت لي ماءً، وصبّته على يديّ، وتنقّلت في الغرفة بهدوء وجلال ومهابة، وعندما أنهت خدماتها اختفت بالهدوء ذاته الذي ظهرت به ولم أرها بعد ذلك. يقول الشاعر الذي كان مسجوناً في مكّة:

ألمّتْ فحيّتْ ثمّ قامتْ فودّعتْ فلمّا تولّتْ كادتِ النّفسُ تزهقُ

لا أحد يرى زوجة يوسف. فعلى الرّغم من أنّه كان مسيحيّاً، فهو يحتفظ بها متوحّدة على نحو صارم أكثر من أيّة امرأة مسلمة؛ ورغم كلّ شيء ربّما يكون على حق.

ضرب المطر على النّوافذ، واستلقيت على البطائن وهمسات ميخائيل المندهشة في أذنيّ: «ما شاء الله، سعادتك محظوظة».

* * *

الفصل الثّاني

تُعد قرية السَّلط مجتمعاً مزدهراً متألّقاً يتألّف ممّا يزيد عن عشرة آلاف نسمة، نصفهم من المسيحيّين. وهي تمتدّ في منطقة غنيّة مشهورة بالعنب والمشمش، وتُذكر حدائقها بالثّناء منذ القرن الرّابع عشر من قِبل عالم الجغرافيا العربيّ أبي الفداء. يوجد فيها قلعة متهدّمة، لكني لا أعلم تاريخها، على التّلّة فوق أسطح المنازل ذات العناقيد. والعرف السّائد بين السّكّان هو أن البلدة قديمة جداً؛ وفي الواقع، يصرّح المسيحيّون بأنّه كان يوجد في السَّلط أولى الطّوائف المسيحيّة، وما تزال هناك أيضاً أسطورة تقول بأنّ المسيح ألقى موعظته الأولى هنا. وعلى الرّغم من أنّ شجر المشمش لم يثمر أيّ شيء حتّى الآن، فقد كانت أغصان الوادي العارية تبدي جوّاً من ابتسامة غنيّة وأنا أسير عبرها مع حبيب فارس، الذي كان قد امتطى فرسه كي يدلّني على الطّريق. كانت لديه حصّته من بساتين المشمش والكروم، وابتسم بلطف كرجل محترم وأنا أمتدحها. ومن يستطيع ألا يبتسم في صباح كهذا؟ أشرقت الشّمس، وتألّقت الأرض بالصّقيع، واحتوى الهواء شفافيّة مذهلة لا تأتي إلا في يوم شتوي متألّق بعد المطر.

لم يكن مجرّد شعور من الودّ ذاك الذي ألهب كلماتي؛ ولكن يُعتبر مسيحيو السلط ومادبا أذكياء ومن عرق مجدّ، ويستحقّون المديح. وخلال السّنوات الخمس منذ أن قمت بزيارة تلك المنطقة قاموا بدفع حدود الأماكن المزروعة إلى الأمام على مسافة ساعتين على ظهر الجواد نحو الشّرق، وأثبتوا قيمة الأرض على نحو قاطع بحيث أنه عندما مُدَّت سكّة حديد الحج عبرها وضع السّلطان يده على طريق عظيم يمتدّ جنوباً

إلى مَعان، قاصداً تحويلها إلى أراضي دولة زراعيّة. وستمنحه هو وقاطنيها ثروة كبيرة، فعلى الرغم من كونه حاكماً رديئاً، فهو إقطاعي جيد.

بعد مسيرة نصف ساعة من السَّلط، تركني حبيب، وعهد بي إلى عامله الزّراعي يوسف، وهو رجل قويّ البنية مشى سريعاً بجانبي حاملاً هراوته الخشبية (يسمّيها العرب قنوة Gunwa) على كتفه. سافرنا عبر وديان واسعة، لا شجر فيها، غير مسكونة، وغير مزروعة إلى حدّ ما، حول رأس سهل البلقاء Belka، واجتزنا سهل وادي السّير Wady Sir المفتوح، نحو الأسفل حيث يمكن للشّخص أن يسير عبر أشجار البلّوط طوال الطّريق حتّى الغور. ويمكن أن يكون هناك أشجار على التّلال أيضاً فيما لو سمح لها الفحّامون بالنّمو ـ مررنا بعدّة أجمات قزمة من البلّوط والزّعرور ـ ولم أرغب بأي تغيير في الأرض الفاتنة شرقي الأردن. وبعد جيل أو اثنين من الآن سوف تُزرع بالحبوب وتتناثر فوقها القرى، وسوف تدير مياه وادي السّير دواليب الطّحن، وربما يكون هناك طرقات: الحمد لله! فلن أكون هناك لأرى ذلك. ففي زماني ستبقى هذه النّجود تلك المنطقة السّارّة التي يشير إليها عمر الخيام بقوله: «الطّريق العشبي الذي يفصل الصّحراء عن الأرض المزروعة»؛ وستبقى فارغة باستثناء راع تائه يقف قرب قطيعه ومعه بندقيّة طويلة؛ وعندما أقابل فارساً فذاً يسير بجواده فوق تلك التّلال وأسأله من أين أتى، سيجيب دوماً: «الله يوسّع عليك! من عند العرب».



عربي من مجموعة حرّاس العُدوان

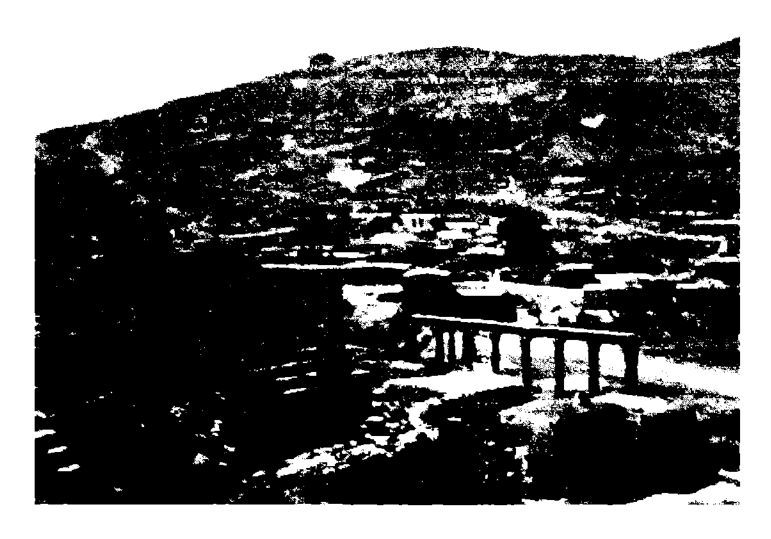
كان هـذا ما كنا ذاهبين إليه، إلى العرب. فهنـاك في الصّحراء لا يوجد بدو، وقاطنو الخيـام كلهم عـرب (بإيقاع جميل من البلعوم)، ولا تُستخدم كلمة خيام ولكن بيوت - «بيـوت مـن شـعر» يقولونهـا إذا اقتضى الأمر بعض الشّـرح، ولكن يكتفـون عادة بـ «بيـوت» فقط باستخفاف متعالٍ لأي دلالـة أخرى لكلمة تحمل معنى بيت سـقفه من شـعر ماعز أسـود. ومن الممكن أن تسـمّى عربياً حتى لو كنت تسكن بيـن الجدران. يُصنّف سكّان السلط بين قبائل البلقاء مع العبادي Abadeh والدّعجة Da'ja والحَسَنيّة Hassaniyych وغيرهـا الكثيـر التي تشـكّل قبيلة العـدوان العظمى. ويتنـازع الحكّام الأقويـاء السّـيادة هنـا على الصّحـراء السّـوريّة، وهم بنـو صَخـر Beni Sakhr وعْنِزَة Anazeh. وتوجـد صداقة تقليديّة بين الصّخور وقبائل البلقاء ولكن تفسّـرها حوادث مؤسفة، ربّما كان ذلك هو السّبب الذي جعلني أسمع في تلك الأجزاء بأنّ عْنِزَة كانت الأكثـر عـدداً، ولكن الأقـلّ تميّزاً بالشّـجاعة بين القبيلتيـن. وأنا على معرفة شـخصيّة مقرونـة بالاحترام مـع أحد أبناء طلال الفايز زعيم قبيلة بني صَخر كلّها. وقد التقيتُ به قبل خمس سنوات في هذه السّهول بالذّات، بعد شهر من الفصل الذي تنتقل فيه قبيلته نحو الأردن خارج المراعي الشّرقيّة الحارّة.



مضارب عند البحر الميت

كنت أسير على جوادي يرافقني ضابط چركسي من مأدبا إلى المشتّى Mshitta ـ وكان ذلك قبل أن يقوم الألمان بقطع الواجهة المنحوتة من ذلك المبنى الجميل. كان السّهل مغطّى بالقطيع والخيام السّوداء لقبيلة الصّخور، وعندما سرنا بينهم أسرع باعتراضنا ثلاثة فرسان، سود الحواجب، مسلّحون حتّى أسنانهم، بملامح متوعّدة. ألقوا علينا التّحيّة من بعيد، ولكن عندما رأوا الجندي استداروا وعادوا ببطء. ضحك الچركسي وقال: «كان ذاك الشيخ فايز بن طلال. مثل الأغنام والله! مثل الأغنام عندما تقابل واحداً منا». أنا لا أعرف عَنِزَة وذلك بسبب أنّ إقامتهم المعتادة في الشّتاء تكون أقرب إلى الفُرات ولكن مع اختلافهم مع الصّخور فأنا أميل إلى أن منافسيهم هم الأرستقراطيّون الأصليّون في الصّحراء. وتتمتّع عائلتهم الحاكمة، بنو الشّعلان، باسم وجاهٍ محترمين، وخيولهم هي الأفضل في كل منطقة الجزيرة العربيّة، ومن أجل ذلك، حتّى شمَّر، وأتباع ابن الرَّشيد، يقصدونهم ليحسّنوا من نسل خيولهم.

ومن النّجود الوعرة التي تنتصب بأعلى الغور، دخلنا أرضاً متموّجة قليلاً وفيها عدة أماكن صغيرة مخرّبة مبعثرة عليها. كانت هناك واحدة عند رأس وادي السّير Wady Sir وقبل أن نصل إليه بربع ساعة كنا قد رأينا مقداراً كبيراً من الأساسات وصهريجاً كبيراً، يسمّيه العرب بركة أم العمود. قال يوسف إنّ اسمه يعود إلى عمود واقف في منتصف البركة، وهو محاط بالماء؛ وقام عربي بإطلاق النّار عليه وكسره، وتقبع أجزاؤه المتكسّرة في قعر البركة. والتلّ المجاور لها الذي يحمل اسم عمره مغطّى بالخرائب، وإلى مكان أبعد عند يادودة هناك أضرحة منحوتة الحجارة وتوابيت حجرية تمتدّ على حافّة الصّهريج. وانتشرت في جميع مشارف الصّحراء بقايا أثريّة مشابهة من ماضٍ كثيف السّكّان، بقرى من القرنين الخامس والسّادس عندما كانت مأدبا مدينة مسيحيّة غنيّة ومزدهرة، على الرّغم من أنّه، وبالتّأكيد، لا يزال هناك بعض البقايا التي تعود ربّما إلى ما قبل الرّومان.

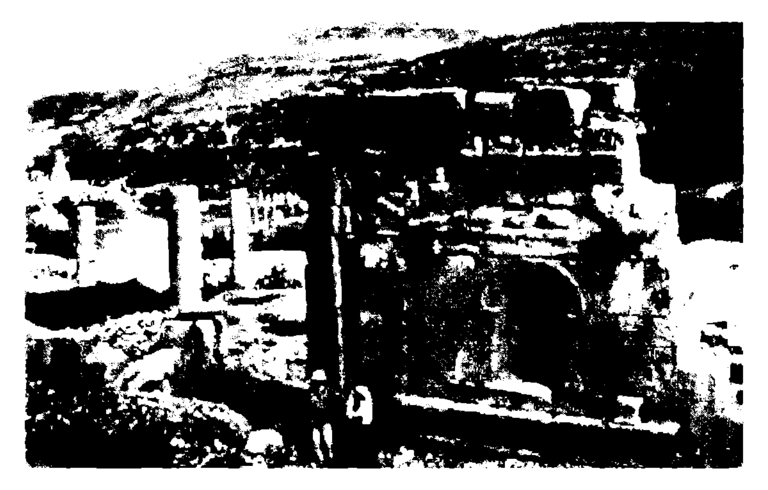


المسرح في عمّان

وقد سُكنت يادودة ذات القبور من قبل أحد مسيحيي السَّلط، ومن أعظم زارعي القمح في تلك الأماكن، والذي عاش بخشونة في بيت ريفي بُني على قمّة التّل؛ وهو أيضاً أحد الوافدين الجدد الفعّالين الذين انهمكوا في توسيع أطراف مناطق الزّراعة. ومن هنا غادرنا المدينة المتموّجة وانتقلنا إلى حوافّ سهل غير محدود، أخضر اللّون بعشب قليل، تتخلّله تلّة مستديرة أو ظهر جرف منخفض ـ ومن ثمّ يمتدّ السّهل مرّة أخرى، بشكل مريح للعين، لا يدعو إلى الملل أبداً، وهو ينحدر تحت أشعّة غروب شمس الشّتاء السّاحرة، ووديان متعرّجة بلين مغطّاة بالضّباب، ومنحدرات مرتفعة برفق لتحتضن ضوء الشّمس، وفوقها جميعاً قبّة السّماء التي تقنطر الصّحراء كما تقنطر البحر.

كانت الرّابية الأولى تسمّى طنيب Tneib، وقد وصلنا إليها بعد سير تسع ساعات، عند السّاعة الخامسة والنّصف، والشّمس تغيب، ونصبنا الخيام على المنحدر الجنوبي. كانت التّلّة مليئة بالخرائب، جدران منخفضة من الحجارة المنحوتة امتدّت من دون ملاط، أحواض من صخور مقطّعة، خصّص بعضها أصلاً من دون شك من

أجل الحبوب وليس من أجل الماء، وتُستخدم لهذا الغرض في الوقت الحالي، وبركة مفتوحة مليئة بالتّراب. كان نمرود قد ذهب لزيارة أرض زراعيّة مجاورة، ولكن أحد رجاله قام بالذهاب لإخباره عن وصولي وعاد عند السّاعة العاشرة تحت ضوء النّجوم الجليدي، مع الكثير من تأكيدات السّرور والسّلامة بأنّ أمنياتي كانت سهلة التّنفيذ. لذا ذهبتُ لأنام متلفعة بصمت الصّحراء البارد، واستيقظت في اليوم التّالي لعالم متألّق من أشعّة الشّمس والآمال المشرقة.



بوّابة في عمّان

كان أوّل شيء ينبغي فعله هو أن نرسل رسولاً إلى العرب. وبعد مشاورة، قُرِّر بأن الدّعجة[1] Da'ja، وهي قبيلة من البَلقاء، هي التي ستكون الأقرب إلينا والخيار الأفضل للاتّصال، وقد أُرسل إلى مخيّمهم رسول. أمضينا فترة الصّباح نتفحّص الرّابية ونشاهد مجموعة من قطع نقود نحاسيّة خرجت بفعل محراث نمرود ـ كانت كلها

(1) الدّعجة من تحالف عشائر البلقاء، من جذمي قحطان وعدنان، والدَّعجة الأصليّون يرجعون بنسبهم إلى جُذام من قحطان، وتتألف من ثلاث فرق رئيسية هي: الرّشايدة، والشّبيكات، والخصيلات. وتقع ديرتها في محيط مدينة عمّان وتمتدّ شرقاً حتى الأزرق، ويحدّها من الشمال أراضي قبيلة بني حسن التي ستذكرها المؤلفة مراراً. والنخوة العامة لعشائر الدّعجة: عيال الامنيات.

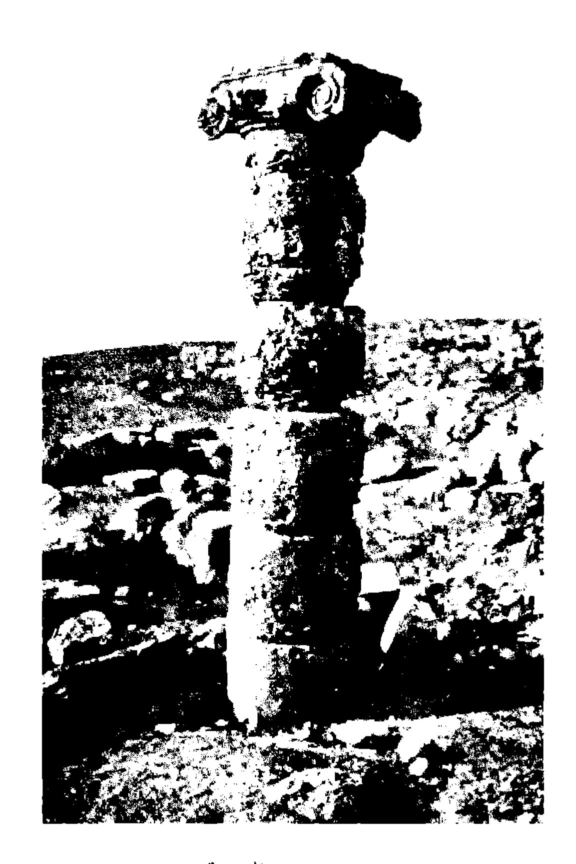
رومانيّة، وتظهر واحدة منها على نحو مبهم ملامح قسطنطين، وكان بعضها أقدم ولكن لا توجد ولا واحدة من الزمن البيزنطي المتأخّر، ولا من أيام الحروب الصّليبيّة؛ وبقدر ما كانت العملات برهاناً فإن طنيب كانت قد طمرت منذ زمن الاجتياح العربي.

ولقد اكتشف نمرود المقبرة الكبيرة، ولكن لم يكن هناك ما يمكن إيجاده في القبور، التي كانت قد نهبت على الأرجح قبل قرون. كانت منحوتة بالحجارة وبأشياء تشبه صهريجاً. وهناك قوسان من الصّخر الأصم مع فسحات بينها لمدخل ضيّق على سطح الأرض، وبعض الزّيادات النّاتئة على الجدران الجانبيّة، تشكّل مواطئ أقدام هؤلاء الذين عليهم النّزول، تجاويف تمتدّ مثل الرّفوف حول الحجرات وتصطفّ الواحدة فوق الأخرى، وهكذا كان مظهرها. وباتّجاه أسفل الرّابية على الجانب الجنوبي كانت هناك أساسات بناء وربّما كان آثار كنيسة. ولكن كانت تلك نتائج (مكتشفات) هزيلة ليوم من الاستكشاف.

سرنا في شمس بعد الظّهر الذّهبيّة لمدّة ساعتين إلى الشّمال في وادٍ عريض يقع بين حرفين منخفضين. كانت هناك خرائب تبعثرت على مسافات حول حافّته، وإلى الشّرق كانت توجد بعض الجدران المهدّمة تقف في وسط الوادي - ودعا نمرود هذا الموضع، قُصير السَّهل Kuseir es Sahl، أي حصن السّهل الصّغير. كان هدفنا مجموعة من الأبنية عند النّهاية الغربيّة، هي خريبة السّوق Khurcibet es Suk. أتينا أولاً إلى صرح بقياس (41 قدماً في 39 قدماً وثمانية إنشات، وكان الجانب الأطول يمتدّ من الشّرق إلى الغرب) مدفون إلى نصفه في الأرض. أشار تابوتان حجريان في الخارج إلى أنّ المكان كان مقبرة. كان الجدار الغربيّ مخترقاً بمدخل مقنطر، وكانت القنطرة قد زيّنت بحلية معماريّة مسطّحة، ويضيق الجدار فوق مستوى القنطرة بسبب امتداد ارتداد جدار صغير، وطبقتين فوق إفريز منحوت يمتدّ حول البناء.

وعلى بُعد مئتي ياردة غرب القصر أو القلعة (يسمي العرب معظم الأطلال إما قلعة أو دير) يوجد معبد مخرّب. ومن الجليّ أنّه تحوّل في بعض الأزمنة إلى استخدامات أخرى أكثر من تلك التي بُني من أجلها، لأنّه كانت هناك جدران محطّمة حول صفّين

مـن سـبعة أعمـدة، وجـدران متصالبة يتعـذّر تعليلهـا باتّجـاه النّهاية الغربيّـة لصفوف الأعمـدة. بـدا أنه كانت هناك سـاحتان فـي الخلف، ولا تـزال تمتدّ في اتجـاه الغرب تركيبة من أساسـات مخرّبة. كان المدخل نحو الشّـرق، زُيّنت دعاماته بنقوش جميلة، قطع صغيرة مستطيلة (عصابة رأس)، وبلميط (نوع من النّخل قصير مروحي السّعف)، وقطعة مسـتطيلة أخرى مسطّحة، ونتوء مستدير معمول على شكل ورق عنب، وخرزة وبَكَرة، وبيضة وسهم مُرَيَّش وبلميطة أخرى على السيمة (cyma)، كانت جميعها تشبه إلى حدّ بعيد جداً الآثار في تدمر ـ ولا يمكن محاكاة المخرّمات الحجريّة في المشـتّى Mshitta إلا بصعوبة، وبالإضافة إلى ذلك فهي تمنح شـعوراً أكثر اتزاناً، وقريباً بشكل أكبر للأشكال التّقليديّة، أكثر من تلك الموجودة هناك.



معبد خرَبة السّوق

وإلى الشّمال من المعبد وعلى قمّة أرض مرتفعة قليلاً، كانت هناك خربة أخرى وثبت أنّها مقبرة أخرى. إنه مبنى مستطيل الشّكل، بُني من حجارة كبيرة رُصفت فوق بعضها من دون ملاط، ويمتدّ عند الزّاوية الجنوبيّة الشّرقية درج إلى ما يشبه حجرة انتظار، على مستوى سطح الأرض عند الجانب الشّرقي بسبب انحدار التّلّة. كان هناك عمود يرتكز على الجانب الخارجي لحجرة الانتظار هذه، وربما هو أثر لصفّ الأعمدة التي زيّنت واجهة المبنى الشّرقيّة. وضعت ستة توابيت حجريّة بالطّول، اثنان على طول كل جدار من الجدران الباقية، شمالاً وجنوباً وغرباً. وتمتدّ إلى الأسفل من قاعدة الأعمدة في جانبيّ الدّرج حلية معماريّة تتألّف من نتوء مستدير واضح بين قطعتين مستطيلتين، وتظهر التّزيينات ذاتها على الجانب الدّاخلي من التّابوت. ترتفع واجهة دعامة الحائط على الجانب الجنوبي في شكلين، ومن ناحية أخرى فإنّ البناء كلّه كان بسيطاً تماماً، على الرّغم من بعض الأجزاء المبعثرة في الجوار على العشب وقد نُقشت على شكل ورق عنب متدلٍ. تعيد هذه المقبرة إلى الأذهان نموذج المعبد الهرمي الشّائع في شمال سوريا؛ ولا أتذكّر أي مثال آخر له بعيداً في الجنوب. ربما كان يشبه الأثر الجميل مع الواجهة المعمَّدة والذي يعتبر أحد مواضع اعتزاز الدّانا Dana الجنوبيّة، وربّما كانت القطع من أوراق العنب جزءاً من السّطح المعمَّد.



ضريح في خرَبة السّوق

عندما عدتُ إلى مخيّمي قبل الغروب بقليل، علمت بأن الصّبيّ الذي كنّا قد أرسلناه في الصّباح تلكّأ في الطّريق، وذعرت عندما تأخّر الوقت، وعاد دون أن يتمّ مهمّته. كان هذا شيئاً مزعجاً إلى حدّ بعيد، ولكن لم يكن هناك أي شيء يقارن مع تقلّبات الطّقس في اليوم التّالي. استيقظت لأستكشف السّهل العظيم المغطّى بالضّباب والمطر. هبّت علينا طوال اليوم رياح جنوبيّة، والعاصفة تضرب فوق جدران خيمتنا القماشيّة. وفي المساء أحضر نمرود أخباراً بأنّ كهفه قد غزاه الضّيوف. كان هناك بعض الخيام للصّخور على بعد ميل أو اثنين منّا (وكان معظم أفراد القبيلة لا يزالون بعيدين في الشّرق، حيث المناخ الشّتوي أقلّ قسوة). كانت أمطار اليوم غزيرة جدّاً، بحيث لا يمكن إقامة مساكن للرّجال، فامتطوا جيادهم وساروا إلى طنيب، تاركين نساءهم وأطفالهم ليغيّروا أماكنهم بأنفسهم خلال اللّيل. تجاذب الجمع الحديث بعد يوم طويل مبتلّ، فانضممتُ إليهم.

يقع كهف نمرود بعيداً داخل الهضبة، حيث يمكن أن يصل إلى منتصف تلّة طنيب Tneib. كانت الحجرة الأولى الكبيرة طبيعيّة على نحو بيّن، إلاّ فيما يتعلّق بأماكن النّوم المنخفضة ومعالف الماشية التي كانت محفورة حول الجدران. يقود ممرّ صغير منحوت في الصّخر إلى غرفة أصغر، ويوجد أيضاً غرف أخرى في الخلف استخدمتُهما بثقة. كان للهواء الحارّ الفاسد والأسراب التي لا تُحصى من الذّباب دورٌ في ثنيي عن اكتشاف ما هو أبعد.

في ذلك المساء أظهر الكهف مشهداً بدائيّاً ومتوحّشاً بما يكفي ليُرضي أكثر الأرواح حبّاً للمغامرة. كان العرب، الذين يبلغ عددهم ما بين العشرة إلى الاثني عشرة ينتعلون أحذية جلديّة حمراء اللّون ويرتدون معاطف مخطّطة مبلّلة بمياه المطر. كانوا يجلسون في المنتصف حول نار ضعيفة وقد وضع فوق رمادها ثلاث دِلال قهوة حُضِّرت خصّيصاً لمجتمع الصّحراء. جلسْت خلفهم امرأة تطبخ أرزاً على نار أقوى تطلق ضوءاً مضطرباً في تجاويف الكهف، وأظهرت ماشية نمرود وهي تمضغ تبناً من المعالف المقطوعة في الصخر.

نُظِّف مكان لي من الطّين نسبياً في حلقة الرّجال، وحُضّر فنجان قهوة ودار الحديث لمدّة ربما تكفي لأن يدخّن عربيّ غليونه خمس مرّات. كان الحديث بشكل أساسيّ حول ظلم الحكومة. إن يد العدالة، أو على الأصح التّهديد بالقوّة المسلّحة، يعتبر تهديداً متواصلاً على أطراف الصّحراء. وفي تلك السّنة أذكت ضرورات الحرب النّار لنشاط مشؤوم وتمّت مصادرة الجِمال والجياد بالجملة على طول الحدود دون أمل بتعويض مالي أو أي بديل عنه. كان العرب قد جمعوا معاً مواشيهم التي تُركت لهم وأرسلوها بعيداً على بعد خمسة أو ستّة أيّام شرقاً، حيث لا يجرؤ الجند على الوصول إليها، وفعل نمرود مثلهم، محتفظاً فقط ببعض الماشية التي يحتاجها للحراثة، وتابع واحد تلو الآخر من الضيوف سرد القصّة: وقعقعت أصوات قويّة حول الكهف. أقسم بالله وبمحمّد نبيّ الله بأنّنا أنزلنا اللّعنات على الفرسان الچركس ويتوجّب علينا جعل هؤلاء الفرسان الأقوياء يترنّحون من على صهوات جيادهم.



عرب البَلقاء

ومن وقت لآخر كان رأس مكسو بخصلات شعر سوداء صغيرة حول الوجنتين تحت الوشاح المخطّط ينحني إلى الأمام باتجاه وهج الرّماد لالتقاط جمرة حارّة من أجل الغليون، وتمدّ يد إلى فناجين القهوة، أو إلى نار الطّهي التي تتوهّج أسفل كومة

من الشّوك، ويجعل ضوء مفاجئ الذّباب يطنّ والأبقار تتحرّك بصعوبة. لم يكن نمرود مسروراً لرؤية ذخيرته من حطب الوقود الذي جمعه بمشقّة تتبدّد تدريجيّاً، وحبوب قهوته تختفي في حفنات قليلة في الهاون. («والله! إنّهم يأكلون القليل عندما يأكلون لوحدهم، ولكن عندما يكونون ضيوفاً يأكلون الكثير هم وجيادهم؛ والقمح قليل في هذا الوقت من السّنة»).

ولكنّ كلمة «ضيف» كلمة مقدّسة من الأردن إلى الفُرات ويعلم نمرود جيّداً بأنّه يدين بجزء كبير من وضعه وأمنه لحسن الضّيافة الذي يطال جميع الوافدين، بغض النّظر عن المكان والزّمان. أضفتُ حصّتي من المرح للمجموعة بتوزيع صندوق من السّجائر، وقبل أن أغادر كان جوّ من الودّ قد ساد بيني وبين الرّجال من بني صَخر.

كان اليوم التّالي واعداً على نحو أقلّ من ذاك الذي سبقه. لم يكن البغّالون يرغبون كثيراً بمغادرة حِمى الكهوف وتعريض حيواناتهم لمطر كهذا في الصّحراء المفتوحة. وافقتُ على تأخير الرّحلة على مضض، وأرسلتهم إلى مأدبا، على بعد ثلاث ساعات، لشراء شوفان للأحصنة، محذّرة إيّاهم بألا يذكروا من أين أتوا. خفّ هطول الأمطار في فترة ما بعد الظّهر، وسِرتُ عبر السّهل جنوباً إلى القسطل، وهو معسكر رومانيّ محصّن يقع على تلّة.

لم يكن هذا النّموذج من الحصون نادراً على الحدود الشّرقيّة للإمبراطوريّة، وكان قد قلّده الغساسنة Ghassanids عندما أسّسوا دولتهم في الصّحراء السّوريّة، لو كانت المشتّى في الواقع، وكما يُظنّ، تعود إلى زمنهم. ولكن مع نموذج أكثر إتقاناً من أبنية الطّراز ذاته في المنطقة. يتكوّن حصن القسطل من سور قويّ دائري، وله مدخل واحد نحو الشّرق وأجزاء مستديرة ناتئة عند الزّوايا في كل الجوانب. وفي الدّاخل، توجد سلسلة من حجرات مقنطرة متوازية تاركة فناءً مفتوحاً في الوسط - ويختلف المخطّط بشكل بسيط عن قصر البيضا el Beida في الصَّفا وعن الخانات الحديثة[1].

(1) كتبت المؤلفة: لقد تمّ طبع مخطّطات رائعة وصور للقلعة من قِبل برونّوف Brunnow ددوماشيفسكي Domaszewski في المجلد الثاني من مؤلفهما الكبير المعنون: *Die Provincia Arabia*. ولم يكن هذا المجلّد قد طُبع عندما زرتُ القسطل.

ويوجد إلى الشّمال بناء منفصل، وعلى الأرجح هو مركز الحكم Praetorium، منزل قائد القلعة، وهو يتألّف من حجرة مقنطرة كبيرة، مع ساحة مسوّرة أمامه، وبرج مستدير عند الزّاوية الجنوبيّة الغربيّة. ويوجد داخل البرج درج ملتفّ ومجموعة من تزيينات حول الجزء الخارجي المكوّن من إطار من الأعلى وأفاريز مستطيلة ناتئة محزّزة في الأسفل، مع فواصل ضيّقة من دون زخرفة بينها. ويعتبر المبنى جيّداً على نحو غير عادي، بتلك الجدران ذات السّماكة الكبيرة؛ والحمايات الممتدة إلى أبعد حدوده، ربما كان سكّان روما ينامون بأمان طوال اللّيالي.

عندما مررتُ بالقسطل قبل خمس سنوات لم تكن مسكونة وكانت الأرض التي حولها غير مزروعة، ولكن بعض عائلات الفلاّحين تستوطن الآن تحت السّراديب المخرّبة وتنمو الحنطة النّضرة أسفل الأسوار، بظروف لا بدّ أنّها ومن دون أيّ شك ستدفئ قلب محبّ الإنسانيّة، ولكنّها سترسل شعوراً بارداً في صدر محبّ الآثار؛ إذ ليس هناك ماحٍ للآثار مثل شفرات المحراث، ولا هادم مثل الفلاّح الذي يبحث عن حجارة مقطوعة ليبني كوخه. ولاحظت إشارة أخرى على التّعدّي على الحضارة من خلال تصرف جنديين نصف جائعين، وهما حارسي أقرب موقف لسكّة حديد الحجاز، التي تُدعى زيزاء[1] Ziza بعد الخرائب على بعد أميال إلى الغرب منها. كان هدف زيارتهما دجاجة هزيلة قام واحد منهما بإمساكها بيده. كان قد سحبها من بين رفيقاتها الهزيلة في فناء القلعة ـ ومهما تكن الظّروف فقد كان من الأفضل عدم البحث في هذا الموضوع، حيث أنّ الإنسان الجائع لا يعرف قانوناً. لم أكن متلهّفة بشكل خاصّ لتواجدي في تلك الحدود الخاضعة للسّلطات في عمّان، وإلى حدّ ما غادرت بسرعة وسرت شرقاً إلى زيزاء Ziza.

(١) يلفظ البدو اسمها باللهجة المحليّة: زيزيا، وفيها بركة ماء معروفة كان يستقي منها الحجّاج في طريقهم إلى الحجاز.



كنيسة داثرة في مادَبا

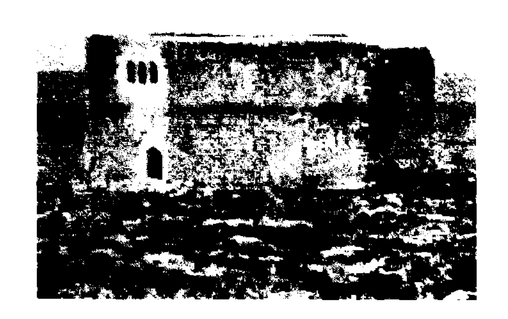
كانت الأمطار قد ملأت مجاري الصّحراء المائيّة، وهي لا تتدفّق غالباً بهذه الغزارة أو بهذه السّرعة كما هو الحال في المجرى الذي كان علينا عبوره في تلك الظّهيرة. كانت بركة زيزاء Ziza الرّوماني الكبير قد امتلأت أيضاً حتى الحافّة، وعليه فإنّ الصّخور سيجدون هناك ماءً خلال فترة الصّيف التّالية. وتنتشر الخرائب على نحو بعيد جدّاً أكثر من تلك الموجودة في القسطل؛ ويفترض وجود مدينة كبيرة هُنا، وذلك بسبب وجود أساسات المنازل التي تغطّي منطقة واسعة. ربّما كانت القسطل المخيّم الحصين الذي يحمي تلك المدينة، ويتشارك الاثنان معاً اسم زيزاء Ziza الذي ذُكر في التّذكرة Notitia:

"Equites Dalmatici Illyriciana Ziza".

وهناك قلعة تعود إلى العصور الإسلاميّة Saracenic، وقد رمَّمت من قبل الشيخ[1] Soktan من الصّخور، فُرشت من قِبله، بفخامة غير معروفة في الصّحراء، وفقاً لما قاله نمرود؛ ولكنّها سقطت الآن بيد السّلطان، حيث أنّها واقعة في حدود دولته وأصبحت بناءً عليه خربة. تمتلئ التّلال الخلفيّة بالأساسات، ومن بينها أساسات مسجد، كان المحراب لا يزال واضحاً في الجنوب. احتُلّت زيزاء Ziza من قِبل حامية عسكريّة

(1) أظنها تعني الشيخ سطام بن فندي الفايز، شيخ مشايخ بني صخر آنذاك. وقد سكن الشيخ سطّام قرية أم العمد، فلعلها هي المكان الذي تذكره بل أعلاه.

مصريّة في زمن إبراهيم باشا، وكان جنوده هم الذين أكملوا تدمير الأبنية القديمة. وقبل أن يأتوا كانت عدّة صروح بما فيها عدة كنائس مسيحيّة، لا تزال قائمة في حالة من الصّيانة الجيّدة إلى حدّ ما، وفقاً لقول العرب.



القلعة عند زيزاء

جعلنا طريق عودتنا على طول حافّة جسر سكّة الحديد، وكنّا ونحن نسير نتكلم عن الفوائد الممكنة التي يمكن للأرض أن تجنيها من الطّريق نفسه. كان نمرود متردّداً بشأن هذا الموضوع. نظر شزراً إلى الموظّفين والجند، الذين لم يكن لحسن الضّيافة أن ينتزع جشعهم أكثر من العرب الذين كان لديهم عدّة أسباب لإيذائه بشكل كبير. كان قد أرسل حمولات قليلة من الحنطة إلى دمشق عن طريق شاحنات القطار السّنة الفائتة؛ أجل، لقد كانت طريقة أسهل وأسرع في النّقل أكثر من أن تكون عن طريق جماله، هذا إذا وصلت البضائع بأيّة حال؛ لكن وبشكل عام فإنّ أكياس الحنطة كانت أخفّ بكثير عندما وصلت المدينة أكثر منها عندما حمّلها نمرود في الشّاحنات وبناء على ذلك اختفت الفائدة. من الممكن أن يتحسّن هذا الوضع مع الوقت ـ في الوقت الذي يُسمح فيه للمصابيح والوسائد وجميع التّجهيزات لسكّة حديد الصّحراء باستثناء المقاعد العارية أن تبقى في مكانها كما هي يوم صُنعت وبِيعت.

تحدثّنا أيضاً عن الخرافة والمخاوف التي تقبض القلب ليلاً. قال إن هناك أماكن لا

يمكـن للعرب أبداً أن يغامروا في المرور بها بعد حلول الظّلام ـ مثل الآبار التي تنتابها الأشباح والتي لا يجرؤ الرّجال الذين يعانون العطش على الاقتراب منها، والخرائب التـي لا يمكـن للمتعبيـن اتخاذها ملجـأ، والوديان التـي كانت أراضي سـيّئة غير قابلة للتّخييـم أو الانزواء. ممّ كانوا يخافون؟ من الجنّ؛ من كان يسـتطيع الإخبار عن الذي يخيـف الرّجال؟ لقد جعل هو نفسـه عربيـاً يخرج عن طوره بالقفز عاريـاً من بركة ماء منعزلـة في الفجر نصـف المظلم. ركض الرّجل عائداً إلى خيامه، وأقسـم بأنّه قد رأى جنّيـاً، وعلى قومه ألا ينزلوا للشّـرب في المكان حيث يقيم، إلـى أن دخل نمرود وهو يضحك عليه وأخبره بقصّته.

لـم نرجـع إلى خيامنا فـوراً، فقد دُعيت إلى العشـاء تلك اللّيلة من قِبل الشـيخ نهار Nahar من بني صَخر، وهو الذي كان قد أمضى اللّيلة الماضية في كهف نمرود؛ وأُخِذ القرار بعد التّشـاور بأنّ الدّعوة يجـب ألا تقبلها واحدة في مثل مقامي الرّفيع. وأضاف نمرود: «ولكن بشـكل عام عليك ألا تذهبي إلاّ إلى خيمة شيخ عظيم، أو أنّك ستقعين في أيدي أولئك الذين يدعونك من أجل الحصول على هداياك فقط. حسـناً، وإن نهار رجل شـريف على الرّغم من أنه مسـكين»، وهي كلمة تغطي كل أشكال الازدراء، من تلك التي تمتدّ من الفقر الشّريف عبر البلاهة إلى الدّرجات الأولى من الرّذيلة.



مضارب لقوم مسيحيين

استقبلني المسكين بجلال كأنّي أميرة، واستدعاني إلى مكان الشّرف على سجّادة باليـة بين الحفرة المربّعة في الأرض التي تُستخدم كموقد وبيـن الحاجز الذي يفصل أماكـن النّسـاء عن الرّجال. ربطنـا خيولنا إلى حبال الخيمة التـي تعطي قوّة رائعة لمثل هـذا المنزل البسـيط، وجالـت أعيننا خارجاً في المكان حيث جلسـنا باتّجاه السّـهول الممتدّة شـرقاً – علوّاً وانحداراً، ترتفع وتنخفـض وكأنّ الصّحراء تتنفّس بهدوء تحت الظّلام الحالك. إن الجانب المحجوب عن الرّيح في خيمة العربي مفتوح دائماً للهواء الطّلـق، وإذا تغيّـر اتجّاه الرّيح تقوم النّسـاء بإنزال جدار الخيمـة ويجعلنه مقابل اتّجاه آخر، وخـلال دقائق يغيّر منزلك إطلالته واتجاهاته بمرح إلى المشـهد الأكثر ملاءمة. يعد هذا البيت صغيراً جداً، وخفيفاً جداً ومع ذلك فهو ثابت بقوّة على الأرض حيث لا تستطيع العواصف التأثير عليه كثيراً؛ وتنتفخ الخيام الخشنة المصنوعة من شعر الماعز وتتقارب معاً في الجوّ الممطر بحيث تحتاج أمطاراً مسـتمرّة مسـبوقة بريح عاتية حتّى تتسرّب مياه العاصفة الباردة إلى داخل المنزل.

حُمِّصـت حبّات البـنّ وطُحنت، وكانـت دلال القهوة تغلي على الرّماد المشـتعل، عندما جاء ثلاثة أشخاص من جهة الشّرق وتوقّفوا عند الخيمة المفتوحة. كانوا رجالاً قصار القامة وبدينين، عريضي الأكتاف، بملامح شـاذّة بشـكل واضح وأسـنان بارزة، وكانـوا يشـعرون بالبـرد ومبتليـن بمياه الأمطـار. جُهِّزت لهـم غرفة فـي الحلقة حول الموقـد، ومدّوا أصابعهم نحو اللهب، بينما اسـتمرّ الحديـث دون انقطاع، كانوا ثلاثة رجال فقط من الشّرارات، جاؤوا لشراء حنطة من مؤاب، وعلى الرّغم من أنّ الشّرارات تعدّ إحدى أكبر وأقوى القبائل والمولّدين الأكثر شـهرة للجِمال، فإنّهم سـلالة رديئة، ولا يمكـن لأحـد من عرب البَلقاء الزّواج منهم. إنهـم لا يملكون منازل ثابتة ولا حتّى في وقت الصّيف الجاف، ولكنّهم يطوفون الصّحراء الدّاخلية غير عابئين بعدم وجود الماء لعدّة أيّام معاً.

كان النّقـاش حول نار نهار يدور حـول رحلتي. كان زنجي من قبيلة الصّخور، وهو رجـل قويّ بملامح ذكيّة، قلقاً بسـبب المجيء معي كمرشـد إلى جبل الـدّروز، ولكنه

وافق على أن يتركني ويعود حال وصوله إلى منطقة هؤلاء الرّجال الجبليّين الشّجعان ـ هناك دوماً عداوة بين الدّروز وبني صَخر. يعامَل العبيد الزّنوج من الصّخور معاملة جيّدة من قِبل أسيادهم، الذين يقدّرون قيمتهم، ولهم منزلتهم المعتبرة في الصّحراء، وهو وضع جيّد يعكس تقدير هذه القبيلة لخدمتهم. كنت أفكر نوعاً ما بقبول العرض المُقدّم على الرّغم من احتمال العودة عند موت الزّنجي بين يدي عند أوّل قرية درزيّة، عندما قُطعت سلسلة أفكاري بوصول ضيف جديد. كان رجلاً شاباً طويل القامة، بوجه ناعم جميل أبيض البشرة، بجدائل طويلة بنيّة اللّون نوعاً ما. عندما اقترب، نهض نهار والشّيوخ الآخرون من الصّخور لملاقاته، وقبل أن يدخل الخيمة قام كل واحد منهم بدوره بتقبيله على وجنتيه. نهض نمرود أيضاً وصرخ عندما اقترب الضّيف أكثر:

«جيّد؟ الحمد لله! من معك؟».

رفع الشّاب يده وأجاب: «الله!».

لقد كان وحيداً.



قطعان عرب الصّخور

ودون أن يبدو عليه أنّه لاحظ المجموعة، أحاطت عيناه بالشّيوخ الثّلاثة من الشّرارات وهم يأكلون لحم الضّأن وخثارة اللّبن عند المدخل، والمرأة الغريبة قرب النّار، ومع همهمة بالتّحيّات اجتاز إلى مؤخّرة الخيمة، رافضاً عرض نهار بتناول الطّعام. كان اسمه قبلان Gablan من أسرة شيوخ قبيلة الدّعجة، وهو ابن عم الشّيخ الحاكم، وكما اكتشفت فيما بعد كان قد سمع باحتياج نمرود لدليل لأجنبيّة ـ حيث أنّ الأخبار تنتقل بسرعة في الصّحراء- وقد جاء لأخذي إلى خيام عمّه. لم نكن قد جلسنا لأكثر من خمس دقائق بعد وصوله عندما همس نهار بشيء ما إلى نمرود، الذي التفت إليَّ واقترح أنّ علينا الذّهاب طالما أنّنا تناولنا العشاء وأخذ قبلان معنا.

فوجئت بسرعة قطع دردشة ذاك المساء، ولكنّني علمت أنّه من الأفضل عدم الاعتراض، وعندما كنّا نخب إلى البيت عبر أرض نمرود Namrud وفوق تلّة طنيب، عرفت السّبب، لقد كان هناك ثأر بين الدّعجة والشّرارات. وقد لاحظ قبلان من النّظرة الأولى نسب ضيوف صديقه، ولذلك فقد انسحب بصمت إلى أعماق الخيمة، ولم يغمس يده في نفس الطّبق معهم. وعرف نهار Nahar، ومن لم يعرف؟ صعوبة الموقف، ولكن لم يستطع التّنبؤ كيف يمكن لرجال الشّرارات التّعامل معه، وخوفاً من المفاجآت، أسرع بنا بعيداً. ولكن في صباح اليوم التّالي صفا الجو (على نحو مجازي لا فعلي)، وأبقى الجو العاصف أعداء الدّم جالسين على نحو سلميّ حول دلال قهوة نمرود Namrud في الكهف.

كان مطر اليوم الثّالث غزيراً بحيث لا يمكن لإنسان تحمّله. وكنت قد نسيت في ذاك الوقت ما هو الإحساس بالجفاف والشّعور بدفء القدمين وثياب النوم الجافّة. أمضى قبلان ساعة معي في الصّباح، مكتشفاً ما الذي أريده منه. شرحت له أنّه إذا استطاع أخذي عبر الصّحراء حيث لا أرى مركزاً عسكريّاً ثم يتركني عند سفوح التّلال، فلا أتوق لأكثر من ذلك. فكّر قبلان قليلاً ثم قال: «آه يا ستّي، هل تعتقدين بأنّك ستخوضين صراعاً مع الجنود؟ إذا كان الأمر كذلك فسآخذ بندقيّتي معي».

أجبتُ بأنّي لا أفكّر بإعلان حرب مفتوحة مع جميع خيّالة السّلطان، وبانتباه قليل يمكن تجنّب احتمال الصّدام؛ ولكن كان لدى قبلان وجهة نظر بأنّ الخطّة الإستراتيجية

قد تذهب أبعد من ذلك عندما يطلق الرّصاص، وقرّر بأنّه مع ذلك سيأخذ بندقيّته معه.

بعد الظّهر، لم يكن لديّ ما أقوم به أفضل من مشاهدة الشّرارات يشترون الحنطة من نمرود. ولكن في هذا الوقت، وبالرّجوع بضع آلاف من السّنين إلى الوراء، تخيّلت أبناء يعقوب الذين نزلوا مصر ليتشاجروا بشأن حمولة الأكياس مع أخيهم يوسف. كان القمح قد حُفظ في حفرة عميقة جافة قُطعت في الصّخر، وكان يُخرج مثل الماء بدلو ذهبيّ ممتلئ. لقد تمّ تخزينه مع القشّ لحمايته بشكل أفضل، وكان العمل الأوّل هو القيام بنخله عند المنبع وهو جهد لا يمكن أن ينجز دون مناقشة كثيرة ومعقّدة. وحتّى الجِمال لم تكن صامتة، لكنّها شاركت بالجدال مع الهمهمات والبعبعات، مثلها مثل العرب وهم يقومون بتحميلها بالأكياس الممتلئة. جلس شيوخ الصّخور والشّرارات بالقرب على الحجارة في الضّباب الممزوج بالرّذاذ، وهم يدمدمون أحياناً، «الله! الله!» ويهتفون أحياناً: «إنه رؤوف رحيم!» وكثيراً ما كان القمح المنخول يُصبّ مرّة أخرى بين القمح غير المنخول، ويدور حوار من هذا النّوع:

نمرود: «عليك! عليك! يا ولد، الله يخرب بيتك! الله يعكّر أيامك!».

بنو صخر: «بوجه نبي الله عليه السّلام!».

الشّرارات (بصوت مكبوت): «الله! ومحمّد نبيّ الله، عليه السّلام!».

جماعة حفاة مرتدون الفراء: «ذهب، ذهب! والله! مطر وبرد!».

نمرود: «اسكتوا، يا إخوان! انزلوا إلى البئر واستخرجوا قمحاً. المكان دافئ هناك».

بنو صَخر: «الحمد لله القادر!».

أصوات الجِمال: "B-b-b-b-b-d-d-G-r-r-o-o-a-a".

سائسو الجِمال: «اصمت، أيّها الملعون! عسى أن تنزلق في الوحل! ينزل عليك غضب الله!».

الصّخور (بانسجام): «الله! الله! بنور وجهه!».



علامة طريق رومانيّة

ذهبتُ عند الغسق إلى خيمة الخدم ووجدت نمرود يهمس بقصص جريمة عند النّار التي كان عشائي يُطهى عليها.

قال: عندما كنتُ صبيّاً، منذ زمن قريب، لم يكن باستطاعتك عبور الغور بسلام. ولكن كان لديّ فرس سارت فيه ـ والله! كيف سارت! سارت بي ما بين طلوع الشّمس وغروبها من المزيريب إلى السلط، دون توقّف. بالإضافة إلى أنّني كنت معروفاً جدّاً لكلّ أهل الغور (الغوارنة). وفي إحدى ليالي الصّيف كان عليّ الذّهاب إلى القدس - أعانني الله! على ظهر فرسي. كانت مياه نهر الأردن قليلة، فعبرتُ عند المخاضة، حيث لم يكن هناك وقتها جسر. وعندما وصلتُ الضّفّة الأبعد سمعت صياحاً وطلقات رصاص. اختبأت في شجيرات الطّرفاء لأكثر من ساعة حتّى غاب القمر، ومن ثمّ سرت بعيداً بهدوء.

وعند مدخل التّلال الموحلة بدأت الفرس تبتعد عن الطّريق، ونظرت إلى الأسفل فشاهدتّ جثّة رجل، عارٍ ومليء بطعنات سكّين. كان ميتاً تماماً. وعندما كنت أحدّق به قفزوا نحوي من التّلال الموحلة، كانوا عبارة عن عشرة فرسان، وكنت لوحدي

فقط. انسحبت إلى الحشائش الكثيفة وأطلقت النّار، طلقتين من مسدسي، ولكنّهم أحاطوا بي ورموني عن ظهر الفرس وقيّدوني، وأجلسوني مرّة أخرى على الفرس وساروا بي بعيداً. وعندما جاؤوا إلى المكان المراد، نزلوا لمناقشة فيما إذا كان عليهم قتلي، وقال أحدهم: «والله! دعونا نضع نهاية». اقترب منّي ونظر في وجهي، وكان الوقت فجراً. وقال: «إنه نمرود!» حيث إنه كان يعرفني وطلبتُ عونه. ومن ثمّ فكّوا قيدي وتركوني في حال سبيلي، وسرت إلى القدس».

استمعت أنا والبغّالون منقطعي الأنفاس مستمتعين بالقصّة تلو القصّة.

قال نمرود: «توجد عادات جيّدة وأخرى سيّئة عند العرب، ولكنّ الجيّدة كثيرة. فعندما يرغبون بإنهاء صراع دموي، يأتي الطّرفان المتعاديان معاً إلى خيمة المعتدى عليه. ويقوم سيّد البيت بحمل سيفه ويلتفت نحو الجنوب ويقوم برسم دائرة على الأرض، ويدعو باسم الله. ومن ثمّ يأخذ قطعة صغيرة من قماش الخيمة وحفنة من رماد الموقد ويلقيها في الدّائرة، ويضرب خط الدّائرة سبع مرّات بسيفه المسلول. ويقفز المعتدي داخل الدّائرة، ويقوم أحد أقارب عدوّه بالصّياح عالياً: «أنا أتحمّل مسؤولية الجريمة التي أوقعها عليّ!» وعقب ذلك يكون هناك سلام.

آه يا ستّ! تمتلك النّساء سلطة كبيرة في القبيلة، ويتمّ الاهتمام بالعذراوات بشكل جيّد. بحيث لو قالت العذراء: «أريد فلاناً زوجاً لي» فعليه أن يتزوّجها خشية أن تكتسب العار. وفيما لو كان لديه بالأساس أربع زوجات فعليه أن يطلّق إحداهنّ، ويتزوج العذراء التي وقع اختيارها عليه بدلاً منها. هذه إحدى العادات الموجودة بين العرب».

وإثر ذلك التفت إلى بغّالي الدّرزي وتابع:

«أوه يا محمّد! انتبه. فإنّ خيام الصّخور قريبة، وليس هناك سلام أبداً بين بني صَخر وبين الدّروز. وإذا حدث أن عرفوك، فمن المؤكّد أنّهم سيقتلونك ـ ولن يكتفوا بقتلك فقط، ولكنّهم سيحرقونك وأنت على قيد الحياة، ولن تستطيع الستّ حمايتك، ولا حتّى أنا».

تجهّم وجه صديقي نهار، الذي كان قد تبادل معي حسن الضّيافة مقابل منديل، وكانت الجماعة القليلة حول النّار قد ذهبت إلى حدّ ما. ولكن ميخائيل تصرّف بلياقة.

قال وهو يضع بعض الخضراوات المطهوّة في الصّحن برفق: «لا تفكّري به يا سيّدتي، عليه أن يبقى مسيحيّاً حتّى نصل إلى جبل الدّروز، لن يكون اسمه محمّداً وإنّما طريف Tarif، لأنّه اسم متداول بين المسيحيّين».

وهكذا حوّلنا وعمّدنا محمّداً المشدوه قبل تناول شرائح اللّحم المشوي من المقلاة.

❊ ❊ ❊

الفصل الثّالث

كان الجوّ ما يزال عاصفاً في صباح يوم الأحد الثّاني عشر من فبراير، ولكنّي صمّمت على الذّهاب. لم تكن الأيّام التي أمضيناها في طنيب قد ضاعت سُدى. إنها فرصة لمشاهدة طبيعة حياة سكّان هذه المزارع النّائية النّادرة ساعة بعد ساعة، ولكنّ أفكاري كانت تحلم بسفر أبعد، وتُقت إلى المسير في الطّريق الذي مشوا فيه. لقد أدركتهم، وبدا لي الأمر كذلك عندما سمعت أنا وقبلان ونمرود أصوات حوافر جيادنا تقرع معادن سكّة حديد طريق الحجّ، ويمّمنا وجوهنا شطر الصّحراء المكشوفة.

سرنا شرقاً إلى جهة الشّمال، تاركين المشتّى Mshitta إلى الجنوب قليلاً، على الرّغم من أنّ أحداً ممّن عرفها وعرف جمالها لم يستطع العودة لزيارة تلك الجدران الرّائعة، فيجب ألا ننسى أنه يتوجب قول شيء تجاه ذاك التّصرّف في التّخريب المتعمّد الذي تتعرّض له. ولو كان هناك أمل جيّد بأنّه يتوجّب على الآثار أن تبقى كما بقيت لما يزيد عن ألف سنة دون أذى من الأمطار الشّتويّة، ويجب أن يُسمح بأن تبقى سليمة في البلدة المتقلّبة حيث تعطي انطباعاً قويّاً جدّاً لجَمال مرهف، جمال خيالي؛ ولكنّ سكّة الحديد اقتربت، وستمتلئ السّهول، ولا يمكن للفلاّح السّوري ولا الجندي التّركي أن يقتنعا بإمكانيّة استغلال الجدران الباقية في استخدامات عمليّة. وبناء عليه لندع الذين شاهدوها عندما كانت لا تزال واقفة قبل تعرّضها للأذى، ولا تزال ذكراها ماثلة في الذهن مع عرفان بالجميل، ودون شعور عميق بالأسف.



المشتّى

تحادث كلّ من نمرود وقبلان دون توقّف. وفي وقت متأخّر من اللّيلة السّالفة جاء جنديّان عند باب الكهف، وبعد أن حصلا على إذن بالدّخول وجلسا، أخبرا قصّة غريبة. قالا بأنّهما كانا من بين الجنود الذين أرسلهم السّلطان من بغداد لمساعدة ابن الرَّشيد Ibn er Rashid ضدّ ابن سعود. ورووا كيف أنّ ابن سعود اضطرهم للتّراجع خطوة وراء خطوة إلى أبواب حائل، عاصمة ابن الرَّشيد وكيف وقف الجيشان وجهاً لوجه مع ابن سعود مع القليل من أصحابه والذي كان قد سار إلى خيمة عدوّه ووضع يده على سارية الخيمة وهكذا فلم يكن لدى أمير شمَّر أيّ خيار آخر سوى السّماح له بالدخول. وفوراً وصلوا إلى اتّفاق في المكان نفسه، بأن يتخلّى ابن الرَّشيد عن جميع أراضيه داخل ميل أو اثنين من حائل، على أن يحتفظ بتلك المدينة والأراضي الواقعة إلى الشّمال منها، بما فيها الجوف، مع الاعتراف بسيادة ابن سعود على الرياض وإقطاعياتها الممتدّة.



المشتّى، الواجهة

قـام الجنديّـان بأفضل ما يمكن فعلـه وهو الهـروب والاتّجاه غرباً عبـر الصّحراء، وقـالا إنّ معظـم رفاقهما في الجيش قُتلـوا وهرب البقيّة. لقد كانت هـذه أكثر الأخبار الموثوقـة إلـى حدّ بعيد التـي تلقّيتها من نجد، وكان لديّ سـبب للتّصديـق بأنّها كانت صحيحة فعلياً[1]. وقد سـألت الكثير من العرب أيضاً عن شخصيّة ابن الرَّشيد، وكانت الإجابـات متشـابهة تقريباً علـى نحو ثابت. يقولون عنه: «شـاطر جـداً، وداهية كبير»، وبعـد دقيقـة يضيفون: «لكنه مجنون». وقد رأيت فيه رجـلاً متهوّراً حادّ الطبع، ذا عقل

(1) كتبت المؤلفة: بعد تسجيل الأحداث أعلاه، أعتقد بأن ابن سعود قد وصل إلى تفاهم مع السلطان بعد فشله بالحصول على حليف قوي، وذُكر بأن ابن الرَّشيد طرد القوّة العسكريّة التي جاءت اسميّاً لمساعدته، وهناك بعض الإشاعات الجديدة جداً تقول بأن ابن الرَّشيد قد مات.
قلت: هذا صحيح، على اعتبار أن رحلة المِس بل كانت في عام 1905، وتم طبع كتابها في عام 1907، وهي هنا تكتب الحواشي بعد نهاية رحلتها، ووفاة الأمير عبد العزيز بن متعب الرَّشيد كانت في عام 1906، وذلك في مناخ روضة مهنّا.

غير مستقرّ ومحاكمة ضعيفة، وليس قويّاً بما يكفي، وربما غير قاسٍ بما يكفي لتقوية سلطته على القبائل الجامحة التي لجمها عمّه محمّد بلجام الخوف (ويحتوي تاريخ الحرب سلسلة طويلة من الخيانات من طرف حلفائه)، وكان متكبّراً جداً، فيما لو حكمت عليه الصّحراء بشكل صحيح، إلى حدّ يمنعه من قبول شروط السّلام القائم. وقد تم إقناعه بأنّ الحكومة الإنكليزيّة قد سلّحت ابن سعود ضدّه، وقناعته بأنّ ذلك كان عن طريق شيخ الكويت الذي يعتقد بأنّه من حلفائنا، وهو الذي جهّز ذلك الشريد المنفي بوسائل لإعادة تأسيس نفسه في البلدة التي حكمها أجداده، ويأمل أن يُضعِف ذلك من تأثير السّلطان على حدود الكويت. وربّما كانت بداية المشكلة عندما بدأت الصّداقة مع السّلطان التي رآها ابن الرّشيد أنّها مناسبة للدّخول، أذيع نبأ تلك الصّداقة في العالم عن طريق ظهور الخيول الشمَّريّة في القسطنطينية والفتيات الجركسيات في حائل؛ ولكن في النّهاية، ليست هناك نهاية لحرب في الصّحراء، وأيّ مظلمة سوف تخدم دور شيخ شاب طائش.



المشتّى، القاعات الدّاخليّة

على الرّغم من أنّنا كنّا نسير عبر سهول كانت مهجورة تماماً وتبدو للمراقب غير المبالي عديمة الملامح تقريباً، فنادراً ما كنّا نسافر لأكثر من ميل دون الوصول إلى نقطة تحمل اسماً. وعند الاستماع لحديث العرب فإنّك تُدهش بتلك التّسميات الكثيرة.

وإذا سألت عن شيخ معيّن أين نصب خيمته فإنّك سوف تُعطى في الحال إجابة دقيقة. والخارطة ليس فيها معالم، وعندما تصل للمخيّم فإنّ المنظر لا يوجد فيه معالم مميّزة أيضاً. فوجود ارتفاع في الأرض، أو حجر كبير، أو أثر قليل لطل، دون الحديث عن كلّ حفرة يمكن أن يكون فيها مياه سواء في الشّتاء أو في الصّيف، فهي تشكّل علامات مميّزة على نحو كافٍ لعين البدوي. اركب مع عربي وستعرف لماذا كانت الأشعار قبل مجيء محمّد[1] مليئة بالأسماء، وكيف أنّه من التّفاهة محاولة تعيين نقطة محدّدة لتلك الأعداد الكبيرة من الأماكن، حيث يتكرّر الاسم ذاته مئات المرات.

أتينا الآن إلى هضبة صغيرة أطلق عليها قبلان اسم ثليلة الحِرشة Thelelet el Hirsheh، ومن ثمّ إلى هضبة أخرى أصغر دعاها ثليلِة Theleleh، وهنا شدّ قبلان لجام فرسه وأشار إلى زوج من أحجار على الأرض مسودّة بفعل النّار.



عرب البَلقاء

قال: «ذاك، كان موقدي. هنا خيّمت قبل خمس سنوات. وهناك كانت خيمة والدي، ونصب ابن عمّي خيمته أسفل المنحدر».

تخيّلتُ نفسي راكبة مع امرئ القيس، أو مع أي شاعر عظيم من عصر الجاهليّة،

(1) عليه أفضل الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الذين طارت قصائدهم الغنائيّة في لحن لا يتغيّر للصّحراء سريعة الزّوال.

انهمرت أمطار الغيوم علينا، وتركنا ثليلِة Thelelch وأسرعنا نحو الشّرق- وعندما يسافر عربي، نادراً ما يسير أسرع من الخطو ـ بينما كان نمرود قد أمضى الطريق برواية الحكايات وفقاً لعادته.

قال: «يا سيدتي، سوف أخبرك بقصّة معروفة جداً بين العرب، ولا بدّ أنّ قبلان كان قد سمعها. كان هناك رجل ـ هو متوفى الآن، ولكن لا يزال أبناؤه على قيد الحياة ـ بينه وبين القبائل عداوة دم، وفي الليل هاجمه أعداؤه مع عدّة فرسان، وأخذوا مواشيه وجماله وجياده واستولوا على خيامه وكل ما كان يملك. وأصبح وهو الغنيّ المحترم جداً فقيراً بأمسّ الحاجة. لذا فقد تنقّل بين الأماكن إلى أن وصل إلى خيام قبيلة لم تكن صديقة له ولا معادية وذهب إلى خيمة الشّيخ ووضع يده على سارية الخيمة وقال: «يا شيخ! أنا دخيلك»، (وهي عبارة يقولها من يبحث عن الضّيافة والحماية). فنهض الشّيخ وأدخله وأجلسه قرب الموقد، وعامله بلطف، وقام بإعطائه خرافاً وبعض الجِمال وخيمة، وعقب ذلك ذهب الرّجل وازدهرت أعماله وعاد غنيّاً كما كان في غضون عشر سنوات.

والآن وبعد عشر سنوات حدث أن تعرض الشّيخ المضيف لنكبة وخسر بدوره كل أملاكه. وقال الشّيخ: «سأذهب إلى مخيّم ضيفي، الذي ينعم بالغنى الآن، وسوف يعاملني كما عاملته». عندما وصل المخيّم لم يكن الرجل موجوداً، ولكن كان ابنه في الدّاخل. فوضع الشيّخ يده على سارية الخيمة وقال: «أنا دخيلك»، فأجاب ابن الرّجل: «أنا لا أعرفك، ولكن طالما طلبتَ حمايتنا تعال ادخل وستصنع لك أمّي القهوة». وهكذا دخل الشّيخ، ودعته المرأة قرب موقدها وصنعت له القهوة، وتُعدّ هذه إهانة بين العرب عندما تقوم المرأة بعمل القهوة. وبينما كان جالساً قرب موقد المرأة، عاد ربّ البيت، فخرج ابنه وأخبره بقدوم الشّيخ. وقال: «سوف نحميه تلك الليلة طالما أنّه ضيفنا، وعند الفجر سوف نرسله بعيداً خشية تحمّل عداوته». وقاموا بوضع الشّيخ في زاوية الخيمة وزوّدوه بخبز وقهوة فقط، وفي اليوم التّالي أمروه بالانصراف، وأرسلوا

معه مرافقة مؤلّفة من فارسين تستمرّ لمسيرة رحلة يوم، كما هو العرف بين العرب لمن يطلب حمايتهم ويشعر بالخطر على حياته، ثمّ تركوه ليعاني الجوع أو ليقع بين أيدي أعدائه. ولكن نكران المعروف هذا يعتبر نادراً، الحمد لله!، لذلك لم تُنس القصّة».

كنا نقترب الآن من بعض المنحدرات التي شرِّفت ربما باسم تلال تجاوزاً. وقد شكّلت نصف دائرة كبيرة تمتدّ بعيداً نحو الجنوب حيث نصب فَلاح العيسى خيامه في واديها. وعندما كنت معهم قام الدّعجة باحتلال كل السّهل الواقع أسفل المنحدرات من جبل العليا el ʻAlya وأيضاً البلدة الواقعة إلى الشّمال الغربي بين التّلال ونهر الزرقا. كان الشّيخ الشّاب مجيمِر Mujemir قد خيّم عند الشّمال، وخيّم عمّاه فَلاح العيسى وحْمود والد قبلان معاً في السّهل نحو الجنوب. لم يحدث أن رأيت حْموداً Hamud؛ إذ كان قد غادر بعيداً لتفقّد بعض قطعانه.



فَلاح العيسى الدَّعجة

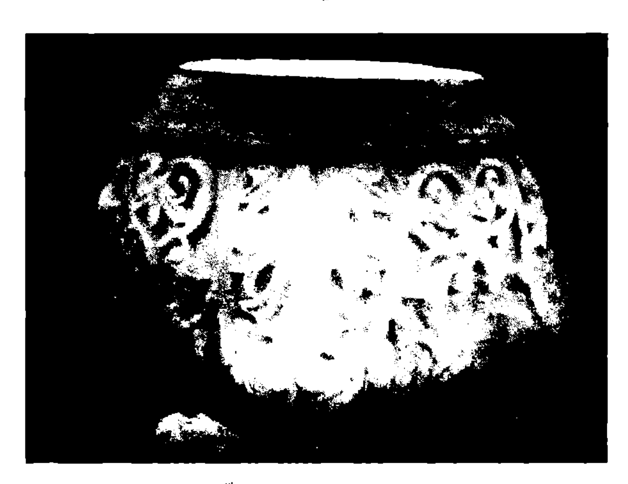
وضـع قبـلان حصانه مع أحد الأتباع وتقـدّم ليعلن وصولنا. وعندما كنّا نسـير نحو خيمة الشّـيخ الكبير خرج رجل أشـيب للتّرحيب بنا. كان مضيفي فَلاح العيسـى، وهو شـيخ معروف في كلّ أرجاء البَلقاء بسـبب حكمته وامتلاكه سـلطة تتجـاوز تلك التي يمارسـها رجل مُسـنّ من بيت حاكم على قبيلته. وقبل ستّة أشهر كان ضيف شرف بين الدّروز، الذين لم يعتادوا استقبال شـيوخ عـرب كأصدقاء، ولهذا السّـبب كان نمرود قـد اختاره كأفضل مستشـار في قضايا رحلتي. أُجبِرنـا على البقاء في خيمته إلى أن يتمّ إعداد القهوة، وهو عمل يستغرق ساعة كاملة. تمّ العمل في صمت جليل، يقطعه فقط صـوت يد المهباج وهي تسـحق حبـوب البنّ في الهـاون، وهي موسـيقى عزيزة على آذان أهل الصّحراء، وليس من السّـهل إنجازها على نحو تامّ. وفي وقت شـرب القهوة كانت الشّمس قد تجاوزت وقت الشّروق وسرت مع قبلان ونمرود فوق التّلال شمال المخيّم لمعاينة بعض الخرائب التي تحدّث عنها العرب.

أثبـت جبـل العَليا أنه أرض مرتفعة متموّجة تمتدّ لعدّة أميـال، ينحدر تدريجيّاً بعيداً باتّجاه الشّـمال والشّمال الشّـرقي. إن الاتّجاه العام لسلسلة الجبال هو من الغرب إلى الجنوب الشّـرقي؛ وترتفع على نحو مفاجئ فوق السّـهول وتحمل على قمّتها سلسـلة مـن خرائب شـاهدت منها اثنين. بـدت وكأنّها خطّ من قلاع تحمـي الحدود التي، في غيـاب النّقـوش، يمكن أن يخمّن الشّـخص أنّهـا ترجع للغساسـنة Ghassanid. تمتدّ المواقـع الأثريّـة الأولى فوق مخيّم فَلاح العيسـى مباشـرة ـ وأظنّ أنّـه Kasr el Ahla (وهو اسـم غير معروف للدَّعجة) وقد أشير إليه على خارطة اكتشاف فلسطين بالقرب مـن طريـق الحجّ. وإذا كان هذا صحيحاً، فإنّه يمتدّ أربعة أو خمسـة أميال على مسـافة أبعد نحو الشّرق من المكان الذي وضعه فيه واضع الخريطة، ومن المفروض أن يكون اسـمه مكتوباً قصر العَليا Kasr el ʿAlya. وقد كان تلاً (tell) صغيراً، طوّق بأساسـات أسوار تحيط بكتل غير متميّزة من الخرائب.

تقدّمنا مسافة ثلاثة أو أربعة أميال نحو الشّرق، وعند رأس وادٍ ضحل على الجانب الشّـرقي لجبل العَليا Jebel el ʿAlya وجدنا بركةً كبيرةً، بما يقارب مئة وعشـرين قدماً

بمئة وخمسين، بُنيت بدقّة من حجارة منقوشة وكانت ممتلئة إلى منتصفها بالتراب. وفوقها، وعلى مسافة أقرب إلى قمّة التّلّة، كان هناك مجموعة من خرائب يسمّيها العرب «الموقَّر»[1] El Muwaggar. ولا بدّ أنّها كانت نقطة عسكريّة، حيث ظهرت بعض البقايا من المنازل التي يمكن أن تشير إلى وجود بلدة.

ويمتدّ نحو الشّرق بناء لا يزال العرب يستخدمونه كإصطبل. لقد تمّ تخطيطه مثل كنيسة، بثلاث حجرات متوازيّة، وقد قسّم الصّحن من الممشى برواق مقنطر بستّة أقواس في كل جانب لا تزال قائمة، وأقواس مستديرة لا تزال على دعامات المبنى. وعلى الجوانب الدّاخليّة من تلك الدّعامات كان هناك خلالها ثقوب وذلك لتثبيت حبال طويلة، ومن المحتمل أنّ المكان كان في بعض الأزمنة إصطبلاً للخيول حيث كانت تربط بين القناطر. كانت الحجرات الثّلاث قد سقفت بقباب أسطوانيّة، وكلّ من الجدار والقبة قد بنيا من حجارة صغيرة ثبتت بملاط هشّ متفتّت. وعلى بعد بضع مئات من الياردات نحو الشّمال الغربيّ كانت هناك بركة كبيرة مفتوحة، لا ماء فيها، بجوانب من الجصّ ومجموعة درجات في إحدى الزّوايا.

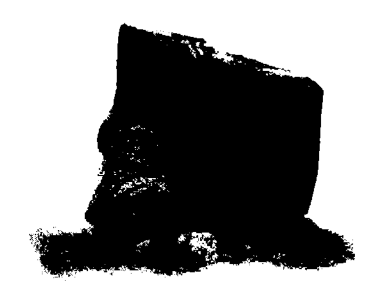


تاج عمود في الموقّر

(1) كتبت المؤلفة: تُكتب التسمية: El Muwakkar ولكن البدو يغيّرون حرف K المشدّد بحرف G، وقد تم وصف الموقع في: *Die Provincia Arabia*, vol ii..

بينما كان المَعلم الأثري الأكبر لا يزال على مسافة أبعد نحو الشّمال الغربيّ، عند قمّة التّلّة تقريباً؛ ويسمّيه العرب القصر، وربّما كان حصناً أو ثكنة. كان المدخل الأساسي في جهة الشّرق، وحيث أنّ الأرض انحدرت بعيداً هنا، فقد دُعمت واجهة المبنى على أساس مؤلف من ثماني قناطر، كان فوقها آثار لثلاثة أو ربّما أربعة مداخل لا يمكن بلوغها إلاّ عن طريق مجموعة متواصلة من الدرجات. كانت هناك أعمدة مزيّنة تقوم على كل جانب من المداخل ـ بعضها لا يزال في أماكنه ـ وكانت واجهة المبنى غنية بالأعمدة والأفاريز، التي تناثرت أجزاؤها في الأسفل على الأرض مع عدّة رؤوس أعمدة من تصاميم متنوّعة، وكانت جميعها قد شُكلّت من النّموذج الكورنثي البدائي، رغم أنّ الكثير منها كان متبايناً إلى حدّ بعيد عن النّمط الأصلي. أظهرت بعض النماذج تعريقات rinceaux بسيطة جداً، وزخارف بشكل ورقة ثلاثيّة الوريقات في منحنيات متعاقبة لأغصان متدليّة، وكانت الأخريات على شكل نتوءات مستديرة وقد غطّيت بنماذج على شكل جذع نخلة.

كان عرض واجهة البناء أربعين خطوة؛ وتوجد خلفه حجرة انتظار فصلت بجدار عرضي عن ساحة مسيّجة. لا أستطيع أن أجزم فيما إذا كان هناك غرف حول تلك السّاحة الدّاخليّة المغلقة؛ إذ كدّست الأرض بالأنقاض وكسيت بالأعشاب. وعلى كلّ جانب من القناطر الثّماني المتوازية كان هناك قبو آخر فيصبح المجموع عشرة؛ ولكن لم يظهر أنّ القبوين الإضافيين قد دعما البناء الفوقيّ بأيّ نوع من أيّ أساس، حيث أنّ الجدران الجانبيّة الضّخمة لغرفة الانتظار تستند إلى جدران خارجيّة للقناطر الثّمانية المركزيّة. كان البناء مكوّناً من حجارة مربّعة وبينها كِسَر ثُبّتت بملاط.



تاج عمود في الموقّر

نزلنا التّلّة بشكل مستقيم وتابعنا على طول السّهل عند سفحه، لنعبر موقعاً أثريّاً آخر، كان اسمه نجرة Najerch. ويسمّي العرب هذه الكومة من الحجارة المقطّعة رُجماً "rujm"؛ ومن اللاّفت للنّظر أن يعرف الشخص كم عليه أن يبتعد باتّجاه الشّرق حتّى يجدها، وكم كانت الصّحراء مأهولة بالسّكّان على نحو متواصل. قال قبلان إنّه على بُعد مسيرة يوم من العَليا 'Alya يوجد حصن آخر يسمّى الخَزّانة Kharanch، وحصن ثالث ليس بعيد عنه اسمه أمّ الرّصاص Umm er Resas، وأكثر من ذلك، فبعضها يوجد فيها نقوش، وجميعها تسهل زيارتها في الشّتاء عندما تكون المراعي الغربيّة خاوية نسبيّاً[1].

وعندما كنّا نسير علّمني أن أقرأ الصّحراء، وذلك بأن ألاحظ الحجارة الكبيرة المربّعة التي سُطّحت لتكون أسرّة للأولاد العرب والأوكار نّصف الدائريّة في الأرض التي تحفرها النّوق من أجل صغارها. وعلّمني أيضاً أسماء جميع النّباتات التي تغطّي الأرض، ووجدت أنّه على الرّغم من أنّ أزهار الصّحراء قليلة من حيث الكمّ، فإنّها متنوّعة جدّاً، وتمّ غالباً إيجاد الفوائد لها من قِبل العرب. فمن أوراق العطرفان utrufan يعطّرون زبدتهم، ومن القُرصعنة Kursa'anch الشّائكة يصنعون سلطة ممتازة، وتتغذّى الجِمال على أعواد البلاّن الجافّة، وتتغذّى الأغنام على نبات الشّيح، ويستخدم رماد القلي gali في صنع الصّابون. ولقد استمتع قبلان بدور المعلّم، فعندما كنّا نعبر من أجمة من نبات شائك أزرق إلى أخرى مشابهة، كان يسأل: «يا ستّي؟ ما هذا؟» ويبتسم بابتهاج إذا كان الجواب صحيحاً.

---

(1) كتبت المؤلفة: قام بزيارة العديد من تلك الأطلال الأثريّة موزيل Musil، ولكنّ كتابه لم يُطبَع بعد. قلت: تقصد به الرحّالة التشيكي المُجيد ألويز موزيل، الذي نشرنا مختصراً لأحد كتبه. وسوف نقوم بتعريب كتبه الستة المهمّة بأكملها، وهي بالفعل كنز ثمين في الطبوغرافيا التاريخيّة والآثار والتراث الشعبي لبادية تَدمُر والحَماد ووادي السّرحان والجوف وشمالي نجد وشمالي الحجاز.



تاج عمود في الموقّر

كان المقـرّر أن أتناول العشـاء تلـك اللّيلة في خيمة فَلاح العيسـى Fellah ul ‘Isa وعندما كان خيط الشّـفق الأحمر الأخير لا يزال يمتدّ عبر الغرب جاء قبلان ليأخذني. كان المخيّـم الصغير مفعماً بالحياة بكل مظاهر الضّجيج التي تعطي الصّحراء الحيويّة بعد غياب الشّـمس، المؤلّف مـن عنين ورغاء الإبل، إلى ثغاء الأغنـام والماعز ونباح الـكلاب المتواصـل، لم يكن في خيمة الشّـيخ ضوء ما عدا ضوء النّـار؛ وكان مضيفي الذي يجلس قبالتي يختفي في عمود دخان كثيف ويتّضح أحياناً أخرى بلهب متصاعد. وعندما يأتي شـخص مهم كضيف، يجب أن تذبح الخراف على شرف المناسبة، وبناء عليه أكلنا بأصابعنا وجبة لذيذة مؤلّفة من لحم الضّأن وخثارة اللّبن وشرائح من الخبز. ولكـن حتّى فـي الولائم اللّيليّة فإنّ العرب يأكلون كمّيـات قليلة على نحو مذهل، أقلّ بكثير من امرأة أوروبـيّة تتمتّع بشـهيّة جيدة، وعندما لا يكون هناك ضيف في المخيّم، فإن الخبز ووعاء من حليب الجمل هو كل ما يحتاجونه.

وإنه لحقيقة أنهم يمضون أغلب يومهم نائمين أو يتحدّثون في الشمس، وقد رأيت العقيلات Agel، يسـيرون لمدّة أربعة أشهر ولم يكن معهم ما يكفي من الطعام. وعلى الرّغم من أنّه بإمكانهم العيش على تلك الكمّيّات القليلة من الطّعام، فإنك نادراً ما ترى البدو لا يعانون الجوع؛ فهم دوماً هزيلون وأجسادهم نحيلة، وأيّ مرض يصيب القبيلة يحصـد نسـبة كبيرة من أفرادها. حضر خدمي الوليمة أيضـاً، وبما أننا تركنا محمّداً، أو

على الأصح طريف النّصراني، لحماية الخيام في غيابنا، فقد أُرسل طبق خشبي مليء بالطعام في اللّيل «للضّيف الذي بقي في الخلف».

دخل كلٌّ من فَلاح العيسى ونمرود في نقاش ممتع حول القهوة، الشيء الذي ألقى ضوءاً كبيراً على حال القبائل في البلقاء. حيث أنّهم تأثّروا بشكل كبير بانتهاك الحضارة لهم. فقد امتلأت مرابعهم الصّيفيّة تدريجيّاً بالفلاّحين، ولا تزال الأمور إلى الأسوأ، وقد شُغلت منابع مياههم الصّيفيّة الآن بالچركس الذين أسكنهم السّلطان في شرق سوريا عندما أخرجهم الرّوس من منزلهم وموطنهم في القفقاس Caucasus. والچركس شعب حادّ الطّبع، نكد المزاج ومشاكس، لكنّهم مجدّون ومغامرون إلى درجة كبيرة، وينتصرون دوماً في صراعهم اليومي مع العرب. ومؤخّراً قاموا بجرّ مياه من نهر الزرقا، التي كان البدو يعتمدون عليها في فترة الصّيف، والتي هي سبب الحرب، وأصبح من المستحيل أكثر وأكثر الذّهاب إلى عمّان، المركز الرئيسي للچركس، لشراء بعض الحاجيات الضرورية لحياة العرب، مثل البنّ والسّكّر والتّبغ.

كان رأي نمرود بأن على قبائل البلقاء أن تطلب من الحكومة تعيين قائم مقام على منطقتهم لحماية مصالحهم؛ ولكن فَلاح العيسى تردّد في استدعاء الحكومة الغاشمة خوفاً من الخدمة العسكريّة التي يمكن أن تُفرض، والتّسجيل الإجباري لأعداد الماشية بالإضافة إلى الممارسات البغيضة الأخرى. والحقيقة هي أنّ أيّام عرب البلقاء باتت معدودة. وبالنّظر إلى الخرائب، فمن الممكن، كما كان ممكناً في القرون الماضية، توطيد سكّانه على نحو ثابت على مقاطعتهم كلّها، وسيكون عليهم أن يختاروا بين أن يبنوا قراهم بأنفسهم أو أن يزرعوا الأرض، أو أن ينسحبوا إلى جهة الشّرق حيث لا يمكن الحصول على الماء في فصل الصّيف، والحرارة أعلى ممّا اعتادوا عليها.



حلب النّعاج

انتقل نمرود من تلك الأسئلة المربكة ليطري على الحكم الإنكليزي في مصر. وهو لم يذهب إلى هناك أبداً، لكنّه سمع قصصاً من أحد أبناء عمومته الذي كان يعمل كاتباً في الإسكندرية؛ ولقد علم أنّ الفلاّحين أصبحوا أثرياء وأنّ الصّحراء أصبحت تنعم بالسّلام مثلها مثل المدن.

قال: وتوقّفت العداوات الدّمويّة والغارات، وعندما يقوم شخص بسرقة جِمال شخص آخر، انظري ماذا يحصل، يأتي صاحب الجِمال إلى أقرب مخفر ويقدّم شكواه، ويركب ضابط شرطة الوحدة عبر الصّحراء إلى أن يصل إلى خيمة السّارق، ثم يلقي السّلام ويدخل. وماذا يفعل صاحب الخيمة؟ يقوم بصنع القهوة ويحاول أن يعامل الضابط كضيف. ولكن عندما يشرب الجندي القهوة يقوم بوضع نقود عند الموقد ويقول: «خذ هذه القروش»، وبذلك يكون قد دفع ثمن جميع ما أكله وشربه ولا يقبل الضّيافة. وفي الصّباح يغامر معطياً الأوامر بأنّه في غضون بضعة أيّام يجب أن تكون الجِمال في المخفر. وعندها يخاف السّارق ويجمع الجِمال معاً ويرسلها إلى المخفر، وإذا نقص عدد الجِمال عندها يقول القاضي لصاحب الجِمال: «هل اكتمل العدد؟» فيردّ: «هناك بعير ناقص»، فيقول: «كم ثمنه؟» فيجيب: «ثماني ليرات»، فيقول القاضي للسّارق: «ادفع له ثماني ليرات، ويدفع والله!».

لم يعبّر فَلاح العيسى عن أيّة موافقة صريحة عن مزايا هذا النّظام، ولكنّه استمع

باهتمام بينما كنت أشرح مبادئ مصرف الفلاّحين، كما فهمتها، وعند نهاية الحديث سأل فيما إذا كان بإمكان اللّورد كرومر أن يقتنع بمدّ حكمه إلى سوريا، وهو اقتراح لا يمكنني الشّروع بقبوله باسمه. لقد طُرِح علي قبل خمس سنوات في جبال حوران سؤال مشابه، والإجابة عليه أثقلت دپلوماسيّتي.

كان قد اجتمع شيوخ الدّروز من قنوات Kanawat في خيمتي في اللّيل وبعد عدّة تحذيرات جرت حول الموضوع، وعدّة تأكيدات من طرفي بأنّه لا يوجد هناك من يتسمّع على الحديث، سألوا إذا كان الأتراك قد خرقوا مرّة أخرى معاهداتهم مع الجبل عندها يمكن للدّروز أن يلجؤوا إلى اللّورد كرومر في مصر، وإذا ما كنت سأقبل بحمل رسالة له. أجبتُ بجوّ من يقلّب الوضع في جميع مجالاته حيث أنّ الدّروز كانوا شعباً جبليّاً، وأنّ مصر كانت سهلاً، ولذلك سوف لن تتلاءم معهم. نظر شيخ البلد Sheikh el Balad إلى شيخ الدّين Sheikh ed Din، فانفتحت أمام أعينهم صورة رهيبة لأرض دون معاقل جبليّة تتّخذ ملاذاً، أو دون طرق جبليّة يسهل الدّفاع عنها، فأجابوا بأنّ الأمر يتطلّب تفكيراً أكثر، ولم أسمع عن الموضوع مرّة أخرى.

مع ذلك فالمعنى واضح: في جميع أنحاء سوريا وحتّى في الصّحراء مهما كان موضع الإنسان سواء بإحساسه بالظّلم أو خضوعه لعجزه، فإنّه يرغب بأن يكون تحت الحكم الذي منح الغنى لمصر، وإن احتلالنا لذلك البلد، الذي فعل الكثير من الجهد ليحول عنا تعاطف المسلمين في البداية، قد قدّم تصرّفنا هناك أفضل دعاية للأنظمة الإنكليزيّة في الحكم[1].

---

(1) كتبت المؤلفة: ومن الممكن أن يكون الاضطراب الحالي في مصر كما يبدو يلقي شكاً على حقيقة هذه الملاحظات، ولكني لا أظن أن هذه هي القضية. فقد نسي المصريون المآسي التي خلصتهم منها إدارتنا، والتي لا يزال السوريون وسكّان الصّحراء يرزحون تحتها، ومن وجهة نظرهم بأن جيرانهم يتمتعون براحة حقيقية يحسدون عليها ولكن عندما يطرد الذئب بعيداً عن باب البيت فالكوابح التي تفرضها القوانين الثابتة تؤثّر سلباً في المزاج غير المستقرّ، فالناس غير المستقرّين معتادون على اعتبار الحكم سيئاً والاستفادة من اللّين المعتاد والفرص العرضيّة للتّقدّم غير المستحق الذي يميّزه. والعدالة شيء كبير جدّاً عندما تقوم بالسّهر على حقوقك، ولكنّها لعينة جدّاً عندما ترغب باغتصاب



قَبلان بن حْمود الدَّعْجة

عندما كنتُ جالسة أستمع للحديث الذي يدور من حولي وأنظر إلى الخارج في اللّيلة المرصّعة بالنّجوم، عاد بي فكري في قطار الذّكريات الذي كان أساس اليوم كلّه، والموضوع الذي كان قبلان قد بدأه عندما وقف وأشار إلى آثار مخيّمه السّالف فقلت: «في العصور قبل النّبي تكلّم أجدادكم اللّغة ذاتها التي تتكلّمونها أنتم، ولكنّنا لا نعلم الأساليب التي أضعتم بها معاني الكلمات التي استخدموها. والآن أخبروني ما معنى هذه العبارة أو تلك؟».

انحنى الرّجال حول النار، وعندما ارتفع اللّهب رأيت وجوههم السّمراء وهم يستمعون إلى كلامي، ثمّ أجابوا:

«بالله! هل تكلّموا بذلك قبل مجيء النّبي؟».

«ما شاء الله! لا نزال نستخدم تلك الكلمة، إنّها العلامة على الأرض حيث نُصِبت الخيمة».

حقوق الآخرين ولن يتوانى فَلاح العيسى وأمثاله عن اكتشاف عيوبها.

شجّعني هذا لأقتبس بيتين من الشّعر لامرئ القيس الذي أوحى بهما كلام قبلان:

قفا نبك من ذكـرى حبيبٍ ومنزلِ بسقط اللوى بين الدّخول فحوملِ

كان قبلان يقف عند سارية الخيمة فرفع رأسه وهتف:

«ما شاء الله! إنه عنترة».

يُنسـب جميع الشُـعر من قِبل العرب الأمّيين إلى عنترة؛ ولا يعرف قبلان اسم شاعر آخر.

أجبتُ: «لا؛ فقد تحدّث عنترة بطريقة أخرى. لقد قال:

هـل غـادرَ الـشّـعـراءُ مـن مُـتـرَدّمِ أم هل عرفتَ الـدّار بعدَ توهُّمِ

وكان لبيد أفضلهم عندما قال:

عفت الـدّيـار محلها فمقامها بـمـنـى تـأبـد غـولـهـا فرجالها

فـمـدافـع الـريـان عُـرّي رسمُها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها

أومأ قبلان موافقاً.

قال: «بالله! كان السّهل قد امتلأ بالمواضع حيث أقمت».

التقـط قبلان الملاحظة. ونظرتُ خلفه في الليل ورأيـت الصّحراء بعينيه، لم تعد فارغة تمامـاً ولكنّهـا ملئت بالبشـر الأصحـاب أكثر من أيّ مدينـة. فكلّ خطّ فيها لـه معنى، وكلّ حجـر كأنّه أثر باهـت لموقد في دفء حياة العرب التي يصعـب أن ينالها البرد، على الرّغم من أنّ النّار قد خمدت في غضون المئة سنة الأخيرة هذه. لقد كانت مدينة من حدود وهميّة متداخلة، تُرى الواحدة تحت الأخرى، تتلاشـى وتتبدّل، تتجمّع في أشكال بعناصر جديدة لكنها قديمة قِدم الزّمان، ويتعذّر تمييز الجديد منها من القديم والقديم من الجديد.

لا يوجـد اسـم لهـا. لا يتكلّم العرب عن الصّحـراء أو القفر كما نفعـل نحن ولماذا عليهـم فعل ذلك؟ فهي بالنّسـبة لهم لا صحراء ولا قفر، ولكنّهـا أرضٌ يعرفون جميع معالمهـا، البلـدة الأم حيث يقدّم أصغر منتج فيها إشـباعاً لاحتياجاتهم. وهم يعلمون،

أو علـى الأقل قد عرفوا في الأيّام عندما صاغت أفكارهم فيها ذواتهم في شـعر خالد، وعرفـوا كيف يتمتّعـون بجمال الأماكن الشّاسـعة، وكيف يحترمـون اندفاع العاصفة. ولقـد مجّدوا في عـدة قصائد جمال مواقع الميـاه؛ وتغنّوا بالذّباب الـذي دندن هناك، كرجـل يدندن سـعيداً بنشـوة الخمـر نغمات لنفسـه، وببرك ميـاه الأمطار التي تسـطع كقطـع الفضّة، أو تومض في الظّلام كدرع الفارس عندما تحرّكها الرّياح. ولقد راقبوا، وهم يعبرون قنوات المياه الجافة، سـير الليل البطيء، عندما تبدو النّجوم كأنها ربطت بسلاسـل إلـى السّـماء كما لو أنّ الفجر لـن يأتي أبداً. وقـد رأى امرؤ القيـس الثّريّا قد التقطت مثل جواهر في شبكة حِزام، ومع ذئب ينبح في الظّلام وكأنّه يطلب الرّفقة:

كـلانـا إذا مـا نـــالَ شـيـئـاً أفـاتـه   ومن يحترث حرثي وحرثك يهزلُ

ولكـن لـم يكن هناك في الليل أو النهار رعبٌ قاهر، ولا خـوف لا معنى له، ولا عدو لا يمكن هزيمته. ولم يطلب شعراء الجاهليّة هؤلاء المساعدة لا من الأشخاص ولا من الله؛ ولكن عندما حلّ بهم الخطر تذكّروا صانع سيفهم ونسب جوادهم وبسالة قبيلتهم، وكانت ذراعهـم القويّـة قـادرة على النّجـدة والنّجاح. ولذا فقـد تألّقوا كما يجـب أن يتألّق الرّجال الذين تجري الدّماء حارّة في عروقهم، ولم يمدحوا إلا من يستحقّ المدح.



على طريق الحجّ

هذا مزاج شعر عظيم يعادل في روعته أفضل ما تفوّه به بشر. وكلّ مجال من تجربة العربي قد لُمِس في دوره، ودوّت أعمق المشاعر العاطفيّة. وليس هناك أبيات أروع من

تلك التي يلخّص فيها لبيد إدراكه للوجود، وهو شعر كل بيت من أبياته الأربعة عشرة قد شحِن بوقار وجلال مأساوي وراء كلّ مديح. ويبدو أنّه حزين أمام العمر المديد والموت ونهايات بتسليم مهيب لمحدوديّة الحكمة البشريّة:

لعَمرك ما تدري الضّواربُ بالحصى ولا زاجـراتُ الطّير ما الله صانعُ

إنّ صوت الإنذار لا يشبه أبداً صوت الرّعب. فهو يتكرّر بما يكفي ولكنّه لا يعكس الجرأة المفرطة للشّاعر.

يقول طَرَفة:

لعَمرك إنّ الموتَ ما أخطأ الفتى لكَالطِّوَل المرخى وثِنياه باليد
ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللّذّات هل أنت مخلّدي
فـإن كنتَ لا تستطيعُ دفـعَ مَنيّتي فدَعْني أُبـادِرهـا بما ملكتْ يدي

ويقدّم زهير أيضاً تجربته بقوّة:

وأعـلـمُ علمَ اليـومِ والأمـسِ قبله ولكنّني عن علمِ ما في غَـدٍ عمِ
رأيتُ المنايا خَبطَ عشواءَ مَن تُصِبْ تُمتْهُ ومَـن تُخطئ يُعمّر فيهرمِ

وقد لمست نسمة الحياة الجميع على حدّ سواء، شباباً وكهولاً، رجالاً ونساءً، ومن بين الآثار الباقية الأكثر روعة في ميراث الصّحراء قصيدة حزينة ألقيت من أخت على أخيها المتوفّى، وقيمتها كوثيقة تاريخيّة لا تقلّ عن روعة كونها قصيدة وجدانيّة. فقد أُخِذ النَّضر بن الحارث أسيراً من قِبل محمّد[1] في الأُثيل، بعد معركة بدر، وحُكِم عليه بالموت من قِبل الرّسول، ومن خلال أبيات قتيلة Kutaila تلمس ثورة المشاعر التي قوبِلت بها دعوة النّبي من قِبل معاصريه الذين لم يخضعوا له، ممزوجة باحترام ضروري مناسب لرجلٍ ذي نسب شريف مثلهم. وقد بكته في قصيدة «يا راكباً»:

يـا راكـبـاً إنّ الأثـيـلَ مظـنّـةٌ مـن صبح خامسةٍ وأنـت موفّقُ
بـلّـغ بـهـا مَـيـتـاً بـأنّ تـحـيّـةً ما إن تـزال بها الرّكائب تخفقُ

(1) عليه أفضل الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

منّي إليه وعبرة مسفوحة | جادت لمائحها وأخرى تخنقُ
فليسمعنّ النّضر إن ناديته | إن كان يسمعُ ميتٌ أو ينطقُ
ظلّت سيوف بني أبيه تنوشهُ | لله أرحامٌ هناك تشقّقُ
أمحمّد ولأنت نجل كريمة | من قومها والفحل فحل معرقُ
ما كان ضرّك لو عفوت وربّما | مَنَّ الفتى وهو المغيظُ المحنقُ
والنّضر أقرب من أصبت وسيلةً | وأحقّهم إن كان عتقٌ يُعتقُ

وعلى جناح أقوى لروح حرّة جامحة للصّحراء ارتفعت في صور من يمكث في سجن في مكّة، وغنّى للحب والموت بصوت لا يُنسى:

هواي مع الرّكب اليمانين مصعدٌ | جنيب وجثماني بمكّة موثقُ
عجبت لمسراها وأنّى تخلّصت | أيّ وباب السّجن دوني مغلقُ
ألمّت فحيت ثمّ قامت فودّعت | فلمّا تولّت كادت النّفس تزهقُ
فلا تحسبوا أنّي تخشعت بعدكم | لشيء ولا أنّي من الموت أفرقُ
ولا أنفسي يزدهيها وعيدكم | ولا أنّني في المشي في القيد أشفقُ
ولكن عرتني في هواك صبابةٌ | كما كنت ألقى منك إذا أنا مطلقُ

فأما كَرب الأسْر والصّورة المتخيّلة لحبيبة القلب التي لم تستطع قضبان السّجن أن تبعدها، ثمّ الاحتجاج اللّطيف كيلا يحلم أعداؤه بأنّ روحه قد اضطربت، وكذلك الذّاكرة القويّة للرّجل الشّجاع للعاطفة التي هزّت حياته وتركت روحه لا تزال مستعدّة لموت قاهر - فهناك أمثلة قليلة لمثل هذه العاطفة النّبيلة، ولدت ونشأت في روح الصّحراء. ولقد ترك شعراء عصر الجاهليّة خلفهم سجلاً عن عرقهم الذي لا يمكن لأمم أغنى وأكثر حكمة أن تجاريه[1].

* * *

(1) كتبت المؤلفة: لقد استعرت ترجمة سر تشارلز لايال Sir Charles Lyall الأجمل والأكثر منهجيّة لهذه القصيدة والقصيدة التي قبلها.

الفصل الرّابع

ثمّـة مَثَـل عربـي يقول: «حَيّـة رَبدا ولا ضيف مُضحـى»[1] - حيّة ربـداء ولا ضيف الظّهيـرة. لقد كنا حذرين بألا نخرق سـلوكنا في بقائنا مدّة أطـول أكثر من المفروض، وكانت خيمتنا قد قُوّضت قبل غياب الشّـمس. أن تسـتيقظ في ذاك الفجر الصّحراوي أمـر شـبيه تماماً بأن تسـتيقظ في قلب حجر مـن الأوپال opal. كانت طبقات السّـديم تعتلي برؤوسها خارج الوديان، وتطفو حبّات النّدى في أكاليل زهور شبحيّة من الخيام السّود، وكانت انطلقت أولاً مع تألّقات باهتة للسّماء الشّرقيّة ثمّ تلَتها الأشعّة الصّفراء القويّة للشّمس السّاطعة. أرسلتُ منديلاً أرجوانيّاً فضّيّاً لفَلاح العيسى «للفتى الصّغير» الـذي كان يلعـب على نحـو رزين حول الموقـد. ودّعت نمرود وداعاً لائقاً، وشـربت قهوة الـوداع، وأمسـك الشّـيخ المسـنّ بركاب جوادي، صعدت الجبل وسـرت مع قبلان.

تسلّقنا جبل العَليا Jebel el 'Alya وعبرنا قمّة السّلسلة الجبليّة الواسعة؛ وكان المنظر مماثلاً لحدود بلادنا الإنكليزيّة لكنّه أكبر، الانحناءات المتعرجة أوسـع، والمسـافات أبعد. أسـكر الهـواء البارد الرّائع جميع أحاسيسـي جاعلاً دمائي تخفق ـ وبالنّسـبة لي فـإنّ الـكلام عن خليـج ناپولي Naples يجب أن يسـتمرّ على نحو مختلـف. انظر إلى

(١) كتبت المؤلفة المثل بالإنكليزية:

"Hayyeh rubda wa la daif mudha".

الصّحـراء فـي صيف لطيـف ثم مُـت ـ إن اسـتطعت[1]. حتّى البغال العجماء شـعرت بالنّسـيم وبدأت تتسابق عبر الأرض الرّطبة الإسـفنجيّة. «مجنون! هذا الملعون!» إلى أن تأرجحـت حمولتهـا عن ظهرها ووقعـت، وتوقّفنـا مرّتين لوضعهـا وتحميلها مرّة أخرى. أشرفت علينا أعلى قمّة لجبل الدّروز بابتهاج وهي تلمع بعباءتها الثّلجيّة بعيداً في الشّمال.

وعنـد سـفح المنحدرات الشّـماليّة فـي هضاب العَليا Alya'، دخلنا سـهلاً واسـعاً متموّجـاً مثـل ذاك الـذي تركنـاه فـي الجنوب. عبرنـا العديد مـن تلك الرّجـوم rujm الغامضـة التي تجعل الخيال يفكّـر بالتّاريخ البعيد لتلك الأرض، ورأينا على التو منظر المخيّم المتناثر لقبيلة الحَسَـنيّة[2] Hassaniyyeh، الذين هم أصدقاء جيّدون للدَّعجة Da'ja وينتمـون إلى أصل القبيلـة ذاته. ولمحنا هنا خيّالين قادمَين عبر السّـهل وذهب قبـلان للتّرحيـب بهما وبقي بعـض الوقت يتحدّث معهما، ومن ثـمّ عاد بوجه مكفهر. في اليوم قبل الماضي وبينما كنّا نسـير بأمان من طنيب قام أربعمئة فارس من الصّخور والحويطات Howeital المتحالفين مع الشّـر، باكتساح هذه السّهول، وفاجأوا جماعة قصيّة من بني حَسَن[3] Beni Hassan واقتلعوا الخيام مع ألفي رأس من الماشية.

فكّـرتُ بأنّـه كان أمراً باعثاً على الشّـفقة، حيـث أنّنا قدمنا في وقـت متأخّر جدّاً من اليـوم ولكـن قبلان بدا أكثـر تجهّماً عند هذا الأمـر، وقال إنّه قد يضطـر للانضمام إلى هـذا النّـزاع، نعـم حتّى أنّـه من الممكـن أن يضطـر لأن يتركنـي، على الرّغـم من أنّي اضطـررت للتّسـليم برعايته، وذلك لأنّ الدَّعجة قد أُلزمت بمسـاعدة بني حَسَـن ضدّ الصّخـور. وربمـا كان عمل البارحـة كفيلاً بحلّ الهدنـة حديثة العهد بيـن تلك القبيلة

---

(1) من الواضح أنّ المؤلفة تلمح إلى المثل المتداول بالإيطاليّة:
"vedi Napoli e poi muori."

(2) تعني المؤلفة بني حَسَن الذين تذكرهم مراراً في هذا الفصل.

(3) بنو حسن قبيلة بدوية في الأردن، تعود بنسبها الى الأشراف من الحسينيين الجعافرة (نسبة إلى جعفر الصادق) وهي تنقسم إلى عدّة عشائر كبيرة هي: الخوالدة، الخلايلة، الزّواهرة، العموش، المشاقبة، الزّيود، العليمات، الخزاعلة، الحراحشة، الغويري، الزّبون.

القويـة والحلفاء من عْنِـزَة ووضع كامل الصّحراء في حرب من جديد. كان هناك حزن في خيام بني حَسَـن. ولقد رأينا رجلاً يبكي عند سـارية الخيمة واضعاً رأسـه بين يديه، فقد سُـلب منه كل ما كان يملك. وبينما كنا نسـير تحدّثنا كثيراً عن الغزو والقواعد التي تحكمه. تتغيّر ثروة العرب مثل ثروة مقامر في سوق الأوراق الماليّة. فقد يكون الرّجل الأغنى في الصّحراء، وفي الصّباح التّالي ربما يكون لا يملك بعيراً واحداً باسمه. فهو يعيش في حالة حرب، وحتّى إذا ما تمّ تبادل أقوى المواثيق مع القبائل المجاورة فليس هناك ثقة بألا تقوم مجموعة من الغازين من بعد مئات الأميال بالهجوم على معسكرهم في الليل، كما حدث عندما قامت قبيلة غير معروفة في سوريا، هي بنو العواجي Beni Awajeh، قبل سـنتين بالنّزول على الأراضي الجنوبيّة الشّـرقيّة لحلب، قاطعة ثلاثمئة ميـل عبـر الصّحـراء، مردوفيـن Marduf (اثنين على جمـل) من مقرّهم فـوق بغداد، حاملين معهم جميع الماشية التّابعة للقبيلة وقتلوا عشرين رجلاً.



عرب يركبون بطريقة المَردوف

يـا تـرى كم من ألف سـنة مرّت والعرب هكـذا حالهم، إن هؤلاء الذين سـوف يقرؤون المدوّنـات الأولى المبكرة للصّحراء الدّاخليّة سـيخبروننا بذلك، لأنّ المدوّنات تعود إلى الأيّام الأولى للإنسـان، ولكن لم يكتسـب العرب في جميـع القرون حكمة مـن التّجربة. فالعربـي ليس بمأمن أبداً، ومع ذلك يتصـرّف كما لو كان الأمان خبزه اليومي. وهو ينصب

مخيّماته الضّعيفة القليلة، بما يعادل عشرة أو خمسة عشرة خيمة معاً، على امتداد واسع في منطقة غير محميّة أبداً. وهو بعيد عن رفاقه بشكل كبير جدّاً بحيث يصعب عليه الاستغاثة بهم عند الهجوم بشكل يسمح بتجمّع عدد من الفرسان معاً واللّحاق بالغزاة الذين من المفترض أن يكون انسحابهم ببطء شديد، مثقلين بالغنائم من قطعان الماشية، مما يتيح إعادة القطعان المسلوبة إذا تمّ تجمع الفرسان بالعدد المناسب والسرعة المناسبة. وعندما يفقد العربي جميع مقتنياته الدّنيويّة يذهب في الصّحراء ويشكو حاله، ويقوم شخص بإعطائه قطعة أو قطعتي قماش من شعر الماعز، ويقوم آخر بإعطائه دلّة قهوة، وثالث يهديه جملاً، ورابع بعض الأغنام إلى أن يصبح لديه سقف يؤويه وما يكفي من الحيوانات لتقي عائلته من الجوع. وكما قال نمرود فهناك الكثير من العادات الجيّدة بين العرب. وهو يواجه أوقاته العصيبة لعدّة أشهر، وربّما لسنوات، إلى أن تسمح الظّروف أخيراً، وتقوم خيّالة من قبيلته مع حلفائهم بالذّهاب بعيداً ويقومون بإعادة جميع القطعان التي سُلبت ومعها الكثير أيضاً، وتدخل العداوة دوراً آخر.

والحقيقة هي أنّ الغزو هو العمل الوحيد الذي تعرفه الصّحراء والهواية الوحيدة أيضاً. وكعمل، فإنّه يبدو للعقل التّجاري أنّه يعتمد على فهم خاطئ لقوانين العرض والطّلب، ولكن كهواية، فهناك الكثير ليقال عنه من هذه النّاحية، حيث تجد روح المغامرة مجالاً واسعاً فيه ـ بإمكانك تصوّر الإثارة في اللّيل وأنت تسير راكباً عبر السّهل، واندفاع الخيول في الهجوم، وأزيز الرصاص الرّائع (غير المؤذي نسبيّاً) والانتعاش بمعرفة أنّك شخص كفؤ وأنت تعود إلى بيتك مع الغنيمة. إنّه النّوع الأفضل للفنتازيّة، كما يقولون في الصّحراء، مع بهار من شعور بالخطر يكمن خلفها. وهو ليس إنذاراً بالخطر كبيراً جداً، إنّما هو مقدار جدير بالاعتبار من التّسلية يمكن الحصول عليها دون إراقة الكثير من الدّماء. نادراً ما يميل الغزاة العرب للقتل، فالعربي لا يرفع يده مطلقاً على النّساء أو الأطفال، وإذا ما سقط رجل هنا أو هناك يكون ذلك بمحض المصادفة، إذ من يمكنه التّأكّد ما هو مسار طلقة البندقيّة النّهائي عندما تطلق في اللّيل على نحو عشوائي؟

هـذه هـي نظرة العرب للغـزو؛ بينما ينظـر إليه الـدّروز بطريقة مختلفة. إنه بالنّسـبة لهـم حـربٌ حمراء، فهـم لا يلعبون اللّعبـة كما ينبغـي أن تُلْعَب، بل يخرجـون للقتل، ولا يسـتثنون أحداً. وطالما أنّ لديهم مقداراً ولو ضئيلاً من البارود في قواريرهم وقوّة لسـحب زند البندقيّة فإنّهم يقتلون كلّ شـخص يواجهونه سـواء كان رجلاً أو امرأة أو طفلاً.



مضارب مرتحلة من العقَيْل

وأنـا أعلم باسـتقلاليّة المرأة العربيّـة والحرّيّة التي يتمّ من خلالهـا عقد الزّواج بين قبائل مختلفة من أصل متسـاوٍ، وقد رأيت العديد من القصص الواقعيّة العاطفيّة لحب ممزوج بكراهيـة في صـور مركّبـة بيـن عائلتـي مونتَغيـو[1] Montagues وكابيوليت Capulets. يقول عنترة:

عُلِّقتُها عَـرضـاً وأقـتـلُ قومَها　　　زَعـمـاً لعَمرُ أبيكَ ليسَ بمَزعَمِ

ردّ قبلان قائلاً بأنّ هذه الحالات الصّعبة قد وُجدت حقّاً، وانتهت في بعض الأحيان على نحو مأسـاوي، ولكن إذا اقتنع الحبيبان بالانتظار، فيمكن لتسوية أن تتمّ مستقبلاً، أو يستطيعان الزّواج خلال بعض الفواصل التي تكون في وقت هدنة ما. ولكنّ الخطر الحقيقي يكمن عندما تكون عداوة الدّم قد بدأت داخل القبيلة نفسـها ويكون رجل ما

(1) كناية باسم العائلتين المتعاديتين اللتين ينتمي إليهما العاشقان الشهيران روميو وجولييت في مسرحيّة شيكسبير الشهيرة.

قد قتل أحد أفراد قبيلته عندها يُرمى خارج قبيلته، ويصبح دون مأوى أو ملجأ، فيضطر للجوء إلى الأغراب أو الأعداء. وهكذا كان امرؤ القيس الخارج عن القانون المنبوذ، يقول مناجياً الليل:

ألا أيّها اللّيلُ الطّويلُ ألا انجلي بصُبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ

على بعد بضعة أميال نحو الشّمال كانت مضارب الحَسَنيّة Hassaniyych لم تسمع بعد أخبار يوم أمس السّيّئة، وكنا مسرورين بنشرها. سار قبلان إلى جميع المجموعات التي اجتزناها ونقل الخبر الذي يثقل قلبه؛ وعندما كنا نذهب تضاعف عدد الرّجال الذين يرتدون ثياباً بأقمشة خشنة، وربما كنتُ مخطئة بقبول التّصريح الأصلي بأنّهم أربعمئة، وذلك لأنّهم كان لديهم الكثير من الوقت ليتكاثروا خلال الأربع وعشرين ساعة التي انقضت بين مغادرتهم ووصولنا. كانت جميع الخيام مشغولة بالتّحضيرات ولكن ليس للحرب وإنّما للوليمة. حيث يصادف يوم غد العيد الكبير عند المسلمين (عيد الأضحى)، وذلك عندما يقوم الحجّاج في مكّة بذبح ذبائحهم، ويحذو حذوهم المؤمنون الصّادقون في بيوتهم. كان هناك في كلّ خيمة كومة ضخمة من الأشواك والتي عليها سيشوى الجمل أو الغنم في اليوم التّالي، وكانت قمصان أفراد القبيلة قد نشِرت في الخارج لتجفّ في الشّمس بعد غسلها، الشّيء الذي يتمّ حسب اعتقادي مرّة واحدة في السّنة.



بئر في الصّحراء

وصلنا عند غياب الشّمس إلى مخيّم كبير لبني حَسَن Beni Hassan، حيث قرّر قبلان أن يمضي اللّيلة فيه. كانت هناك مياه في الغدير الطّيني في متناول اليد وموقع جيّد لخيامنا في منخفض من الأرض حيث يقيم العرب. لم يكن أحد من الشّيوخ قد خيّم هناك، وهذا ما شغل بال نمرود اليقظ. رفضتُ جميع الدّعوات وأمضيتُ اللّيلة في الخيمة، أراقب غروب الشّمس واضطرام نار الطّهي والدّخان الأزرق الذي يرتفع بعيداً في الشّفق. كان جمل الأضحية بزركشاته الوفيرة يرعى بين بغالي، وبعد حلول الظّلام استُقبِل العيد بإطلاق مديد لرصاص البنادق. جلس قبلان صامتاً قرب نار المخيّم، كانت أفكاره مشغولة باللّهو الصّاخب الذي كان جارياً في المخيّم. لقد كان يشعر بالمرارة حيث يتوجّب عليه أن يكون غائباً في يوم كهذا. قال: «كم من الفرسان سيحلّون غداً في خيمة أبي! ولن أكون هناك للتّرحيب بهم أو لأتمنّى يوم عيد مبارك لابني الصّغير!».



مجرى ماء في الصّحراء

كنّا في الخارج قبل بدء الصّخب. ولم يكن لدي رغبة في مشاهدة اللّحظات الأخيرة للجزور، وعلاوة على ذلك كان لدينا مسيرة يوم طويل عبر منطقة لم تكن آمنة بشكل خاصّ. وبقدر ما كانت قافلتي موضع اهتمام فإنّ المخاطرة كانت قليلة. كانت

معي رسالة في جيبي من فَلاح العيسى إلى نسيب الأطرش، شيخ صَلخَد في جبل الدّروز. «إلى الشّيخ المعتبر والمحترم نسيب الأطرش»، وتتابع (وقد سمعت مضيفي يملي ذلك على نمرود ورأيته يختمها بختمه)، «الموقّر، أمدّ الله في عمره! فقد أرسلنا تحيّات لك ولكلّ سكّان صَلخَد، ولأخيك جاد الله، ولابن عمّك محمّد الأطرش في أمّ الرُّمّان Umm er Rumman، وإلى أصدقائنا في امتان Imtain. وأيضاً، سوف يأتي إليكم من عندنا سيّدة من أعرق الأسر الإنكليزيّة، كما نحيي محمّداً وأصدقاءنا الخ... (وهنا يتابع بوضع لائحة أخرى من الأسماء)، وهذا كل ما لزم إخباركم به، والسّلام عليكم».

وبالإضافة إلى تلك الرّسالة كان معي ضمان بسبب قوميّتي، حيث أنّ الدّروز لم ينسوا بعد تدخّلنا لصالحهم[1] في 1860 (مذابح السّتّين)؛ وفضلاً عن ذلك فقد تعرّفت على عدّة شيوخ من الطّرشان[2]، العائلة القويّة التي ينتمي إليها نسيب. ولكنّ قبلان كان في وضع مختلف، فقد كان مدركاً تماماً لغموض وضعه، وعلى الرّغم من زيارة عمّه للجبل، فلم يكن متأكّداً تماماً كيف سيستقبله الدّروز؛ لقد كان يغادر مراكز حدود حلفائه، ويدخل أرضاً حدوديّة معادية تقليديّاً (وهو نفسه لم يكن على معرفة بذلك، فيما عدا الحملات التي كان يجمعها للغزو)، وإذا لم يجد له أعداءً بين الدّروز فربّما سيكون قد وقع بيد حثالة من أعتى أعداء الدّعجة وهم الحْسِنة Hasench أو ما شابههم، المخيّمين شرقي الهضبة.

بعد ساعة أو ساعتين من السّفر، تغيّرت طبيعة المكان تماماً: إذ انتهت رمال الصّحراء النّاعمة، وبدأت صخور حوران البركانيّة. سرنا بعض الوقت فوق أخدود من الحمم البركانيّة، تاركين الخيام الأخيرة للحَسَنيّة في مكان صغير مفتوح بين

---

(1) من المعروف في لبنان وسوريا إبّان حوادث عام 1860 الطائفية (المعروفة باسم: طوشة النّصارى) أن فرنسا أخذت جانب المسيحيين الموارنة وناصرتهم، بينما وقف الإنكليز (منافسو فرنسا القدامى) إلى جانب الدّروز وأدلوا بدلوهم في الأحداث الجارية.

(2) تعني المؤلفة آل الأطرش، من كبار شيوخ الدّروز وأعيانهم في السّويداء وصَلخَد والقريّا وشَهبا وكافة نواحي جبل العرب.

بعض الرّوابي، ووجدنا أنفسنا على حافّة سهل امتدّ حتّى سفح جبل الدّروز في امتداد متواصل مهجور تماماً، خالٍ تقريباً من النّبات ومكسو بأحجار بركانيّة سوداء. وقد قيل إنّ حدود الصّحراء هي أشبه بشاطئ صخري قد تتحطّم عليه سفينة البحّار الذي أبحر في المياه العميقة بنجاح ويحاول من ثمّ الاقتراب بسفينته نحو المرفأ. لقد كانت تلك الأرض التي علينا أن نخيّم فيها.



أباعر عشيرة الحَسَنيّة

وفي مكان ما بيننا وبين التّلال كانت توجد أطلال أمّ الجمال Umm cj Jemal، التي تمنّيت الوصول إليها مع الدّروز، ولكن من أجل سلامتنا لم نستطع التحدث عن مكان وجودها. كان السّهل مرتفعاً على نحو كافٍ ومنحدراً بما يكفي لحجبها عن الأنظار. تمتلك أمّ الجمال الآن اسماً مشؤوماً – أعتقد بأنّي ثاني شخص أوروبي ينصب مخيّمه فيها، الأوّل كان عضواً في بعثة أميركيّة أثريّة غادر قبل أسبوعين من وصولي ـ وقد عزّز قلق قبلان الواضح سمعته السّيّئة، والتفت نحوي مرّتين وسألني فيما إذا كان هناك ضرورة للتّخييم هناك فأجبت بأنّه تولّى أن يقودني إلى أمّ الجمال، وهكذا لم يكن هناك

أيّ مجال للتّساؤل عن ذهابي، ومرّة أخرى عزّزتُ عنادي وأشرت إلى أنّنا بحاجة إلى الماء تلك الليلة من أجل الحيوانات، ولذلك فقد كانت هناك فرصة ضئيلة للعثور على الماء إلاّ من صهاريج القرية الأثريّة. وللتوّ أخرجت خارطتي، وبعد محاولة تخمين أيّ نقطة على الورقة البيضاء هي التي يتوجّب أن نكون قد وصلنا إليها، تحوّلت بقافلتي قليلاً نحو الغرب باتّجاه ارتفاع ضئيل والذي منه ربّما نطلّ على هدف رحلتنا.



أمّ الجمال

تلقى قبلان القرار بقبول حسن، وأعرب عن أسفه بأنّه لم يستطع أن يقدّم خدمة أفضل في توجيهنا. كان قد ذهب مرّة واحدة في حياته إلى أمّ الجمال، ولكن ذلك كان في ليلة مظلمة عندما كان غازياً ووقف هو وجماعته لمدّة نصف ساعة لسقي جيادهم ثم اجتازوا شرقاً، عائدين من طريق آخر. أجل، لقد كانت غزوة ناجحة، الحمد لله! وواحدة من أولى الغزوات التي قادها. استمع ميخائيل بلا مبالاة إلى مشاوراتنا، ولم يشترك البغّالون في النقاش، ولكن عندما انطلقنا مرّة أخرى هيّأ حبيب مسدّسه ببراعة أكثر في حزامه، بحيث يكون جاهزاً عند الضّرورة.

تابعنا المسير، وكنت مشغولة في البحث عن الرّصيف، وهو طريق روماني مرصوف بالحجارة يمتدّ من قلعة الزَّرقا Kal'at ez Zarka مباشرة إلى بُصرى، وشغلتُ أيضاً

بالتّساؤل ماذا عليّ أن أفعل إذا اضطررت لحماية الصّديق والمرشد الذي كان لصحبته السّعيدة دور في إضفاء البهجة والنّشاط على ساعات السّفر، والذي يجب ألا يتعرّض لأيّ أذى طالما أنّه معنا. ولدى اقترابنا من الأرض المرتفعة أكثر أدركنا بأنّها كانت مغطّاة بحظائر الأغنام، واستطعنا فوراً رؤية رجال يجمعون قطعانهم معاً ويسوقونها خلف الجدران السّوداء، وكانت تحرّكاتهم السّريعة تنذر بالخطر. لاحظنا أيضاً بعض الأشخاص وقد كان من غير الممكن تبيُّن فيما إذا كانوا راكبين أم راجلين، وكانوا يتقدّمون منّا من وادٍ إلى اليسار، وبعد دقيقة ارتفعت سحابتَا دخان أمامهم وسمعنا صوت البنادق.

التفت قبلان إليّ بإيماءة سريعة وقال: «لقد ضربونا، قد أطلقوا علينا الرّصاص».

قلت بصوت عالٍ: «إنّهم خائفون»، ولكنّي قلتُ لنفسي: «ونحن أيضاً خائفون».

ارتفع قبلان في ركابه، وسحب عباءته بطرفها المكسو بالفرو من على أكتافه، ولفّها حول ذراعه الأيسر وحرّكها فوق رأسه، وسرت معه ببطء إلى الأمام. انطلقت طلقتان أخريان، وتابعنا سيرنا نحو الأمام وقبلان يرفع راية السّلام. ثمّ توقّف إطلاق النّار؛ ولم يحدث أيّ شيء على الإطلاق بعد ذلك فيما عدا ترحيب متوقّع للغرباء المعمول به مع الطّيش المعتاد للبربر. وتبيّن أنّ مهاجمينا كانوا اثنين من العرب، يبتسمون ابتسامة عريضة (من الأذن إلى الأذن) ومستعدّين تماماً للتّفاهم معنا حالما يتبيّن لهم بأنّا لسنا من لصوص المواشي، ورغبنا بشدّة أن يوصلانا مباشرة إلى أمّ الجمال. وحال التفافنا حول التّل رأينا أمّ الجمال أمامنا، ولمحنا أبراجها السّوداء وجدرانها تنتصب بقوّة في الصّحراء، فكان من المستحيل تصديق أنّها خربت وهجرت قبل ألف وثلاثمئة سنة (ثلاثة عشر قرناً). ولم نستطع أن نتبيّن الشّقوق والصّدوع في المبنى الحجري المسامي والثّغرات في جدار المدينة إلاّ بعد أن أصبحنا قريبين منها. اندفعتُ إلى الأمام على جوادي إلى قلب المدينة، ولكن قبلان قام بإمساكي ووضع يده على ركاب جوادي.

قال: «أنا أذهب أوّلاً، فأنت في عهدتي يا سيّدتي».

وطالما أنّه الشّخص الوحيد الذي كان هدفاً لأيّ مخاطرة، وكان عارفاً بشكل جيّد بالواقع، فإنّ قراره جعله موثوقاً به.



سقاية الأباعر

تحرّكنا بجلبة فوق الجدار الخرِب، وعبرنا حول ساحة برج الدّير، الذي يُعدّ المعلَم الرّئيسي لأمّ الجِمال، وركبنا إلى مكان مفتوح بين طرقات فارغة، ولم يكن هناك أيّ شيء نخاف منه ولا توجد أيّة إشارة لحياة ما عدا وجود خيمتين سوداوين صغيرتين، رحب بنا أهلها بحماس وعرضوا علينا أن يبيعونا حليباً وبيضاً بأسلوب ودّي جدّاً. يُدعى العرب الذين يقطنون عند سفح جبال حوران القبليّة Jebeliyych، عرب الهضاب، وهم لا يتمتّعون بأيّ تقدير أو احترام، وإنّما مجرّد خدم أو رعاة عند الدّروز. وفي الشّتاء يرعون قطعانهم التي أرسلت إلى السّهل، وفي الصّيف يُسمح لهم برعي المنحدرات غير المزروعة لأغنامهم الخاصّة.

أمضيت السّاعة المتبقّية من النّهار أتفحّص المقبرة النبطيّة الكبيرة الرّائعة خارج الأسوار. كان السّيّد دُسّو[1] Dussaud قد بدأ العمل عليها قبل خمس سنوات؛ وكذلك

(1) الآثاري الفرنسي الشهير رُنيه دُسّو René Dussaud (1868-1958) عالم آثار ومستشرق

مستر بَتلر[1] Mr. Bulter والدكتور ليتمان[2] Dr. Littmann، اللذان سبقت زيارتهما زيارتي مباشـرة، وسيجدان أنّ عليهما متابعة ذلك عندما يقدّمان كتبهما التّالية للعالم. لقد شاهدا عدّة قبور لم تكن مكتشفة، ولاحظا عدّة رواب لا بدّ أنّها تخفي قبوراً أخرى. أرسلت رفاقي بعيداً وتجوّلت في فترة الغسق عبر الطّرقات الأثريّة للبلدة في غرف كبيرة وفوق درجات متكسّرة، إلى أن جاء قبلان وناداني للدّخول إلى الخيمة قائلاً لو أنّ رجلاً رأى شيئاً ما في معطف الفرو يقوم باستكشاف تلك الأماكن الغريبة بعد حلول الظّلام فسيعتقد بكلّ بساطة أنّه غول ويطلق عليه النّار. وأكثر من ذلك، فقد رغب في أن يسألني عن احتمال عدم عودته إلى طنيب، ويمكن لأحد الأعراب أن يقودنا في اليوم التّالي إلى أوّل قرية درزيّة، وعندها سيصبح قبلان غير قادر على الاقتراب أكثر من الجبل.

وافقتُ عن طيب خاطر، وفي الحقيقة كان ضمان سلامته مريحاً لي. تلقّى ثلاثة فرنكات (ليرات ذهبيّة فرنسيّة) مقابل أتعابه، ورسالة شكر حارّة كي يوصلها إلى فَلاح العيسى، وودّعنا مع تأكيدات شديدة بأنّنا سنسافر معاً مرّة أخرى إن شاء الله.

انتشرت القرى المهجورة في سفوح جبال حوران الصّخريّة منذ المدّ الإسلامي في القرن السّابع للميلاد. وقد قمت بزيارة اثنتين منها تقعان على مسافة ليست بالبعيدة عن طريقي، وهي شَهبا والشّهابيّة Shabhiyyeh، ووجدتهما تشبهان أمّ الجمال تماماً، وتبدوان

ولغوي تخصّص في دراسة آثار ونقوش الحثيين والحوريين والفينيقيين والسّريان. عمل مدّة محافظاً لآثار الشرق الأدنى في متحف اللوڤر، واختير عضواً في أكاديميّة النقوش الكتابيّة والآداب. له عدد كبير من الدّراسات المهمة عن حضارات المشرق، سنتناول بعضها بالترجمة لهذه السّلسلة.

(1) هاورد كروسبي بتلر Howard Crosby Butler (1872-1922)، عالم آثار أميركي قام بثلاث بعثات أثريّة في الصحراء السّورية وجنوبي بلاد الشام، وله مؤلفات عديدة مهمة.

(2) الباحث الألماني لودڤيغ ريخارد إنّو ليتمان Ludwig Richard Enno Littmann (1875-1958) مستشرق ألماني عني بدراسة اللغات والنقوش السّاميّة (والتسمية مغلوطة وصوابها: لغات جزيرة العرب، أو اللغات العروبيّة). له العديد من الأبحاث الهامة ومسارد النقوش، قد نترجم بعضها في المستقبل.

عن بعد مثل المدن متقنة البناء بأبراج مربعة ترتفع فوق طرقات من أبنية ثلاثيّة الطّوابق. في الأماكن التي سقطت فيها الجدران بقيت في المكان ذاته حيث سقطت، إذ لم يعبأ أحد برفع الأنقاض، ولقد كان المسيو دى ڤوغيه[1] Monsieur de Vogüé الباحث الأوّل الذي وصف آثار حوران؛ ولا تزال كتبه الشّهيرة تعدّ المرجع الرّئيسي للمعلومات.

ولقد بنيت بيوت السّكن حول فناء يوجد داخله عادة درج خارجي يؤدّي إلى الطّابق الأعلى. لا يُستعمل الخشب في الأبنية، حتّى الأبواب فإنّها مصنوعة من حجارة صلبة صمّاء، وتدور على مفصّلات حجريّة، وكذلك النّوافذ فهي مصنوعة من مسطّحات حجريّة حُفرت بطريقة تجعلها قابلة للفتح. وفي بعض الأحيان تجد آثاراً لرواق ذي أعمدة، أو ترى أن الجدران تتخلّلها نافذة مزدوجة، والأقواس قد دُعمت بعمود صغير ورأس عمود بسيط خشن؛ وغالباً ما ترى عتبات الأبواب قد زُخرفت بصليب أو رمز مسيحي، ولكن فيما عدا ذلك فإنّ الزّينة قليلة، وقد سُقفت الغرف بألواح حجريّة مثبّتة على ظهر أقواس مستعرضة.



نقض المضارب

(1) الآثاري الفرنسي الشهير أوجين ملكيور ڤيكونت دى ڤوغيه Eugène-Melchior, vicomte de Vogüé (1848-1910) ديبلوماسي ومستشرق وكاتب رحلات وعالم آثار وناقد أدبي. اختير عام 1888 عضواً في أكاديميّة العلوم الفرنسية، وله عدد كبير من المؤلفات.

وبعيداً عن أيّ تأكيد فإنّ النّقوش النّبطيّة والقبور هي المعالم الأثريّة الأقدم التي اكتُشفت في المنطقة؛ تبعها العديد من البقايا الأثريّة المهمّة للرّوم الوثنيين، ولكنّ الحقبة المزدهرة من دون ريب يبدو أنّها الحقبة المسيحيّة. بعد الغزو الإسلامي، الذي وضع نهاية لازدهار مرتفعات حوران، سُكنت بعض القرى من جديد، وعندما جاء الدّروز قبل ما يقارب مئة وخمسين سنة، وجدوها غير مسكونة، فجعلوا الجبل ملكهم، وأعادوا إعماره وبالتّالي دمّروا القرى القديمة، وبسطوا سلطتهم على السّهول من جهة الجنوب، على الرّغم من أنّهم لم يكونوا قد وطّدوا أقدامهم في القرى من تلك الأرض المتنازع عليها، والتي بقيت أرض صيد سعيدة لعلماء الآثار. سوف تفعل البعثة الأميركيّة خيراً باستخدام الكمّيّة الهائلة للمواد الموجودة هناك، وقد علمت أنّ العمل قد تمّ بأيدٍ أفضل من يدي، وتوقّفت عن حساب المسافات وتابعت المسير. لكنّي لم أستطع حتّى الآن التّغلّب على موهبة طبيعية بالتّوقّف عن نسخ النّقوش، وكانت قطعة أو قطعتان من النّقوش هما اللّتان أفلتتا من عين الدكتور ليتمان Dr. Littmann اليقظة وجاءتا بمحض المصادفة أمام عينيّ فسلّمتهما له عندما التقينا في دمشق[1].

وبالنّسبة لدليلنا الجديد، فَندي، فقد أخذ على عاتقه أن ينقل لي الأقاويل الموجودة في الجبل. لقد كان ملك الموت مشغولاً في عائلة الطرشان الكبيرة في السّنوات الخمس الأخيرة. فقد كان فايز الأطرش شيخ القرية قد مات مسموماً، كما يقول البعض، وقبل أسبوع أو أسبوعين من وصولي كان الرّجل الأكثر شهرة بين زعماء

---

(1) بوركتِ يا غرترود، هذه هي نفسية الباحث العاشق للعلم والبحث. لكن ذلك يذكرني بذكرى مريرة محزنة حول عشرات الألوف من النقوش الصفأية القديمة، وبعض النقوش اليونانيّة والعربيّة الكوفية والأيوبيّة والمملوكيّة، التي رأيتُها بأم عيني في ديرة التّلول (وخاصة جبل سيس) وعلى امتداد حرّة الصّفا، وبأكناف منقع الرّحبة والزّلف والنّمارة وبئر الرّصيعي، مع العديد من رسوم الحيوانات البدائيّة.. شاهدتُها على امتداد ست سنوات بين 1996-2001 ثم كم آلمني في عام 2005 أن أرى تلك النقوش الرائعة والثمينة قد تعرّضت لأعمال نهب فادحة جداً، حرمتنا من جزء غالٍ جداً من تاريخنا، يؤرخ حركة انتقال قبائل العرب منذ أقدم العصور باتجاه الشّمال، وكانت تلك النّقوش تاريخاً حيّاً خطّوه بأياديهم عبر آلاف السّنين، فانتهى به الأمر اليوم إلى النّهب والبيع في أسواق الآثار العالمية.. يا للعار!!!

الدّروز، وهو شبلي بك الأطرش قد مات بمرض عضال في ظروف غامضة - وقد قيل بأنّـه السّـمّ مجدّداً. ثم كانت هذه الحرب الواقعة الآن، وهـي غارة مخيفة لعرب وادي السّـرحان Wady Sirhan من أجل الثّأر، وحسـاب مع الصّخور يجب أن يُسدّد، لكن، وبشكل عام، كان هناك ازدهار وسلام يتمتّع به الدّروز على نحو كاف.

كانت المحادثة قد انقطعت ببعض الطّلقات التي أطلقت على أرانب تستلقي نائمة فـي الشّـمس. لعلّهـا لا تُعدّ رياضة نبيلة، ولكنّها تسـاعد على ملء قِـدر الطعام وتنويع محتوياته. تركتُ بعد مدّة وجيزة البغال وفندي ليسيروا في طريقهم الخاصّ، وأخذت ميخائيـل معي، وقمتُ بجولة طويلـة لزيارة المناطق الأثريّة الخرِبـة. كنّا قد أنهينا للتّو تنـاول غداءنـا تحت جـدار متهدّم، منفصليـن تماماً عن بقيـة المجموعـة، عندما رأينا فارسين يقتربان منّا عبر السّهل. جمعنا فوراً ما تبقّى من طعامنا وامتطينا جيادنا بسرعة، وشعرنا بأنّ أيّ تحيّة يمكن أن يلقوها علينا يفضّل أن تكون ونحن نمتطي صهوة جيادنا.

وقفا أمامنا وألقيا علينا التّحيّة، وأتبعاها بسؤال مفاجئ عن وجهتنا. أجبتُ: «إلى صَلخَد، إلى نسيب الأطرش»، فسمحوا لنا بالمرور دون ملاحظة أخرى. لم يكونا من الدّروز، وذلك لأنّهمـا لم يكونا يلبسـان لفّـةً (غطاء رأس الدّروز)، ولكنّهما مسـيحيان مـن القريّا Kreyeh حيث يوجد تجمّع مسيحي كبير، وكانا ذاهبين إلى أمّ الجمال Umm ej Jemal لزيارة مرابع قطعانهم الشّتويّة، هذا ما قاله فندي، حيث مرّا به على مسافة ميل إلى الأمام.

قبل عدّة سـاعات من وصولنا الحدود الحاليّة للأرض المحروثة شـاهدنا علامات زراعة قديمة على شكل خطوط طويلة متوازية من حجارة كُدّست على جانب الأرض التـي كانـت ذات يوم خصبة مثمرة. لقد بدت كأنّها مرتفـع وأخدود لمرج هائل، ومثل أيّ حافّة وأخدود يصعب إزالتهما تقريباً، وهي علامات العمل الذي لا بدّ أنّه توقّف مع قدوم اجتياح العرب. وعند سـفح أوّل قمّة من قمم التّلال، تلّ الشّـيح Tell esh Shih (المسـمّى بذلك تبعاً لأرض الشّـيح بلونهـا الأبيض الرّمادي والتـي هي أفضل مرعى للأغنـام)، تركنـا الصّحراء غير المزروعـة ودخلنا منطقة الحقـول المحروثة - وتركنا أيضاً السّـهول الطّويلة النّظيفة للبراري المكشوفة وعلقنا مع سنابك خيولنا في الطّريق

السّوري الموحِل الذي قادنا إلى تلّة أمّ الرُّمّان Umm er Rumman على حافّة أخفض سهل من جبل الدّروز، كبقعة موحلة قليلاً وجرداء كأخفض نقطة يمكنك أن تراها.



الشّيخ محمّد الأطرش

توقّفتُ عند مدخل القرية، وسألت مجموعة من الدّروز أين يمكنني أن أجد أرضاً مناسبة كي أنصب عليها خيامي، فأرشدوني إلى مكان بمنتهى القذارة أسفل المقبرة، قائلين بأنّه لا يوجد هناك مكان آخر أستطيع التّخييم فيه حيث عليّ ألا أفسد المحاصيل أو العشب. وممّا يدعو للسخرية هو أنّ الزّرع لا يزال تحت الأرض لم ينبت بعد، ويتكوّن العشب من أوراق قليلة يابسة وقد غطّي نصفها بثلج ذائب. لم أستطع تقبّل فكرة نصب الخيام في منطقة قريبة جدّاً من المقبرة، وطلبت التّوجّه إلى بيت محمّد الأطرش، شيخ أمّ الرُّمّان. كان هذا الأمير من عائلة الطرشان جالساً على سطح منزله، مشغولاً بتوجيه بعض العمليات الزّراعيّة التي كانت تتمّ أمامه في الأرض الموحلة في الأسفل. لقد جعلته سنوات العمر المديدة شخصاً عديم الملامح وقد تعزّز التّأثير بعدد لا يُحصى من الأثواب التي أجبره برد الشّتاء على لفّ جسده البدين المسنّ بها. اقتربت منه بقدر ما سمح لي به الوحل، وصحت:

«السّلام عليكم يا شيخ!».

صاح مجيباً: «وعليك السّلام!».

«أين يمكنني أن أجد في قريتكم مكاناً جافّاً لأخيّم فيه؟».

تشاور بأعلى صوته مع أتباعه الذين في الوحل، وأجاب أخيراً بأنّه لا يعلم، والله! وبينما كنت محتارة إلى أين أذهب تقدّم درزيٌّ إلى الأمام وأوضح أنّه بإمكانه أن يريني مكاناً خارج البلدة، وأوصاني الشّيخ الذي ارتاح بخلاصه من المسؤوليّة بصوت عالٍ أن أذهب بسلام، واستأنف أعماله.

كان دليلي رجلاً شابّاً بملامح واضحة وحادّة وتعابير ذكاء صارمة تعكس عِرقه. وقد اتّسم أيضاً مثله مثل جميع أفراد عشيرته بفضول واضح. وبينما كان يقفز من جانب إلى آخر في الطّريق لتجنّب بُرك الوحل والثّلج نصف الذّائب، كان قد سمع منّي قصّتي كلّها، المكان الذي أتيت منه وإلى أين سأذهب، ومن هم أصدقائي في جبل الدّروز وما هو اسم والدي ـ وهذا مختلف جداً عن عادة العرب، فبالنسبة لهم إنّها نقطة جوهريّة تدلّ على الأصل الجيّد وهي عدم سؤال الغريب أو الضّيف أكثر ممّا يراه مناسباً أن يفصح عنه.

في تاريخ الطّبري هناك قصّة طريفة عن رجل طلب اللّجوء من أحد مشايخ العرب، وطالت إقامته ومات الشّيخ وجاء ابنه الذي حكم مكان والده وتقدّم الابن بالعمر وأخيراً جاء الحفيد الأكبر للمضيف الأصلي وسأل أباه: «من هو هذا الرّجل الذي يسكن معنا؟» فأجاب الأب: «يا بني، لقد جاء في زمن والدي، وتقدّم والدي في العمر وتوفّي، وتابع بقاءه معنا تحت حمايتي، وها أنا ذا قد تقدّمت في العمر أيضاً؛ ولكن طوال تلك السّنوات لم نسأله أبداً لماذا لجأ إلينا ولا ما هو اسمه. وعليك ألا تسأله». وبعد فقد ابتهجتُ عندما وجدتُ نفسي مرّة أخرى بين أذكياء متميّزين ويتمتّعون بعيون جبليّة مكحّلة وحادّة النّظر، حيث يتطلّب كلّ سؤال إجابة سريعة أو تجنّباً رشيقاً، وعندما زاد محاوري فضوله كان عليّ أن أجيب فقط:

«اسمع، أنت! أنا لستُ أنتِ، نادني جنابكِ»، وعندها ضحك وفهم وأخذ التّعنيف مأخذ الجدّ.

هنـاك العديـد مـن النّقوش فـي أمّ الرُّمّـان Umm er Rumman، بعضها نَبَطـي والباقي كوفي، ممّا يثبت أنّ البلدة التي على رفّ الهضاب وُجدت منذ زمن مبكّر وقد كانت إحدى القـرى التي شـغلها العرب من جديـد لمدّة من الزّمـن بعد الاجتياح. قام حشـد مبتهج من صبيـة صغـار باللّحاق بي من منـزل إلى منزل، يتعثّرون واحداً فوق الآخر فـي تلهّفهم في اكتشاف حجارة منقوشة مبنيّة في أحد الجدران أو تقبع في الأرضيّة الحجريّة قرب الموقد. وفـي أحد المنازل قامت امرأة بإمسـاكي من ذراعي وتوسّـلت إليّ بـأن أعالج زوجها. كان الرّجـل مسـتلقياً في زاويـة مظلمة في غرفـة ليس فيها نوافـذ، وقد غطّي وجهـه بضمادات قـذرة، وعندما أزيلت تلك الضّمادات كشـفت عن جرح مريع، وهو عبارة عن أثر رصاصة اخترقت الخدّ وحطّمت الفك. لم أسـتطع فعل شـيء إلا أن أعطيه مطهّراً، وناشدت المرأة بأن تغسـل الجرح وأن تحافظ على الضّمادات نظيفة، وفوق كلّ ذلك ألا تسـمح له بشـرب الدّواء المطهِّر على الرّغم من أنّي شعرت بأنّ الفرق سيكون طفيفاً بصرف النّظر عن طريقة استعماله له، وقد تخطّفه الموت سريعاً جدّاً بعد مغادرتي.

كانـت هذه الأولى من سلسـلة المعاناة الطّويلة التي لا بـدّ أن تقع أمام العين وتأخذ على نحو مؤسـف بمشـاعر جميع الرّحّالين في الأماكـن المقفرة. لقد ابتلـي الرّجال والنّسـاء بالتّقرّحـات والآلام المبرّحـة، مـع الحمّـى والروماتيـزم، وأصيـب الأطفال بالشّلل فور ولادتهم، ولا يوجد بين العميان والمعمّرين أحد لا يتمنّى أن تجد الحكمة الغربيّة غير المحدودة علاجاً لهم. وتقفُ مشـدوهاً أمام عمق المأسـاة البشـريّة وأمام عجزك عن مدّ يد المساعدة حيال ذلك.

قادني طريق الآثار في النّهاية إلى باب الشـيخ، ودخلت لأقوم بزيارة رسميّة له. لقد كان الآن أكثر ميلاً لإظهار حسن ضيافته وذلك لأنّ عمل اليوم قد انتهى؛ جلسنا معاً في المقعـد، قاعة المقابلات (غرفة الضّيـوف)، وهي عبارة عن غرفة مظلمة وقذرة خارج المنزل، بموقد حديدي في وسـطها، وناقشـنا الحرب اليابانيّة، والغزوات الصّحراويّة ومواضـع أخـرى محلّيّة، بينما قام سـلمان ابن الشـيخ وهو صبي جذّاب في السّادسـة عشـرة من عمـره بصنع قهوة لنا. ومحمّـد هو أخو زوجة شـبلي ويحيى بك الأطرش،

الـذي كان مضيفي الأوّل قبل خمس سـنوات عندما هربت إلـى قريته عِرى Areh' من المديـر التّركـي في بُصرى، وسـلمان هو الابن الوحيد لأبيه المسـنّ والسّـليل الوحيد لعائلة عرى الشّـهيرة من الطرشـان، حيث أنّ شبلي مات، ويحيى ليس لديه أولاد. عاد الصّبـي معـي إلى مخيّمي، وهو يخطو برفق عبر الوحل، وهو شـخص شـغوف ومرح على نحو مؤثّر وذو هيئة مميّزة تتناسـب مع من ينحدر من أسـرة نبيلة مثله. لم يكن قد التحق بالمدرسـة، علـى الرّغم من وجود مكتب درزي كبير فـي القريّا Kreyeh، على بعد خمسة عشر ميلاً، يديره مسيحي وبعض المتعلّمين.

أوضح لي: «يكنّ لي والدي معزّة كبيرة، ولذلك لن يسمح لي بتركه».

بدأت: «يا سلمان».

أجاب: «يا الله!» على عادة من يردّ بقوّة عندما ينادى باسمه.

«إنّ عقول الدّروز تشبه الفولاذ الجيّد، ولكن ما قيمة الفولاذ إذا لم يُصنع منه نصل سيف؟».

أجاب سلمان: «كذلك عمّي شبلي لا يقرأ ولا يكتب».

قلت: «لقد تغيّر الزّمان. وسـيحتاج الطرشـان عقولاً مثقّفة إذا ما أرادوا أن يحكموا الجبل كما فعلوا من قبل».

لكن هذه الزّعامة هي شيء من الماضي، فشبلي مات، ويحيى لا ولد له، ومحمّد مسنّ، وسلمان غير متطوّر، وخلّف فايز أربعة أبناء لكنّهم لا يتمتّعون بسمعة طيّبة، ونسيب جذّاب لكنّـه جاهل جداً، ويوجـد مصطفى في امتان[1] Imtain والذي تخلّى عن دوره كرجل مهمّ وهـو قليـل الذّكاء، وحْمود في السّـويداء وهو يتميّـز بقدر كبير بثرائـه. والرّجل الأقدر بين الدّروز هو دون أيّ شك أبو طلال من شَهبا، والشّيخ الأكثر تألّقاً هو الشّيخ محمّد النّصّار.

كانـت اللّيلة باردة علـى نحو قاسٍ، وكان ميزان حرارتي قد كُسِـر لذا لم نتمكّن من

---

(1) لفظ الاسم باللهجة الدّرزيّة بإمالة الألف، ولذا تكتب المس بل الاسم بالإنكليزية: Imtain وليس: Imtan.

تسجيل درجة الحرارة بدقّة، ولكنّ الماء الموجود في الكأس الذي بجانبي كان يتجمّد كلّ صباح، وحتى وصولنا إلى دمشق، ليصبح كقطعة من الجليد، وفي إحدى الليالي تجمّد جدول صغير خارج المخيّم وتوقّف جريانه. كانت الحيوانات والبغّالون قد أووا كالعادة إلى خان في فترة الصّقيع، واختفى محمد الدّرزي الذي عاد إلى اسمه الأصلي ودينه في اللّحظة التي نُصب فيها المخيّم، وأمضى الليلة مستمتعاً بضيافة أقربائه. قال ميخائيل متهكّماً: «لأنّ كلّ رجل قدّم وجبة طعام يعتبره ابن عمّه».

كنت مجبرة على تأجيل انطلاقي في الصّباح التّالي من أجل اغتنام دعوة الشّيخ على الفطور عند الساعة التاسعة القابلة للتّمدد جدّاً- ولقد كان بعد شروق الشّمس بساعتين، ومن يعلم تماماً متى الوقت المناسب لذاك النّجم كي يظهر؟ ولقد كان جمعاً بهيجاً. ناقشنا أمور الحرب في اليمن بكلّ ما تحمله من أبعاد ـ نظريّاً، حيث كنت الوحيدة التي لديّ أنباء عنها، وقد استقيتها من جريدة «التّايمز الأسبوعيّة» *Weekly Times* قبل شهر ـ ومن ثمّ سألني محمّد لماذا يبحث الأوروپيون عن النّقوش والآثار.

وأضاف: «لكنّي أعتقد بأنّي أعرف السّبب، وهو أنّهم يمكن أن يعيدوا الأرض إلى مُلاّكها».

أكّدت له بأنّ آخر سلالة ملاّكها الأصليين الأسلاف في حوران قد مات قبل ألف سنة، وقد استمع بأدب ثم غيّر الموضوع بزفرة من لا يستطيع الحصول على جواب صحيح.



نباتات الصّحراء وحيواناتها

ركب معنا الشاب الذي كان قد أرانا أرض المخيّم إلى صَلخَد، قائلاً إنّ لديه عملاً هناك وقد يرافقنا في الطريق. كان اسمه صالح؛ وهو من عائلة متديّنة، يقرأ ويكتب. ولقد كنتُ غير لبقة إلى حدّ كبير عندما سألته فيما إذا كان من العقّال akil'، واستهلّيت كلامي - ينقسم الدّروز إلى عُقّل وجُهّال، ولكن حدّ التّميّز لا يتبع ذلك التّفوّق الاجتماعي، حيث أنّ معظم عائلة الأطرش من الجهّال[1]. ألقى عليّ نظرة حادّة وأجاب:

«ماذا تقصدين؟» فأدركت خطأي وأقفلت الموضوع.

لكن لم يكن صالح ليترك أيّ فرصة للحصول على المعلومات، وسألني بدقّة عن عاداتنا منتهياً إلى قوانين الزّواج والطّلاق عندنا. وقد فكّر مليّاً بالقانون الإنكليزي الذي يتوجّب فيه على الأب أن يدفع مالاً للرّجل الذي سيتزوّج ابنته (وبهذا فسّر العادة بأنّه يعطيها مهر الزّواج) وضحكنا معاً على سخافة النّظام. ولقد كان قلقاً لمعرفة وجهات النّظر الغربيّة حول خلق العالم وأصل المادة، وقد أُجبرتُ على تقديم بعض الآراء الهرطقيّة له والتي تقبّلها ببُعد نظر وتفهّم أكثر ممّا تقدّمه.

أمضينا صباحاً مقبولاً، بغض النّظر عن الوحل ووعورة الطّريق، وعلى حافّة الأكاليل الثّلجيّة كوَّن الزعفران الأرجواني براعمه، ومعه ثوم أبيض نجمي - وترى الجبل غنياً جدّاً بأزهار الرّبيع. وإلى الجنوب كانت المناظر في السّهل الواسع الذي عبرناه فاتنة؛ وارتفعت الهضاب نحو الشّمال في منحدرات مغطّاة بالثّلج دون انقطاع، وبدت منطقة القُليب (القلب الصّغير) تشبه جبال الألب بقممها المتجمّدة المغطّاة تقريباً بالضّباب، ووصلنا بعد الظّهر بساعتين إلى صَلخَد، هدف رحلتنا الأوّل.

* * *

(1) لم تفهم بل هذا المصطلح الدّيني لدى الدّروز، فالفارق لديهم بين العُقّال والجُهّال ليس في الثقافة والقراءة والكتابة، بل العاقل هو من تلقّى تعاليم دينه (في سنّ الأربعين)، والجاهل من لم يتلقّها، سواء لعدم بلوغه الأربعين أو لعدم آهليته العقلية أو الأخلاقيّة. ولهذا صُعق الرّجل بوصفها لآل الأطرش بالجُهّال.

الفصل الخامس

مـن المفترض أن تكـون سَـلخَة[1] SALCAH، مدينة الملك عوج Og في باشـان Bashan، مكانـاً محصّناً منذ بدايـة التّاريخ. تتجمّع القرية الحديثـة حول قاعدة بركان صغير، حيث توجد قلعة متهدمة على القمّة في قلب فوّهة البركان، ولقد شـكّلت هذه القلعة وأسـلافها من القلاع في الوسـط القاعدة العسـكريّة الأماميّة لجبال حوران ضد الصّحراء، مركز الدّفاع لأولى الحضارات ضدّ الغزاة النّاهبين الأوائل. وتميل الأرض فجأة نحو الجنوب والشّـرق، تغطّيها رابية بركانيّة أو اثنتان في الجوار مباشرة، وتستقرّ في الأسـفل في السّـهول الطّويلة التي تصل إلى نهر الفُرات؛ مستقيمة مثل سهم انطلق من قوس الطّريق الرّوماني واستمرّ خارجاً من صَلخَد إلى الصّحراء في خطّ لم يسر فيه رحّالة حديث أكثر من مرحلتين أو ثلاث.

يبـدأ طريـق القوافل إلى نجد من هنـا[2] ويمرّ بكاف Kaf وإثـرة Ethreh على طول

(1) تشير المؤلفة إلى ما يرد في سفر التثنية (3: 10): «كلّ مُدن السّهل وكلّ جلعاد وكلّ باشان إلى سَلخَة وإذرعي مدينتَي مملكة عوج في باشان». ومعنى كلامها أن بلدة صَلخَد في جبل العرب هي ذاتها سَلخَة القديمة، وهذا بالطبع أمر مرجّح. لكنني أنبّه إلى أنّ هذه جميعها تسميات كنعانيّة سابقة بكثير لعهد التّوراة التي دوّنت في القرن الخامس ق.م.

(2) نحيل القارئ الكريم إلى تتبّع خطى الرّحّالين الذين قصدوا الجوف في شمالي جزيرة العرب قادمين من هذا الطريق، وأهمّهم: الليدي البريطانيّة آن بلَنت وزوجها عام 1878، ومواطنهما آرتشيبولد فوردر عام 1900، والألماني يوليوس أويتِنغ عام 1883 ومواطنه البارون إدوارد نولدِه عام 1893. أما الإيطالي كارلو غوارماني فقد قصد الجوف عام 1864 قادماً من فلسطين عبر طريق آخر من وادي زرقاء مَعين فالحَماد القبلي إلى وادي السّرحان.

وادي السّرحان إلى الجوف وحائل، وهو طريق محفوف بالمخاطر، على الرّغم من أنّ الزّوجين بلَنت Blunt قد سلكاه بنجاح ومن بعدهم جاء أويتِنغ Euting. وقد جاء وصف أويتِنغ له متمتّعاً بكل ما يتصف به الألمان من العلم والملاحظة الدّقيقة، وهو أفضل ما لدينا. وعلى خطّ مستقيم جنوب صَلخَد توجد قلعة متهدّمة رائعة، هي قلعة الأزرق، في واحة توجد فيها أجمات مليئة بالخنازير البرّية: ولقد زارها دُسّو Dussaud وقدّم وصفاً ممتازاً لرحلته. بالتّأكيد لا يزال هناك الكثير لاكتشافه؛ وفي الصّحراء هناك العديد من القصص التي لم تُروَ بعد، ويصعب عليك في صَلخَد أن تحفظ قدميك من الالتفاف نحو الجنوب، حيث تدعوك هذه السّهول العظيمة الغامضة على نحو مغرٍ.

في الحال ذهبتُ إلى بيت نسيب الأطرش وقدّمت رسالة فَلاح العيسى. ونسيب رجل في السّابعة والعشرين من عمره، على الرّغم من أنّه يبدو أكبر بعشر سنوات، قصير القامة وأنيق بملامح قاسية يتميّز بها الدّروز، وبتعبير يوحي بالمكر أكثر من البهجة. لقد استقبلني في مضافته حيث كان يجلس مع أخيه جاد الله، وهو شابّ طويل القامة وسيم الوجه ولكن بتعابير توحي بالغباء. وقد رحّب بي بكلمة «بونجور»[1] "Bon jour" ثم عاود الصّمت، منتهياً بالكلمة الفرنسيّة الوحيدة التي يعلمها. وكما استعار عبارة واحدة من اللّغة الأوروبية، فقد استعار أيضاً قطعة ثياب من خزانة الثّياب الأوروبية أيضاً: إذ اختار ياقة سميكة عالية، بدت غريبة مع ثيابه العربيّة. كان هناك بعض الدّروز يشربون القهوة في المضافة، وشخص آخر أدركت فوراً أنّه غريب. وقد تبيّن أنّه مدير المال في الحكومة التّركيّة - ولا أعلم ما هي مهمّاته بالضّبط، ولكنّ شكله يدلّ على أنّه موظّف الماليّة.

---

(1) بالفرنسية تعني: يوماً طيباً، صباح الخير. لكنها اليوم تكتب هكذا: Bonjour متصلة.



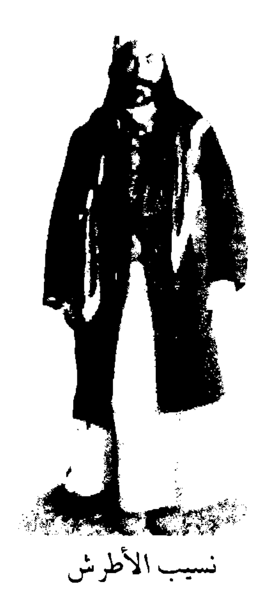
قلعة صَلخَد

تُعدّ صَلخَد إحدى القرى الثلاث في جبل الدّروز (والأخرى هي السّويداء وعِرى Arch) التي فيها للسّلطان قائم مقام ومحطّة تلغراف. ولقد دُهِش كل من يوسف آفندي القائم مقام وملحِم إليان مدير المال إلى حدّ كبير عندما جئت من الصّحراء دون إنذار أو إذن؛ ولقد أرسلا ثلاث برقيّات يوميّاً إلى والي دمشق، ذاكرين فيها كل ما قمتُ به أو قلته، وعلى الرّغم من أنّي كنت على علاقة جيّدة بكلّ منهما، فقد وجدت فعلاً أن ملحِم هو الرّجل الأكثر ذكاءً وقبولاً في القرية، وخشيت أن أكون قد سبّبت لهما الكثير من القلق الذّهني.

دعني أقول هنا بأنّ خبرتي بالموظّفين الأتراك قادتني إلى اعتبارهم من بين الرّجال الأكثر تهذيباً ولطفاً. فإذا أتيت إليهم مزوّداً بالشّهادات المناسبة فليس هناك ما لا يقومون به لمساعدتك؛ وعندما يوقفونك فذلك بسبب أنّهم قد أُلزِموا بطاعة الأوامر من السّلطات العليا؛ وحتّى عندما تُهمَل، كما يجب أن يحصل بين فترة وأخرى، فإنّهم يصوغون الرّفض دائماً بلغة استرضائيّة وكأنّه كان غلطة، وهم يخفون انزعاجهم فقط ولا يبدون لك أيّ تذمّر من المتاعب التي سبّبتها لهم.

يشغل موظّفو الحكومة في صَلخَد وضعاً ليس بالهيّن، وإنّها لحقيقة وجود سلام في الجبل من حوالي خمس سنوات، لكن الدّروز عرق مراوغ وسريع الغضب. لقد

استوعبهم ملحِم جيّداً، ويُعدّ منصبه في مكتب البريد الجديد في صَلخَد دليلاً على رغبة الوالي الحقيقيّة في تجنّب المشاكل في المستقبل. ولقد أمضى عدّة سنوات في السّويداء قبل أن يأتي إلى صَلخَد؛ وقد كان مسيحيّاً، لذلك لم يفرّق بين الدّروز بالهوَّة العميقة من الكراهية الموجودة بينهم وبين المسلمين، ولقد كان مدركاً إلى حدّ كبير أنّ الحكم التّركي في جبل حوران يعتمد على قلّة المطالب لهذا الشّعب التّابع اسميّاً للدّولة والمستقل عمليّاً. ولم يكن يوسف أفندي بعيداً عنه في قوّة اقتناعه بهذه المسألة، وكان لديه أفضل الأسباب لإدراك مدى ضعف سلطته.



نسيب الأطرش

هذا ولا يوجد في منطقة الجبل كلّها أكثر من مئتي جندي تركي؛ والبقيّة من القوّات العثمانيّة هم من الظابطيّة zaptiehs الدّروز المسرورين بلباسهم الحكومي الرّسمي وبأخذ الرّواتب الحكوميّة في المناسبات النّادرة عندما تصل إليهم، على الرّغم من أنّه يصعب اعتبارهم حرساً جديرين بالثّقة في حال نشوء خلافات جدّيّة بين شعبهم وبين السّلطان. ووفقاً للمظهر الخارجي فإنّ نسيباً وأخاه يرتبطان بعلاقات صداقة وثيقة مع القائم مقام؛ وهما يجلسان دائماً في مضافته ويشربان قهوته، لكن ذات مرة عندما

حصل أن كنت وحيدة معه، قال يوسف أفندي بصوت مثير للشّفقة بعربيّة ممزوجة بالتّركيّة: «ليس لديّ علم أبداً بما يقومون به: فهم يعتبرونني عدوّاً. ولو رغبوا بعصيان الأوامر القادمة من دمشق، فإنّهم يقطعون أسلاك البرق ويمضون في حال سبيلهم. وليس لديّ من القدرة ما يمنعهم من ذلك».

مع ذلك فهناك إشارات تدلّ على أنّ السّكّان المتمرّدين في الجبل قد صرفوا فكرهم إلى أمور أخرى غير الحرب مع العثمانيين، ومن بين أهمّ هذه الأمور الطّواحين المائيّة التي تطحن القمح في صَلخَد وبعض القرى القريبة. ويكون الرّجل الذي يملك طاحونة ماء مضطراً للمحافظة على النّظام، فهو قد بناها بنفقة طائلة، ولا يرغب برؤيتها محطّمة من قِبل الجيش التّركي الغازي وضياع رأسماله؛ بل على العكس من ذلك فإنّه يأمل بجمع ثروة منها، وقد وجد نشاطه المتواصل منفذاً جديداً ومربحاً في ذاك الاتّجاه. وفي رأيي فإنّ السّلام مستقرّ على قواعد أكثر ثباتاً ممّا كان عليه قبل خمس سنوات، ولم تتوانَ الحكومة العثمانيّة عن تعلّم الدّروس من الحرب الأخيرة - ولو كان باستطاعة والي دمشق تعلّم كم كانت إجراءاته الحديثة مناسبة وما هو مقدار تأثيرها في المرأة الإنكليزيّة المخادعة، لكان وفّر على موظّفي البرق العديد من ساعات العمل.



مجموعة من الدّروز

ومن النّادر الحصول على مثال عن الحرّيّة التي يدير بها الدّروز شؤونهم الخاصّة أكثر من تلك التي قُدِّمت في حادثة جرت في اللّيلة التي وصلتُ فيها تماماً. وقد تمّ التّصريح سلفاً حسب شهادة فَندي بأنّ العلاقات بين الجبل والصّحراء مشحونة باحتمالات حادثة قتال مألوفة، ولم تمضِ فترة الظّهيرة في صَلخَد حتّى اكتشفنا أنّ الغزو العظيم الذي وقع قبل بضعة أشهر كان الموضوع الرّئيسي الذي شغل إلى حدّ كبير نسبياً وأخاه. لم يكن هذا هو ما تحدّثا به معي، لكنّهما استمعا بتلهّف عندما تكلّمنا عن الغزو على الحَسَنيّة Hassaniyyeh والدّور الذي لعبه الصّخور في هذا الغزو، واستخلصوا منّا كلّ ما نعرفه أو نخمّنه مثل مواقع المضارب الحاليّة لقبيلة الصّخور Sukhur، وما هي المسافة التي اجتازها الغازون، وفي أيّ اتّجاه انسحبوا.

وقد سمع البغّالون الرّجال يهمسون في زوايا الشّارع، وكانت همساتهم عن استعدادات حربيّة؛ أمّا المجموعات حول نار ميخائيل، والتي هي دوماً مركز نشاط اجتماعي، فقد تكلّمت عن الأضرار التي لا يمكن تحمّلها أو التّغاضي عنها، ولقد زوّد أحد أبناء عم محمّد الكثر ذاك البيروتي الجائع بغداء منكّه بإشارات سوداء لتحالف بين وادي السّرحان Wadi Sirhan وبني صخر Beni Sakhr والذي يجب أن يُكبح قبل أن ينضج ويتّخذ نسبة من الخطر. لا يمكن لموجة الغزو أن تصل صَلخَد إلاّ بصعوبة كبيرة، ولكن قد يحصل الأذى قبل أن تصل تلك النّقطة بمسافة طويلة، وخاصّة في فصل الشّتاء عندما تكون جميع المخلوقات ذوات الأربع، ما عدا الخيول الضّروريّة للرّكوب، بعيدة في السّهل الجنوبي.

كانت خيمتي قد نُصبت في حقل خارج البلدة عند السّفح الشّرقي لهضبة القلعة. وكانت المنحدرات الشّماليّة مغطّاة بالثّلوج حتّى جدران القلعة المتهدّمة، وحتّى في المكان الذي نزلنا فيه كان هناك بعض بقع الثّلج المتناثرة تلمع تحت ضوء البدر. كنت قد أنهيت عشائي للتّو، وأفكّر فيما إذا كان عليّ كتابة يوميّاتي في هذا الطّقس شديد البرودة، عندما سمعت صوت غناء فظّ مزّق صمت اللّيل، وارتفع دخان عظيم في السّماء في أعلى الجدران في القلعة. لقد كانت نار إنذار أضرمت لتخبر بقدوم

غـزو إلـى العديد من القرى الدّرزيّة القابعة على السّـهل أسـفل القلعة، وكانت الأغنية دعوة للسّلاح. كان هناك ضابط ظابطيّة zaptich درزي جالس قرب نار مخيّمي؛ فقفز وحملق بي في البداية ثمّ في اللّهب الأحمر فوقنا. فقلتُ:



منظر من قلعة صَلخَد

«هل تسمحون لي بالذّهاب إلى الأعلى؟».

أجاب: «لا يوجد أيّ مانع. شَرِّفي».

تسلّقنا معاً على وحل نصف متجمّد، عند الجانب الشّمالي المثلّج للبركان، وجعلنا ـريقنا في الظّلام حول أسوار القلعة حيث كان رماد الحمم البركانيّة تحت أقدامنا، ثمّ ـرجنـا في ضوء القمر المكتمل إلى أكثر المناظر وحشـة يمكن أن تراها العين. وقف جمـع من الـدّروز من الشّـباب والصّبيان على حافّـة الخندق المائي علـى كتف ضيّق ـن التّلّة. كانوا جميعهم مسـلّحين بالسّـيوف والخناجر ويصرخون بعبارة تلو الأخرى ـصوت مفزع. كان كل مقطع منها يعاد عشـرين مرّة أو أكثر حتّى يتبيّن للسّـامع أنّها قد

التصقت في الأعماق الدّاخليّة للعقل كما يلتحم الحمض بالنّحاس.

«عليهم، عليهم! يا ربّنا يا الله! ليقع عدوّنا بضربات سيوفنا!

عليهم عليهم! لتشرب رماحنا من قلوبهم!

لنجعل الرّضيع يترك ثدي أمّه!

لنجعل الشّاب ينهض ويذهب!

عليهم عليهم! يا مولانا يا الله! لتشرب سيوفنا من قلوبهم...».

هكذا غنّوا، وبدا وكأنّ ثورة غضبهم الشّديد لا يمكن أن تخمد أبداً، وكأنّ جدران القلعة لن تتوقّف عن ترديد صدى غضبهم اللاّمتناهي، ولن يعرف الليل السّكون مرّة أخرى، وعندما توقّف الغناء فجأة تفرّق الهاتفون وشكّلوا أنفسهم في حلقة، حيث أمسك كلّ رجل بيد جاره. وإلى داخل الحلقة مشى ثلاثة شباب دروز حاملين سيوفاً مسلولة، وداروا بخطى واسعة حول حلقة الشّباب المتلهّف المحيطة بهم، ووقفوا أمام كلّ واحد بدوره وهزّوا سيوفهم وصرخوا:

«هل أنت رجل جيّد؟ هل أنت رجل حقيقي؟».

وأجاب كلّ واحد بصرخة:

«ها! ها!».

وسقط ضوء القمر على الوجوه السّمراء، ولمع على نصل السّيوف المسلولة، وانتقلت الحماسة الحربيّة المتّقدة من يد إلى يد، وبكت الأرض إلى السماء: حرب! حرب حمراء!

ثمّ شاهدني أحد الشّبّان الثّلاثة وأنا أقف في الحلقة، ومشى بسرعة ورفع سيفه فوق رأسه، وكأنّ أمّة تقابل أمّة.

وقال: «سيّدتي! إنّ الإنكليز والدّروز شعب واحد».

قلت: «الحمد لله!، ونحن أيضاً سلالة محاربة».

حقاً، وفي تلك اللحظة، لم يبدُ أنّ هناك شيء أكثر متعة من أن تذهب وتقتل عدوّك.

عندما انتهت تأكيدات المحاربين تلك، نزلنا التّلّة تحت ضوء القمر، وما زالت أيدينا متشابكة، وعندما رأيتُ أنّ بعضهم كانوا لا يزالون أطفالاً لم ينضجوا بعد، قلت لرفيقي الذي كانت يده ممسكة بيدي:

«هل سيذهب جميع هؤلاء معك؟».

أجاب: «بالله! ليس الجميع. على الصّبية الصّغار أن يبقوا في البيت ويدعوا الله أن يأتي يومهم الذي سيكبرون فيه بسرعة».

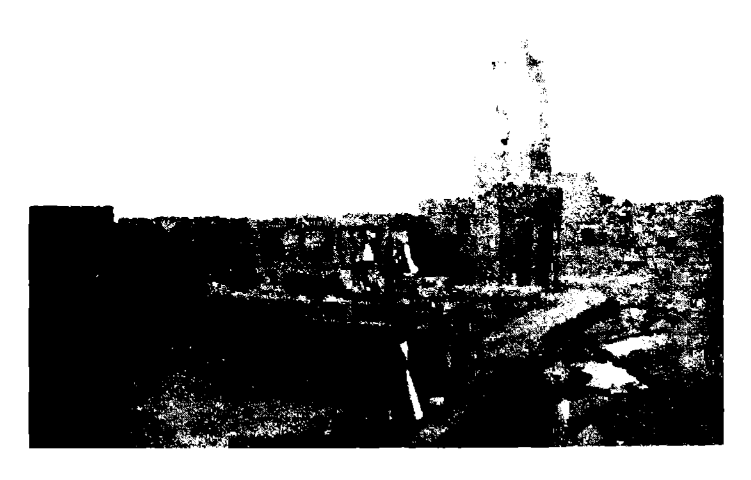
عندما وصلوا إلى مدخل البلدة، قفز الدّروز على سطح منزل، وبدؤوا بأغنيتهم الشّيطانيّة. أُضرمت النّيران على أسوار القلعة، وأصبح اللّيل بارداً فجأة، وبدأت أشكّ فيما إذا تمكّن ملحِم ووالي دمشق من رؤيتي مشتركة بمظاهرة عسكريّة ضدّ الصّخور Sukhur فهل سيبقيان مؤمنين ببراءة رحلتي؛ لذا فقد تراجعت إلى الظّلّ وركضت إلى خيامي في الأسفل وأصبحت أوروبية مرّة أخرى، وانكببت على أعمال سلميّة غير ملحّة بالعواطف الفطريّة المجرّدة للجنس البشري.

كانت لدينا تساؤلات معيّنة لنجعل لرحلتنا معنى، وأن نخزّن مواد تموينيّة قبل أن ننطلق إلى الجانب الشّرقي من الجبل، حيث لا توجد قرى كبيرة، وبناء عليه فقد أمضينا يومين في صَلخَد. كانت الصّعوبة الكبرى في قضيّة المؤن هي تأمين الشّعير للحيوانات. كان لدينا ما يكفي في أمّ الرُّمّان Umm er Rumman، ولكن لم يتبقَّ شيء منها في صَلخَد؛ ويجب الذهاب دوماً إلى السّويداء للحصول عليه، والتي هي المركز الرّئيسي للحكومة التّركيّة، لكنّها كانت بعيدة عبر التّلال، وقرّرنا أن نرسل إلى قرية امتان Imtein، حيث الطّريق إلى هناك خالٍ من الثّلج. من المهمّ تسجيل ذلك في الشّتاء، عندما تكون قطعان الأغنام جميعها بعيدة في السّهل لعدّة ساعات، فإنّه من المستحيل شراء رأس غنم من الجبل، وعلى الرّحّالة أن يغيّر إلى مثل هذه الدّجاجات

الهزيلة التي يمكن أن يجدها. ولقد أثّر قصر النّظر في العواقب، الذي أدّى إلى جعل مخزن لحومنا فارغاً ـ على ميخائيل بشكل كبير، حيث أنّه تباهى بتعويد نفسه على أكل فخذ الضّأن المشوي، وسألني كيف أنّ جميع الكتب التي أحضرتها معي لم تلمّح إلى غياب الحيوان الذي يمكن أن يسدّ مكانه مقدّماً نفس الطّعام الشّهي. أجبته بأنّه يبدو أنّ كتّاب هذه الأعمال قد اهتمّوا بشكل كبير بالآثار الرّومانيّة أكثر من تلك الأمور الخطيرة كالشّواء والأطعمة المطهوة، ومن أجل ذلك قال بحزم:

«عندما تكتبين جنابك كتاباً، فلن تقولي: لا يوجد هنا كنيسة جميلة، وقلعة كبيرة، فالسّادة يمكنهم أن يروا ذلك بأنفسهم. ولكن عليك أن تقولي: لا يوجد في تلك القرية دجاج لذا سوف يعلمون منذ البداية أيّ نوع من البلاد هي».





قريّا

أمضيتُ اليوم الأوّل من زيارتي مع نسيب، أراقبه وهو يعطي الأوامر لطحن القمح اللاّزم للحملة العسكريّة القادمة (الأمر الذي تجنّبنا الإلماح إليه بإصرار)، مصوّرة إياه هو والوجهاء من قريته، وتناولت معه طعام الغداء في مضافته وكان عبارة عن خبز مرقوق كالورق بنّي اللون ومبرغل مع الدّبس، وهو نوع من دبس السّكّر مصنوع من عصير العنب

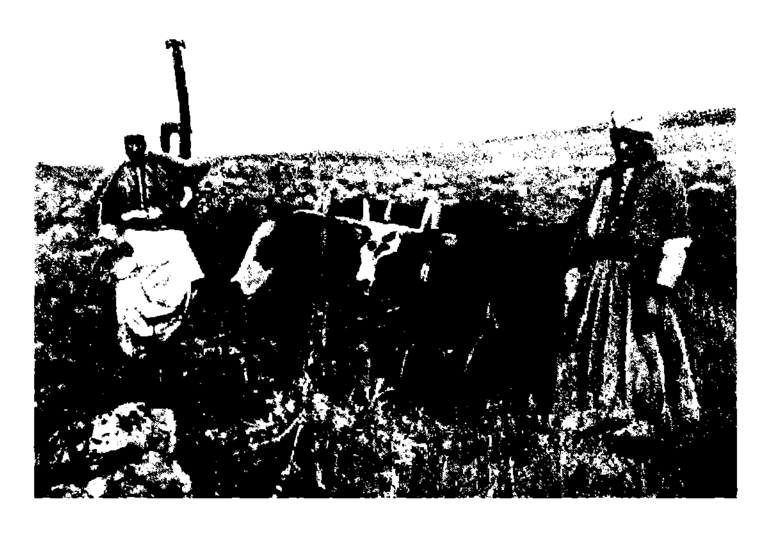
المغلي، وصنف مقزّز بشكل كبير من حساء مصنوع من اللّبن الحامض مع فتات من دهن ممزوج فيه ـ يسمّيه الدّروز «قِرق» *Kirk* وله عندهم مكانة لا مبرّر لها.

وفي فترة بعد الظّهر سار نسيب لمسافة عشرة أميال نحو الجنوب ليحلّ خلافاً بين قريتين من قراه، وقد دعاني لاصطحابه؛ لكنّي فكّرت بأنّه قد تكون هناك قضايا أخرى موجودة ومن الممكن أن تكون مربكة إذا طلب غريبُ العَون، وسوّيت الأمر بالموافقة على الذّهاب معه لمدّة ساعة ثمّ ألتفت جانباً لزيارة ضريح على قمّة تلّة، للولي الخضر الذي ليس بالنسبة لنا إلاّ القديس جورج St. George. ركب نسيب في موكب مؤلّف من عشرين رجلاً مسلّحاً إلى جانبه، وقد لبس هو نفسه عباءة طويلة من قماش أزرق غامق اللّون مطرّزة بخيوط سوداء، مع وشاح بلون أزرق باهت ثُبّت بطيّات اللّفة البيضاء التي تطوّق طربوشه. بدا الموكب فخماً جدّاً، وقد التفّ كلّ رجل بعباءة وحمل بندقيّة على ركبتيه. ناولوني البنادق واحدة تلو الأخرى كي أقرأ ما كُتب عليها. كانت من تواريخ وأصول مختلفة، كان بعضها عبارة عن قطع قديمة بطل استخدامها سُرقت من الجنود الأتراك، وكان أغلبها فرنسيّ الصّنع وحديثاً إلى حدّ ما، بينما أحضِر بعضها من مصر وكُتب عليها الحرفان .V.R مع الحربة المسطّحة.

ركب نسيب معي لبعض الوقت واستجوبني حول وضعي الاجتماعي، وفيما إذا كنت أركب في بلدي مع ملك إنكلترا، وما مقدار ثروة والدي. لم يكن فضوله خالياً تماماً من دافع؛ فالدّروز يأملون دوماً أن يجدوا دولة أوروپية غنيّة يستطيعون الاعتماد عليها، ويمكن أن تموّلهم وتزوّدهم بالأسلحة إذا اندلعت أيّ حرب أخرى بينهم وبين السلطان؛ لقد عبَّرت إجاباتي عن الوضع المهين لأهليّته في هذا المجال، حيث أنّي شعرت بالتّحريض لأسأل وبطريقة أكثر مناورة من طريقة نسيب عن مقدار الثّروة في الجبل. كانت الإجابة بأنّ أغنى رجل في عائلة الأطرش هو حْمود من السّويداء والذي يصل دخله إلى حوالي خمسة آلاف ليرة فرنسيّة. لم يكن دخل نسيب نفسه يبلغ هذا المقدار، فدخله يقارب الألف ليرة فرنسيّة سنويّاً، وربّما تأتيه في معظمها على شكل محاصيل؛ وتأتي كل الموارد الماليّة من الأرض، وتختلف بشكل معتبر وفقاً لحسن

طبيعـة السّـنة الزّراعيّـة. أعتقـد أنّ الأرقـام التي أعطيت لـي كانت زائـدة وتعتمد على الحساب وفقاً للحصاد الأفضل أكثر من المتوسط الحسابي.

تخلّف نسيب حالياً وانشغل بمحادثة هامسة مع رجل مسنّ كان مستشاره الرّئيسي، بينمـا احتشـد الباقون حولي وأخبرونـي قصصاً عن الصّحراء وعـن الآثار العظيمة في الجنوب، وعن استعدادهم لمساعدتي في رؤيتها فيما لو بقيت معهم. قابلنا عند سفح التّلّة جمعاً من الخيّالة ينتظرون نسيباً ليخبروه ببعض الأمور المهمّة عن العرب. وقفت أنا وميخائيل جانباً نرى مضيفنا ينظر إلينا بارتياب من زوايا عينيه. كانت الأنباء السّـيّئة هـي كلّ مـا سـمعناه، ولم يتمكّـن أحد من معرفة ذلـك حتّى في وجه نسـيب المخادع واللاّمبالـي ومـن عينيه اللّتين تخفيان تحت جفنيهما ما لا يريد أن يظهره، وكأنّه يرغب فـي أن يكون واثقـاً من عدم خروج بريق واحد منهما يمكن أن يكشـف أفكاره. تركناه هنا، لنجدته الحربيّة الواضحة، وصعدنا التّلّة.



حَرّاث درزي

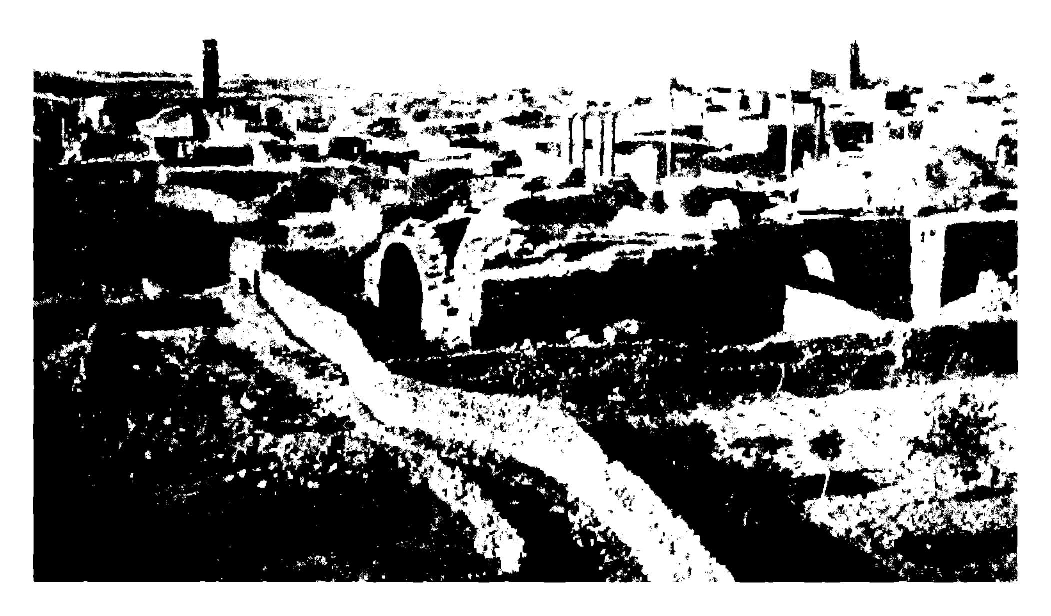
والآن لا توجد تلال بارزة في جبل الدّروز ولكن تحتوي ملجأً على قمّتها، والأبنية كلّهـا من الطّـراز الذي يعود إلى ما قبل مجـيء الدّروز أو الأتراك إلـى المنطقة. ما هو

تاريخها يا ترى؟ هل بُنيت يا ترى لآلهة الصّخر والتّلال النّبطيّة، لذي الشَّرى Drusara أو اللاّت Allat ومجمع الآلهة من النّقوش السّاميّة التي عبدها أهل الصّحراء وقدّموا لها الأضاحي عند الكعبة وفي عدّة تلال منعزلة؟ وإذا كان هذا كما قلت فإنّ الآلهة لا تزال تتمتّع بسيطرة تحت أسماء متغيّرة، وما تزال تشتمّ رائحة دمّ الماعز والأغنام التي أصاب رذاذها الدّعامات السّوداء لأبواب منازلهم، ولا تزال تُسمع صلوات الحجّاج وهم يحملون أغصاناً خضراء وباقات زهور. كما هو الحال مع الولي الخضر، يوجد هناك دائماً في الجزء الدّاخلي من الحَرَم نُصبٌ مثل النّاووس (تابوت حجري) مغطّى بقطع قماش من خرق ملوّنة، وعندما ترفع الخرق وتنظر أسفل منها ستجد بعضاً من كتل غريبة من التوفا (حجر مسامي) tufa، أصبحت ملساء بسبب إراقة دماء الأضاحي عليها مثلما يحدث بأخيها الحجر الأسود في مكّة. وقريباً وفي متناول اليد هناك حوض ماء حجري ـ وكان الماء متجمّداً فيه ذلك اليوم، وقد تراكم الثّلج في الدّاخل عبر الأبواب الحجريّة وكان يذوب من خلال السّطح، وعليه فقد تجمّع في برك موحلة على الأرض.

كان اليوم التّالي بارداً إلى حدٍّ كبير جدّاً، بسماء رصاصيّة اللّون وريح قاسية تبشّر بالثّلج. جاء ملحِم إليان يدعوني إلى المبيت عنده، لكنّي رفضت مخافة أن أشعر ببرودة خيمتي بعد غرفته الدّافئة. بقي لبعض الوقت ثمّ اغتنمتُ الفرصة لأناقش معه خطّتي حول الرّكوب والسّير إلى الصَّفا Safa وهي القفر البركاني شرقي جبل الدّروز. لم يشجّعني على الإطلاق، وفي الحقيقة فقد فكّر بأن مشروع اختراقها مستحيل في ظلّ الظّروف الحاليّة، حيث يبدو بأن أفراد الغياث، وهي القبيلة التي تسكن الصَّفا، كانوا مسلّحين ضدّ الحكومة. لقد كمنوا وسرقوا البريد الصّحراوي بين دمشق وبغداد، وكانوا يتوقّعون العقوبة على يد الوالي.

وفي حال أرسلوا معي حراسة صغيرة من الظّابطيّة zaptiehs فإنّهم ومن دون ريب سيقطّعونهم إرباً. ومع ذلك فقد وافق ملحِم أنّه من الممكن أن أذهب وحدي مع الدّروز لأنّ أيّ اعتماد على سلاح الجند سيكون غير مفيد، ووعد بأن يعطيني

رسالة إلى شيخ قرية سالِه، محمّد النّصّار، الذي وصفه بأنّه صديق جيّد له ويتمتّع بنفوذ وحكمة. ويُعتبر الغياث في وضع مشابه مع الدّروز كما هو الحال مع القِبليّة Jebeliyyeh؛ فهم لا يمكنهم تحمُّل أن يكونوا على علاقة سيّئة مع الجبل، حيث أنّهم يعتمدون على مراعيه المرتفعة خلال فصل الصّيف.



بُصرى إسكي شام

رَدَدتُ زيارة ملحم قبيل الغروب. كانت غرفته مليئة بالنّاس، بما فيهم نسيب العائد مؤخّراً من حملته العسكريّة. طلبوا منّي أن أخبرهم عن تجاربي الجديدة في الصّحراء، ووجدت أن جميع أصدقائي كانوا يُعَدّون أعداءً للدّروز وأنّ الدّروز ليس لديهم حلفاء غير الغياث Ghiath والقِبليّة Jebliyyeh – حيث أنّ الشّرارات والدّعجة Da'ja وبني حَسَن Beni Hassan، كان بينهم وبين الدروز الكثير من الدّماء. وفي الصّحراء تُعدّ

كلمة العدو «قوم» *gom* ثانويّة فقط إلا للضّيف، أمّا في الجبل فإنّها تأتي أوّلاً. قلت:

«يا نسيب، يُشبه الدّروز أولئك الذين قصدهم قُرَيط بن أُنَيف عندما قال:

قـومٌ إذا الشّرُّ أبـدى ناجذيه لهُم طـاروا إليـه زُرافـاتٍ ووِحـدانـا

استرخى الشّيخ الماكر الهادئ لبرهة، ولكنّ الحديث كان ينحرف إلى موضوعات خطيرة جدّاً، ثمّ نهض بسرعة وغادر. ومُلئ مكانه بوافدين جدد. (ويتوجّب على دلّة قهوة ملحِم أن تغلي على النّار من الفجر حتّى وقت متأخّر من اللّيل)، وبعد قليل دخل شخص فنهض الجميع للسّلام عليه. لقد كان الآغا الكردي وهو رجل كهل لطيف بشارب أشيب وذقن حليقة نظيفة يأتي من دمشق بين فترة وأخرى في بعض أعماله. ويعتبر ملحِم من سكّان دمشق المحلّيين، وكان لديه الكثير من الأسئلة التي يودّ سماع أجوبتها؛ وتبدّل محور الحديث عن الموضوعات الصّحراويّة ودار حول سكّان المدن وطرق حياتهم ووجهات نظرهم. قال الرّجل الذي كان يحضّر القهوة على المجمرة: «انظري جنابك، لا يوجد تديّن في المدن كما هو موجود في مناطق الرّيف».

أعقب ملحِم: «نعم».

هتف الكردي فجأة: «الله ينعم عليك!».

«الله يكافيك يا آغا! فبإمكانك أن تجد رجالاً في المسجد الكبير في دمشق في صلوات الجمعة وأقلّ منهم في القدس، ولكن في بيروت وإزمير فإنّك تجد المساجد فارغة وكذلك الكنائس حيث لا يوجد دين أبداً».

قال الآغا: سأخبركم يا أصدقائي عن السّبب في ذلك. في الرّيف يُعدّ النّاس فقراء ومحتاجين جدّاً، فمَن الذي يطلبون منه العون سوى الله؟ حيث لا أحد غيره يشفق على الفقراء. ولكن النّاس في المدن أغنياء، ولديهم كل ما يرغبون به، فلماذا عليهم أن يصلّوا لله طالما أنّهم لا يحتاجون أي شيء؟ - تضحك السّيّدة - أليس الوضع مشابهاً بالنّسبة لشعبها؟».

اعترفتُ بأنّ هناك اختلافاً بسيطاً جدّاً في هذه القضيّة بين أوروبا وآسيا وتركت حالاً

الجماعة ليتابعوا احتساءهم قهوتهم وحديثهم من دوني.

وفي وقت متأخّر من اللّيل طُرق باب خيمتي وناداني صوت امرأة:

«يا ستّ يا ستّ! قلب الأم (أليس الإنكليز عطوفين؟) أصغي إلى حزن قلب أم وخذي تلك الرّسالة إلى ابني!».

سألتُ المرأة المتوسّلة غير المرئيّة أين يمكن أن يوجد ابنها.

«في طرابلس، في طرابلس الغرب. هو جندي ومنفي، ولم يعد بعد الحرب مع الآخرين. خذي هذه الرّسالة، وأرسليها بيد أمينة من دمشق، لأنه لا يوجد بريد موثوق في صَلخَد».

حللتُ طرف الخيمة وأخذتُ الرّسالة، وتابعت البكاء قائلة:

«أخبرتني زوجة نسيب بأنّك نبيلة. إنّه قلب الأم، لا بد أنّك تفهمين، إنّه قلب الأم الذي ينتحب!».

ثمّ غادرت باكية، وأرسلتُ الرّسالة الغامضة بالبريد الإنكليزي من بيروت، لكن لا نعلم فيما إذا كانت وصلت إلى طرابلس الغرب وإلى الدّرزي المنفي ولن نعلم أبداً.



بوّابة قرية حبران

في الصّباح التّالي جاء القائم مقام ليرانا قبل سفرنا وزوّدنا بنفر ظابطيّة zaptieh درزي ليدلّنا على الطّريق إلى سالِه Sālch. كانت الرّيح باردة على نحو قاسٍ، وأخبرونا بأنّ الثّلج قد يوجد بشكل عميق جداً على التّلال، ولهذا السّبب سلكنا الطّريق الأخفض في عرمان Orman، وهي قرية مذكورة كساحة قتال في الحرب الأخيرة. كان ملحِم قد وثق بدليلي يوسف فأعطاه البريد الذي كان قد وصل لتوّه إلى صَلخَد؛ والذي احتوى رسالة واحدة فقط، كانت لمسيحي من سكّان عرمان قابلناه خارج القرية. لقد كانت من ماساتشوسِتْس Massachusetts من أحد أبنائه الثّلاثة الذين هاجروا إلى أميركا وتسير أمورهم على نحو جيّد، الحمد لله! وكانوا قد أرسلوا له بالتّشارك ثلاثين ليرة في السّنة قبل الماضية، وغمره الفرح زهواً عندما سلّمناه الرّسالة وفيها أخبار جديدة عنهم.

وعند عرمان اتّجه الطّريق نحو الأعلى ـ ولا أزال أدعوه طريقاً لأنني لم أجد اسماً سيئاً بما يكفي له. وهو جزء من نظام الدّروز في الدّفاع ويقضي بعدم وجود درب في الجبل واسع بما يكفي لسير شخصين أو ممهّد بما يكفي ليفسح السّير بسرعة دون تعثّر، وهذا هو الجزء الأكثر نجاحاً في الخطّة الدّفاعيّة. وسرعان ما أصبحنا في الثّلج، نصف الذّائب ونصف المتجمّد، الذي غطّى الحفر في الطّريق ولكنّه لم يكن قاسياً بما يكفي ليمنع الحيوانات من السّقوط فيها. وبين الفينة والأخرى كانت هناك جروف عميقة تصعدها البغال بثقة كبيرة لتسقط في منتصف الطّريق وتبعثر حمولاتها، بينما كانت الجياد تخوضها وتثبت حتّى لتكاد تسقطنا عن ظهورها. أمّا ميخائيل، الذي لم يكن خيّالاً، فقد وقع في الثّلج عدة مرّات. ولقد قام واضعو خريطة اكتشاف فلسطين بالسّماح لخيالهم بأن ينطلق حرّاً في وصف المنحدرات الشّرقيّة لجبل الدّروز. فقد قفزت تّلال مسافة عدّة أميال وعبرت قرى الوهاد شديدة الانحدار واستقرت في الاتّجاهات المعاكسة، وكمثال على ذلك، قرية أبو زريق Abu Zriek التي تقع على الجانب الأيسر لوادي الرّاجِل Rajil، على الرّغم من أنّ الخارطة تضعها على الجانب الأيمن.

مع الوقت بدا كلّ شيء كما لو أنّنا سنقع في ذلك اليوم من رحلتنا في خطأ كبير، وبلغت مأساتنا أوجها عندما دخلنا حقل ثلج واسع مسحته عاصفة ثلجيّة عنيفة من المطر المتجمّد. وعند نهاية الرّحلة المظلمة، التي بدت أنها لن تنتهي، استطعنا فقط أن نرى عبر جَمَد المطر (القطقط) المنحدرات التي تقع عليها قرية سالِه[1] Sāleh. لكن ونحن نتهادى ميلاً بعد ميل (كان من غير المفيد محاولة الرّكوب على حيواناتنا المتعثّرة بالإضافة إلى البرد الشّديد) اقتربنا من هدفنا أكثر، وبعد أن كنا قد سافرنا مسافة سبع ساعات لنجتاز طريقاً يمكن قطعه بأربع ساعات، خُضنا طريقنا في الوحل والرّذاذ حتّى وصلنا في وقت متأخّر من عصر ذلك اليوم على الرّغم من أنّ تلال الثّلج نصف الذّائب وبرك المياه قامت بواجبها كشوارع. لم يكن هناك مكان جاف في القرية كلها، وكان الثلج يتساقط بغزارة؛ ومن الواضح أنّه لم يكن بالإمكان فعل أيّ شيء سوى القرع على باب بيت محمّد النّصّار الذي يمتلك سمعة حسنة بحسن الضّيافة، وبذلتُ جهدي لصعود درج مضافته المغطّى بالثّلج.

إذا كانت العناية الإلهيّة ستمنحنا تعويضاً عن متاعب اليوم، فقد عوّضتنا، أو على الأقلّ عوّضتني، بمقدار وافٍ وفيض وافر من متعة المساء السّاحر الذي أمضيتُه في بيت الشّيخ. ومحمّد النّصّار رجل متقدّم في العمر وحكيم امتدّ به العمر ليرى عائلة كبيرة العدد من أبنائه وأبناء إخوته يكبرون حوله، وليدرّب ذكاءهم اللّمّاح بدماثته وأنموذجه الكريم. يُعَدّ الدّروز كلهم أشرافاً على نحو جوهري؛ ولكن عائلة شيوخ قرية سالِه Sāleh لا يمكن التّفوّق عليها بالتّربية الجيّدة، الطّبيعيّة والمكتسبة، أو بأنبل أرستقراطيّة الأعراق العجميّة أو الرّاجپوتيّة Rajputs، أو أيّة أعراق أخرى بارزة خارج أفرادهم.

لم تكن رسالة ملحِم ضروريّة جدّاً لأضمن لنفسي ترحيباً لائقاً، فقد كان يكفي أنّي كنت أشعر بالبرد والجوع وأنّي امرأة إنكليزيّة. كانت النّار في الموقد الحديدي متأجّجة وتمّ أخذ

(1) تقع قرية سالِة في الجانب الشرقي من جبل العرب، إلى الشرق من مدينة السّويداء بـ 24 كلم، وفيها أبنية أثريّة ونقوش كتابية مهمّة تعود إلى أيام ممالك الأنباط والرّومان. وقد سُكنت في العصر الحديث في عام 1860 م. ومن المرجّح أن يكون اسمها مشتقاً من اسم إله القوافل «سَلمان» الذي يرد كثيراً في نقوش الصّفا، كاسم إله واسم علم مذكر.

أثوابي الخارجيّة المبلّلة، ومُدّت البسط والوسائد على الدّيوان وفق توجيهات الشّيخ، وجاء جميع أقربائه الذّكور القريبين والبعيدين ليحيوا المساء بالبهجة والسّرور. بدأنا بشكل جيّد، وكنت أعلم بأنّ أوپنهايم[1] Oppenheim كان قد أخذ مرافقه من قرية ساله عندما ذهب إلى الصّفا، وصادف أن كتابه كان معي - وكم ندمتُ على أنّ غريزة الحكمة لم تلهمني لاختيار مجلّدَي دُسّو Dussaud الرّائعين، بدلاً من اختيار كتاب أوپنهايم Oppenheim المملّ[2]، المحشو بالمعلومات قليلة الفائدة في الرّحلة الحاليّة! وتقع مزيّة هذا الكتاب بوجود الصّور الإيضاحيّة فيه، ومن حسن الحظّ أنّه كان من بينها صورة محمّد النّصّار مع ابنيه الأصغرين. وحيث أنّي كنت قد اطّلعت على خرائط كيپرت[3] Kiepert ولخّصتُها، فقد كنت كريمة إلى حدّ كبير بتقديم مجلّد من الكتاب لأحد أفراد العائلة الذين كان قد

---

(1) ماكس فرايهر فون أوپنهايم Max Freiherr von Oppenheim (1860-1946) مؤرخ وآثاري ورحّالة ألماني شهير، كان آخر عظماء الروّاد المستكشفين في المشرق برأي بعض الباحثين. قام برحلات استكشافيّة مهمّة في بلاد الشام بأواخر القرن التاسع عشر وإبّان الحرب العالميّة الأولى، ومن مكتشفاته مدينة تل حلف الأثريّة (غوزانا) على نهر الخابور. من خلال عمله في التنقيب عن الآثار، امتلك شخصياً جزءاً كبيراً من اللقى الأثرية، وتمنّى لو أن متحف الدولة ببرلين يشتريها منه، خاصة أن ممتلكاته كانت تضم منحوتات بارزة مهمّة من العصر الحثّي الجديد. ولما فشل في ذلك، افتتح متحفه الخاص في مبنى مصنع مهجور عام 1930. ولاحقاً عند اتخاذ اجراءات لحماية المجموعات الوطنية أثناء الحرب العالمية الثانية، لم يتم ضمّ مجموعته من لُقى تل حلف، ولذلك دمِّرت في غارات القصف الجوّي في نوفمبر 1943. وبقيت بعض الشظايا في أقبية بعض متاحف ألمانيا الشرقية، ثم أعيد تجميعها وترميمها بعد اعادة توحيد ألمانيا. وكان الرّجل صديقاً لجدّي أحمد إيبش آغا إبّان إقامته بدمشق، ومنه يستقي معلوماته عن الخيول العربيّة وكان جدّي أهمّ خبير بها آنذاك.

(2) تقصد كتابه: رحلة من البحر المتوسط إلى الخليج العربي عبر حوران والصّحراء السّورية والعراق، في جزأين نشرا عام 1899:

Vom Mittelmeer zum arabischen Golf durch den Haurān, die syrsche Wüste und Mesopotamien, 2 vols., 1899.

(3) هاينريخ كيپرت Heinrich Kiepert (1818-1899) جغرافي ألماني شهير وضع مجموعة من الأطالس خاصة حول آسيا الصغرى ومنطقة الشرق الأدنى، عُدّت معياراً ومرجعاً رئيسياً لجميع الرّحّالين والجغرافيين الذين عملوا ضمن نطاق منطقتنا العربيّة.

رافق العالم الألماني في بعثته الأثريّة. وقد بقي في قرية سالِه ليكون مصدر متعة ومفخرة للشّيوخ فيها، الذين سينظرون إلى الصّور دون محاولة الوصول والتّمسّك بالنّص، ولقد سُدَّت الفجوة في أرفف كتبي بشكل جيّد بتذكّر متعتهم.



مَقعَد للدّروز في قرية حبران

تحدّثنا دون انقطاع طوال المساء، مع توقّف قصير عندما أُحضِر عشاء فاخر. تشاركنا الطّعام أنا والشّيخ المسنّ، والضّابط يوسف، وقام أبناء الإخوة وأبناء العم الكبار بالإجهاز على الكمّيّة الوافرة المتبقّية. كان الموضوع الذي استحوذ على اهتمامهم إلى حدّ كبير في قرية سالِه هو الحرب اليابانيّة - وفي الواقع فلقد كان الحديث يدور في ذاك الاتّجاه على نحو ثابت في الجبل، ويكمن السّبب في اعتقاد الدّروز بأنّ اليابانيّين ينتمون لعرقهم. ويُعدّ خطّ النقاش والجدال المؤدّي لهذه النّتيجة المدهشة بسيطاً. لقد حملت التّعاليم السّرّيّة لعقيدتهم الآمال بأنّه يوماً ما سيندفع جيش من الدّروز من الحدود القصوى لآسيا ويحتلّ العالم. ولقد أظهر اليابانيّون شجاعة لا تُقهر، وكذلك يُعدّ الدّروز شجعاناً أيضاً؛ ولقد حاز اليابانيّون على النّصر، ونبوءة الدروز سوف لن تقهر: ولذلك فإنّ الشّعبين هما شعب واحد ومتشابه، وتعاطف كلّ شخص سواء كان في سوريا أو في آسيا الصّغرى، هو في جانب اليابانيين، مع استثناء وحيد من أبناء الكنيسة الأرثوذكسيّة، الذي يعتبرون روسيا حامية لهم. ويبدو من الطّبيعي أنّ الحكومة العثمانيّة ستشعر بالبهجة لمشاهدة هزيمة أعدائها العلمانيين، ولكن من الصّعب جدّاً

تفسير فرح العرب، والدّروز (بغض النّظر عن تنبّؤات الدّروز السّريّة المذكورة أعلاه) والأكراد، الذين بينهم وبين الأتراك الودّ مفقود.

لا تميل هذه الأعراق لأن تشعر بالسّرور بهزيمة أعداء السّلطان، وهي طبقة هم أنفسهم ينتمون إليها بشكل عام. وفي الواقع فهناك ومن دون أيّ شك متعة ساديّة معيّنة، والدّافع الطّبيعي لتأييد الرّجل الضّعيف ضدّ الرّجل المستأسد الكبير، ووراء ذلك كلّه هناك تلك الرّابطة الغريبة التي يصعب تصنيفها إلاّ من خلال اسم القارّة، والحرب التي تروق للآسيويين لأنّها ضدّ الأوروبيين. ومهما تكن متلهّفاً للاحتجاج بأنّ روسيا لا يمكن أن تعتبر أنموذجاً للحضارة الأوروبيّة، ومهما تكن عميق التّفكير لتقتنع بأنّ اليابان تُظهر بعض الخصائص القليلة المشتركة مع الأتراك أو الدّروز كما تُظهرها مع سكّان بحر الجنوب أو الإسكيمو، فالشّرق يدعو الشّرق، والصّوت يردّد الصّدى من بحار الصّين إلى البحر الأبيض المتوسّط.

تحدّثنا أيضاً عن الأتراك. وكان محمّد واحداً من عدّة شيوخ كانوا قد أُرسلوا إلى المنفى بعد حرب الدّروز؛ وكان قد زار إسطنبول، وشملت خبراته أيضاً آسيا الصّغرى، ولذلك كان مؤهّلاً لإعطاء رأي عن الصّفات التّركيّة. وبتقييم عشوائي للنّموذج الذي يدير به التّركي معظم شؤونه، فإنّ نقل شيوخ الدّروز بالجملة وإجبارهم بالقوّة على الإقامة لمدّة سنتين أو ثلاث في مدن بعيدة من الإمبراطوريّة، قد وضعت نهاية لما كان يمكن لبعد النّظر في إدارة شؤون الدّولة أن يقوم به عبثاً. فالرّجال الذين لم يُتح لهم من نواحٍ أخرى السّفر لأكثر من خمسين ميلاً من قريتهم قد تعلّموا بحكم الظّروف بعض المعلومات عن العالم؛ وقد عادوا ليمارسوا استقلالاً جزئيّاً كما فعلوا من قبل تقريباً، لكنّ عقولهم كانت قد تلقّت، على مضض، الانطباع عن الامتداد الواسع للأراضي الخاضعة لسيادة السّلطان، والعدد اللامتناهي لموارده، والمقارنة غير المهمّة بثورات الدّروز في إمبراطوريّة لا تزال حيّة على الرّغم من أنّها مرتبطة مع كلّ صيغة من نزاع مدني.

كان محمّد مقتنعاً بشكل كامل بأنّ هناك عالماً خلف حدود الجبل حيث حاول دفع اثنين

من أبنائه السّتّة خارج حدوده بوضعهما في مكتب حكومي في دمشق. ولقد أخفق، على الرّغم من أنّ مبادئه وحكمه كانت في آذانهما، فقد كان الولدان عنيدين جدّاً. واستخفّ بعض الشّباب بالواجب، ولوحقوا بتوبيخ شديد من قِبل رئيسهم، الذي أعادهم بسرعة إلى القرية حيث بإمكانهم أن يصبحوا شيوخاً مستقلّين، نموذجيين ومحترمين.

ولقد اشترك محمّد في صحيفة أسبوعيّة تصدر في دمشق، وتابعت كلّ العائلة بأقصى درجات الاهتمام أخبار السّياسات الخارجيّة تلك، والسّياسات الإنكليزيّة على نحو خاصّ، وقد نجت من قلم الرّقيب. وغاب عن ملاحظتهم ـ أو عن ملاحظة المحرّر ـ في بعض الأحيان بعض الأحداث المهمّة، لذلك سأل مضيفي عن السّيّد ساليزبُري Salisbury وقد حزنوا كثيراً لسماع أنّه توفّي قبل عدّة سنوات. والاسم الآخر الذي كانوا يعرفونه، بالإضافة إلى اللّورد كرومر، الذي كان معروفاً دائماً وفي كلّ مكان هو مستر تشامبرلين Mr. Chamberlain، وهكذا بدأت هناك في المضافة في قرية سالِه مناقشة حامية في السّؤال عن ماليّة الحكومة وأوضحتها بشكل كبير من جانبي مع أمثلة مأخوذة من إدارة الجمارك التّركيّة. من الممكن أن تكون براهيني أقلّ كشفاً للتّناقض من تلك التي يطرحها معظم التّجّار الأحرار الذين يمكّنهم وضعهم من طرحها، بسبب أنّ كلّ أهالي سالِه قد رفضوا بالإجماع مبادئ الحماية والانتقام (حيث لا يوجد حل وسط).

كانت هناك نقطة واحدة لم تلقَ قناعة تامّة من الجميع، ألا وهي قضيّة رحلتي إلى الصَّفا. كان لديّ شكّ قوي بأنّ رسالة ملحِم، التي سُلّمت إليّ مختومة حيث لم أتمكّن من قراءتها، كانت من طبيعة الرّسالة التي أعطيت من قِبل بريلاس Prælas إلى بيلّيروفون Bellerophon عندما أرسله إلى ملك ليكيا Lycia، وإذا كان محمّد لم يأمر بإعدام حامل الرّسالة عند وصوله، فقد أوصى بقوّة بإعاقة مشروعه. وعلى أيّة حال، فقد كان من رأيه أنّ البعثة لا يمكن أن تتمّ ما لم أصطحب معي على الأقلّ عشرين درزيّاً كحرس، الأمر الذي سيتطلّب تجهيزات عديدة ونفقات، وقد أُجبرت على التّخلّي عن الفكرة.

سُئلت عند السّاعة العاشرة عن السّاعة التي أرغب أن أخلد إلى النّوم فيها، وبغمّ واضح لدى أعضاء المجموعة تلك الذين لم يركبوا طوال النّهار في الثلج، قلت إنّ الوقت قد حان. خرج الأبناء وأولاد الأبناء، وجلبوا لحفاً محشوّة، كُوِّمت على ثلاثة أسِرّة، كلّ واحد في جانب من جوانب الدّيوان الكبير الثّلاثة، واندسسنا أنا والشّيخ ويوسف كلّ في سريره، ولم أعد أعي أيّ شيء إلى أن استيقظت في البرد القارس في وقت مبكّر من الفجر، فنهضتُ وخرجت إلى الهواء الطّلق. كانت قرية سالِه تنام بعمق في الثّلج؛ وحتّى الجدول الصّغير الذي يتدفّق داخل وخارج نبع روماني في وسط القرية كان ينام تحت غطاء سميك من الجليد.

في السّكون البارد النّقي رحتُ أراقب السّماء الشّرقيّة وهي حمراء وشاحبة والشّمس ترسل شعاعاً طويلاً من الضّوء فوق الحقل الثّلجي الذي كنّا نناضل فيه البارحة. أرسلتُ تحيّة شكر قصيرة للطّقس الرّائع، وأيقظتُ البغال والبغّالين من مكان استراحتهم المعتادة في أقبية الخان المظلمة، وتناولتُ طعام الإفطار الذي كان محمّد النّصّار قد أحضره، ثم ودّعتُ مضيفي وعائلته وداعاً طويلاً معبّرة فيه عن امتناني. ثم أحظ باستراحة ليليّة أطول ولا صحبة أكثر قبولاً وملاءمة في أيّ من رحلاتي في السّهول والجبال كتلك التي حظيت بها في قرية سالِه.



ساكفة باب في الخربة

* * *

الفصل السّادس

كان هدفي في ذاك اليوم قرية أمّ رويق Umm Ruweik على الحافّة الشّرقيّة لتلال الدّروز. ولدى تذكّري أغلاط وأوهام الخارطة، أخذت معي أحد أبناء إخوة محمّد النّصّار كدليل، كان اسمه فايز Faiz، وكان شقيق القِشقاش Ghish-ghash، شيخ أمّ رويق. كنتُ قد اخترته اللّيلة الماضية حيث كان الفرد الأكثر دماثة في الحلقة اللّطيفة في المضافة، وخلال معرفتي الشّخصيّة به في الأيّام الأربعة لم يحصل أيّ شيء يجعلني أندم على اختياري. كان رجلاً بملامح لا تثير الإعجاب، فأنفه معقوف، وفمه ملتوٍ، ولا يمكنك أن تستخلص أيّ شيء من النّظرة المستقيمة المستقرّة في عينيه؛ وكان سلوكه مهذّباً على نحو واضح ولطيفاً، ويتحدّث بذكاء، وكان لديه نصيحة جيّدة وملاذ.

لم نكن قد ابتعدنا كثيراً عن حافّة الهضاب، وحدَّقت بالسّهل الشّرقي وكأنّه في الأرض الموعودة التي لن تطأها قدماي أبداً، وذلك قبل أن يبدأ فايز بإظهار خطّة تقضي بترك البغال والخيام خلفنا في أمّ رويق والاندفاع عبر الصَّفا إلى الرَّحبة Ruhbeh، حيث يوجد مكان أثري عظيم أوقد وصفه مخيّلتي. وفي لحظة تغيّر لون العالم، ولمع النّجاح من السّماء الزّرقاء وتدلّى بسديم ذهبي على ذاك السّهل الذي أصبح فجأة في المتناول.

انحدر طريقنا تدريجيّاً من قرية سالِة، وخلال نصف ساعة كنّا خارج منطقة الثّلج والجليد الذي هطل علينا طوال الليل والنّهار؛ وبعد نصف ساعة وصلنا وادي بوسان Busān، حيث تدير المياه سريعة الحركة طاحونة، وتركنا بلدة الشّتاء خلفنا، وظهرت سالِة Sāleh القرية التي تقع على الجانب الشّمالي لوادي بوسان Busān، وبدت مكاناً

مزدهـراً يحتـوي على بعض النّماذج الجيّـدة من العمارة الحورانيّـة ـ وأذكر على نحو خـاصّ عتبة رائعة منقوشـة بتدرّج مزدوج من عناقيد عنـب وأوراق الكرمة تتدلّى على كلّ جانـب مـن مزهريّة تحتلّ وسـط قطعة الحجر. وفي سـالِة Sāleh قدمنـا إلى حافة السّهل وشاهدنا السّهل العظيم للصَّفا يمتدّ مثل بحر أسفل منّا.



أسوار القنوات

كانت معالمها الغريبة تتمثّل بأنّ سطحها أسود اللّون مثل سواد سطح خيمة سوداء، وذلك بسبب غطاء الحمم والحجارة البركانيّة التي انتشرت فوقها. وفي بعض الأماكن كانـت هنـاك رقع صفراء، اكتشـفتُ لاحقاً أنّهـا التّربة التـي تكوّمت عليهـا قطع التوفا (حجر مسامي) وانكشفت بغياب هذه الأحجار أحياناً، وهي ما يطلق عليها العرب اسم البيضـا Beida، الأرض البيضاء، على النّقيض من الحَرّة Harra أي الأرض المحترقة المؤلفة من اللابة والحجر المسـامي (التوفـا). وفي الصَّفا فإنّ الأرض البيضاء مُجدبة كالمحروقة، على الرّغم من أنّ كلمة بيضاء بشكل عام تعني الأرض الصّالحة للزّراعة، وذلك لأنّي سـمعت فايزاً يصرخ بالبغّالين: «حيّدوا عن البيضا!» وذلك عندما شـردت البغـال ودخلـت في حقل من قمح الشّـتاء. وتحمل الكلمة الأدبيّة في الصّحراء شـبهاً محيّراً لهذه الكلمة الأخرى، فعلى سبيل المثال في قول المتنبّي:

الخيلُ واللّيلُ والبيداءُ تعرفني والسّيف والرّمحُ والقرطاسُ والقلمُ



الباسيليقا في قنوات

تمتدّ الصَّفا إلى كتلة سوداء من الأحجار البركانيّة، تمتدّ غالباً على خطّ مستقيم شمالاً وجنوباً، ولكنّنا كنّا على ارتفاع عالٍ جداً فوقها بحيث لم يكن بالإمكان إدراك مدى ارتفاعها. ومرّة أخرى استطعنا رؤية الامتداد الواسع للبيضا Beida خلفها والتي كانت سهل الرَّحبة Ruhbeh. وإلى الشّرق والجنوب على الأفق الممتدّ على نحو هائل توجد بعض المخاريط البركانيّة القليلة جدّاً والتي تحدّد نهاية بروزات الحمم في حوران وبداية سهل الحَماد Hamad، وهي الصّحراء الخالية من المياه التي تصل إلى بغداد. وإلى الشّمال كانت هناك تلال حول ضْمَير Dmer، وأبعد من ذلك نحو الشَمال هناك سلسلة أخرى تحيط بوادٍ عرضه عشرة أميال يؤدّي إلى تدمر. تمتدّ هذه الهضاب نحو الخلف إلى منحدرات لبنان الشّرقيّة، برؤوسها المغطّاة بالثّلج، وتشرف على الطّريق الصّحراوي المؤدّي إلى حمص.

انعطفنا شرقاً إلى شُبكِة Shibbekeh وهو مكان غريب مبنيّ فوق وادٍ تتكوّن حافّته

الشّماليّة من كهوف تشبه قرص العسل، وشمالاً إلى الشّيخلي sheikhly والرّامِة Rameh على الحافّة الجنوبيّة لأخدود عميق جداً، يسمّى «وادي الشّام» Wadi esh Sham، إلى الأسفل حيث تقطنه أبعد القرى المسكونة إلى الشّرق، وهما الفذامة[1] Fedhameh والجعيتة Ej Jeita. وتحظى المستوطنات على هذا الجانب من الجبل بقيمة أثريّة كبيرة. وربّما كانت القرى الكهفيّة قد وجدت قبل زمن الأنباط بوقت طويل؛ وربّما كانت تعود إلى زمن ما قبل تاريخ الملك عوج Og الغامض، أو إلى الشعب الذي غطّي اسمه عندما كانت جميع المدن تُبنى تحت الأرض، والمثل الأكثر شهرة على هذا هي درعا في سهل حوران جنوب المزيريب.

غادرنا المشنَّف Mushennef واتّجهنا إلى الغرب، ولكن مع أسف شعرتُ به لأنّه لم يكن لديّ الوقت لزيارتها مرّة أخرى، إذ أنّ صهريجها العظيم يعكس أحد أكبر المعابد سحراً في جبل الدّروز، دون استثناء البقايا الأثريّة العظيمة لبلدة قنوات. تقع بلدة العجلات[2] El Ajlat شمال وادي الشّام، على قمّة تلّة عالية بما يكفي لتلمس خط ثلج شهر فبراير، ويمتدّ وادٍ آخر إلى الأسفل منها نحو الصَّفا ـ وسمعت بوجود معلم أثري ونقش في مجراه المنخفض لكنّي لم أقم بزيارتهما. وصلنا إلى أمّ رويق Umm Ruweik حوالي السّاعة الرّابعة، ونصبنا خيامنا على حافّة لحف الجبل حيث استطعت عبر باب خيمتي المفتوح رؤية امتداد الصَّفا كلّه.

كان الشيخ قِشقاش Ghishghash يعاملني بلطف. وكان بإمكاني بالتّأكيد الرّكوب إلى الرَّحبة Ruhbeh لو أخذته هو وابنه أحمد وفايز معي. لقد سخر من فكرة عدد الحرس الكبير. ولوجه الحق، فقد كان الغياث خدمه وعبيده وسوف يستضيفوننا كما يُفعل بالنّبلاء

(1) لا وجود لهاتين التّسميتين اليوم على خرائط محافظة السّويداء، وكنت قد قمت بمسح أثري لوادي الشام إلى الشرق من قرية الرّشيدة جنوب شرق السّويداء، فلم أر أيّة قرية تليها شرقاً، حتى وصلت إلى الرّصيعي والنّمارة ومنقع الرّحبة والزّلف شمالي الرّحبة، فبلغت خربة البيضا (واسمها الحقيقي: قصر نَقعة)، وتابعت بعدها شمالاً إلى جبل سيس ومكحول في الصَّفا، ثم إلى (أبو الشامات) على طريق دمشق تدمر.

(2) ترد التسمية اليوم في خرائط محافظة السّويداء: العجيلات.

ويوفّرون لنا أماكن إقامة مترفة. تناولت الغداء مع القِشقاش Ghishghash (حيث لم يقبل أيّ رفض)، واستنتجت بأنّه كان رجلاً رخو المزاج، متبجّحاً وأحمق، كثير الكلام، على الرّغم من أنّ كل ما قاله لا يعادل جملة ممّا يقول فايز. واحتفظ فايز بصمت نسبيّ بين جماعته، وكذلك أحمد لم يتكلّم إلاّ قليلاً، ولكن ذاك القليل كان مقنعاً وجديراً بأن يُسمع.

روى قِشقاش قصصاً كثيرة عن الصَّفا وما تحتويه، والنّتيجة التي يستخلصها المرء، إضافة إلى موضوع الخرب الأثريّة المعروف من قبل هو أنّه لا يوجد شيء يستحقّ أن تسافر رحلة بمسيرة يوم شرق الرَّحبة إلاّ لوجود مقلع حجارة وحصن مخرب هناك يشبه الحصن الأبيض في الرَّحبة والذي كنّا ذاهبين لرؤيته، إلاّ أنّه أصغر حجماً وأقلّ صيانة. وخلف ذلك يمتدّ الحَماد، حيث لا توجد مساكن ولا رجم rujm – ويضطر أشجع العرب إلى هجره في الصّيف بسبب خلوّه من الماء نهائيّاً. ذهب قلبي إلى القلعة الغامضة شرق الرَّحبة، والتي أعتقد أنّه لم يزرها أيّ من الرّحّالين من قبل؛ ولكنّها كانت بعيدة جدّاً ومن الصّعب الذّهاب إليها دون تحضير مسبق. «عندما تعودين مرّة أخرى يا ستّي ـــ». نعم عندما أعود. ولكن عليّ ألا أعتمد في فرصة المستقبل على ضيافة الغياث الرّائعة المُترفة.



قنوات، بوّابة الباسيليقا

قررتُ بعد استشـارة أنّ على كلّ من ميخائيل وحبيب مرافقتنا، وتم أخذ حبيب بناء علـى طلبه الخاص. قال إنّه سـوف يركـب بغلته المفضّلة، وإنّها ستسـتطيع أن تجاري بخطواتهـا أيّ فـرس وتحمـل بالإضافة إلـى ذلك البسـط والدّجاجـات الخمس التي أحضرناها معنا لدعم حُسـن ضيافة الغياث. كان لديّ معطف من الفرو قد حُزم خلف سـرجي، وكالعـادة، آلة تصوير (كاميرا) ودفتر ملاحظات فـي الخُرج. نزلنا منحدرات الهضاب الشّـاهقة لمدّة سـاعة، وكان ثلاثة من الفرسـان الدّروز يلحقون بنا أنّى ذهبنا. واكتشـفتُ فوراً أن الشـيخين قد أضافاهم إلى الحرس المتعاقد معهم ولكن لم أبدِ أيَّ تعليق. كان أحدهم من أقارب القِشـقاش واسـمه خطّاب؛ وكان قد سـافر مع أوپنهايم Oppenheim وبرهن على صحبة مفيدة.



معبد في قنوات

عبرنـا قرية القِشـقاش المفلوحـة ومن ثـمّ نزلنا المنحـدرات القاحلـة تقريباً، على الرّغـم من أنهّا توفّـر مراعي كافية لأغنامه التي يرعاها العرب، وعند سـفح التّلّة دخلنا واديـاً حجريـاً ضحلاً كان فيه قليل مـن الخيام محاطة بقطعان أكبر ترعى عشـاءها بين الجلاميد. وبعد ساعة من السّير في الوادي، الذي يلتفّ بين صخور بركانيّة، دخلنا إلى قفر الصَّفا الفسيح. كان في معظمه منبسطاً، ولكن ليس بشكل تام. اما السّطح فمتكسّر

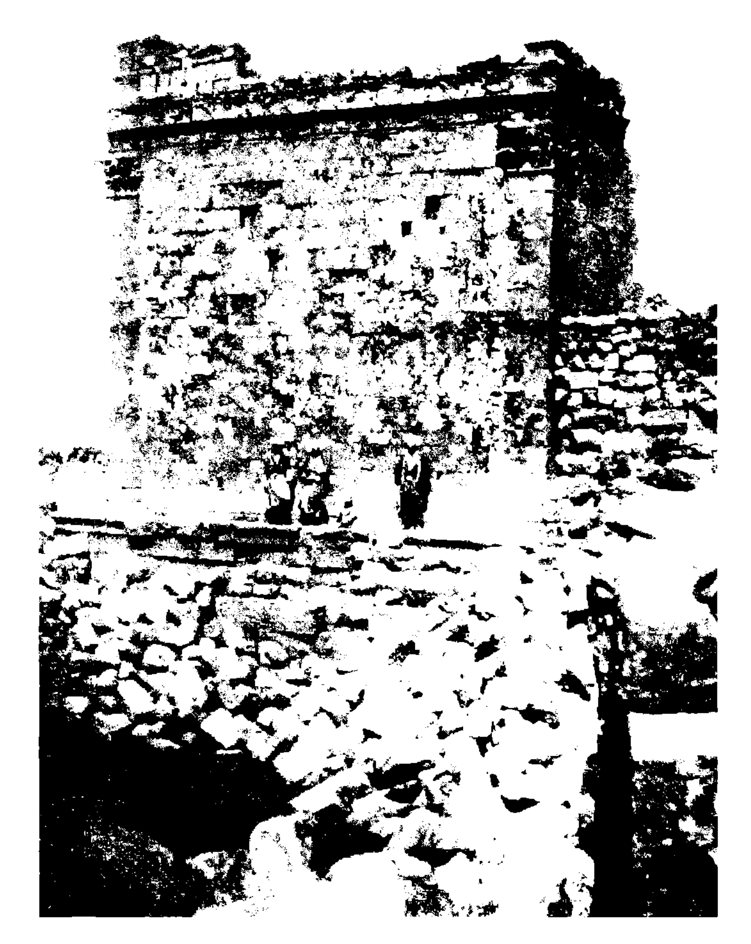
بتموّجـات صخريّـة مرتفعة قليلاً، وعميقة بما يكفي لإغلاق المشـهد في وجه الخيّال في المنخفـض، ولذا فقد يسـير لمدّة سـاعة أو أكثر ولا يرى أيّ شـيء سـوى أفق من حجارة سـوداء أعلى من رأسـه بقليل في كلّ جانب. وللتموّجات مخطّط نظامي؛ فهي تشكّل ودياناً متتابعة خالية من الماء، ويعرف كلّ واد منها باسم عند العرب. ولقد غطّي كل مـن الوادي وحافّة الجبال بكتل الأحجار البركانيّة المسـاميّة، بسـماكة تتراوح بين ستّة إنشات عرضاً إلى قدمين أو أكثر، وعند وجود أيّ مسافة بينهما بإمكانك ملاحظة التّربة الصّلبة الصّفراء، بلون رمل البحر، حيث تمتدّ تحت هذه الصّخور.

وتندفـع أعـداد كبيرة من شـجرات ضئيلة الحجـم في طريقها بيـن الأحجار، وهي الحَمض والشّـيح والهجينة hajcineh، وتنتشر هنا وهناك أعشاب إبرة الرّاعي، والثّوم النّجمي وأوراق التّوليپ، ولكن بشـكل عام لا يوجد بين الصّخور متّسـع حتّى لأرفع النّباتات، وذلك لأنّها متقاربة إلى بعضها جدّاً، وهي سوداء ملساء لا حوافّ لها، وكأنّها مصقولـة بفعل المياه الجارية؛ وعندما تشـرق الشّـمس يلتمع الهـواء فوقها كما يلتمع فـوق قطعة معدنيّة مصهـورة، وفي الصّيف فإنّ المقارنة يجب أن تحمل شـيئاً قويّاً من نواح أخرى، لأنّ الحرارة العالية عديمة الرّحمة لا يمكن تحمّلها تقريباً. ومن الصّعوبة بمكان اجتيـاز الصَّفا إن لم يكن بسـبب حرّها فبسـبب ممرّاتهـا الدّقيقة التـي تقطعها والتـي لا تُعـدّ ولا تُحصـى. في البداية لا يكـون الرّاكب عالماً بها، بسـبب أنّها صغيرة جـدّاً وهزيلـة، ولكن تأخـذه الحيرة حالاً حول سـبب وجود عدد كافٍ من القسـمات أمامه حيث يسـتطيع جواده السّـير من خلالها، وعندها يلاحظ بأنّه يسير في طريق. لقد مرّت مئات الأجيال على أقدامها مندفعة جانب كتل الحجارة المسـاميّة حتّى لو كانت لمسافات صغيرة جدّاً وجعلت السّفر ممكناً عبر ذاك القفر من الحجارة.

مررنـا قرب منطقة منخفضـة تدعى غدير الغرز Ghadir el Gharz، وبعد سـاعتين التقينا عند نهايتها رجلاً بثياب رثّة كان اسـمه قلب الله. لقد سُـرّ كثيراً برؤيتنا، وتصرّف كمـا لـو كان صديق العائلة منذ عدّة سـنوات (وعليّ أن أعتقـد أن ذلك كان منذ ثمانين سنة على الأقلّ)، ولقد فوجئ كثيراً عندما اكتشف وجودي في موكب الخيّالة. ثم زالت

دهشته عندما سمع أنّني إنكليزيّة ولكن لم يغيّر ذلك أيّ شيء عنده، حيث أنّ عقله لم يستوعب أسماء وسلالات الأغراب. أخبرنا عن وجود مياه قريباً من متناول اليد وأنّ خيام العرب (البدو) لا تبعد أكثر من مسيرة ساعتين، وأنّ خطّة قِشقاش Ghishghash تسير بسلام، ومن المحتمل أن يكون هناك سلام حتّى للغريب الذي برفقته. لقد كذب في موضوع الخيام، أو أننا لم نفهم ما قاله؛ ولكنّنا وجدنا الماء، عبارة عن بركة موحلة، وتناولنا غداءنا بالقرب منها، وتشاركنا مع قطيع من الجِمال.

لا يوجد في الصَّفا مياه صالحة للشّرب وفقاً للمعايير الأوروبية، وكذلك الأمر نفسه في جبل الدّروز. لا توجد ينابيع في التّلال؛ وقد جُمع الماء المتوفّر في بُرك مكشوفة، ويمكن أن يعتبر الرّحّالة نفسه محظوظاً إذا لم يُطلب منه أن يشرب سائلاً كان قد رأى البغال والجِمال تتمرّغ فيه. وفي ظلّ أكثر الظّروف ملاءمة فمن المؤكّد أن يكون ممتلئاً بشكل كثيف بعناصر غريبة لا تزول حتّى عند الغلي، على الرّغم من أنّها تصنّف بأنّها غير ضارّة نسبيّاً. ويتمتّع الشاي الذي يحضّر من هذا السّائل بقوام ونكهة خاصّين؛ فهو بلون القهوة العكرة ويترك مادة راسبة في قعر الفنجان. كان ميخائيل يحمل لي جرّة خزفيّة فيها مياه مغليّة من مخيّم إلى مخيّم، وقد ألجأته تلك الحيطة إلى رفض الشّرب من البرك والصّهاريج التي يمكن أن نقابلها في الطّريق، ولم أجد أيّة صعوبة في متابعة النّظام ذاته في الصَّفا. كان هو والدّروز والبغّالون يشربون من المياه التي يجدونها سواء في الجبل أو في الصَّفا، ولم يبدُ أنّهم يعانون من أيّة أعراض مرضيّة. ومن المحتمل أنّ الجراثيم الموجودة في جرعاتهم المهملة كانت كثيرة وفعّالة إلى حدّ كبير بحيث كان لديها من القوّة ما يكفي ليدمّر بعضها بعضاً.



المعبد في المشنَّف

تابعنـا سـيرنا على كلّ الأحجار فـي العالم، وحتّى القِشـقاش لـزم الصّمت أو كان يتكلّم فقط ليتساءل متعجّباً أين يمكن أن تكون خيام الغياث وارتأى خطّاب بأنّنا ما إن نصل إلى القنطرة Kantarah فلا بدّ أن نراها، وأصغيت بانتباه إلى اسـم بدا أنّه يتضمّن نوعاً ما من البناء. لكن لم تكن القنطرة أكثر من ارتفاع في الأرض، أعلى بقليل من بقيّة الأرض التـي حولها وليسـت أقلّ حجارة منها. يوجد الكثير مثلهـا؛ والتي تقود طرقها

فـي معظمهـا إلى القمّة، وهو طريق يزحف فيه العرب علـى بطونهم ليراقبوا أعداءهم، مختبئين خلف ركام صغير من حجارة سوداء شُيِّد كمعقل دائم على القمّة.

وفـي الصّيف يجتـاح الغزاة الصَّفـا، وتجوس قبائل كبيـرة مثل عْنِزَة خلاله لتسـدّد ضربـة مفاجئة لبعـض أعدائها في الجنوب أو الشّـمال، جارفين الغيـاث في طريقهم، وحيـث أنّ الأماكن التـي تحوي مياهاً تعتبر قليلة إلى حدّ كبير فـي الحرارة الفريدة في القفر الحجري، فليس لدى الغزاة وكذلك رجال الغياث المتبقّين في السّـهل خيار إلاّ أن يتردّدوا في العتمة على برك الماء الموحلة نفسـها، وبناء عليه يقضي الغياث أيّامهم ولياليهم مطارَدين بخوف متواصل إلى أن تذهب القبائل الكبيرة شـرقاً مرّة أخرى إلى الحَماد.

لم تكن هناك أيّة إشـارة إلى خيام يمكـن أن تُرى من القنطرة، وبدا من المحتمل أنّه علينـا أن نمضي ليلة مـن دون مياه بين الحجارة تحت السّـماء الصّافية الباردة. وقبيل غروب الشّـمس بسـاعة تقريباً صرخ خطّاب بأنّه اسـتطاع رؤية دخان نيران المخيّم في الجهـة الشّـماليّة الغربيّة. عدنـا في طريق جيّد إلى الخلف، مشـكّلين نصـف دائرة في طريقنا، ووصلنا إلى الخيام عند الغروب بعد رحلة استمرّت تسع ساعات. ومع الماعز والجمـال العائـدة إلـى مأواها بعد يـوم مجهد في المرعـى، كنا نسـير مضطربين فوق الحجـارة، وبدا المخيّم الصّغير بائسـاً جدّاً، على الرّغم مـن أنّنا كنّا في رغبة كبيرة جدّاً بالوصول إليه. كان كلّ ما يملكه الغياث لا يصل ثمنه إلى مئتي ليرة ذهبيّة إلاّ بصعوبة؛ حيث أنّهم لا يملكون أيّ شـيء سـوى الخيام السّـوداء وبعض الجِمال ودِلال القهوة، وإذا كان لديهم شـيء أكثر فإنّه سـيكون قد أُخِذَ منهم في غـزو منتصف الصّيف. وهم يعيشـون على الخبز فقط ـ شـرك Shirak وهو عبارة عن رقائق من الخبز تشـبه الورق البُنّي ـ ويتجوّلون طوال أيّامهم بين الحجارة خوفاً على حياتهم، عدا شـهر أو شـهرين حين يذهبون إلى جبل الدّروز من أجل المرعى.

وبمـا أنّنـا مجموعة كبيرة العـدد فقد توزّعنا، فذهبـتُ أنا والقِشـقاش وخدمي إلى بيت

الشّيخ الذي كان اسمه[1] Understanding. وأشعل ابناه محمّد وحمدان ناراً من الشّوك وروث الجمال التي تدّخن على نحو رديء، وجلسنا حول النّار وراقبنا تحضير القهوة. تولّى محمّد هذه المهمّة كونه الأكبر سنّاً. وقد كان ماهراً في دقّ المهباج، وقام بضرب إيقاع مرح بالهاون. كان وجهه أسمر ونحيلاً، وكانت أسنانه البيضاء تلمع عندما يبتسم؛ وقد ارتدى ثياباً قطنيّة بيضاء متّسخة، وتدلّى وشاح قطني من تحت عقاله المصنوع من وبر الجمل الموضوع على رأسه إلى صدره العاري، وتكلّم بكلام يخرج من حلقومه بحيث يصعب متابعته. كان عشاؤنا عبارة عن شرك Shirak ودبس؛ فالغياث فقراء جدّاً ولا يستطيعون ذبح شاة لضيفهم حتّى لو كان شخصيّة بارزة ومهمّة جدّاً مثل القِشقاش، وهو رجل أحمق في تكوينه، وقد اهتمّ بلباسه وتأنّق وانتفخ غروراً، وأخذ يمشّط شاربيه الطّويلين أمام نظرات الإعجاب من مضيفيه وتكلّم دون توقّف حتّى وقت متأخّر من اللّيل بكلام سخيف، كما أعتقد أنا التي كنت أتوق كي يسمح لي بالنّوم.

كان لديّ بطّانية كغطاء لي واستخدمت سرجي كمخدّة، واستلقيت في زاوية قرب السّاحة Sahah وهو الجزء المقابل لقسم النّساء، واستمعت من حين لآخر إلى محادثة لم تكن مهذّبة على نحو خاصّ، وشتمت من حين لآخر الدّخان الحاد اللاّذع. استيقظتُ حوالي منتصف الليل على ضوء القمر الذي سطع بتألّق بارد داخل الخيمة. كانت النّار قد خمدت في الأسفل وارتفع الدّخان إلى الأعلى؛ كان العرب والدّروز مستلقين نائمين حول الموقد البارد؛ ووقفت فرَسان بسلام قرب سارية الخيمة وحدّقتا بعينين ذكيّتين بفارسَيهما في الدّاخل، وربض خلفهما بعير بغباء بين الحجارة السّوداء. كان الجَمَال الصّامت والغريب للمنظر القديم قِدم العالم قد أخذ بمجامع القلب وأثار الخيال حتّى بعد أن هيمن النّوم عليه مرّة أخرى.

قبل الفجر كان ميخائيل قد نجح في عمل فنجان شاي لي على لهيب منقطع من نار الشّوك، وعند شروق الشّمس ركبنا جيادنا حيث كان أمامنا مسيرة طويلة. وقد كسا «نور الله الجليل» السّهل الأسود بجمال فاتن. وألقت الشّمس المنبسطة التي

---

(1) كذا كتبت المؤلفة، فماذا تقصد؟ هل كان اسمه فهيماً أم فهم أم ماذا؟

كنّـا نسـير باتّجاهها هالة مـن ذهب على كلّ حجرة، ووقفت سلسـلة الجبـال البركانيّة الشّرقيّة بحدودها الواضحة المسنّنة مقابل السّماء الصّافية، وإلى الشّمال الغربي كانت ثلـوج جبـال لبنان الشّـرقيّة والحرمون تتألّق وضّـاءة على نحو لا يصدّق فوق السّـواد المتألّق للأرض الأماميّة. أُضيف أحد العرب إلى مجموعتنا، كدليل؛ اسمه عوّاد. كان يركـب جملاً، وتحدّث معنا مـن ذلك الموقع المتميّز بصوت أجشّ عـالٍ، وكأنّه يريد أن يجسـر المسـافة الهائلة بين راكب الجمـل وراكب الفرس. كنّـا جميعاً نرتجف من البرد بسـبب انطلاقنـا في الفجر البارد، ولكنّ عوّاداً حـوّل الأمر إلى دعابة حيث صاح من على ظهر جمله: «يا ستّ، يا ستّ! هل تعلمين لماذا أشـعر بالبرد؟ إنّه بسـبب أنّ لدي أربع زوجات في البيت!». وضحك الآخرون، لأنّه كان يتمتّع بسـمعة كزير نسـاء صغيـر، وهكذا تذهب الأموال التي يملكها لاستكمال نصـاب حريمه فضلاً عن ملء خزانة ثيابه.

فكّرت بأنّ علينا أن ندخل بسرعة غدير الغرز Ghadir el Gharz مرّة أخرى. وبعد مسيرة سـاعتين عبرنا أرضاً مرتفعة قليلاً إلى الجنوب الغربي من تلول الصَّفا Tulul es Safa وهو خـط من أحجار بركانيـة، وخببنا بخيولنا عبر امتداد كبير مـن أرض صفراء لا حجارة فيها، واسـمها البيضا Beida إلى أن وصلنا إلى النّهاية الجنوبيّة من قاع الحمم البركانيّة، وكانت الحمـم البركانيّة تمتدّ عن يسـارنا مثل بحر أسـود مخيف كابوسـي ولم تكـن متجمّدة مثل اللّبـن الخاثـر، وكأن فزعاً بشـعاً قـد أوقف تدفّقهـا وحجَّر خطوط الرّعـب المنكمشـة على سطحها. ولكن كان هذا منذ زمن قديم جدّاً حيث رفعت يدٌ قويّة رأس الغرغونة[1] Gorgon قبل موجات تلول الصَّفا Tulul es Safa. كان للشّـمس والصّقيع وتوالي الدّهر سـبب في تصدّع المعالم الأصليّة للأحجار البركانيّة، وتشقّق قاع الأحجار البركانيّة المساميّة، وبعثرة الجُرُف ومحو ملامح التّلال الأصليّة. كانت شجرة أو اثنتان من البُطم قد وطّدتا موطئ قدم لهمـا في الصّدوع، ولكن عندما مررتُ هناك كانتا لا تـزالان عاريتين ورماديّتين ولم تخربا

(١) أسطورة إغريقية قديمة عن ثلاث أخوات أسطوريات سيثنو وأيرلن وميدوسا لهن شعر من ثعابين و مظهر مرعب، كل من ينظر اليهن يتحول إلى حجر.

شيئاً من المنظر العام للقفر الذي لا حياة فيه.

بينمـا كنّـا ندور حول تخوم الموت هذه أدركتُ بأنّنا كنّا نتبع طريقاً قديماً إلى حدّ ما قدم هذه التّلال نفسـها، خيطاً رفيعاً من تاريخ البشـريّة يقودنا مباشرة عبر تلك الأرض المحرّمة. اسـتمرّ عوّاد بالكلام عن حجر سمّاه العَبلا[1] El 'Ablā وهي كلمة ترمز إلى صخرة بيضاء يمكن رؤيتها من بعيد، ولكنّي كنت قد اعتدت إلى حدّ كبير سماع أسماء لا ترمز إلى شيء لذا لم أعطِ الموضوع أيّ اهتمام إلى أن أوقف جمله وصرخ:

«يا ستّ! هذه هي. بوجه الله، إنّها العبلا El 'Ablā».

لم تكن أكثر ولا أقلّ من حجرة بئر، وهي محاطة بثلم حبل بعمق إنشـين، ويفترض أن تكـون قد اسـتخدمت لوقت طويل، وذلـك لأنّ هذه الصّخرة السّـوداء صلبة جدّاً، ولكـن لـم يكن هناك بئر جديدة علـى بعد أميال من الموقع. وعلى مسـافة قريبة كانت هنـاك كومة كبيرة من حجارة ثمّ كومة أخرى وأخرى، اثنتان أو ثلاث في كل ربع ميل، وعندمـا نظـرت عن كثب أدركت أنّها قد بُنيت ولـم تُلقَ اعتباطاً. كان بعضها قد فُتح من قبل بعض العرب بحثاً عن كنز، وعندما أزيلت الطّبقات العليا تكشّـفت فسـحة مربّعة قليلـة العمق في وسـط التّلّة، وقد بُنيت بدقّة من كتـل حجريّة نصف منحوتة. قال عوّاد إنّـه، حسـب علمه، لم يعثر أحد على شـيء من هذه الأماكن يـدلّ على ما كانت تحويه فـي الماضي. ومن الواضح أنّ الكومات كانت قد صُنعت لتعلّم الخط في ذاك الطّريق القديـم عبر القفر. توقّف عواد مـرّة أخرى على بعد بضع مئات من الياردات من بعض الصّخور السّوداء المستوية مع سطح الأرض إلى حدّ ما. لقد كانت مثل صفحات كتاب مفتوح سُـجّلت فيها جميـع الأعراق التي مرّت من ذاك الطّريق وكتبت أسـماؤها على شـكل كتابـة غريبة يطلق عليها العلمـاء «الصَّفأيّة» Safaitic فـي اليونانيّة، وفي العربيّة «الكوفيّة» Cufic. كان آخرها نقوش البدو الأمّيين حيث كتبوا هناك علامات قبيلتهم.

---

(1) هذه تسمية عتيقة رائعة تعود كما أظن إلى اللغة الأكاديّة القديمة، وهي اسم حضارة مدينة إيبلا (عبلاء) في تلّ مرديخ، ذات المكتبة العظيمة من الرُّقم الطينيّة المشويّة. ومعنى التسمية بالفعل: الصّخرة البيضاء.

«مِـن شُـرَيك بن نقفات بـن نعفيس؟ بن نعمـان»، كان هذا أحد النّقـوش؛ والآخر: «مـن بوخالِه بن ظَـنّ بن أنعَم بن رواق بن بوخالِه. ولقد وجـد نقش عمّه وتاق لرؤيته، و....». كما كان هناك نقش آخر على رقعة لم أنسخه بطريقة جيّدة على نحو كافٍ ليتاح لـي حلّ شـيفرته على نحو مؤكّد. وربّما يحتوي اسـمين مرتبطين بــ «ابن». كان هناك فوق الأسـماء خطوط مسـتقيمة، من المحتمل أنّها تعرض الكواكب السّبعة[1]، وذلك وفقاً لاقتراح دُسّو Dussaud المبدع. وتمّت تهجئة الأحرف الإغريقيّة اليونانيّة لكلمة Hanelos والتـي تعني حَنّا، وهو اسـم سـامي، ومـن المحتمل أنّه كُتب مـن قبل كاتبه بالخطّ الغريب في الوقت الذي كان يتعلّم فيه عندما كان يخدم في الجيش الروماني.

بينما كانت الجمل الكوفيّة Cufic عبارة عن جمل دينيّة تستنزل بركة على المسافر الذي كان قد توقّف من أجل أن ينقشـها. وهكذا فقد ترك كلّ رجل حسـب جنسـه كتابته، ورحل في غياهب الزّمن، وبعد هذه الخربشات على الصّخور السّوداء، فإنّنا لا نعلم أيّ شيء عن عرقـه أو تاريخـه أو مهمّته التي أحضرتـه إلى غدير الغرز الماحل. لقد بـدت العبارات وأنا أنسـخها مثل همهمة أصوات ضعيفة صادرة من الأرواح في الماضي المنسي، ولم يستطع أورفيـوس Orpheus بقيثارتـه أن يسـحر الصّخـور كي تتكلّم بشـكل أوضح عـن الأجيال الميتة. وأرى أن الصَّفا جميعها مليئة بتلك الهمسات؛ وأنّ الظّلال ليست إلاّ اسماً مهتزّاً في الهواء المرتعش فوق الحجارة، وتدعو إلهها بألسنتها المتعدّدة.

نسـختُ النّقـوش علـى عجلة، حيث لـم يكن هناك وقـت لنضيّعه في ذلـك اليوم. وقـف الـدّروز حولي متبرّميـن، وصرخ عواد: «يـا الله، يا الله! يا سـت»، والتي تعني: «أسـرعي!». سرنا إلى الطّرف الشّرقي للصَّفا، والتففنا حول زاوية قاع الحمم البركانية lava bed، وشاهدنا السّهل الأصفر من الرَّحبة أمامنا. لأنّني كنت قد لاحظته من جبل الدّروز فقد علمت بأنّه يمتدّ على مسافة كبيرة نحو الشّرق؛ ولكن عندما وصلنا إليه بدا

---

(1) كتبت المؤلفة: راجع Dussaud, 'Mission Scientifique' p.64 (مهمّة علميّة)
وأنا أدين بترجمة النقوش إلى كرم الدكتور ليتمان Littmann الذي سيضع النسخ الأصلية في كتابه «نقوش سامية».

أنّ عرضه ليس أكثر من نصف ميل، وتمتدّ خلفه بحيرة رائعة من مياه سديمية مزرقّة. وارتفعت الأحجار البركانيّة القليلة في البعيد نحو الشّرق مثل جزر خارج البحر، وقد تراءت صورتها في المياه الموجودة عند سفحها؛ ولكن مع سيرنا باتّجاه ذلك الفيض الدّاخلي، تراجعت شواطئه أمامنا، ذلك بأنّه لم يكن سوى سراب بحر يحسبه ضيوف الصَّفا أنّه يهدّئ عطشهم على نحو كافٍ.

شاهدنا بعد ذلك على حافّة هضاب الأحجار المساميّة برجاً رمادياً، وشاهدنا في السّهل أسفل منه ضريحاً مقبّباً مطلياً باللّون الأبيض، وكان هذان موقعي خربة البيضا Khirbet el Beida ومزار الشيخ سُراق Mazar of Sheikh Serak. لقد ورث الشيخ سراق موقعه كحارس للرَّحبة من زيوس صفاثينوس Zeus Saphathenos والذي كان بدوره الوريث المباشر للإله إيل EL إله الصَّفا الأكثر قدماً[1]. كان عمله يتمثّل في أنّه يحمي المحاصيل التي يزرعها العرب في السّنين الخيّرة حيث تسكن روحه؛ وكان محترماً من قبل المسلمين والدّروز على حدّ سواء، ويحمل مسؤوليّة رعاية عيد سنوي مرَّ قبل أسبوعين من قدومي. والمقام ذاته عبارة عن بناء وفق النّموذج الحوراني، بسطح حجري مدعَّم بأقواس متّصلة. ويوجد فوق الأبواب عتبة عليا منحوتة أخذت من آثار قلعة البيضا.



قلعة البيضا

(1) سنأتي على هذه المواضيع بالتفصيل في كتاب ثمين جداً سنقوم بترجمته للسلسلة بعنوان: «العرب في برّ الشام قبل الإسلام» للآثاري الفرنسي رنيه دُسّو.
René Dussaud: *Les Arabes en Syrie avant l'Islam.*

استطعت البقاء بصعوبة بينما احتشد رجالي هنا، وكنت متلهّفة جدّاً لرؤية قلعة البيضا - خربة أو قلعة البيضا، فالعرب يلفظونها بالوجهين على حدّ سواء. تركت الدّروز يؤدّون احترامهم لزيوس صفاثينوس Zeus Saphathenos أو أي كان، وخببت إلى حافّة مصطبة الحمم، حيث يمتدّ أمامها خندق عميق ممتلئ بالمياه، كان عليّ عبوره بجسر صغير من ألواح خشبيّة؛ كان حبيب هناك يسقي بغلته، تلك البغلة الرّائعة التي تسابق الخيل، فعهدت بحصاني إليه، وأسرعت فوق صخر الحمم المتكسّر إلى داخل ساحة القلعة. كان هناك قلة من العرب يمشون فيه الهوينى، ولم يعيروني أيّ اهتمام يذكر كما فعلت أنا أيضاً معهم.

كانت هذه هي القلعة الشّهيرة التي تحرس أرضاً ميتة من سكّانها المحرومين منها، وحامية الصَّفا من الحَماد. ارتفعت أسوارها المكوّنة من حجارة بيضاء رماديّة فوق حجارة سوداء نُحتت على نحو صقيل، إنه المقرّ القوي لعالم من الأشباح. يا ترى أيدي مَن تلك التي بنتها، ومَن الذي زيّن حُليها الحلزونية المتدفقة على أعمدة الأبواب والعتبات، وأيّ عين بقيت ساهرة على الأبراج، لا تستطيع أن تقرّر بيقين. ربّما نظر إليها هانيلوس Hanelos وشُرَيك Shuraik وبوخالِه Bukhalih وهم يدورون حول زاوية وادي الغرز Gharz، وربّما يكون الإله إيل EL قد شملها بعنايته، وربّما كانت صلوات الرّجل المراقب تعود إلى معبد بعيد، وقدّمت إلى آلهة يونانيّة ورومانيّة. آلاف من الأسئلة التي لا جواب لها ولا يمكن الإجابة عليها تقفز إلى ذهنك وأنت تعبر عتبة الباب.



قلعة البيضا

لقـد قام كلٌّ مـن دي ڤوغيه De Vogüé وأوپنهايم Oppenheim ودُسّـو Dussaud بوصف خربة البيضا[1] Khirbet el Beida، وبإمكان أيّ شخص مهتم بقراءة دراساتهم أن يعرف أنّها بناء مربّع محاط ببرج دائري عند كلّ زاوية، ونتوءات مدوّرة بين الأبراج ودعامات مستطيلة موجودة مقابل السّـور الجنوبي؛ وقد زيّنت بوّاباتها بنماذج تزيينيّة بـارزة رائعـة، وحلي معماريّـة درجيّـة وأوراق وأزهار وحيوانات ترعـى خلالها؛ ربّما كانـت قلعة حدود رومانيّة بُنيت بين القرنيـن الثّاني والرّابع الميلاديين. وتبقى الحقيقة بأنّنـا لسـنا متأكّديـن مـن أصولها، أكثر ممـا نحن متأكـدون من أصل الأطـلال الأثريّة التي هي قريبة منها في جبل سـيس[2] Jebel Ses أو المشـتّى Mshitta، أو أيّة أبنيّة في الصّحراء الغربيّة.

ثمّة أشياء متشابهة بينها جميعاً، وهناك اختلافات واضحة أيضاً، كما هو واضح من الأشياء المتشابهة بين قلعة البيضا Kal'at el Beida وفن العمارة في حوران Hauran.

وبعد، فأيّ نحّات من الجبل قد ترك لخياله العنان، أن يتفوّق على القاعدة التّقليديّة فـي النّحـت كما فعـل الرّجل الذي نحت صـور حيوانات الصّحراء حـول أبواب قلعة البيضـا؟ هناك روح شـيء غريب عن أسـلوب الفنّ فـي الجوار، أكثر وحشـية وخيال أكثر حرّيّة، وليس ماهراً كمهارة من صنع الزّخرفة الشّجريّة في المشتّى حيث أنّها أكثر إتقانـاً ولكنّهـا أقدم على الأغلـب. كلّها أعمال خاضعة للتّخمين؛ وقد تشـي الصّحراء بأسـرارها، وبتاريـخ الصّفا والرَّحبة حيث يمكن أن تُجمع معـاً من الصّخور المكتوبة،

---

(1) هذه الخربة الأثريّة بالفعل من أجمل آثار حرّة الصّفا، زرتها مراراً قبيل عام 2000 أثناء إعدادي لموسوعة «ريف دمشق»، والراجح اليوم لدى علماء الآثار في أصلها أنها من بناء الغساسنة قبل الإسلام. ومن أهم ما أضيفه هنا هو اسمها الذي ما برح يجهله الباحثون حتى اليوم، وهو: «قصر نقعة» كما قرأه الباحث الكبير محمّد علي مادون في بعض النقوش الصّفأية القريبة من الموقع. والنَّقعة تعني المستنقع، وغير بعيد عنه موقع يشابهه بالاسم، هو: مَنقَع الرَّحبة.

(2) أما أصل قصر جبل سيس فأموي لا جدال فيه، وقد عمل على بحثه الآثاريان الفرنسي جان سوڤاجيه Jean Sauvaget والألماني هاينتس غاوبه Heinz Gaube، فخرجا بنتيجة واضحة أنه من بناء الوليد بن عبد الملك بن مروان، «معمار بني أميّة» وباني جامع دمشق الأموي الكبير عام 86 هـ.

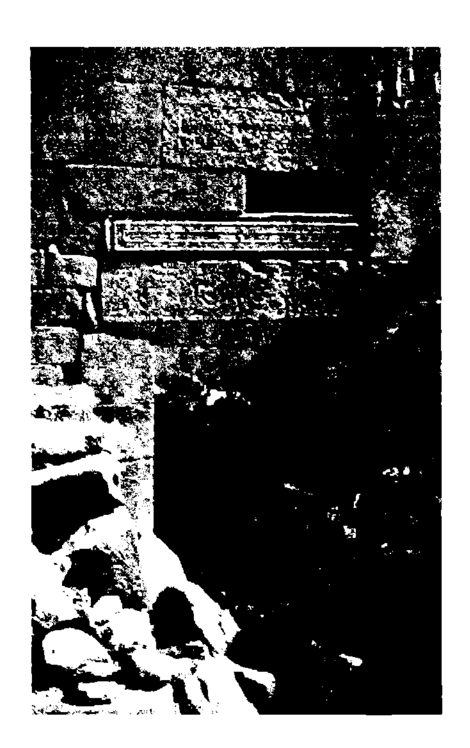
ولكـن فـي البداية يجب القيام برحـلات كثيرة وكذلك القيام بالكثيـر من التّنقيبات في الحدود السّوريّة، وربّما في الحيرة Hira أو في اليمن.

أودّ فقط أن أقدّم ملاحظة وهي أنّ الأبنية في قلعة البيضا لا يمكن كما هي عليه الآن أن تكون منتمية للحقبة الزّمنيّة نفسـها. وبالتّأكيـد فإنّ الصّيانة قد تمّت في وقت متأخّر عن تصوينة أسـوار البرج. في حين بنيت هذه الأبراج بالملاط مثل المعسكر الرّوماني في القسطل والقلعة في الموقّر Muwakkar، فالتّصوينة عبارة عن أبنية جافّة تشبه تلك الأبنية السّـائدة في حوران، والتي في أسوارها أحجار منقوشة من المؤكد أنّها وُضعت فـي غيـر المكان الذي نُحتت من أجلـه. وحتّى الزّينة حول باب القلعة الرّئيسـي كانت من حجارة مأخوذة من مكان آخر؛ والكتلتان الحجريّتان المنحوتتان الموضوعتان في عتبة الباب العليا غير متوافقتين مع بعضهما ولا مع البوّابة. ولكنّ النّتيجة الوحيدة التي أغامر بكتابتها هي أنّ المقترحَين حول أصل القلعة، اللذين قدّمهما علماء الآثار، يقول الأوّل منهما إنّ المكان كان معسكراً رومانيّاً، والآخر يقول إنّه كان قلعة تعود للغساسنة Ghassanid، وقد يكون كلّ منهما صحيحاً[1].

تمتـدّ حافـة الحمم البركانية علـى بضعة أقدام فوق السّـهل، وتوجد على طول هذا الحاجـز الدّفاعـي الطّبيعي أبنية أخرى إلى جانب القلعة البيضـاء، لكن ولا واحد منها لـه الأهمّيّـة المعماريّة ذاتها، حيث أن أسـوارها قـد بُنيت بفظاظة من كتـل التوفا tufa المسـاميّة المربّعـة ووُضعت فوق بعضها دون ملاط، علـى حين بُنيت القلعة من حجر رمادي، وبُني قسـم منها باسـتخدام الملاط. والبناء الوحيد الذي له بعض الأهمّيّة من بيـن الأبنية التي زرتُها يقع على مسـافة قليلة إلى الشّـمال وقد سُـقف وفقاً للأسـلوب الحوراني بألواح حجريّة ممتدّة على أقواس مسـتعرضة. وعلى مسـافات متقطّعة على طول سـرير الحمم البركانية كانت هناك أبراج صغيرة تشـبه أكشـاك الحرس تحذّر من الاقتراب من القلعة، وهي أيضاً كانت من بناء جاف دون ملاط.

---

(٦) بل الثاني هو الصحيح، هذا ما يتفق عليه علماء الآثار اليوم.



قلعة البيضا، باب السّور

سـمحنا لأنفسـنا بالتّوقّف لمدّة سـاعتين فقط، حيث كان علينا أن نكون على مرأى من مخيّمنا قبل حلول الظّلام خوفاً من قضاء اللّيل في الصَّفا المكشـوفة. وانطلقنا إلى مخيّمنا بعـد أن أجهزنا بسـرعة على ما تبقّى من الدّجاجات الخمس اللاتـي كنّا قد أحضرناها معنا مـن أمّ رويـق Umm Ruweik، وقـد نُكّهـت بأعواد من البصـل اللاّذع الـذي كان عوّاد قد عثر عليه. ورأينا بعد مسـيرة خمس سـاعات إلاّ ربع دخان نار المعسكر قبل حلول الظّلام، فانطلقنـا باتّجاهـه، وقادتنا إليه سلسـلة من المجموعات الحجريّـة الواضحة. هذه الأمكنة المكشوفة هي مراح marah (علامات مخيّم) للعُنزَة 'Anazeh الذي اعتادوا أن يخيّموا في الصَّفـا قبل أن يقطـن الدروز في الجبل قبل أكثر من قرن من الزّمـان[1]. وبناء عليه فلا يزال

(1) تعود بداية هجرة طائفة الموحّدين الدّروز (بني معروف) من جبل لبنان إلى جبل الرّيّان شرقي حوران، بعد معركة عين دارة الشهيرة التي وقعت بين القيسيّة واليمانيّة من الدّروز أنفسهم في عام 1711 وانتصر فيها القيسيّون. فبدأ اليمانيّون من الدّروز بالهجرة إلى جبل حوران أو جبل

المراح يُشَاهد بعد أكثر من قرن على الأقل، وربّما سيبقى لعدّة قرون أخرى.

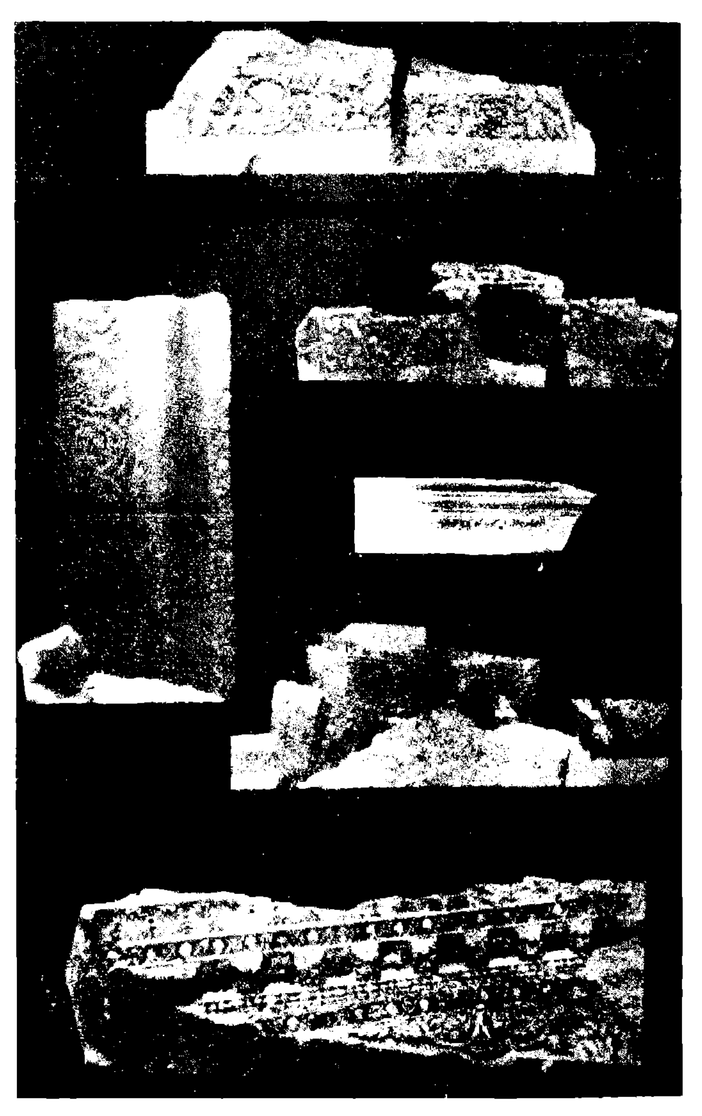
كانت هناك ريح باردة قويّة عند المساء، فحوّلنا الرّواق الرّئيسي للخيمة ليحمينا بشكل أفضل؛ ولكن نتيجة لذلك كلّه أمضينا ليلة مريحة، وأيقظني البرد عدّة مرّات على شعور غير مريح من أنّني كنت نائمة على تلّ من النمل. كيف يستطيع العرب إيجاد وسيلة لجمع الكثير من البراغيث في مقتنياتهم القليلة جدّاً، إنّه لغز لا يمكن تفسيره. وبصعوبة كان هناك مكان مناسب لهم للمبيت فيه، باستثناء جدران الخيمة نفسها، وعندما يتم هدم تلك الجدران عليها أن تبدي مهارة ورشاقة مختلفة عن العادة الشّائعة للبراغيث وذلك لحماية نفسها لتحزم وتحمل إلى أرض المخيّم التّالي ولكن وبلا شك فهي كفؤ لهذه المهمّة ويعرف ذلك كلّ من أمضى ليلة في بيت من الشّعر. وبعد ليلتين مع الغياث بدت خيامنا وكأنّها جنّة النّعيم وذلك عندما عدنا إليها عصر اليوم التّالي، ويُعدّ الاستحمام أمراً رائعاً لمن يستطيع تحمّل الحياة السّيبيريّة، حتى لو أُخِذ في حرارة منخفضة بضع درجات عن درجة التّجمّد.

أثناء مسيرنا إلى مخيّمنا وقعت حادثة جديرة بالتّسجيل، حيث أنّها تتعلّق بالعادات الدّرزيّة. كما لاحظنا من قبل فإن الطّائفة تنقسم إلى عُقّال وجهّال. وبالنّسبة للغريب فإنّ الفرق الأساسي بين القسمين هو أن العقّال يمتنعون عن التّدخين، وقد لاحظتُ في اللّيلة التي أمضيتها في قرية سالِه بأن لا أحد من عائلة محمّد ونصّار يدخّن. لذلك فوجئت عندما طلب فايز ـ الذي وجد نفسه وحيداً مع ميخائيل ومعي ـ سيجارة من ميخائيل، فاعتذرتُ إليه بسبب أنّني أهملت تقديم سيجارة له من قبل قائلة بأنّي كنت قد فهمت أنّ التّدخين محظور عليه. طَرَف فايز بعينيه المائلتين وأجاب بأنّ الأمر كما قلت، وأنّه لم يكن ليقبل سيجارة في حال وجود درزي، ولكن طالما أنّه لم يكن يوجد أحد من أبناء طائفته فقد شعر بنفسه حرّاً في أن يفعل ما يمتعه. وعلى أيّة حال فقد توسّل إليّ ألا أذكر لأخيه تلك الزّلّة الأخلاقيّة.

في تلك اللّيلة، وفي مضافة أمّ رويق، قمتُ أنا وثلاثة شيوخ بوضع عدّة خطط

الرّيّان، الذي غدا اسمه منذ ذيّاك الحين: جبل الدّروز، وفي أواسط القرن العشرين لُقّب بجبل العرب تماشياً مع دعوة القوميّة العربيّة السّائدة آنذاك.

لرحـلات استكشـافيّة أبعد في الصَّفا، وحدّدنـا عدد الجِمال التـي كان عليّ أن آخذها معي، وحتّى الهدايا التي سوف أكافئ بها الحرّاس عند نهاية الرّحلة. وبالتّأكيد سيكون كلّ من فايز وأحمد وخطّاب من بين بعثة الاستكشاف إذا كان الخيار بيدي.



نماذج زخرفيّة من قلعة البيضا ومن تدمُر
والمدماك الحجري الأعلى من قلعة البيضا

فـي الصّباح التّالي عند السّـاعة الثّامنة والنّصف بدأنـا رحلتنا ذات الأيّام الثّلاثة إلى دمشـق. وبالنّسـبة لأمّ رويق أريد أن أضيف فقط بأنّ الأمر اسـتغرق أربعـة أيّام بالتّمام كـي نجمـع، وبصعوبة، من جميع سـكّانها مبلغاً يعادل قيمة ليرة ذهبيّـة واحدة. كنّا قد أحضرنـا معنـا حقيبة مـن النّقود النّحاسـيّة والفضّيّة مـن القدس، ولكن عندمـا أُنفِقَت وجدنا صعوبة بالغة في دفع ديوننا - هذه أيضاً إحدى التّلميحات للرّحّالين التي ناقشني ميخائيل في وجوب وضعها في الكتاب الذي سوف أكتبه. سرنا عبر منحدرات ساحرة مغطّاة - حيث كانت الثّلوج ذائبة - بالسّوسـن الأزرق الغامق، وقضينا سـاعة أو اثنتين في شَقّا Shakka التي كانت إحدى المشاهد الرّئيسيّة التي تحدّث عنها عالم الآثار دى ڤوغيه de Vogüé. والباسـيليقا (المبنى الروماني المستطيل) الذي كانت معالمه كاملة تقريباً في كتابه هو الآن محطّم كلّيّاً في خربة، ولم تبقَ سوى الواجهة، ولكن القيصريّة Kaisarieh لا تـزال قائمـة، والدّير الـذي يُعتقد أنّه واحد من أقدم الأبنيّـة الرّهبانيّة في الوجود.

سـرنا قـرب هيت Hit، وهي بلـدة لطيفة تحتوي على منزل جميـل يعود إلى ما قبل الإسلام (pre-Arabic) يسكن فيه الشّيخ، وأقمنا مخيّمنا عند البثينة[1] Bathaniyyeh في جوّ صقيعي، مما جعلني آوي إلى فراشي وأنا أرتعد من البرد. كان هنا نهر جارٍ وهو الآن متجمّـد تماماً. وفي اليـوم التّالي قمت بجولة لزيارة الهيـات Hayat حيث توجد قليبـة Kalybeh جميلـة كتب عنهـا دى ڤوغيه De Vogüé، وقلعة. كنت أريد أن أسـدّ بعض الثّغرات في رحلتي السّـالفة وأرى ما هو نوع الأبنية التي يمكن العثور عليها في المنحدرات الشّـماليّة من الجبل، إذا لم أسـتطع فعل شـيء أكثر. كانت القرى القديمة قد امتلأت بسـرعة بالنّاس، وخلال بضع سـنوات لن يبقى سـوى آثار قليلة من مبانيهم الأثريّة.

(1) هكذا اسمها الصحيح، وليس البثنية كما تكتب المؤلفة.



بوّابة في شَقّا

لذا فقد نزلنا إلى السّهل المتصل بطريق اللّجاة Leja من شهبا Shahbah إلى دمشق عند لاهثة Lahitch، وتبعنا بغالنا إلى براق Brak القرية الأبعد في حوران. يوجد مركز عسكري في براق Brak فيه عشرون عسكريّاً؛ وقبل أن نصل إليه بقليل التقينا بفتاة درزيّة صغيرة جثمت مرتعدة على جانب الطّريق وبكت عندما رأتنا من الخوف، وصرخت: «أنا خدّامة! أنا خدّامة!». كانت كلماتها تلقي ظلّاً من الشّؤم على النّظام التّركي الذي وجدنا أنفسنا تحته مرّة أخرى. وفي مقابل الحصن تقريباً مررنا بدرزيين عائدين من دمشق، وألقوا عليّ تحية ودودة فقلتُ:

«هل أنتم متّجهون إلى الجبل؟».

قالا: «بالله! الله يحفظك!».

قلت: «أنا قادمة من هناك ـ سلّموا لي عليه»، فأجابا:

«الله يسلّمك! مع السّلامة!».

لا يمكن للرّحّالة أن يترك منطقة الدّروز خلفه دون أن يشعر بغصّة، ودون أن يأخذ على نفسه عهداً بأن يعود إليها حالما يستطيع.

وكوننا مررنا تحت حماية السّلطان، فقد وجدنا بأنّ طريقي في اليوم التّالي يمتدّ عبر خطر حقيقي هو جزء من المنطقة. وقد حاول الچركس Circassians والأتراك من براق Brak (فقد كان الأتراك شعباً فاتناً من الأقسام الشّماليّة في آسيا الصّغرى) إقناعي بقوّة بالعدول عن أخذ الطّريق القصير الذي يقطع الهضاب إلى دمشق، وكان كلامهم من القوّة بحيث تخلّيت تقريباً عن الفكرة. قالوا إنّ الهضاب كانت محتلّة باستمرار من قِبل اللّصوص وخالية ربّما من مخيّمات العرب في هذا الوقت من السّنة، ولذلك فقد اتّخذها اللّصوص طريقاً خاصّاً لهم.

وسمعنا لحسن الحظّ في الصّباح التّالي عن مجموعة من الجنود قيل إنّهم سيسافرون إلى دمشق عبر الهضاب، وشجّعنا الخبر بأن نسلك الطّريق ذاته. لم نرَهم أبداً في طريقنا، ولم أصدّق أنّه كان لهم وجود حقيقي؛ وشاهدنا على الجانب الآخر بعض الخيام السّوداء التي أعطتنا شعوراً بالثّقة في أسوأ جزء من الطّريق، ولا بدّ أن يكون اللّصوص متورّطين في جانب آخر ولذلك لم يظهروا. لكنّي لاحظت باهتمام أوّلاً أنّ الحياة الصّحراويّة تمتدّ إلى حدود ساعة أو ساعتين بعيداً عن دمشق، وهي حقيقة لم أنتبه إليها من قبل عندما ذهبتُ عبر الطّريق العام، وثانياً أنّ سلام السّلطان، إذا كان يمكن أن نطلق عليه سلاماً، يتوقّف تقريباً عند أسوار المدينة الرّئيسيّة لسوريا.



دار الشّيخ في هيات

عبرنـا نهـر الأعوج، الذي هو فَرفَـر Pharpar ووصلنا فوراً بعـد منتصف النّهار إلى القرية الچركسـيّة مـن نجها Nejha، حيـث توقّفتُ لتناول الغداء تحت بعض أشـجار الحور، وهي الأيكة الأولى من الأشـجار التي رأيتُها منذ تركت السَّـلط. سواء سافرتَ إلـى دمشـق عبر طريق قصيـر أو طريق عام، من حـوران أو من تَدمُر، فإنّهـا تبقى دائماً أبعـد مـن أيّ مكان آخر تعرفه. وربّما يعود سـبب ذلـك إلى أنّ الرّحّالة يكون متشـوّقاً جـدّاً للوصول إليها، وتقـع مدينة العرب العظيمة والباهرة في حزام من أشـجار مثمرة وملیئـة بخريـر الأنهار. ولكن لو كان لديه صبر فقط فليس هناك طريق ليس له نهاية في الآخر؛ وأتينا أيضاً أخيراً إلى حافّة بستان مشمش ومن ثمّ إلى بوّابة الله، وعندها دخلنا إلى الميدان وهو عبارة عن حيّ طويل من المحلاّت والخانات يمتدّ مثل مقبض ملعقة ضخمة، في وعاء ممتلئ بالمآذن والقبب في الأحياء الغنيّة. أويتُ عند السّـاعة الرّابعة إلى فندق ڤيكتوريا، وأخذتُ بريد شهر من الرّسائل والصّحف في يديّ.

* * *

الفصل السّابع

عندما قدمتُ إلى دمشق قبل خمس سنوات، كان مستشاري الأوّل وصديقي ـ وهو صديق سيأسف لوفاته كثير من الرّحّالين في سوريا ـ هو لوتيكِه[1] Lütticke مدير المصرف الذي يحمل الاسم ذاته وقنصُل ألمانيا الفخري. لقد كانت ملاحظة عابرة أظهرت لي المكانة التي مثّلتها هذه المدينة وما زالت تمثّلها في التّاريخ العربي. قال: «أنا مقتنع بأنّه يمكنك أن ترى في دمشق وما حولها أفضل سكّان عرب يمكن أن تجدهم في أيّ مكان آخر. وهم سلالات الغزاة الأصليين الذين جاؤوا مع الموجة الكبيرة الأولى للفتح، وحافظوا على سلالتهم نقيّة تقريباً»[2].

تُعدّ دمشق أكثر من جميع المدن الأخرى عاصمة للصّحراء. الصّحراء الممتدّة حتّى أسوارها، إذ تهبّ أنفاسها عليها مع كلّ ريح، وتعبر روحها من البوّابات الشّرقيّة مع كلّ راكب بعير. وفي دمشق يمتلك شيوخ القبائل الغنيّة منازلهم البلديّة الخاصّة، فبإمكانك أن تقابل محمّداً شيخ قبيلة الحْسِنة[3] Hasench والشيخ Bassān شيخ

---

(1) هو إرنست لوتيكِه Ernst Lütticke القنصل الفخري لألمانيا القيصريّة بدمشق آنذاك.

(2) هذا الكلام قطعياً غير دقيق، فمع أن الفاتحين الأوائل الذين قدموا من الحجاز صاحبتهم قبائل يمانيّة وقيسيّة قطنت بالشام، ما برح كثير من الأقوام غيرهم يقصدون الشام ويقيمون فيه، من أقطار المغرب العربي ومن التّركمان والأكراد والأتراك والجركس والألبان والبشناق والبخاريين وغيرهم، وهذا بسبب أهميّة دمشق التجاريّة ووفرة مقوّمات الحياة فيها، ولوقوعها على درب الحج بالنسبة للقادم من آسيا وتركية والبلقان.

(3) الحْسِنة قبيلة عْنزيّة معروفة في بادية حمص بوسط سوريا، وهي إحدى قبائل المنابهة من بني

قبيلة بني رشيد[1] يتهاديان في الأسواق في يوم جمعة لطيف، بالعباءات المطرّزة والشالات الأرجوانيّة والفضّيّة الملقاة على الجباه والمثبّتة بعُقل من شعر الجِمال وقد لفّت بخيوط الذّهب. ويرفع شيوخ البدو رؤوسهم عالياً، سادة القفر هؤلاء، فيتمشّون بين حشود يوم العطلة، ينتظرون أن يُفسح لهم الطّريق، كما لو كانت دمشق مدينتهم الخاصّة. وهي كذلك، لأنّها العاصمة الأولى للخلفاء البدو خارج الحجاز، ولا تزال تتذكّر أرفع التّقاليد العربيّة وتحافظ عليها.

لقد كانت تقريباً أولى المدن المشهورة عالميّاً التي تسقط أمام فرسان الصّحراء الذين لا يمكن مقاومتهم، والذين دعاهم محمّد[2] لحمل السّلاح وأعطاهم هدفاً وشعاراً للمعركة، ولقد كانت المدينة الوحيدة التي بقيت ذات أهميّة تحت الحكم الإسلامي كما كانت تحت حكم الإمبراطوريّة الرومانيّة. اتخذها معاوية عاصمة له، واستمرّت تحتلّ مكانة المدينة الإسلاميّة الرّئيسيّة حتى سقوط الحكم الأموي بعد تسعين سنة. ولقد كانت العاصمة الإسلاميّة الأخيرة التي حكمت وفقاً لتقاليد الصّحراء. وضع قادة الفرس بني العبّاس على العرش في بلاد ما بين النّهرين، وكانت التّأثيرات الفارسيّة والتّركيّة مسيطرة في بغداد، ومعهم درَجت ببطء العادات القاتلة من الرّفاهية التي لم تكن الصّحراء تعرفها أبداً، ولا حتّى الخلفاء الأوائل الذين حلبوا أغنامهم بأيديهم وقسّموا الغنائم بين المنتصرين من المؤمنين من شعبهم.

لقد دمّرت النّتائج المنبعثة من البيئة الفاسدة جدّاً في بلاد ما بين النّهرين قيم

وهب من ضنا مسلِم من عنزة، ونسبتهم الى جدهم حسين بن صاعد بن منبّه، وكانت ديارهم سابقا في خيبر والعلا، وقد كانت هجرتهم الى بلاد الشام بحثاً عن المراعي والماء بقيادة الشيخ فاضل المزيد، مع ابناء عمومتهم من المنابهة وفخذ الموايقة من السبعة والعمور من قبيلة الدّواسر. وشيوخ الحسِنة آل المزيَد، ويعرفون أيضاً بآل الملحم نسبة إلى الشيخ ملحم بن رشيد المزيَد. ويجمع النسّابون على أنهم من أرفع شيوخ عنزة نسباً في برّ الشام.

(1) لعلها تعني عشيرة الرّشايدة العبسيّة؟ ولو أنّ شيوخها من آل البرّاك، ولم أفهم ما هو الاسم الذي تكتبه هنا، ويشبه: بسّام. وينبغي عدم الخلط بينهم وبين آل الرّشيد حكّام جبل شمّر. ومع ذلك أظنها أخطأت حتى في اسم العشيرة، إذ أنها تذكر مدينة دمشق وديار الرّشايدة بعيدة عنها.

(2) رسول الله، عليه أفضل الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الرّجولة. وانبعثت أشباح قصور البابليين والآشوريين المتآمرة من قبورها الموحلة، قويّة وشرّيرة لتطيح بجيش الخليفة وتجرّده من سلاحه، ولتقيد يديه ورجليه بالحرير والذّهب. كانت دمشق بريئة منهم؛ وكانت دمشق تُكتسح برياح الصّحراء النّظيفة، وقد حكمت إمبراطوريّة النّبي ببعض من النّشاط الإسبرطي Spartan في الأيّام الأولى. ولم تكن محدثة النّعمة مثل العواصم التي على دجلة؛ فقد سبق أن رأت ملوكاً وأباطرة داخل أسوارها، وتعلّمت الفرق بين القوّة والضعف، وأيّ طريق يُؤدّي إلى السّيادة وأيّها يؤدّي إلى العبوديّة.



في الصّحراء التّدمُريّة

عندما وصلتُ حُيّيتُ تحيّة ممزوجة بالأخبار بأنّ رحلتي في حوران كانت قد أثارت على نحو معتبر فكر فخامة ناظم باشا والي سوريا[1]؛ وفي الحقيقة فقد أذيع

---

(1) الوالي حسين ناظم باشا أحد خيار الولاة الذين حكموا دمشق بأواخر العهد العثماني في مطلع القرن العشرين، تولاها ثلاث مرات بلغ مجموعها ثلاثة عشر عاماً، فامتدت ولايته الأولى من العام 1895 حتى 1907، ودامت ولايته الثانية قرابة السنة في العام 1909، بينما استمرت ولايته الثالثة بضعة أشهر في العام 1911. ولقد ترك بدمشق مجموعة مهمّة من المنشآت المعماريّة، أهمّها: السرايا الجديدة (مقر وزارة الداخلية حالياً)، ودائرة الأملاك السلطانية (دائرة الشرطة والأمن العام)، ودائرة البلدية، وطبابة المركز (صيدلية المشفى الوطني) المجاور (أزيلا في

على نحو عام أنّ هذا الرجل ذا الخبرة الواسعة والكثير التهذيب قد شعر بالغيظ ليس بسبب ظهوري المفاجئ في صَلخَد حيث كان نائماً في فراشه، ولكن عندما غادرت قبل وصول جاسوس يوسف أفندي، ولذا فقد اقترح البعض بأنّ السّبب الحقيقي لنفور سعادته المفاجئ كان رغبة منه في تجنّب أن يكون جزءاً في مذكّرة الأرشيدوق سيرج Archduke Serge. وإذا كان الأمر كذلك فقد أرسل لي يوم وصولي رسالة مهذّبة يعبّر فيها عن أمله بأنّه سيكون مسروراً بالتّعرّف إليّ شخصيّاً.

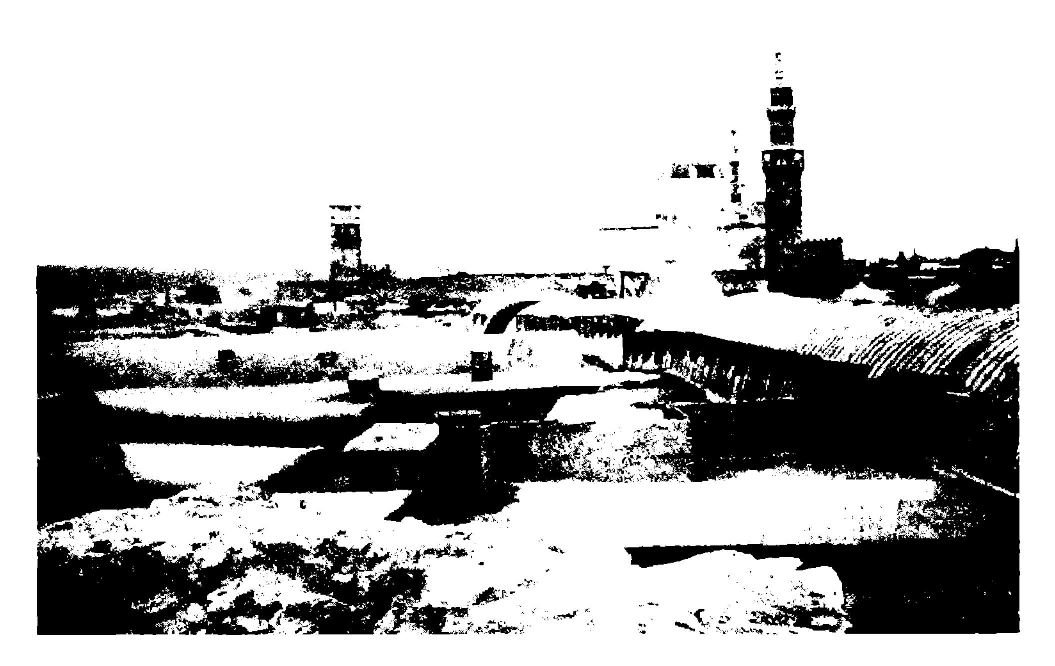
أعترف بأنّ إحساسي الأوّلي كان شعوراً بالنّدم عندما أُذِن لي بالدّخول إلى البيت الكبير الجديد الذي كان الوالي قد بناه لنفسه عند نهاية الصّالحية، وهي من ضواحي دمشق التي تمتدّ على طول سفح الهضاب العارية إلى شمال المدينة. كان لدي رغبة قويّة بالاعتذار، أو مهما تكن الظّروف لأبرهن له بأنّي لم أكن أُعتبر شخصاً عدوانياً. كانت هذه المشاعر قد عُزّزت باللّطف الذي استقبلني به، وبالاحترام الذي يحدثه بهؤلاء الذين يأتون للتّعرّف عليه. إنه رجل ذو مزاج عصبي، يقظ دوماً ضدّ المصاعب التي لا تتوانى ولايته بتوفيرها له، وهو حيّ الضّمير، وأظنه صادقاً وقلقاً جداً بشأن التّوفيق بين المصالح المتعارضة التي لا يمكن مزجها مع بعضها بسهولة إلاّ كما يُمزَج الخلّ مع الزّيت، وهو ينظر من طرف عينيه باستمرار إلى سيّده السلطان الذي يحرص بأن يكون شخصاً متميّزاً مثل ناظم باشا بعيداً عن شواطئ البوسفور على نحو معتبر.

ولقد مضى على الوالي في دمشق ثماني سنوات والمدّة المعتادة للولاة هي خمس سنوات، ومن الواضح أنّه قد عزم على أن يبقى في دمشق ما لم يصبه حظّ سيّئ، حيث أنّه بنى لنفسه بيتاً كبيراً وأحاطه بحديقة جميلة[1]، وهو التخطيط الذي يصرف ذهنه،

أواخر الخمسينيات من القرن الماضي ويرتفع مكانهما حالياً بناء الشّربتلي)، والثكنة الحميدية (كلية الحقوق حالياً)، ومشفى الغرباء الحميدي (مركز رضا سعيد للمؤتمرات حالياً)، ودار الوالي ناظم باشا (القصر الجمهوري سابقاً) وغيرها. وفي أيّامه أمر بجرّ مياه عين الفيجة إلى دمشق ليشرب أهلها ماءً نقياً، وتم ذلك للمرّة الأولى عام 1908.

(1) ما زال هذا البيت موجوداً إلى اليوم، وهو القصر الجمهوري القديم في المهاجرين بالشارع الذي يحمل اسم الوالي حسين ناظم پاشا. وعند مغادرة الپاشا دمشق اشترى القصر الثريّ

دعنا نأمل، عن المشاغل الكثيرة التي نادراً ما تكون سارّة. كان أحد عوامل بقائه هو اهتمامه النّشط بتشييد سكّة حديد الحجاز، التي يهتمّ بها السّلطان أشدَّ الاهتمام، وحتّى ينتهي تشييدها أو الإقلاع عن متابعة تشييدها فالأمر مفيد بما يكفي كي يبقى محتفظاً بمنصبه[1].



الجامع الكبير وسقف السّوق، منظر من القلعة

لا يعتقد الرّأي العام في السّوق بأن المشروع سيُهمل، على الرّغم من معارضة شريف مكّة وكلّ عشيرته، الذين لم يقتنعوا أبداً بحق ادّعاء السّلطان أنّه خليفة الإسلام ولم يرغبوا بأن يكون على تماس مباشر مع العواصم الإسلاميّة. والسّوق يساند السّلطان ضدّ الشّريف

المصري خورشيد، الذي كان يمتلك بأعلاه في سفح قاسيون حاكورة كبيرة ما زال الحي يحمل اسمها إلى اليوم (حيّ خورشيد).

(1) كتبت المؤلفة: بعد كتابتي هذه الرّسائل دارت عجلة السّياسة ضدّه وهوت به إلى الحضيض، وهو الآن يشغل مركزاً ثانويّاً في جزيرة رودوس Rhodes.

وضدّ كلّ الأعداء الآخرين سواء كانوا متديّنين أو ملحدين. وتطحن عجلات مطحنة الأتراك ببطء وغالباً ما تقف، لكنّها في النّهاية تطحن القليل وخاصّة عندما تكون الحنطة المعدّة للطحن هي الطّبقة الأولى من القبائل العربيّة الهشّة بشكل خاصّ بحسدهم وشكّهم ومزاعمهم. وتشبه السّياسة التّركيّة ذاك الذي قاله ابن كلثوم:

متى ننقل إلى قوم رحانا ... يكونوا في اللّقاء لها طحينا

يكون ثفالها شرقيّ نجدٍ ... ولهوتها قُضاعة أجمعينا

نزلتم منزل الأضياف منّا ... فأعجلنا القرى أن تشتمونا

قريناكم فأعجلنا قراكم ... قُبيل الصّبح مرداة طحونا



سوق الحبوب

على الرّغم من أنّ ناظم پاشا له في دمشق ثماني سنوات، فهو لا يتكلّم العربيّة. ونحن في أوروپا الذين نتكلّم عن تركيّا وكأنّها مملكة تتكوّن من أصل واحد، مثلما لو تحدّثنا عن إنكلترا باعتبارها تتضمّن الهند وبورما وولايات الشّان Shan States وهونغ كونغ وأوغندا. أمّا بالنّسبة للأرض المسكونة بالدّرجة الأولى من قِبل الأتراك فهي لا تمثّل ما يسمّى بالدّولة التّركيّة. وتعدّ الأجزاء من الأراضي الخاضعة لسلطانه حيث يشكّل الأتراك فيها الغالبيّة قليلة؛ وبشكل عام فإنّ وضعه يشبه أن يكون حكماً

أجنبيّاً مع عدد قليل من الجنود وخزينة فارغة، ومجموعة مختلطة من الأشخاص المعادين له والمتعاونين مع بعضهم البعض. وهو غير ملمّ بلغتهم، وممّا يتنافى مع العقل أن نتوقّع منه انسجاماً كبيراً مع طموحاته السّياسيّة والدّينيّة التي أصبحت بشكل عام معروفة عنه بين حَمَلة البنادق، وفيما لو حصل وتوجّه الرّصاص، كما يحدث غالباً، مع القطاع الجامح وغير العقلاني في الولاية ضدّ إقليم آخر عنيد وغير عقلاني فمن غير المرجّح أن يشعر بالأسف لضياع أرواح نتيجة ذلك.

وهو ذاته عندما يُترك لوحده ترى لديه شعوراً قويّاً من الارتياح لتطبيق القانون والنّظام. وإذا لاحظتَ التّنظيمات الدّاخليّة لقرية تركيّة فإنّك سترى بأنّ الفلاّح التّركي يعرف كيف يخضع لقواعد الإدارة والسّلوك وكيف يطيعها. وأعتقد بأنّ أفضل موظّفينا من المواطنين المحلّيين في مصر هم من الأتراك الذين أُحضروا وعُيّنوا من أجل تطبيق النّظام الجديد ويتمتّعون بالشّعور الطّيّب والموهبة الطّبيعيّة بالنّسبة لنظام الحكومة الذي لم يفهموا هدفه جيّداً تحت الحكم القديم. ولقد برهنت الطّبقات العليا في السّلطة الحاكمة في الإمبراطوريّة العثمانيّة على فسادها، والطّبقات العليا هذه مليئة باليونان والأرمن والسّوريين وشخصيّات من أمم متنوّعة يُنظر إليها بشكل عام في الشّرق (وليس من دون سبب) بنظرة من عدم الثّقة.

والحقيقة هي أنّ هؤلاء الرّجال الذين يبدو وكأنّ وصولهم للسّلطة أمر لا يمكن اجتنابه، هم السّبب في الإخفاق التّركي. فهو لا يستطيع أن يحكم مناطق واسعة، على الرّغم من أنّه يستطيع تنظيم مجتمع قرية؛ وفوق هذا كلّه فهو لا يستطيع أن يحكم بلاداً أجنبيّة، ولسوء الحظ فإنّه يؤتى به مرّة بعد أخرى إلى مناطق بعيدة ليحتكّ بأمم غريبة. وحتّى أتباعه التقطوا عدوى الارتقاء، فقد أصبح اليونان والأرمن تجّاراً ورجال مصارف، والسّوريّون تجاراً ومالكي أراضٍ؛ وقد وجدوا أنفسهم محاطين في كل نقطة بعراقيل من قِبل حكومة لن تدرك بأنّ أمّةً غنيّة تتكوّن من أشخاص أغنياء، ومع ذلك، وبسبب كلّ إخفاقاته، فإنّه لا يوجد أحد رغب أو سيرغب بأن يأخذ مكانه.

وبسبب غايتي الحالية فإنّي أتكلّم عن سوريا فقط، الإقليم الذي أعرفه بشكل

كبيـر. وما هي قيمة جمعيّات النّادي العربي والكرّاسـات الملتهبـة التي يصدرونها في مطابـع دور النّشـر الأجنبيّـة؟ الجواب سـهل: لا قيمـة لها على الإطـلاق. إذ لا وجود لأمّة العرب[1]؛ فالتّاجر السّـوري تفصله مسـافة كبيرة عن البـدوي أكبر بكثير من تلك التـي تفصلـه عن العصملّي (العثماني)، وسـوريا تسـكنها أعـراق تتكلّم اللّغـة العربيّة وكلّ منها يتوق للإمساك بخناق العرق الآخر، والشّيء الوحيد الذي يمنعهم من إنجاز رغباتهـم الطّبيعيّـة هو خوفهم مـن الجندي العثمانـي الجائع مرتدي الأسـمال، الذي يقبض رواتبه من خزينة السّـلطان بفترات غير منتظمة ونادرة. هذا الجندي، سـواء كان كرديّاً أو چركسـيّاً أو عربيّاً من دمشق، فإنّه يستحقّ مقداراً أكبر من الرّاتب الذي يتلقّاه. قـد تتمرّد الجيوش الأخرى ولكنّ الجيش التّركي سـيبقى واقفاً إلى جانب الخليفة[2]؛ ويمكـن للجيوش الأخرى أن تنهار أمام المعاناة والحرمـان والمرض الذي لا يعالَج، لكن بالنّسـبة لجيش السّلطان فإنّه سيبقى متقدّماً ما دام يستطيع الوقوف، ويقاتل طالما يملك السّـلاح، وينتصر طالما لديه قادة. وليس هناك منظر أكثر جمالاً وإثارة للشّـفقة من فوج تركي أثناء السّـير: فهو عبارة عن شـبّان ملتحين يكتسـون نصف كسوة بلباس رديء وغالبـاً حفـاة، محرومـين ومرهقيـن لكنّهـم لا يُقهَـرون. دعونـا نحيّيهم ونحن نشـاهدهم يمرّون؛ فـي الأيّام التي كانت فيها الحرب عبارة عـن فن أكثر من علم، كان الجيش التّركي هو القوّة التي اجتاحت العالـم.

---

(1) تتكلّم المؤلفة هنا بحسّ استعماري مقيت، وكأنه لا أمّة في الكون إلا بلدها بريطانيا، وبكل وقاحة تقول: لا وجود لأمّة العرب! لكن الغايات الخفيّة للإنكليز ستظهر قريباً في عام 1916 عندما جيّشوا قبائل شمال الجزيرة لقتال التّرك إبّان الحرب العالميّة الأولى في الثورة العربيّة الكبرى 1916-1918، ثم ما لبثوا مع حلفائهم الفرنسيين أن دخلوا بلاد المشرق العربي محتلين بعد عامين فحسب.

(2) لكن الذي حصل كان خلاف ذلك، فبعد مجرّد ثلاثة أعوام من رحلة المؤلفة نجحت حركة الشبّان الأتراك Les Jeunes Turcs (جون تورك، وليس تركيا الفتاة كما تسمّى بالغلط) بتأليب الجيش العثماني على السّلطان عبد الحميد، وأجبروه على إعلان الدّستور عام 1908، ثم بعد سنة من ذلك في عام 1909 خلعت جمعيّة الاتحاد والترقّي السّلطان ونصّبت بدلاً منه السّلطان محمّد رشاد، الذي كان ضعيفاً، وفي عام 1923 انتهت أيام السّلطنة بإعلان الجمهوريّة التركيّة على يدي مصطفى كمال باشا، الملقب بأتاتورك.



قبّة الخزنة

لكنّي تركت حاكم سوريا ينتظر طويلاً. تكلّمنا بعدها بالفرنسيّة وهي لغة كان ملمّاً بها على نحو ضعيف، ومن وقت لآخر كان رجل سوري لطيف يساعده بالتّركيّة في بعض عقبات وأصول اللّغة الأجنبيّة. كان السّوري مالك أراض ماروني غني من لبنان وكان يتمتّع بسمعة جيّدة عند بيت الحاكم على الرّغم من أنّه كان قد أمضى مؤخّراً سنة في السّجن. وقد رافقني في زيارتي وتجوالي هنا وهناك، حيث كان قد عُيِّن من قِبل الوالي ليكون دليلي السّياحي في دمشق؛ كان اسمه سليم بك، وكان الحديث بشكل رئيسي حول علم الآثار، ولقد أصررتُ، على نحو متعمّد، أن يكون كلامي حول اهتمامي بهذا الموضوع مقارنة بالسّياسات في الجبل والصّحراء، حيث تجنّبنا أيّ إلماح جدّي عنها.

كان الوالي هو الدّماثة بذاتها، وقد أهداني صوراً لمخطوطات معيّنة لا تقدّر بثمن لقبّة الخزنة في الجامع الكبير، والتي أغلقت الآن إلى الأبد أمام عامة النظّارة، ووعدني

بأن يعطيني بقيّة المجموعة. وفي نهاية الزّيارة انحنى لي شخصيّاً وأخذ عنواني باللّغة الإنكليزيّة وسجّله بعناية في محفظة جيبه، ولن أحتاج إلى القول بأنّ ذلك كان آخر ما يمكن سماعه عن الموضوع. وفي الحال أعلن الوالي بأنّ زوجة الپاشا وأطفاله كانوا بانتظاري، فتبعته إلى الطّابق الثّاني إلى غرفة مشمسة بنوافذ مفتوحة على شرفة تستطيع منها أن ترى دمشق كلّها بحدائقها وهضابها في الخلف. لم يكن هناك إلاّ زوجة الپاشا، وهي امرأة جميلة چركسيّة حادّة الملامح، ولكن كان هناك زوجة أخرى (وتقول الشّائعات بأنّها كانت المفضّلة) قد تُوفّيت قبل سنة.

كان الأطفال جذّابين، وقد قرؤوا أمامي أشعاراً باللّغة الفرنسيّة، وكانت أعينهم تتحرّك بسرعة لالتقاط أيّ تعبير استحسان أو متعة يمكن أن يصدر منّي؛ وعزفوا بالإيقاع رقصات بوهيميّة وهم جالسون منتصبي القامة على كرسي آلة العزف، وذيول ستراتهم السّوداء متدلّية خلف ظهورهم المخمليّة. جلس الپاشا عند النّافذة وابتسم لهم، وقامت الزّوجة الچركسيّة بتدخين بعض السجائر وكانت تنحني احتراماً لي كلّما التقت عيناها بعيني، وابتسم صبي عبد أسود كان يقف عند الباب ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن عندما أتمّ سادته وسيّداته مهمّاتهم، الذين كانوا أيضاً زملاءه في المدرسة ورفاق لعبه. خرجتُ بانطباع مبهج من ابتسامة جميلة مميّزة وذكاء لمّاح، وعبّرت عن سعادتي للپاشا ونحن ننزل الدّرج.

قال بتهذيب: «آه، لو كنت أستطيع أن أعلّمهم اللّغة الإنكليزيّة! ولكن ماذا ستفعلين؟ نحن لا نستطيع الحصول على امرأة إنكليزيّة تتوافق مع عاداتنا، وعندي فقط امرأة يونانيّة تلك التي رأيتِها لتعلّمهم اللّغة الفرنسيّة».

في الحقيقة كنت قد لاحظت المرأة اليونانيّة، وهي امرأة من طبقة دنيا وصغيرة ولا يمكن عدم الانتباه إلى سلوكها مع الصحبة الجميلة في الأعلى، ولكنّي لم أتوانَ عن الثناء على لغتها الفرنسيّة الممتازة التي تتكلّم بها ـ ليسامحني الله! هزّ الپاشا رأسه.

قال: «لو كان بإمكاني الحصول على امرأة إنكليزيّة». لسوء الحظّ لم يكن عندي من أقترحها للمهمّة، ولا يبدو أنّه يمكن أن يرحّب باقتراح.



تكيّة النّقشبنديّة

قبل أن أغادر وصل شخصان بارزان لمقابلة الوالي. كان الأوّل رجلاً بملامح شبه زنجيّة، ولكن بمظهر واضح ينبئ عن عرقه ونظرته السّريعة الحادّة. لقد كان الأمير عبد الله باشا، ابن عبد القادر الجزائري الكبير، من أَمَة زنجيّة. أمّا الثّاني فقد كان الشّيخ حَسَن النَّقشْبَندي، الخليفة الرّئيسي للطّريقة، وكنت قد تكلّمت تقريباً عن جماعة راشدة إسلاميّة مشهورة في دمشق، حيث تقع تكيّتها الرّئيسيّة. (وتعدّ التّكيّة الآن معهداً دينيّاً لإيواء الدّراويش وغيرهم من الأشخاص الديّنين الأتقياء، وهو مكان يشبه الدير، إلاّ أنّه لا يُفرَض على أعضائه نذر بعدم الزّواج، بل يمكن أن يكون لديهم عدد من الزّوجات حسب اختيارهم وفق النّصاب الشّرعي مثلهم مثل من هم خارج التّكيّة؛ وكان لدى الشّيخ حَسَن نفسه أربع زوجات. كانت كلّ علامات الذّكاء الكهنوتي الماكر تلمع من ملامح هذا الرّجل النّبيل ولم أكن أعلم بأنّ مواهبه كانت لافتة للنّظر بشكل خاصّ، لكن انعدام الضّمير لا بدّ أن يضاف إلى أيّة عيوب

ونواقص، أو أنّ ابتسامته تعطي فكرة خاطئة عنه. لقد أكمل اللّقاء مع هذين الشّخصين الدّخول إلى مجتمع دمشق، فقد قدّم لي كلّ منهما دعوة حارّة لزيارتهما في منزليهما في التّكيّة أو في أيّ مكان أرغب، وقد قبلت الدّعوتين لكنّي ذهبت أوّلاً إلى الأمير عبد الله.



بوّابة التّكيّة

أو على الأصحّ، فقد ذهبت أوّلاً إلى بيت أخيه الأكبر، الأمير علي باشا، بسبب أنّ الأمير عبد القادر كان يقيم في ذاك المنزل، وآوى هناك خلال الأيّام السّوداء من المذابح التي جرت في عام 1860 ألفاً من المسيحيين. وقد حيكت حول اسمه معانٍ عاطفيّة من الشّجاعة والوطنيّة، وتوّجت بحكمة واحترام وعُمر حافل بالنّفوذ والقوّة المستندة إلى الثّروة، حيث تمتلك أسرة عبد القادر كلّ الحي الذي تقطن فيه. والبيت مثله مثل أيّ بيت من بيوت دمشق الكبيرة، لا يُرى منه أيّ شيء من الخارج.

دخلنا عبر باب صغير في شارع ضيّق متعرّج عبر ممرّ مظلم، ينعطف عند زاويتين ووجدنا أنفسنا في فناء من الرّخام فيه بحرة في المنتصف وأشجار برتقال مزروعة حولها. كانت جميع الغرف الكبيرة مفتوحة على هذا الفناء، وكانت الأبواب تبدو واسعة بالنّسبة

لـي. قدّمَت القهوة والحلوى بالقرب من غرفة الاسـتقبال، في حين أعجبت بزينة الجدران والميـاه التي تتدفّق عالياً في الأحـواض الرّخاميّة وتجري بعيداً في قنوات رخاميّة. في هذا المنزل وفي معظم البيوت الدّمشـقيّة توجد عنـد كلّ عتبة نافذة بركة ماء مقرقرة، وعليه فإنّ الهواء الذي يهب إلى الغرفة سيحمل معه رطوبة منعشة.

كان الأمير علي خارج المنزل ولكن كان وكيله المعتمد major domo، الذي يبدو كصاحب تشريفات القصر ويتمتّع بالسّلوك العائلي الجدير بالاحترام والتّابع الشّرقي، يعـرف تماماً كيـف يتولّى القيام بمهمّة عرض كنوز سـيّده، السّـيف المحلّى بالجواهر المقدّم للأمير العجوز (عبد القادر) من قِبل نابوليون الثّالث، بنادق عبد القادر، وزوج من السّـيوف الثّقيلة المرصّعة بالفضّة، أرسِـلت في السّـنة الماضية كهديّة من قِبل عبد العزيـز[1] بن الرَّشـيد ـ وعلمت بـأنّ هناك صداقة تقليديّة بين العائلة الجزائريّة وأسـياد حائل. أرانا أيضاً صوراً لعبد القادر؛ الأمير وهو يقود فرسانه، والأمير في قصر ڤرساي وهـو يهبـط درجات القصر مع نابوليون، يشـقّ طريقـه وكأنّه الرّجل الـذي ربح وليس الرّجل الذي خسـر، الأمير الرّجل المسـنّ في دمشق، ودوماً بالثّياب الجزائريّة البيضاء التي لا يتخلّى عنها أبداً، ودوماً بالمظهر الرّائع الوقور ذاته.

عبرت أخيراً فوق جسر صغير يقطع جدولاً صغيراً خلف الفناء الرّئيسي، إلى حديقة مليئة بالبنفسج، عبرنا من خلالها إلى إصطبلات مهوّاة ومضاءة وجافّة مثلها مثل أفضل الإصطبـلات الأوروبيـة التي يمكن أن توجد. وفي الكشـك كان هناك فرَسـان عربيّان جميلان من مزارع خيول الرّوَلَة Ruwalla المشـهورة وبغل أصيل يتمتّع تقريباً بالقيمة والأصالة ذاتها. وكان هناك رجل حزين المظهر رافقنا طوال جولتنا على الرّغم من أنّه لـم يبدُ عليه أنّه ينتمي إلى المجموعة؛ كان وجهه كئيباً جدّاً بحيث لفت انتباهي وسألت سـليم بك من يكون. أجاب بأنّه مسـيحي من عائلة غنيّة، اُضطُهد كي يغيّر دينه، فطلب ملجأً عند الأمير علي. لم أسـمع أكثر عن قصّته، لكنّه ثبّت الصّورة التي في الذهن عن

(1) ذكرناه أعلاه، الأمير عبد العزيز بن متعب الرَّشيد، سادس حكام جبل شمَّر في حائل من بعد عمّه محمّد بن عبد الله الرَّشيد. حكم بين 1897-1906.

منزل عبد القادر كملجأ: باعتباره منزل نبلاء، محروساً بخدم جيّدي التّدريب ويوفّر أسباب الرّاحة في الحياة ويقدّم الحماية للمحتاجين.

ذهبت صباح اليوم التّالي لزيارة الأمير عبد الله الذي يسكن في منزل مجاور لمنزل أخيه. وجدت هناك ابن أخ عبد الله، الأمير طاهر، وهو ابن أخ آخر له، ولقد قوبل قدومي بترحيب وارتياح حيث صادف وجود ضيف مميّز كنت أرغب برؤيته من دون شك. لقد كان الشّيخ عبد القادر الجزائري بكلّ تأكيد، وهو رجل معروف جدّاً بعلمه وشدّته وسياساته الثّوريّة. دخل بسرعة إلى الغرفة العلويّة المفروشة بالأرائك والبسط التي كنّا جالسين فيها، دخل مثل زوبعة واستقرّ قربي وتكلّم بصوت عالٍ حيث قرع في أذني وآذان الجالسين بالجوار عن ألمه في أنّه لم يُسمح له من قِبل الوالي بأن يتّصل بحريّة مع الأجانب الموهوبين مثل علماء الآثار الأميركيين أو حتّى معي أنا (همست بتواضع «لا سمح الله!»)، بالإضافة إلى الكثير من المظالم الأخرى.

وعندما انتهى الحديث عن هذا الموضوع بعض الشّيء قام بإرسال الأمير طاهر ليحضر بعض المطبوعات من تأليفه ثم أهداها لي. وهي تبحث في اللّغة العربيّة واللّغات الشّقيقة لها، مثل النَّبطيّة Nabatean والصّفأيّة Safaitic والفينيقيّة Phoenician، والأحرف الأبجديّة التي قام بترتيبها بعناية فائقة وشكل جيّد بوضعها في قوائم مقارنة، على الرّغم من أنّه ليس لديه فكرة عن معنى أيٍّ منها ما عدا لغته العربيّة. كان الشّيخ طاهر مثالاً نموذجياً وغريباً للباحث الشّرقي، ولكن من الأمثلة التي حصلت عليها من حديثه فأنا لست متأكّدة من المشاركات الوجدانيّة لهؤلاء الأشخاص الذين يحترمون السّلام والنظام وإن لم يكونوا مع الوالي.

وسرعان ما دخل رجل مشهور آخر هو مصطفى باشا البرازي، وهو فرد من إحدى العائلات الأربع التي تتولّى زعامة حماة، وانشغل الحضور كلّه بالحديث عن أمورهم الخاصّة، مثل السّياسات السّوريّة وغيرها من الأمور، بينما كنت أستمع إلى الحديث وأنظر عبر النافذة إلى حديقة الأمير والجدول في نهايتها، وأعجب لحسن حظّي في أنّي أقضي هذا الصّباح الدمشقي. أخيراً أخذني الأمير عبد الله وابن أخيه جانباً وناقشا

معـي طويـلاً علـى نحو جدّي موضوعـاً كبيراً كنت قـد طرحتُه معهم ولن أكشـف عنه هنا. وعندما انتهت الزيارة ذهبت أنا وسليم ومصطفى وتناولنا الغداء في مطعم محلّي ممتـاز في السّـوق اليوناني، جالسـين جنباً إلـى جنب مع بدوي من الصّحـراء وتناولنا أفضل الأطعمة وأجود الحلويات الدّمشقيّة بالقشطة مقابل ثمانية عشر پنساً تقاسمناها بيننا نحن الثّلاثة، وتضّمنت أيضاً ثمن القهوة والبقشيش.

أمضيـتُ أيضـاً صباحاً آخر ليس أقلّ متعة من هـذا الصّباح، وذلك عندما ذهبت مع سليم المخلص لأقدّم احتراماتي لرجل مسنّ رائع، هو الخطّاط الأكثر شهرة في المدينة كلّها، كان اسـمه مصطفى السّباعي[1] el Asba'i. كان يسكن في منزل مزيّن بنمط رائع من زخرفة تعود إلى مئتي سـنة حُفرت ضمن رخام ملوّن وكُسـيت بالجصّ المذهّب، صُنعت واجهتها وفقاً لنقوش عجميّة برّاقة ثمّ طُليت بألوان غنيّة ناعمة كان الغالب فيها اللّـون الذّهبي والذّهبي البنّي. أخذنا عبر غرف الاسـتقبال إلى غرفة صغيرة في الطّابق الأعلـى حيـث اعتاد مصطفـى أن يجلس ويكتب تلـك النّصوص التي تُعـدّ صوراً عن الشّـرق المسـلم. وقد علّقت بعض اللّوحات حوله مع نماذج من لوحات فنّانين قدماء مشهورين وأخرى لفنانين محدثين، وميّزت من بينهم صديقي محمّد علي بن بهاء الله العجمي، الذي هو في رأيي أمهر خطّاط في أيّامنا، على الرّغم من أنّ الشّهرة والامتياز قد ذهبتا إلى شخص آخر عجمي أيضاً من الطّائفة الدّينيّة ذاتها واسمه «مشكين قلم»[2] Mushkin Kalam الذي أعتبره أيضاً من بين أصدقائي.

جلسنا على الوسـائد وشربنا القهوة، واستعرضنا جميع اللّوحات الرّائعة في جميع التّواريـخ والبلاد، كتِب بعضها بالذّهب وبعضها بالفضّة، وبعضها على قماش مقصَّب وبعضهـا علـى رقّ parchment (بعـض هـذه الأوراق الأخيرة كانـت نصوصاً بالخطّ

---

(1) مصطفى السّباعي قاضٍ وخطّاط دمشقي شهير برع بخط التعليق، وكان له عادة غريبة أنه يكتب بظفره أحياناً بدلاً من أقلام القصب. كان من كبار خطاطي دمشق بالإضافة إلى الخطاط التركي يوسف رسا أفندي وممدوح الشّريف. وبعد هؤلاء نبغ تلميذهم المبدع الخطاط بدوي الدّيراني، رحمهم الله جميعاً.

(2) تسمية مشكين قلم لقب للخطاط المبدع ميرزا حسين الأصفهاني الذي كان ينتمي للطائفة البهائيّة.

الكوفي سُرقت من قبّة الخزنة قبل أن تُغلق)، وعندما نهضنا كي نذهب أهداني مصطفى ثلاثة نماذج من عمله الفنّي الخاصّ فحملتها معي مبتهجة.

في فترة لاحقة عصر ذلك اليوم، ركبتُ أنا وسليم إلى وادي بردى، ودُعينا من قِبل أخ ثالث لعبد القادر هو الأمير عُمر:

"Amir Omar, prince d'Abd ul Kadir"

وفقاً لما هو مكتوب على بطاقة زيارته، المطبوعة بأحرف لاتينيّة. كان الأمير الذي يسكن الضّاحية من العائلة، وارتفع إلى مراتب اجتماعيّة عالية من نفوذ أكبر بزواجه من أخت عزّت باشا[1] الظلّ القوي خلف العرش في القسطنطينية. مع عبد الله هناك دوماً ألف خطة ومشروع تحت التّنفيذ تستوجب بقاءه في المدينة، أما عمر فيهتمّ بالصّيد والقنص ويهتمّ بحديقته ويعيش حياة بسيطة. كانت بسيطة إلى درجة أنّنا وجدناه يلبس قبّعة منزليّة Smoking cap ومبذلاً (روب دى شامبر) وخفّين من القماش مخصّصين للسّجاد ويتمشّى في ممرات الحديقة. أخذنا إلى منزله الذي كان، مثله مثل باقي المنازل التّابعة لعائلته، مليئاً بالأزهار، وصعد بنا إلى مقصورة على السّطح حيث تبعنا كلب صيده بجوّ ودّي من الصّداقة والرّفقة. هناك، ووسط أواني المكاحل الياقوتيّة وأزهار الخزامى، راقبنا الشّمس وهي تغرب فوق الهضاب الثّلجيّة وتكلّمنا عن صيد الصّحراء والرّياضة.

(1) المقصود به أحمد عزّت باشا العابد (1855-1924)، ينتمي إلى أسرة العابد الدّمشقيّة المعروفة التي تعود أصولها إلى قبيلة الموالي، درس بدمشق وأصدر جريدة سمّاها (دمشق)، وتدرّج في مناصب الدّولة العثمانية حتى بلغ صيته السّلطان عبد الحميد خان الثاني فعيّنه كاتباً خاصاً له، ثم أضحى صديقه وأمين سرّه الخاص والأثير. لازم السلطان مدة قاربت ثلاثة عشر عاما قام فيها بأعمال عدة، أبرزها إشرافه على إنشاء خط سكة حديد الحجاز (الذي كان يرى البعض أنها فكرته) وتنفيذ خط التلغراف بين إزمير وبنغازي، وبين دمشق والمدينة المنورة.



مشكين قلم

لا شيء يجعلني وسط هذه الصّحبة العالية كلها أنسى أصدقائي الأكثر تواضعاً: الأفغاني بخصلات شعره السّوداء المتدلّية على وجنتيه والذي كان يحيّيني كلّما التقينا (لأمير أفغانستان ممثّل في دمشق من أجل رعاية الأمور المتعلّقة بالحج)؛ وبائع الحلوى عند باب الجامع الكبير، الذي ساعدني مرّة أو مرّتين على المرور عبر متاهات الأسواق وكان يناديني كلّما مررت به قائلاً: «ألا تحتاجين سعادتك دليلاً سياحيّاً اليوم؟»؛ أو دراويش تكيّة الشّيخ حَسَن الذين دعوني لحضور صلاة الجمعة. وليس أقلّ من ذاك العجمي ذي اللّحية الحمراء الذي لديه دكّان شاي في سوق الحبوب والذي هو عضو في الطّائفة البهائيّة التي لي فيها عدّة أصدقاء. وبينما جلست أشرب أكواباً من شاي فارسي لذيذ على مائدته، قدّمتُ له التّحيّة بلغته وهمست: «لقد استُقبِلت بحفاوة كبيرة من قِبل العائلة المقدّسة في عكا». فأومأ برأسه وابتسم وأجاب: «جنابك معروفة عندنا»، وعندما نهضت لأذهب وسألته عن ثمن شايه ردّ قائلاً: «بالنّسبة لك ليس هناك ما يستحقّ الدّفع أبداً». أقسم بأنّه لا يوجد شيء يدفئ القلب مثل أن تجد نفسك مقبولاً

داخل حلقة سرّيّة من الإحسان الشّرقي - وأشياء قليلة مثل هذه نادرة جدّاً.

* * *

انسللتُ حوالي فترة بعد ظهر يوم مشرق من عدّة أشخاص كانوا دوماً بانتظاري ليأخذوني إلى هذا المكان أو ذاك واتّخذت طريقي وحدي بين الأسواق، التي تُعدّ أكثر المناطق سحراً للتّسكّع على وجه الأرض، إلى أن وصلتُ إلى أبواب الجامع الكبير. كان ذاك وقت صلاة العصر. تركتُ حذائي مع زنجي مقعد عند المدخل وتجوّلت في الرّواق المعمّد المسقوف الواسع الذي يمتدّ على طول الجانب الغربي كلّه من الجامع. كان الحريق[1] الذي حصل قبل عشر سنوات وأعمال التّرميم التي تبعته سبباً في سلب الكثير من جماله، ولكنه لا يزال مركز اهتمام عالم الآثار، الذي يحتار بآثار الكنيسة والمعبد وغيرها من الآثار التي لا يعلمها إلاّ الله والتي يمكن أن تكون مدفونة تحت جدرانه وبوّاباته.

كانت السّاحة نصف مغطّاة بظلّ العصر ونصفها تضربه الشّمس، وفي الضّوء الذّهبي كانت مجموعات من صبية صغار يحملون بأيديهم قضباناً من الصّفصاف الأخضر يركضون جيئة وذهاباً في لعب من دون ضجيج، بينما كان الأتقياء يصلّون تحيّة المسجد قبل أن يدخلوا المسجد. تبعتهم إلى الدّاخل وراقبتهم وهم يصطفّون في صفوف طويلة تحت سقف الحرم والجناح من الشّرق إلى الغرب. وقف جميع أصناف الرّجال وطبقاتهم جنباً إلى جنب من الطّبيب المتعلّم الذي يرتدي معطفاً من الفرو ورداءً من الحرير إلى الجمّال الأشعث رثّ الملابس من الصّحراء، لأنّ الإسلام هو الدّين الأكثر جماهيريّة في العالم والذي لا يعرف التّمييز بالنّسبة للمنصب أو المال. وعندما بلغ عدد المصلّين ثلاثمئة أو أربعمئة بدأ ترتيل الإمام. صاح[2]: «الله أكبر!» ونزل جماعة المصلّين بحركة واحدة على وجوههم، وبقوا

(1) أصاب الأموي في شهر أكتوبر من عام 1893 حريق هائل مدمّر أتى على غالبيّة أركانه وأحاله ركاماً، ودمّر آثاره وفسيفساءه القديم، حتى غدا لا أكثر من مجموعة جدران قائمة. وتداعى أهل الشام لإعادة عمارته، وتمت أكثر أعمال التّرميم على نفقة السّلطان عبد الحميد خان الثاني.

(2) كتبت المؤلفة العبارة: «الله!» فقط، ومردّ ذلك أنّ الإمام (ومن خلفه المردّد) يلفظ اسم الجلالة بصوت قوي وممدود ليسمعه كل من في الجامع، ثم يتابع عبارة «أكبر» بصوت أخفض، فلم تسمعها الستّ خاتون كما يبدو.

كذلك لمدّة دقيقة كاملة بخشوع صامت إلى أن صاح الإمام مرّة أخرى. «الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيم* مَالِكِ يَوْمِ الدِّين* إِيَّاكَ نعْبُدُ وإِيَّاكَ نسْتعِينُ* اهدِنا الصِّرَاط المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الّذِين أَنعَمتَ عَليهِمْ غيرِ المَغضُوبِ عَليهِمْ وَلاَ الضَّالِّين: الله أكبر!».
وكما تردّد صدى اسم الله عبر الأروقة المعمّدة منذ ما يقارب ألفي عام، فقد خرّ المصلّون الذين كانوا خاشعين صامتين سجّداً مرّة أخرى، وللحظات كان الحرم ساكناً تماماً.



باعة الحلوى السّكريّة

ذهبت تلك اللّيلة إلى حفلة مسائيّة بدعوة من شكيب أرسلان، وهو درزي من عائلة معروفة جدّاً في لبنان إضافة إلى أنّه شاعر ـ ألم أُهدَ نسخة من آخر قصيدة له؟ كانت الحفلة في الميدان، في بيت بعض تجّار الحبوب الذين هم وكلاء لدروز حوران في قضيّة بيع الحبوب ويعرفون الأوضاع السّياسيّة في الجبل بشكل جيّد. كان عدد الحضور يتراوح بين اثني عشر أو أربعة عشر رجلاً، أنا وشكيب وتجّار الحبوب (الذين يرتدون ثياباً تدلّ على الثّراء، عبارة عن ملابس حريريّة زرقاء وعمائم صفراء مطرّزة)، وآخرون قليلون لا أعرفهم. كانت الغرفة لحسن الحظ فارغة إلاّ من بُسط وديوان وموقد من النّحاس، وكانت

هذه ملاحظة جديرة بالاهتمام لأنّه حتّى بيوت عبد القادر كان فيها مزهريّات زجاجيّة زرقاء وحمراء اللّون وحُصر مزركشة ذات أهداب تبرز مثل نتوءات عرضيّة بشعة في الكوّات الرّخاميّة وعلى رفوف الخزائن المجصّصة والمذهّبة.

كان شكيب رجلاً مثقّفاً وذا خبرة في الحياة؛ وسافر إلى أن وصل لندن. تحدّث بالفرنسيّة إلى أن أوقفه أحد مضيفينا قائلاً: «يا شكيب! أنت تعرف العربيّة، وكذلك السّيّدة. إذاً تحدّث بها كي حتّى نفهم عليك».

كانت وجهات نظره حول السّياسات التّركيّة جديرة بالاستماع.

قال: «يا أصدقائي! إنّ المساوئ التي نعاني منها تعود للأمم الأجنبيّة التي ترفض السماح للإمبراطوريّة التّركيّة بالتّحرّك في أيّ اتّجاه. وعندما تقاتل فإنّهم يأخذون ثمار نصرها منها، كما فعلوا بعد الحرب مع اليونان. ما الفائدة التي نحصل عليها من قهرنا للثّوّار الألبان؟ والبلغار وحدهم سوف يكسبون المزايا وأتباع نبيّنا (قالها حرفيّاً، على الرّغم من أنّه كان درزيّاً) لن يستطيعوا أن يعيشوا تحت قبضة البلغار كما لم يستطيعوا أن يعيشوا تحت سلطان اليونان في كريت. انظروا إلى المسلمين في كريت يقطنون الآن في الصّالحيّة[1] كما تعلمون جيّداً، وتعاني كريت من هجرتهم».

كان هناك الكثير من الحقيقة في هذا الكلام، بحيث رغبت وأنا أستمع لو أنّ أعداء تركيّا تمكّنوا من سماعه وتفكّروا مليّاً بوجهة نظر رجل عاقل وحسن الاطّلاع على أوضاع الإمبراطوريّة العثمانيّة.

كان يومي الأخير في دمشق يوم الجمعة. ودمشق في يوم جمعة لطيف عبارة عن منظر يستحقّ السّفر من بلاد بعيدة لرؤيته. فجميع السّكّان الذّكور يرتدون أفضل ما لديهم ويمشون في الشّوارع متباهين، بائعو الحلوى ودلّالو الثّياب المستعملة ينادون على

(1) هذا كلام صحيح، فحيّ المهاجرين بغربي الصّالحيّة من سفح جبل قاسيون بُدئ بإنشائه عام 1900 ليؤوي المسلمين المهاجرين من جزيرة كريت عقب استرداد اليونان لها من السّلطنة، وبهم ما برح يعرف إلى اليوم (المهاجرين). ومن أحيائه (المصطبة) التي شُيّدت في عام 1896 لاستقبال إمبراطور ألمانيا ڤلهِلم الثاني إبّان زيارته لدمشق.

بضائعهـم، وتتصاعد مـن قدور دكاكيـن الطّعام أبخـرة أروع الأطعمة المغريـة، وتتراقص الخيول الرّائعة ذوات السّروج المزركشة على طول الطّريق عند نهر أبانا[1] Abana.



صحن الجامع الكبير

وفـي وقـت مبكّر في فتـرة بعد الظّهر جاءنـي زوّار متميّـزون. كان الأوّل الذي جاء لزيارتـي هو محمّد باشـا شـيخ جيـرود، وهي واحة فـي منتصف الطّريـق الذّاهب إلى تَدمُـر. وهـذا الجيرودي هـو ثاني أعظم قاطـع طرق[2] فـي المنطقة كلّهـا، بينما قاطع الطّريـق الأول (ولا أحـد ينازعـه على اللقب) هو فيّـاض آغا من بلـدة القريتين، وهي واحة أخرى على طريق تَدمُر. وأنا أتخيّل بأنّ فيّاض رجل قاسٍ ومكّار، على الرّغم من

(1) المقصود به نهر بَرَدى طبعاً، لكن المؤلفة تستعمل العبارة الواردة في سفر الملوك الثاني حول «نهري دمشق أبانا وفَرفَر»، أي بَرَدى والأعوج. وتسمية أبانا لا شك لديّ في أنها من اليونانيّة Βαννας (بانّاس) التي تعني نهر الحمّام، وذلك لأن أحد فروع بَرَدى (وهو بانياس الذي حافظ على التسمية) يدخل إلى المدينة متوجهاً إلى حمّامات معبد زيوس الوثني القديم (هَدَد سابقاً، ثم جوبيتر لاحقاً) الواقعة في جهته الجنوبية، وصار موضعها في عهد الحكم الرّوماني معبداً لحوريّات الماء. ولذلك أظن أن تسمية بانّاس غلبت على الاسم الكنعاني القديم: بَرَدى (وهو ليس آرامياً كما يُظن).

(2) تستخدم المؤلفة عبارة «قاطع طريق» دون أن تعي الفارق بين عُرف الغزو في البوادي العربيّة، ولهذا الغزو أصول وأخلاق ومعايير أدبيّة لا يمكن لأيّ شيخ السّماح بالإخلال بها. أما قطع الطرق فيقوم به الصّعاليك لا الفرسان. وليس من عادة القبائل القويّة غير غزو أندادها من القبائل، ولا تتعرّض البتّة للضعفاء وعابري السّبيل.

أنّه كان مهذّباً بما يكفي معي عندما مررت بطريقه.

وأمّـا مكر الجيرودي فهو من صنف مختلف.. إنه رجل ضخم قويّ أحول العينين، وكان فارساً استثنائيّاً وفقيراً في زمانه، وذلك لأنّ ما يجري في عروقه دماء عربيّة، وكان جدّه من شـيوخ عُنِزَة، لكنّه طعن في السّـنّ ويعاني من النّقرس وثقل الجسـم وأصبح يرغب في السّلام، وهي رغبة يصعب تحقيقها، فانحداره من أسلاف محاربين، وموقع جيرود على أطراف البادية، أمران يجعلان منها الملجأ الطّبيعي لروح الصّحراء العصيّة علـى التّرويـض. وهـو مضطر لأن يكـون على علاقـة جيّدة مـع عشـيرته العربيّة ومع الحكومة، حيث أنّ كلاًّ منهما يحاول الاسـتفادة من نفوذه مع الآخر، وهو يسـعى بكل جهده للاستفادة من الطّرفين كليهما، وهو ينظر بعينه الحولاء باتّجاه متطلّبات القانون وعينه السّليمة مثبّتة على مصلحته الخاصّة، إذا كنت قد فهمته جيّداً.



أرض البيادر في القريتين

ولطالما طلب القناصل الغاضبون عدّة مرّات من الوالي أن ينصفهم منه؛ لكنّ الوالي وعلـى الرّغم من أنّه يشـير عدّة مرّات إلـى عدم موافقته على بعـض أعمال الجيرودي المخالفـة للقانـون بشـكل واضح وقضاء فترة في السّـجن، لم يتّخذ أبـداً هذه الخطوة النّهائيّـة قائـلاً بأنّ الحكومة قد وجدت من قبل أنّ الجيرودي رجل مفيد، ولا شـكّ أنّ الوالي هو أفضل حَكم. وبالنّسـبة له فإنّه يأسـف جدّاً على محمّد باشـا لأنّه ليس لديه

أبنـاء كي يرثوا ثروته الكبيرة جدّاً، ولقـد أحاطت الجنادب ممثّلة بقبيلة من أبناء إخوته وأخواته المترقّبين، ليشكّلوا عبئاً فوق عبء سني عمره. وقد تزوّج حديثاً ابنة من عائلة الفيّاض[1] وهي فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، لكنّها لم تنجب له أولاداً.

وثمّة قصّة مشهورة عنه شائعة في دمشق، وهي قصة لا يتحدّث بها الرّجال بحضوره. يقال إنّه عند نشوب حرب الدّروز الأخيرة أراد الجيرودي أن يعبّر عن إخلاصه للسّلطة، وحيث أنّه يعرف الجبل جيّداً فقد أُرسل مع ثلاثين أو أربعين رجلاً ليستكشف الأمور ويقـدّم تقريراً عما رآه، وسـار الجيش خلفه. واتّفق أنّـه عندما مرّ عبر قرية صغيرة قرب عرمـان Ormam وجـد أحد معارفـه القدامى وهو شـيخ القرية فرآه ودعـاه إلى طعام. وعندما كان جالسـاً في المضافة ينتظر غداءه سـمع الدّروز يتناقشـون في الخارج فيما إذا كان مـن الأفضـل اغتنام هذه الفرصة لقتله باعتباره ضابطاً في الجيش التّركي؛ ولقد رغـب جدّيّاً بالفـرار من ذاك المكان، لكنّه لم يتمكّن من ذلـك، حيث أنّ قواعد اللّياقة الاجتماعيّة تلزمه بأن يبقى ويأكل طعام الغداء الذي كان يُعدُّ له.

لذا، عندما حضر الطّعام تناوله بسـرعة لأنّ المناقشـة في الخارج كانت قد وصلت إلى مرحلة سبّبت له قلقاً شديداً جدّاً، وفور انتهائه من طعامه امتطى حصانه وسار بعيداً قبل أن يصل الدّروز إلى قرار. وما إن ذهب حتّى وجد نفسه فجأة بين نارين؛ إذ كان الجيش التّركي قـد وصل وبدأت المعركـة الأولى في الحرب. فخاف هو ورجاله كثيراً وارتبكوا والتجؤوا إلى بعض الصّخور بقدر ما استطاعوا وانسحبوا واحداً تلو الآخر إلى مكان بعيد إلى مؤخّرة الجيوش التّركيّة. ولقد نظم الدّروز في هذه الحادثة أرجوزة مطلعها كما يلي[2]:

---

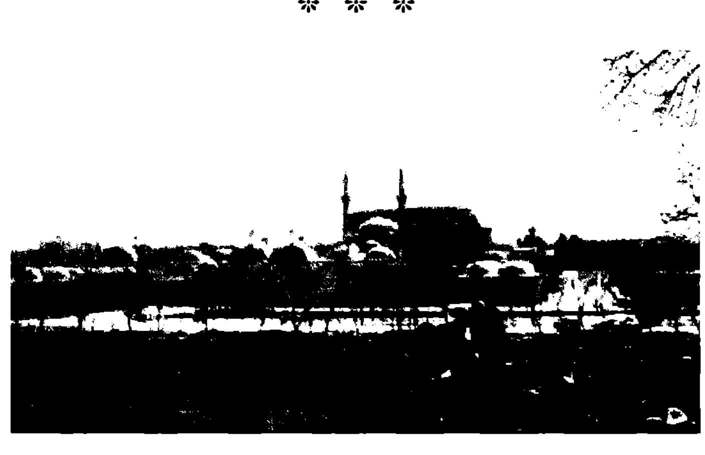
(1) ما برح آل الفيّاض أغوات بلدة القريتين على سيف البادية وأعيانها (وأصولهم تعود إلى الجوف)، ولي منهم أصدقاء كُثر، وما زالت قرابتهم ومصاهراتهم مع آل الجيرودي قائمة إلى اليوم. وكم أمضينا معاً في براري القريتين قبل عشرين عاماً من سنين جميلة في قنص الطير الحرّ والشواهين، بين الجَباة والقمقوم والحير والغُنُثر، فعشنا بها ما عاشه أبناء الشام في صدر الإسلام من شوق إلى التعريب في البادية ونفور في أيام الخريف إليها. فسُقياً لتلك الأيام وواشوقاه إليها ما أنضرها وما أحلاها.

(2) تورد المؤلفة مطلع الأرجوزة بالإنكليزية: Jerudi's golden mares are famed، لكنني ميّزتها على الفور لشهرتها، وكم سمعتها من مرّات عديدة على ألسنة رواة التراث الشعبي لدى بني معروف

صَـفـرَة جـيـرودي غَـرَّبَـتْ　　قَـوطَـر يـحـثّ ركـابـهـا
يـا مـحـمّـد خَـبِّـر دولـتَـك　　حِـنّـا ولـيـنـا طـوابـهـا

ولكن هذا المقطع لا يُنشد أمامه غالباً.

❋ ❋ ❋



تكيّة النّقشبنديّة

كان زائري الثّاني هو الشّيخ حَسَن النَّقشبندي، وهو رجل دمث بوجه كهنوتي ماكر، وقد وضع خطّة للاستفادة حتّى من الدّقائق العشرة التي قضاها في بهو النُّزُل، حيث انتبه لخاتم مبهرج في إصبع سليم بك وطلب منه أن يراه فأعجب به جدّاً لدرجة أنّه وضعه في جيبه قائلاً بأنّه لا بدّ أن يكون سليم ذاك يرغب بإعطائه هديّة إلى زوجته (الخانم) وهي أصغر زوجاته، والتي كان قد تزوّجها قبل سنة أو سنتين. أجاب سليم أنّ علينا في تلك الحالة أن نذهب حالاً إلى منزله في الصّالحيّة حيث يجب أن تقدّم الهديّة، كانت عربتا الشّيخ حَسَن

في السّويداء وصَلخَد وجرمانا. وتُعرف هذه الحادثة بوقعة خراب عرمان، جرت في عام 1896 واشتهرت بها فتاتان درزيّتان أجّجتا حماسة فرسان قومهما وهما سَعدى ملاعب ودلّة حمزة، ونال رجال صلخد عقب الوقعة لقب «الزّغابة» لبسالتهم. وبالنسبة لعبارة «صَفرة جيرودي» فتعني: فرسه البيضاء (وليس الشقراء كما فهمت بل، وتقول البدو: الصُّفر مركوب الأمارة) أما عجز البيت الثاني «حنّا ولينا طوابها» فمعناه: نحن غنمنا مدافعها، فالطوپ في التّركية Top المدفع.

ومحمّد باشا من الطّراز الڤيكتوري عند الباب، فركبنا نحن الأربعة في العربتين وذهبنا إلى الصّالحيّة عبر الطّرقات المبتهجة بيوم العطلة المشرق. وأعلن سليم عند باب المنزل بأن عليَّ أوّلاً أن آخذ إذن الوالي الذي يسكن في الجوار، وأن أستعير عربة الجيرودي حيث أنّنا من الممكن أن نذهب بأبّهة. ثم قال سليم لمحمّد باشا:

«ألن تأتي معنا؟»، لكن الجواب جاء بأسلوب ساخر، حيث أنّه كان يعلم جيّداً بأنّ الجيرودي في مرحلة إبعاد وأنّه قد خرج من السّجن منذ فترة قريبة بعد أن أمضى عقوبة يستحقّها.

هزّ الجيرودي رأسه واقترب منّا ونحن جلوس في عربته وهمس:

«قولوا شيئاً ما لصالحي عند الپاشا».

ضحكنا ووعدناه أن نتكلّم معه بشأنه، على الرّغم من أنّ سليماً أفضى إليَّ ونحن نبتعد بأنّه عندما كان مُبعَداً (وكان الموضوع بمجمله نتيجة كيد أعدائه) لم يتقدّم رجل لتقديم مساعدة له، بينما وهو في وضع جيّد الآن فالجميع يتوسّلون وساطته؛ ولفّ نفسه بسترته السّوداء وتصدّر إلى الوراء مستنداً إلى وسادة عربة الجيرودي في وضع من هو فخور بنفسه والمدرك بأنّه يستطيع أن ينجز ما يُطلب منه إلى أبعد مدى.

كان ناظم پاشا واقفاً عند درج باب منزله يودّع القائد العام للجيش، وعندما رآنا ننزل الدرجات دعانا للدّخول بأقصى درجات الودّ. كانت الزّيارة الثّانية لبيته (وقد رآني فيما بين الزّيارتين) أقلّ رسمية من الأولى. تحدّثنا عن الحرب اليابانيّة، وهو موضوع لا ينفكّ محاوري عن التّحدّث فيه كثيراً أو قليلاً، وتجرّأت بسؤاله عن رأيه.

قال: «رسميّاً، أنا محايد».

«ولكن بيننا كأصدقاء؟».

أجاب: «بالطّبع أنا مع اليابان»، ثمّ أضاف: «أأنتم الطّرف الذي ربح من انتصارهم؟».

أجبت: «ولكن ألم تربح أنت أيضاً؟».

أجاب بحزن: «إنّنا لم نربح بعد، ولا شيئاً في مقدونيا».

وسألني بعدها كم استمتعت في زيارتي إلى دمشق، فأجاب سليم بسرعة: «لقد أصيبت اليوم بخيبة أمل كبيرة».

بدا الوالي مهتمّاً.

تابع سليم: «نعم، فقد تأمّلت أن ترى زعيم قطّاع الطّرق، ولكنّها وجدت فقط رجلاً راغباً في السّلام من سيادتكم».

قال ناظم: «من هو؟».

أجاب سليم: «محمّد باشا الجيرودي»، ولقد نُطقت الكلمة الطّيّبة بمهارة فائقة.



خارج أبواب دمشق

عندما عدنا إلى منزل الشيخ حَسَن ربطنا هذه المحادثة مع سببها وانزوى الجيرودي بنفسه تعبيراً عن الاستياء، لكنّه اعتبر نفسه قانعاً بما حصل. أخذني الشّيخ حَسَن من ثمّ لرؤية زوجته - زوجته الخامسة، لأنّه كان قد طلّق إحدى زوجاته الشّرعيّات كي يتزوّجها. كان يتمتّع بتعقّل حيث وضع كلّ واحدة منهنّ في بيت منفصل، ولم أسأل فيما إذا كان قد استطاع تأمين السّلام في بيوته. كانت هناك ثلاث نساء في الغرفة الدّاخليّة، الزّوجة وامرأة أخرى ومن الواضح أنّها لم تكن من أهل البيت، ذلك لأنّها غطّت وجهها بملاءة الفراش عندما دخل الشّيخ حَسَن، والثّالثة امرأة مسيحيّة تقوم بخدمة الضّيوف الرّجال، (وقد كان هناك آخرون بالإضافة إلى الجيرودي وسليم) وتقوم بالمهمّات في الأسواق، حيث أنّها

تستطيع الذّهاب بحرّيّة أكثر من أختها المسلمة.

كانت النّساء في الحريم غير مرتّبات على نحو فظيع، إلا إذا كانت جماعة النّساء تتوقّع زيارتك فإنّهنّ يتهيّأن لها، وليس هناك شيء مهمل أكثر بؤساً من منظرهنّ. ولعلّ الفوضى في غرفهنّ اللاتي يعشن فيها يعود إلى حدّ ما ربّما إلى أنّه لا يوجد في الحقيقة خزائن ولا دروج في الغرف، ويتمّ الاحتفاظ بجميع المقتنيات في صناديق كبيرة باللّونين الأخضر والذّهبي، والتي يجب أن يحني الإنسان جسده كلّه عندما يحتاج إلى أخذ أيّ حاجة منهما، وليكن منديلاً على سبيل المثال ثمّ يبقى بعد ذلك غير مرتّب في كثير من الأحيان. كانت زوجة الشّيخ امرأة شابّة وجميلة، على أنّ شعرها تدلّى في خصلات حول وجهها ورقبتها، ويا للحسرة فقد ارتدت عباءة منزليّة وسخة على جسدها الذي أصبح حُطاماً.

لكن المنظر من شرفة النّقشبندي لا يُنسى، فهي تطلّ على مدينة دمشق العظيمة والرّائعة، بحدائقها وقبابها ومآذنها، تمتدّ منتشرة في الأسفل، ومن خلفها تقع الصّحراء التي تمتدّ تقريباً حتّى بواباتها. وهنا لبّ المسألة كلّها.

هذا ما أعرفه عن دمشق؛ وأمّا فيما يتعلّق بكنائسها وقلاعها، فبإمكان الطبقة العليا أن تشاهد تلك الأشياء بنفسها.



السّقّا

الفصل الثّامن

كان الوالـي قد سـألني باهتمام عن وجهتي عندما سـأغادر دمشـق، وعندما أخبرته بـأن بعلبك هـي وجهتي أجاب بأنّ عليه بكلّ تأكيد إرسـال مجموعة صغيرة من رجال مسلّحين لحماية رحّالة مشهورة. لذلك أجبت بسـرعة كي أتجنّب مزيداً من النّقاش، بـأن علـيَّ الذّهـاب بالقطار. لكـن، وبما أنّه لم يكن لـديّ في الحقيقة رغبـة في اختيار وسـائط النّقـل الحديثة تلـك، فقد كان عليّ أن أسـافر باكراً إذا كنت سأسـافر وحدي. غادرنا المدينة في صباح يوم مشـمس ومشـرق؛ كانت الطّرقات ممتلئة بعابري السّبيل الفرحيـن، وقـد قاومت خيولنا السير بعد راحة أسـبوع. مررنا قرب منـزل الأمير عُمر في وادي بردى، ورأينا الرّجل النّبيل يسـتمتع بشمس الصّباح فوق سطح منزله. ناداني يدعوني للدّخول، لكنّي أجبت بأنّ لديّ عملاً عاجلاً، ويجب أن أذهب.

أجاب: «بالسّلامة، أرجو من الله أن نقود خيلنا معاً ذات يوم».

بعـد ميـل أو ميليـن أتينا إلى مفتـرق طرق وغيّرت مسـاري وانطلقت باتّجـاه جبال لبنان الشّرقيّة وهي الأفضل لتجنّب لفت أنظار جميع الشّخصيّات الرّسميّة التي شرّفتني بدعوتها. صعدنا فوق وادي بردى الجميل المليء بأشجار المشمش (التي لم تزهر بعد)، وعبرنا النّهر فوق سـوق وادي بردى، ثمّ مضيقاً رائعاً ومن ثمّ تابعنا رحلتنا فوق سـهل بين جبال مكسـوّة بالثّلج إلى الزّبداني، وهي قرية مشـهورة بتفّاحها. نصبنا مخيّماً منعزلاً في مرج أخضر قرب نبـع، وكانـت جوانـب حرمون الثّلجيّة تسـدّ المشـهد نحو الجنـوب والقـرى المبعثرة على منحدرات التّلّة إلى الشّمال، ولـم يعِر أحد في الزبداني اهتماماً لهاتين الخيمتين الصّغيرتين.

عبرنا في اليوم التّالي جبال لبنان الشّرقيّة وسط رياح مُعولة؛ ومع ذلك فقد كانت رحلة ممتعة وجميلة، لكنّها رحلة طويلة استغرقت ثماني ساعات وربع. كان هناك نقوش لاتينيّة حُفرت على مسافات متقطّعة في الصّخور على طول الوادي الذي ينحدر حتّى يحفوفة Yahfufa في يَنطا Janta - أعتقد أنّنا كنّا على الطّريق الرّوماني من دمشق إلى بعلبك. سرنا الأميال الأخيرة الجرداء الطّويلة تحت مطر غزير رافقنا حتّى وصلنا بعلبك مبلّلين. كان الجوّ عاصفاً تقريباً بحيث لا يمكننا أن ننصب خيامنا، وكانت روحي أيضاً تشمئزّ من فكرة المبيت في فندق؛ ولحسن الحظّ فقد اقترح ميخائيل حيلة. قال إنّه يعرف امرأة مسيحيّة محترمة تعيش عند مدخل القرية ويمكن أن تؤوينا عندها دون شك. وقد حصل ما توقّعه، فلقد سُرَّت المرأة المسيحيّة برؤيتنا. كان بيتها يتألّف من غرفة نظيفة فارغة جُهِّزت بسرعة من أجل أثاث مخيمي، واستقر ميخائيل هو وأدوات طبخه في غرفة أخرى، وضربت الرّياح والأمطار بأسوأ ما عندها على مصاريع النّوافذ والأبواب، ولكن لم تسبّب لنا أيّ أذى.



سوق وادي بردى

كان اسـم مضيفتي قرنفلة Kurunfulch، وكانت زوجة ليوسف العويس الذي كان في هذا الوقت في أميركا باحثاً عن الثّروة، وهي ترغب بأن تلحق به. أمضيت ساعة أو اثنتيـن معها ومع ابنتها وابنها وبعض الأقارب الذين جاؤوا بزيارة غير متوقّعة من أجل بعض الأحاديث وسماع بعض الموسيقى جالبين أعوادهم معهم. أخبروني بأنّهم كانوا قلقين جدّاً بشـأن مسـتقبلهم. ينتمي القسـم الأكبر من سـكّان بعلبك وما حولها تقريباً إلى طائفة إسـلاميّة متعصّبة تسـمّى المتاولة Metawileh، وتتمتّع بسـمعة خاصّة جداً بالتّعصّب والجهل. وعندما سـمع هؤلاء الأشـخاص عن الانتصـارات اليابانيّة جاؤوا إلـى جيرانهم المسـيحيين وهزّوا قبضات أيديهـم في وجوههم قائلين: «المسـيحيّون منهزمون هزيمة مُرّة! انظروا الآن، فإنّنا سوف نطردكم قريباً ونستولي على أملاككم».

انضـمّ ميخائيـل إلى الحديث، وأوضح بأنّ الشّـيء نفسـه حدث فـي القدس. قال: «أنـا لا أعلم مع مَن الحقيقة»، فقد أرسـل المسـلمون هنـاك وفداً مفوّضـاً إلى المفتي قائليـن: «لقد حـان الوقت لطرد المسـيحيين». ولكنّ المفتي أجـاب: «إذا قمتم بإثارة اضطرابات فإنّ دول أوروبا سوف تتدخّل، وذلك لأنّ القدس هي بؤبؤ عينهم». (هكذا أكّد المفتي)، «وسـوف يأخذون الأرض كلّها وسـوف نكون في حالة أسـوأ من قبل». حاولـتُ طمأنة قرنفلـة بقولي إنّه مـن المسـتحيل أن يتعرّض المسـيحيّون للاضطهاد في سـوريا، فهـي البلد الذي أصبح معروفاً جـدّاً ويتردّد عليه الكثير من السّـيّاح الذين لن يقصّروا في إعلان ذلك على العالـم. والحقيقة فإنّ التّدفّق السّـنوي من السّـيّاح هو مـن أفضـل الضمانات لدوام اسـتتباب النّظام. والآن فإن قرنفلة امرأة لبنانيّة، وسـألتها لماذا لـم تعُد إلى قريتها، حيث سـتكون تحت حماية مباشـرة من قِبل القوى الأوروبية و تتجنّب الخطر. قالـت:

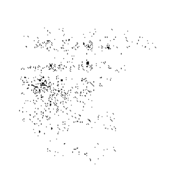
«يـا سـتّ، هذا البيت باسـم زوجي ولا أسـتطيع بيعه ما لـم يعُد، ولن أتركـه خالياً، وعـلاوة عن ذلك، فإنّ الحياة في لبنان ليسـت كالحياة في السّـهل، وكوني قد تعوّدت على أشياء أخرى فلا أستطيع تحمّل الحياة هناك. تجدين الأشخاص هناك ليس لديهم عمـل سـوى مراقبة جيرانهـم، وإذا ارتديتِ تنورة جديدة فسـوف يتهامـس أهل القرية

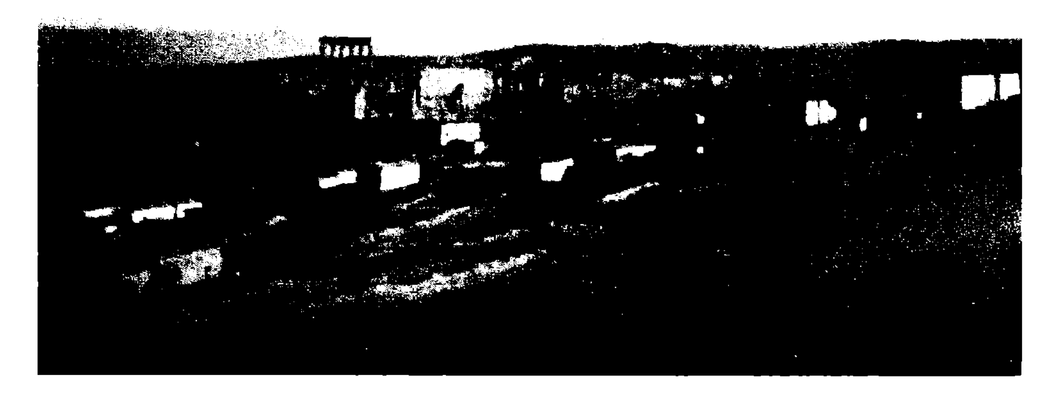
حول ذلك ويسخرون منك قائلين «ألم تروا الستّ؟» انظري سوف أريك ماذا تشبه الحياة في لبنان. في بعلبك أنا آكل اللّحم مرّة كلّ يوم، لكنّهم يأكلونه مرّة في الشّهر. وهم يأخذون بَصلة ويقطّعونها ثلاث قطع مستخدمين واحدة كلّ مساء لإعطاء نكهة للبرغل، وأنا ألقي قبضة من البصل في الطّبق كلّ مساء. الحياة صعبة في لبنان»[1].

الحياة في لبنان مليئة بالحرمان على نحو شديد بحيث أنّ كلّ من يستطيع أن يجمع المال بالتّعاون مع أهله من أجل رحيلهم يغادرون إلى الولايات المتّحدة فوراً، وثانياً فمن المستحيل أن يجمع الإنسان المال الكافي لزراعة القمح أو التّوت أو الكرمة. ولا يوجد أيّ تقدّم، باستخدام التّعبير السّوري. وإقليم لبنان عبارة عن زقاق ذي نهاية مسدودة *cul de sac*، دون ميناء على بحره ومن دون تجارة. وفي الحقيقة، فإنّك تمشين فيه خائفة من الموت، ولكن ما هي مزيّة حياة لا تقدّم أكثر من ثلث بصلة على العشاء؟ وكالعادة، فلدى الباب العالي الكثير ليقدّمه للقوى العظمى. فقد منحهم كلّ ما طلبوه، آه نعم، وبسرور، لكّن التّنازلات التي بدت أنّها تفتح الطّريق للتّقدّم قد أغلقت في الحقيقة البوّابات إلى الأبد على أولئك الذين يفترض أن يستفيدوا منها.

---

(1) هذا كلام صحيح تماماً قد يستغربه القارئ اليوم، لكن جبل لبنان في مطلع القرن العشرين كان بالفعل بلداً فقيراً لا موارد به، فلا زراعة ولا صناعة ولا تجارة، وهذا ما دفع بالآلاف من أبنائه إلى الهجرة منذ مطلع القرن إلى الأميركيتين، ثم في أواسط القرن العشرين إلى الخليج وأفريقيا ثم كندا وأوستراليا. ويروي لي بعض المعمّرين كيف أن بداية انتعاش جبل لبنان كانت في العشرينيات من القرن العشرين بفعل حركة السّياحة والاصطياف، التي بلغت أوجها حتى قيام الحرب الأهليّة اللبنانيّة (1975-1991)، ثم شهدت ركوداً إلى أن عادت في يومنا الحاضر إلى الكثير من رونقها السّابق.





بعلبك

لم ينقطع المطر في اليوم التّالي. استقبلت ضابط الشّرطة الذي وجدني بعد طول بحث ـ وقد برهن على أنه رجل نبيل ـ وقمت بزيارة عائلة كبيرة من البرتغال كانت تنزل في الفندق المزعج قرب مأواي. كان مسيو لويز[1] دي سومّار Monsieur Luiz de Sommar مع زوجته وبناته وأبناء إخوته قد جاؤوا من القدس إلى دمشق عن طريق جبل الدّروز. ولقد سمعت عن وصولهم إلى السّويداء عندما كنت في صَلخَد، وتعجّبت كيف حصلوا على الإذن. كانت القصّة غريبة وتضاف إلى رصيد مسيو دي سومّار Monsieur de Sommar، بينما تظهر مقدار رغبة الحكومة وحرصها على إبقاء الجبل بعيداً عن أعين السّيّاح الفضوليّة. كانت العائلة البرتغاليّة قد اجتمعت بالمستر مارك سايكس Mr. Mark Sykes في عمّان، ونصحهم بأن يغيّروا طريقهم بحيث يمرّون عبر بلدة قنوات في جبل الدّروز، قائلاً لهم بأنّهم سوف لن يجدوا صعوبة في الحصول على إذن للقيام بذلك.

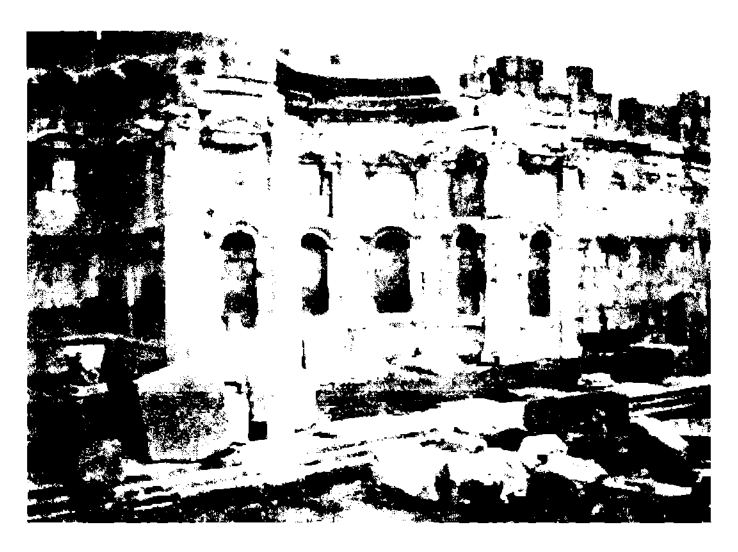
---

(1) هكذا لفظ الاسم في البرتغالية، وليس لويس كالإسپانيّة Luis.

ذهب مسيو دي سومّار ببراءة في ذاك الاتّجاه ولكن عندما وصل إلى السّويداء، التي هي المركز الرّئيسي للحكومة، أوقفه القائم مقام وصرّح له بلطف ولكن بحزم بأنّ عليه أن يعود من حيث أتى. فأجاب بالحزم ذاته بأنّه لن يفعل، وأرسل برقيّات إلى قنصله في دمشق ووزيره المفوّض في القسطنطينية. وعلى التوّ تبع ذلك تبادل مثير للرّسائل، وكانت النّتيجة السّماح له بمتابعة السّفر إلى قنوات إذا قام بأخذ مئة شرطي معه كحرس. قال القائم مقام بأنّ المنطقة خطرة جدّاً ـ تلك المنطقة، كما أعرفها جيّداً، التي تستطيع فيها امرأة السّير دون حراسة إلاّ من طفل درزي، ويمكن أن تسير لوحدها، حتّى ولو كان خُرجها مليئاً بالذّهب. ولكن مسيو دي سومّار كان رجلاً يتمتّع بمحاكمة عقليّة. أجاب بأنّه يرغب جدّاً بأن يأخذ معه مئة شرطي ولكن لن يدفع لهم قرشاً واحداً، وكان هذا الهجوم المعاكس سبباً في أن يغيّر القائم مقام نغمته وقلّل عدد الحرّاس إلى أن وصل إلى العشرين، الذين وصل السيد مسيو دي سومّار بحمايتهم إلى قنوات بأمان. هنّأتهم على عملهم الجريء، كما هنّأت نفسي بحصولي على الإذن من فَلاح العيسى وليس من والي سوريا.

* * *

على الرّغم من المطر لم يكن قضاء اليوم في بعلبك دون جدوى، فقد كان الألمان قد كشفوا منذ زيارتي السّابقة معبد الشّمس وكشفوا مذابح ضئيلة، وينابيع، وقطعاً من الزّخارف وأساسات كنائس، والتي كانت كلها موضع اهتمام عميق. وأكثر من ذلك، فقد كانت المجموعة الكبيرة من المعابد والأسوار المحيطة الواقعة بين سلسلتي جبال لبنان الغربيّة والشّرقيّة تعطي انطباعاً ليس له شبيه إلا بمجموعة معبد الأكروبوليس Acropolis الأثيني في اليونان والذي ليس له نظير من دون ريب. إنّ التّفاصيل في معبد بعلبك ليست جيّدة مثل معابد أثينا؛ فالجلال منقطع النّظير وحُصرت هذه العظمة بين إبداعات المهندسين التي لا تضاهى، فلا حتّى الموقع الرّائع على قمّة الهضبة المطلّة على البحر الأزرق وعلى خليج سالاميس Salamis يمكن أن ينافس.



البلاط الأكبر في بعلبك

لكن وبشكل عام فإنّ تأثير آثار بعلبك في النّفس يقترب منها أكثر من أيّ مجموعة أخرى من الأبنية، وهي تزوّد النّفس بمصادر لا تنتهي من التأمّل بأولئك الذين شغلوا أنفسهم بضمّ العبقريّة اليونانيّة والآسيويّة التي أنتجتها وغطّت أعمدة أبوابها وعتباتها وتيجان أعمدتها بأشكال زخرفيّة لا تنتهي في تنوّعها كما هي جميلة في تنفيذها وإنجازها. وبالنّسبة لعالم الآثار فهناك إما صافٍ لا مواد غريبة فيه أو غير صافٍ. وتهبط جميع أعمال الخيال البشري في مكانها المشار إليه في تاريخ الفن، مشيرة ومنيرة فهمه لها.

وهو سعيد على نحو مزدوج، وذلك عندما يكون الإنتاج جميلاً للعين فإنّه يعود بالثناء؛ ولكن مهما تكن النّتيجة، فمن المؤكّد أنّها ستمدّه بشيء جديد، ورابط غير متوقّع بين فنّ وآخر، وتزوّده بدرجة أعلى في سلّم التّاريخ. وهو بالتّالي جدير بأن يرضى تماماً بما يرى، وفوق كلّ ذلك، فهو لا يقول: «واحسرتاه، واحسرتاه! يا لهؤلاء السّوريين! كان ليمكن لفيدياس Phidias أن يفعل كذا وكذا؛». وذلك لأنّه سعيد بملاحظة محاولة على الطّريق من المحاولات الفنّيّة، ووجود نَفَس منعش نشيط يحرّك الأوراق الشوكية وحلي العنب المزخرفة على تيجان الأعمدة والأفاريز.

كانت مغادرتنا من بعلبك مترافقة مع حادثة مؤسفة – فقد اكتشفت أنّ كلبي كُرت Kurt قد اختفى في اللّيل. وبخلاف معظم الكلاب السّوريّة الهجينة الشّاردة، كان ذا مزاج ودود جدّاً، وكان أيضاً شرهاً ونهماً (ولا يختلف في هذه النّقطة عن فصيلته نصف الجائعة) ولذلك فقد كان الأمر المزعج بأنّه قد تمّ إغراؤه بعظمة وجُرَّ بعيداً، ثمّ حُبس حتّى نذهب في طريقنا بعيداً عن القرية. انطلق حبيب في اتّجاه واحد عبر القرية، وذهب ميخائيل في اتجّاه آخر، بينما حاول ضابط الشّرطة، الذي كان قد ظهر في المشهد المثير، أن يسكب بلسماً مسكّناً على مشاعري المجروحة. وبعد بضع دقائق ظهر حبيب من جديد ومعه Kurt الذي كان يهزّ ذنبه خلفه وهو مربوط بسلسلة. أوضح حبيب وهو يلهث، أنّه وجده في بيت الشّخص الذي فكّر بسرقته، موثقاً بتلك السّلسلة القويّة:

«وعندما سمع كُرت صوتي نبح، فدخلتُ إلى الفناء ورأيته. وطلب صاحب السّلسلة أن أعطيه إيّاها، والله! لقد رفضت أن أعطيها له وطرحته أرضاً بدلاً من ذلك وضربته بها. الله يلعنه لأنّه حرامي! وهكذا تركته».

وهكذا كنت مطمئنة إلى أن أسجّل بأنّ المتاولة Metawileh طائفة لا يؤتمن جانبها كما تقول عنهم الشّائعات، ولكنّ مكائدهم يمكن أن تصبح غير ذات شأن تلقاء المسيحيين الحذرين.



أعمدة معبد الشّمس في بعلبك

نزلنا في الوادي الواسع والموحش جداً بين سلسلتي جبال لبنان الشّرقيّة والغربيّة، وكان يمكن أن أسافر بالقطار إلى حمص وأتابع من ثمّ إلى حماة، لكنّني فضّلت أن أعبر من جانب إلى جانب من الوادي حيث ذهب بي الخيال، وأزور هذه الأماكن ذات الأهمّيّة التي تستحقّ المشاهدة في المنطقة، ولا يتمّ ذلك إلاّ على ظهر الجواد. إلى الشّمال من بعلبك كانت كلّ المناطق السّوريّة جديدة بالنّسبة إليّ؛ كما أنّها علامة بارزة أيضاً للدّلالة على أنّنا وصلنا حدود خريطة اكتشاف فلسطين. وكنت قد لجأت الآن

إلى خارطة كيبرت Kiepert الصّغيرة لكن الممتازة، والتي سبق أن نقلتها من مجلّد أوبنهايم Oppenheim الذي تركته في قرية سالِه. وليس هناك خارطة مُرضية أخرى، حتّى خط يصل تقريباً إلى ثلاثين ميلاً جنوب حلب، حيث تبدأ خارطة آسيا الصغرى Kleinasien الكبيرة لدى كيبرت Kiepert بمقياس 1/ 400.000؛ وعندما تقوم هيئة مسح الأراضي الأميركيّة بإصدار كتابي الجغرافي فإنّي آمل بأن يتمّ استكمال النّقص.

وصلنا بعد أربع ساعات ونصف إلى اللّبوة Lebweh حيث تتفجّر إحدى الينابيع الرّئيسيّة لنهر العاصي في عدّة ينابيع جميلة المنظر؛ وهنا أدركَنا جنديّان كانا قد أرسِلا للّحاق بنا من قِبل القائم مقام وسألاني سؤالاً مهذّباً فيما إذا كنت أرغب بمرافقة. أعدتُ أحدهما واحتفظت بالآخر، خوفاً من إيذاء مشاعر القائم مقام؛ كان اسم الرّجل درويش، وقد أثبت بأنّه مفيد ودمث الأخلاق، شأنه في ذلك شأن جميع من كانوا في السّلسلة الطّويلة من الحرّاس الذين رافقونا إلى أن وضعت قدميّ في القطار في قونية Konia. لقد أضاف بعضهم الكثير من المتعة للرّحلة، قاصّين عليّ الكثير من القصص عن تجاربهم ومغامراتهم ونحن نسير معاً ساعة إثر ساعة. ولقد استمتعوا بالشّظف في حياة الحامية العسكريّة التي كانت تمنحه لهم، واستمتعوا أيضاً بالأجر اليومي من المجيديّة (تقريباً 4 سنتات) والذي كان موثوقاً أكثر بكثير مما كان يدفعه السّلطان. أعطيتهم بالإضافة إلى ذلك مكافأة صغيرة عندما أنهوا خدماتهم، وقد أكلوا وأطعموا خيولهم من المؤن والحبوب التي أتوقّع أنّهم أخذوها من الفلاّحين بالقوّة، وهي طريقة من الاغتصاب القانوني يعجز الرّحّالة عن منعه.

يوجد في اللَّبوة Lebweh آثار لمعبد بُني على نمط آثار بعلبك. وتُوّجت منصّة مكوّنة من أربعة صفوف من الحجارة بحُلي معماريّة بسيطة، وكلّ ما بقي منها مجرّد وجه مفلطح. تعود القرية لرجل يدعى أسعد بك Asad beg وهو رجل متوالي Metawileh غني وهو أخ لدكتور من نوع خاص اسمه حيدر Haida، وهو شخص ذو حضور ومعروف في شمال سوريا. وأنا لم أذهب إلى دمشق دون أن أقابله ولم أقابله إلاّ وشعرت بالرّضا، ذلك لأنّه مطّلع جداً على الأدب العربي وذكي على نحو متميّز.

تعاقد مؤخّراً على عمل في سكّة حديد مكّة، وهو كما أعلم النّموذج الوحيد في طائفته لرجل تلقّى ثقافته جيّدة وارتقى إلى مركز جيّد.

نصبنا خيامنا عند رأس بعلبك حيث يوجد نبع ممتاز في ممرّ ضيّق من التّلال الشّرقيّة القاحلة التي تبعد ساعة ونصف عن اللَّبوة Lebweh. انخفضت حدّة الصّقيع في فترة الصّباح، الحمد لله! لكنّ الطّقس لا يزال بارداً. وعندما نهضنا عند الفجر كان المطر المتجمّد يضرب الخيام وسرنا طوال النّهار في ريح عاصفة قاسية. كان ذلك في الثّامن من مارس؛ حيث يمضي الرّبيع ببطء في شمال سوريا. أرسلت مخيّمي في الطّريق المستقيم وسرت مع درويش إلى مَعلم أثري يقف منتصباً على أرض مرتفعة في وسط وادي العاصي وهو يُرى في ذاك الامتداد المنعزل في الأرض من مسافة يوم كامل في كلّ جانب. إنه عبارة عن برج طويل من حجارة كبيرة منحوتة تُوّج بشكل هرمي وزُيّن بأعمدة وإفريز خشن ونُقش بنحت نافر منخفض يمثّل صور صيد وتذكارات من الحروب. يطلق عليه السّوريّون قاموع الهرمل Kamu'a Hurmul، أي برج الهرمل على اسم القرية القريبة منه، وتوضّح آراء العلماء بأنّه إحياء ذكرى كبيرة لغزو روماني، ولكن لا يوجد هنا أيّ نقش يثبت قولهم سواء كانوا على حق أم على باطل. وهو يقع على بعد ساعتين إلى الغرب من رأس بعلبك.

شققنا طريقنا في الرّيح العاصفة وسرنا ساعة ونصف أخرى إلى سلسلة من هضاب صغيرة تحمي فتحات الهواء لقناة ماء تحت الأرض ـ ربما تطلق عليها كلمة قناة في الفارسيّة ولكني أعتقد بأنّها تسمّى هكذا في العربيّة. وصلنا بعد ساعتين ونصف أخريين إلى القُصَير Kseir، ووصلت البغال متأخّرة عنّا ربع ساعة، وخيّمنا بصعوبة عند المقبرة خارج البلدة القبيحة المبنيّة بالطّين. سكنت الرّيح بعد الغروب، وحلّ سلام ماديٌّ ومعنوي على المخيّم. وحتّى مزاج ميخائيل الجيد كان قد تأثّر إلى حدّ ما بالعوامل الجويّة، لكن حبيباً جاء وهو يبتسم كالعادة. وعلى الرّغم من تعكّر مزاجي تحت ثقل العاصفة فإني سعيدة بأن أتذكّر بأنّي استطعت الاحتفاظ بهدوء الفلاسفة. لم يكن محمّد الدّرزي معنا، حيث تركناه خلفنا في دمشق. لقد كانت الصّعوبات

والأخطاء تنبثق باستمرار بينه أو بين الآخرين، سواءٌ كان ذلك لأسباب تعود لأخطائه أو لتآمر الآخرين عليه، وكان من الأفضل التّضحية بأحد أفراد المجموعة وحماية اتّزان القافلة. انتهى عقدي معه في دمشق؛ وافترقنا على أفضل الأحوال، وشُغل مكانه بأشخاص آخرين مستأجرين غير متميّزين واحد تلو الآخر حسب حاجتي.



معبد جوپيتر في بعلبك

كان وادي العاصي فيما مضى أرضاً لمخيّم العرب ولا يزال عدد قليل من شيوخ الحْسِنة Hasench يتردّدون عليه في الفصول الجافّة، وكذلك من عْنِزَة Anazeh، وخصوصاً فرع الرّوَلة Ruwalla من تلك القبيلة، ولكن القسم الكبير من البدو كان قد أُجبِر على الخروج بسبب الرّعي، ويحمل قاموع الهرمل Kamu'a Hurmul سجلّهم في هيئة علامات قبيلة قديمة، وقد كان مما يلفت النّظر أكثر بأنّنا كنّا في المراكز الجنوبيّة الرّئيسيّة للحثّيين Hittites، أيّاً كانوا؛ والنّماذج المشهورة في آثارهم التي لا تزال غامضة لم تُحلّ بعد والتي وُجدت في حماة وهي موجودة الآن في المتحف في القسطنطينية، والتي أربكت جهود جميع العلماء.

يتكّون السّكّان الحاليّون في القْصَير[1] Kseir جزئياً من مسيحيّين والقليل من أفراد طائفة تسمّى النّصيريّة. وهي طائفة لا يعتبرها المسلمون مسلمة تماماً، ومع ذلك فإنّهم مثلهم مثل أفراد كلّ الطّوائف الأصغر يبذلون ما بوسعهم كي يُبعدوا الأمور التي تظهر اختلافاتهم الخارجيّة بينهم وبين العقيدة المسيطرة. وهم يحتفظون بمعتقدات دينهم سرّيّة قدر استطاعتهم، ولكن دُسّو Dussaud قام بصعوبة بالدّخول إلى وسطهم ووجد بأنّ لديهم الكثير من بقايا التّعاليم الفينيقيّة[2] Phoenician. وقد استمرّت هذه العقائد باقية في الجبل لم تُمسّ بسبب عزلة هذه الطّائفة في معاقلها الجبليّة. وقد حافظ النّصيريّة على ممارسات العبادات السّامية Semitic القديمة، وشغلوا موضعاً مشرّفاً في أعين حاملي الثّقافة السّوريّة باعتبارهم ينحدرون مباشرة من أسلافهم الوثنيين، بينما بقي أكثرهم جاهلين بأصولهم القديمة. يتحدّث سكّان المنطقة أحاديث مغلوطة عن دينهم متّبعين العادة الثّابتة في همسات النّاس في القيل والقال في الأمور التي لم يتمكّنوا من فهمها، وقد قيل لي إنّ الإشارات المرئيّة من سلوكهم كما اتّضحت من خلال تصرّفات الطّائفة جعلت كلّ شيء مرغوب. وعلى كلٍّ فقد قام دُسّو Dussaud بإبعاد التّصوّرات الخاطئة التي تحيط بمعتقدهم، وبناءً على تجربتي في تصرّفاتهم مع الغرباء فقد قادني ذلك لتبنّي موقف حياديّ طيّب.

أمضيتُ خمسة أيّام في الجبال غرب حمص وأسبوعاً قرب أنطاكية، وهي المناطق التي يتواجدون فيها بشكل أساسي، ولم يكن لديّ أيّ سبب لأتذمّر منهم. لم يكن كُرت Kurt مسروراً جداً مع المجموعة التي وجد نفسه فيها في القْصَير Kseir، واستمر ينبح طوال اللّيل؛ حتّى كدت أتمنّى إلى حدّ ما أن يعود إلى الفناء لدى المتاولة Metawileh.

---

(1) نكتب التسمية بحسب منطوقها اللفظي الشائع، لا القُصَير كما في الفصحى. وهذا ما ندرج عليه في كتب سلسلتنا الحاضرة، في أسماء الأماكن والأعلام والقبائل.

(2) هذا صحيح، وفي لهجة العلويين بقايا واضحة من اللغة الكنعانيّة الفينيقيّة القديمة. وبالنسبة لبحث دُسّو فقد نشر عن الموضوع كتاباً بعنوان:
Rene Dussaud: *l'Histoire et Religion des Nosairis*, Paris, 1900.

كان الطّقس في اليوم التّالي رائعاً جدّاً. وقمت بجولة طويلة أنا وميخائيل من أجل احتمال زيارة تل النّبي مندو Tell Nebi Mendu، الذي هو في موقع قادش Kadesh على العاصي، العاصمة الجنوبيّة للحثّيين Hittites. ولا بدّ أنّ قادش كانت في أيّامها بلدة جميلة. تقوم التّلّة التي بُنيت عليها فوق سهل واسع مزروع بالقمح؛ ويمتدّ إلى الجنوب مجرى نهر العاصي الفسيح بين سلسلتي جبال لبنان الشّرقيّة والغربيّة، وإلى الغرب يقع جبل النّصيريّة الذي يحجبها عن البحر، وبين سلسلتي جبال لبنان وجبال النّصيريّة توجد أرض منخفضة منفرجة يمكن أن يسلكها التّجّار والبضائع التّجاريّة إلى السّاحل. وتقع شمالاً سهول سوريا الدّاخليّة التي تمتدّ حتّى الأفق؛ بينما تتّجه سهوب الصّحراء التّدمريّة المرئيّة نحو الشّرق. وتُغسل سفوح التّل بمياه نهر العاصي الفتي والشغوف (العاصي هو معنى اسمه العربي)، وتمتدّ إلى الأمام مباشرة بحيرة حمص بطول ستّة أميال.

يتمّ الوصول إلى هضبة قادش Kadesh عن طريق مروج من العشب، وتدور بمرح بين أشجار الصّفصاف طاحونة على منكب نهر مندفع. لا بدّ أن يكون هذا المكان قد سُكن على نحو مستمر تقريباً من أيّام الحثّيين، حيث يروي التّاريخ عن مدينة اللاذقيّة السّلوقيّة على نهر العاصي Laodocia ad Orontem وتوجد بقايا آثار من بلدة مسيحيّة. ولقد بنى كل جيل فوق رماد هؤلاء الذين مضوا قبله، وأدّى ذلك إلى ارتفاع الهضبة على نحو أعلى وأعلى، وأصبحت آثار من سكنوها أغنى وأغنى من دون شك. لكن لا يمكن التّنقيب فيها بشكل شامل وذلك بسبب الأكواخ الطّينيّة البائسة التي ورثت أمجاد مدينتي قادش Kadesh ولاوداكيا (اللاذقيّة) Laodocia، وبسبب المقبرة الصّغيرة عند النّهاية الشّماليّة للقرية التي، وفقاً لرأي المسلمين، يجب أن تبقى سليمة لا تُمسّ إلى أن ينفخ جبرائيل في الصّور ليبعث الرّاقدين فيها. وقد لاحظت قطعاً من أعمدة ومن تيجان أعمدة خشنة جدّاً ملقاة هنا وهناك بين المنازل، وبينما كنت أقف فوق الهضبة كان اهتمامي منصبّاً بشكل رئيسي في تصوّري للمعركة في قادش من قِبل الملك الحثّي ضد الفرعون في زمنه، والتي سجّلت في سلسلة مهمّة في اللّغة الهيروغليفيّة في مصر.

بعد مسير ربع ساعة إلى الشّمال من تلّ النّبي مندو يوجد سدّ ترابي غريب يُفسَّر من قِبل العرب بأنّه سفينة نوح ومن قِبل علماء الآثار بأنّه حصن آشوري، وعلى كل صاحب رواية حول أصله أن يدعم وجهة نظره الخاصّة. وهو عبارة عن مرتفع من الأرض، مربّع الجوانب وقد وجِّهت جوانبه بدقّة حسب اتّجاه البوصلة، ويرتفع بما يقارب أربعين إلى خمسين قدماً فوق مستوى السّهل وهو محاط بخندق ما تزال زواياه حادّة حتّى الآن. صعدنا إلى قمّته، فوجدناها عبارة عن مصطبة هائلة من تربة صلبة، تبلغ مساحتها حوالي ثمن ميل مربّع، وقد ارتفعت الجوانب الأربعة قليلاً كما لو كان هناك أبراج فوقها، كان كلٌّ من البرج والمتراس والمنصّة قد غطّيت بشكل متشابه بقمح الرّبيع. وسواء كان الذي بناه بطريرك أو آشوري، فلا بدّ أنّه وجد أنّ إنشاءه أمر متعب إلى حدٍّ بعيد. ولكن إلى أن تمّ حفر بعض الخنادق عبره فإنّ الباعث الذي وجّه أعماله سيبقى غير محدّد.



تيجان أعمدة في معبد جويتر ببعلبك

سرنا إلى الأسفل نحو البحيرة وتناولنا الغداء قرب المياه المتموّجة على شاطئ من المحار النّظيف. كانت هناك تلّتان قريبتان من الشطآن، وتلّ آخر على بعد ميل أو اثنين من حمص، بينما كانت قلعة حمص نفسها قد بُنيت على تلّة رابعة. كانت هذه التلاّل كلّها تتمتّع بمظهر كأنّها اصطناعيّة، وربما كانت تحتوي آثاراً لمدن كانت شقيقة لقادش. ويجب أن يكون السّهل الخصيب شرق العاصي مستعداً دوماً لإعالة عدد كبير من السّكّان، وربما كانوا في أيّام الحثّيين أكثر عدداً مما هم عليه الآن. استمرّ ركوب ذلك اليوم من السّاعة التّاسعة والنّصف إلى السّاعة الثّانية، مع ثلاثة أرباع السّاعة في تلّ النّبي مندو ونصف ساعة عند البحيرة.

دخلنا حمص عبر المقابر. تلك المقبرة التي لا بدّ أنّ طولها زاد عن ربع ميل من القبور ليست مَعلماً مميّزاً لحمص، لكنّها صورة دائمة للمدن الشّرقيّة، حيث تُحرس كلّ مدينة بكتائب من الأموات، وتتحرّك الحياة في البلدة منها وإليها عبر فوج من شواهد القبور المعمّمة. صادف أنّه كان يوم خميس عندما قدمنا إلى حمص، والخميس هو اليوم الأسبوعي لجميع الأرواح في العالم الإسلامي. كانت مجموعة من النّساء المحجبات يضعن الأزهار على القبور أو يجلسن على الرّوابي منشغلات بحديث مفعم بالحيويّة - وتُعدّ المقابر المكان الممتع للنّساء الشّرقيّات كما تُعدّ ملعباً للأطفال، ولا تترافق مع الغم الذي يلفّ المكان ليترك أثره في بهجة الزّوار.

كان مخيّمي قد نُصب في ضواحي المدينة على امتداد من عشب أخضر أسفل آثار ثكنات عسكريّة بُنيت من قِبل إبراهيم باشا وهُدمت مباشرة بعد موته من قِبل السّوريين، الذين كانوا راغبين في إزالة كلّ أثر من احتلاله البغيض. كان كلّ شيء مجهّزاً لي، الماء المغلي من أجل الشّاي، ورسول من القائم مقام بانتظاري ليؤكّد لي بأنّ كلّ ما أرغب به سوف يحظى باهتمام فوري، وعلى الرّغم من ذلك كلّه لم أحبّ مدينة حمص ولن أخيّم فيها مرّة أخرى بمحض اختياري. جاء هذا القرار نتيجة لتصرّف السّكّان، الذي سأقوم بوصفه الآن.



كسرة من مدماك عُلوي في بعلبك

كان تصرّف القائم مقام فوق النّقد أو الاعتراض. فقد قمت بزيارته بعد شرب الشّاي، ووجدته تركيّاً مقبولاً عذب الحديث ويتحدّث القليل من العربيّة. كان هناك عدّة أشخاص حاضرين، المفتيين المعمَّمين وشيوخ وقورين - ودار حديث ممتع ونحن نشرب القهوة. وعندما نهضتّ لأذهب قدّم لي القائم مقام جنديّاً لحراستي أثناء تجوالي في المدينة، لكنّي رفضتّ قائلة بأنّه ليس لديّ ما أخاف منه، بالإضافة إلى أنّي أتكلّم العربيّة. ولقد كنت مخطئة: فمعرفة العربيّة لا تكفي في جعل الغريب متمكّناً في التّعبير عن رأيه عند أهالي حمص. وقبل أن أدخل السّوق بقليل بدأت المضايقة. ولعلّي كنت كشخصيّة المهرج في الرّواية الهزليّة (Pied Piper of Hamelin) وذلك بسبب الطّريقة التي احتشد فيها الصّبية الصّغار وهم يسيرون خلفي. تحمّلت فضولهم لبعض الوقت، ثمّ ناشدتهم الابتعاد، ثمّ التفتّ لطلب المساعدة من أصحاب المحلاّت في الأسواق. كان ذلك مؤثّراً لبعض الوقت، ولكن كنت غافلة جدّاً في دخولي لمسجد، حيث لم يتبعني الصّبية الصّغار فقط وإنّما جميع سكّان حمص الذّكور (أو هكذا بدا لخيالي المحموم) وتجمّعوا خلفي. لم يكونوا منزعجين، ولم يكن لديهم رغبة لإيقافي بل على العكس، فقد رغبوا بشدّة بأن أدخل لوقت طويل، حيث يمكن أن يكون لديهم فرصة أفضل لمراقبتي؛ لكنّه كان شيئاً فوق احتمالي، ولذلك هربت

راجعة إلى مخيّمي، متبوعة بما يقارب مئتي زوج من العيون الفضوليّة، وأرسلتُ في الحال أستدعي شرطيّاً.

في الصّباح التّالي كنت أكثر عقلانيّة فأخذت معي الشّرطي منذ البداية. تسلّقنا إلى قمّة تلّة القلعة لنأخذ فكرة عامّة عن المدينة. على الرّغم من أنّها لا تتمتّع بجمال معماري خاص، فإنّها تحظى بشخصيّتها الخاصّة. وقد بُنيت من الحجارة المساميّة، وبُنيت البيوت الكبيرة محاطة بفناء ومزخرفة بنماذج بسيطة لكنّها متقنة من حجر الكلس الأبيض الذي وُضع في صفوف بشكل متداخل في الجدران ذات الحجارة السّوداء، وأحياناً على نحو متعاقب من السّواد والبياض مثل واجهة مبنى كاتدرائيّة سيينا Siena. ويعود الذّهن بالذّاكرة أكثر إلى إيطاليا عندما يشاهَد أسلوب بناء المآذن المكوّنة من أبراج مربّعة طويلة في كلّ أنحاء العالم مثل أبراج سان جيمينيانو San Gimignano فيما عدا تلك المبنيّة في حمص والتي تتوَّج بقبّة بيضاء جميلة جدّاً ومؤثّرة.

كان كل ما بقي من القلعة آثار عربيّة الأصل وكذلك الأسوار المحيطة بالمدينة فيما عدا جهة واحدة إلى الشّرق، حيث بدا وكأنّ العمل العربي قد بُني فوق قواعد أقدم. لم أرَ أيّ أثر لبناء يعود إلى ما قبل العهد الإسلامي سوى خربة من القرميد خارج بوّابة طرابلس والتي كانت رومانيّة بكلّ تأكيد، وهي الأثر الوحيد المتبقي لمدينة إيميسا Emesa الرّومانيّة. تقع هضبة القلعة أيضاً خارج المدينة، وعندما أنهيتُ استطلاعي العام دخلنا من البوّابة الغربيّة وذهبنا نبحث عن الأماكن التي تستحقّ المشاهدة. تحتاج هذه العملية إلى وقت، ذلك لأنّها تُقطع باستمرار بدعوات ملحّة من أجل الدّخول وشرب القهوة.

مررنا بجامع التُّركمان Turkman Jami'a، حيث كان هناك زوج من حجر منقوش بنقوش إغريقيّة استُخدما في بناء مئذنة وتابوت حجري، وقد نُحت عليهما رؤوس ثيران وأكاليل زهور، يُستخدم كحوض ماء. كان من رأي الشرطي أن أذهب وأقدّم احتراماتي لأسقف كنيسة الرّوم الأرثوذكس، فذهبت إلى قصره ولكن وجدت أنّني

ذهبت مبكّرة جدّاً لرؤية سيادته. وعلى أيّة حال فقد تمّت استضافتي لتناول المربّى وشرب الماء والقهوة، وأصغيت إلى تفجّع أمين سر الأسقف على الانتصارات اليابانيّة. كانت كنيسة الرّوم الأرثوذكس تؤدّي صلوات التّوبة في كلّ وقت كانت تتسلّم فيه أخباراً عن خسارة الرّوس، وفي ذلك الوقت كانوا مشغولين بالتّضرّع للقدير بأن يصفح عن أعداء المسيحيّة. انتدب أمين السّرّ خادماً كي يريني كنيسة مار إلياس الصّغيرة، التي تحتوي على تابوت رخامي رائع مع صلبان لاتينيّة نُقشت على هيكله وصلبان إغريقيّة على الغطاء، وهو إضافة متأخّرة كما أتصوّر لقبر تقليدي.

قابلت خارج الكنيسة شخصاً يدعى عبد الوهاب بك، كنت قد رأيته في السّرايا عندما كنت مدعوّة من قِبل القائم مقام، وقد دعاني إلى بيته الذي هو نموذج رائع في الهندسة المعماريّة المحلّيّة لمدينة حمص، وقد زيّنت ساحة الحريم على نحو ساحر بنماذج محفورة في الحجر الكلسي والبازلتي. عندما خرجت أوضح الشّرطي الذي التقط نوع المشاهد التي كنت أرغب برؤيتها، بأن يأخذني إلى منزل حسن بك Hassan Beg، الذي كان الأقدم في حمص. ذهبنا إلى هناك، وعندما كنّا نمرّ عبر الطّرقات الضيّقة لكن النّظيفة على نحو ملاحَظ، لاحظتُ أنّه كان يوجد في كلّ بيت تقريباً نول ينسج عليه النسّاجون الحرير المخطّط الذي تشتهر به حمص، في حين كانت معظم الطّرقات العامّة تعرض الخيوط الحريريّة. قال الشّرطي إنّ العمّال يأخذون أجرهم على القطعة، ويربحون من سبعة إلى اثني عشر قرشاً في اليوم (من شلن إلى شلنين)، وهي أجرة كبيرة في الشّرق. أضاف: فالحياة رخيصة؛ حيث يستطيع رجل فقير أن يستأجر بيته، الذي هو عبارة عن غرفة واحدة، بمئة قرش في السّنة، ويطعم عائلته بثلاثين أو أربعين قرشاً في الأسبوع أو حتّى أقلّ إذا لم يكن عنده الكثير من الأولاد.

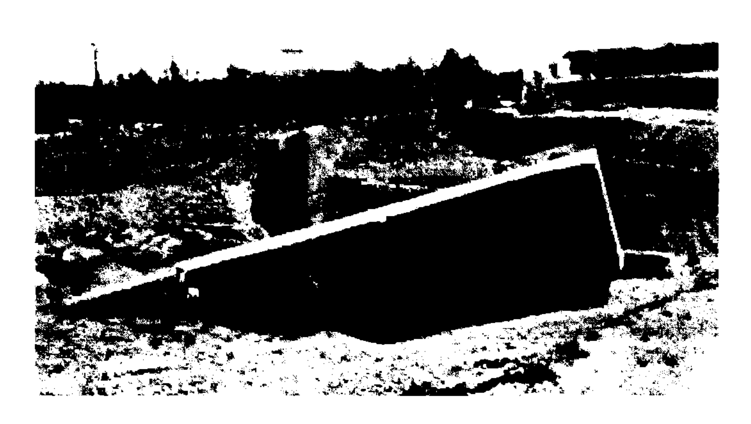


باسيليقا قسطنطين في بعلبك

كان حسن بك Hassan Beg Nā'i ذا شعر أحمر اللّون ولحية حمراء، بوجه ذي ملامح قاسية يشبه وجوه سكان الأراضي المنخفضة في اسكتلندا. لم يكن مسروراً أبداً لرؤيتي، ولكن بوجود الشّرطي خرج متمهّلاً من مضافة حيّه، حيث كان يشرب فنجان قهوة صباح يوم الجمعة مع أصدقائه، فأخذني عبر الشّارع إلى جناح حريمه، وتركني مع النّساء، اللاتي كنّ لطيفات بمقدار ما كان فظّاً. وبالفعل فقد سُررن بوجود زائرة، حيث أنّ حسن بك كان سيّداً صارماً، ولم يكن يسمح لا لزوجته ولا لأمّه ولا لأيّ امرأة تابعة له أن تخرج أنفها خارج أبواب البيت، ولا حتّى أن تمشي عبر المقبرة أو تركب عربة وتذهب إلى المرج عند نهر العاصي في عصر يوم صيفي جميل.

كان قسم النّساء بيتاً عربيّاً جميلاً جدّاً على طراز البيوت في دمشق. كانت هناك قباب مجصّصة فوق الغرف وفوق اللّيوان (الذي هو قاعة جلوس في منتصف الفناء)، ولكن

الجصّ كان قد تكسّـر قطعاً وتقوّضت الأرضيّات والدّرجات تحت الأقدام التي تدوسـها. وبُنـي فـي أحد الجـدران عمود رخامـي ذو تاج مزخرف بـأوراق الأقنثـا، وكان هناك على أرض اللّيوان تاج عمود رخامي كبير، بسيط في طرازه لكنّه جيّد النّوعيّة. لقد تمّ تحويله إلى حوض ماء، وربّما أدّى دوره كجرن المعموديّة قبل أن يأخذ العرب إيميسـا Emesa، وبعد ذلك بدأت الأبنية الرّومانيّة الأكثر قدماً تتساقط وتوضع موادها في استخدامات أخرى.



حجر في المقلع ببعلبك

مـررت وأنـا عائدة إلى مخيّمي بمئذنـة مربّعة جميلة، مبنيّة من صفـوف متناوبة من حجارة بيضاء وسوداء اللّون. كان المسجد أو الكنيسة المسيحيّة التي ينتمي إليها البرج قد تهدّم؛ قال شرطيّ، بأنّه يُعدّ البرج الأقدم في المدينة. وبكل تأكيد كان المسجد عند مدخل السّوق كنيسة دون أيّ مزيّة معماريّة.

لم يكن هناك شـيء آخر يمكن مشـاهدته في حمص، وبما أنّ عصر ذلك اليوم كان جميـلاً فقـد نزلتُ إلى المرج عند نهـر العاصي، المنتجع الأنيق لـكلّ راغبي التنزّه في الرّبيـع والصّيـف. يترك مجرى نهـر العاصي حمص على بعد ميـل كامل إلى الجنوب الغربـي، وإمـداد الماء سيّئ وغير كافٍ، حيـث يأتي من قناة تبدأ من الطّرف الشّـمالي للبحيـرة. يُعـدّ مرج العاصي نموذجاً جيّـداً للمكان الجميل الذي يتمتّع فيه الشّـرقيّون سواء كانوا أتراكاً أو سوريّين أو عجماً، ويقضون فيه وقت فراغهم. يقول المثل العربي:

«ثلاثة تفرح القلب: الماء والخُضرة والوجه الحَسَن». يجري نهر العاصي السّريع بين مروج مرصّعة بأزهار الرّبيع، حيث السّيّدات المسيحيّات المهملات للحجاب في معظمهن وقد ترجّلن من على ظهور بغالهنّ وجلسن تحت أشجار الصّفصاف وتلمسنّ نسمة الرّبيع الأولى. تدير النّهر ناعورة كبيرة، أي دولاب فارسي[1]، تملأ الجو بدويّها اللّطيف. نصب قهوجي مجمرته عند حافّة الطّريق، وكان بائع حلوى يعرض بضائعه على جانب النّهر، وعلى امتداد فسيح من المرج كان هناك عدد قليل من الشّباب المرحين يعدُون بخيولهم العربيّة ويركبون العربات. يُمضي الشّرق العطلة على طريقته البسيطة والمُرضية، متمتّعاً بشمسه اللّذيذة.



راس العين، بعلبك

---

(1) هذا الوصف غير علمي من المؤلفة، فنواعير العاصي تعود صناعتها إلى سكان البلاد الأصليين الآراميين في القرون السابقة للمسيحية، وليست من صنع الرّومان ولا الفُرس ولا غيرهم.

خُصّص ما تبقّى من فترة بعد الظّهر للأمور الاجتماعيّة ولمحاولات مخفقة للنّجاة من فضول سكّان البلدة. لقد كان عصر يوم جمعة، وليس هناك طريقة لقضائه خطرت في بالهم أفضل من أن يجتمعوا بأعداد وصلت إلى عدّة مئات حول خيامي ويراقبوا كلّ حركة من أيّ فرد من أفراد المخيّم. كان الرّجال سيئين بما يكفي، ولكنّ النّساء كنّ أسوأ والأطفال كانوا الأسوأ من الجميع. لم يكن هناك أيّ شيء يمكن أن يبعدهم، وكانت الإثارة قد وصلت أوجها عندما وصل عبد الحميد باشا الدّروبي، وهو أغنى رجل في حمص ليدعوني، وكان معه القاضي محمّد سعيد الخاني. لم أتمكّن من أن أعير حديثهما الممتع والعاقل ما يستحقّ من الاهتمام، وذلك بسبب الحشد المهتاج المحيط بنا، ولكن قمت بعد ساعة برد دعوتهما في بيت الباشا الجديد الجميل عند بوّابة المدينة، ورافقني إلى هناك ثلاثمئة شخص على الأقل. لا شك أنّي تنفّست الصّعداء عندما أُغلق الباب في وجه مرافقيّ من العامّة، وجلست في اللّيوان الرّطب الهادئ، قال عبد الحميد: «أرجو من الله ألا يكون العامّة قد أزعجوا سعادتك؛ وإذا حصل ذلك فسوف نستدعي فوجاً من الجنود».



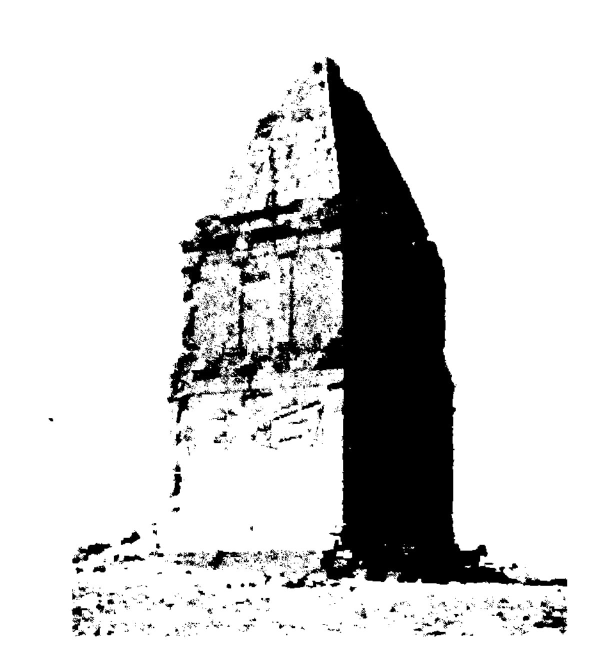
أرز لبنان

تمتمت رافضة عرضه من وسط قلبي، على الرّغم من أنّي سأكون سعيدة إذا رأيتُ هؤلاء الصّبية الصّغار يُرمون بوابل من نيران الأسلحة[1]، وأضاف الپاشا متأمّلاً:

«أعطى إمبراطور ألمانيا عندما كان في دمشق الأوامر بألا يُمنع أحد من المجيء والنّظر إليه».

ومع هذا المثال المهيب الذي ذُكر أمامي رأيتُ بأن عليّ تحمّل ضريبة العظَمة والغُربة دون تذمّر.

دار الحديث حول المعتقدات الدّينيّة. وبدأت بالسّؤال عن النّصيريّة، ولكن القاضي زمّ شفتيه وأجاب:



قاموع الهرمل

(1) يا للنفس الشريرة السّوداء، الأطفال يُرمون بوابل من نيران الأسلحة؟ ما هذا الحقد؟ ولكن مع الأسف هذا ما رأيناه يجري عام 2012.

«إنّهم ليسوا أتقياء، فبعضهم يدّعي عبادة علي وبعضهم يعبد الشّمس، وهم يؤمنون بأنّهم عندما يموتون فإنّ أرواحهم تذهب إلى رجل آخر أو حتّى إلى الحيوانات، كما هو الأمر في الأديان في الهند والصّين».

قلت: «لقد سمعت قصّة تتحدّث عن رجل كان يملك كرمة، ثمّ مات الرّجل وتركها لابنه. وبدأ الرّجل الشّاب يعمل في الكرمة حتّى جاء وقت الحصاد وعندما كان العنب قد أينع دخل ذئب إلى الكرمة وكان كلّ مساء يأكل الثّمار. حاول الرّجل الشّاب أن يصطاده عدّة مرّات، ولكنّه كان يعود كلّ مساء. وفي إحدى اللّيالي صرخ الذّئب بصوت عال: «هل يتوجّب عليّ ألا آكل من العنب وأنا الذي زرعت الكرمة؟» فصعق الشّاب وقال: «من أنت؟» أجاب الذّئب: «أنا أبوك». أجاب الشّاب: «إذا كنت حقّاً أبي، إذاً أخبرني أين خبّأت المنجل، وذلك لأنّي لم أجده منذ فارقت روحك جسدك!» أخذه الذّئب من ثمّ إلى المكان الذي كان المنجل مخفياً فيه، وعندها صدّق وعلِم بأنّه كان والده».



عطلة شرقية

رفض القاضي الشّاهد.

قال: «هذا محض افتراء إلى حدّ بعيد دون شك».

سألته بعد ذلك فيما إذا كان لديه أيّ اطّلاع على الطّائفة البهائيّة، فأجاب:

«فيما يتعلّق بالبهائيّة وجميع الفرق التي تشبهها، فكما تعلمين جنابك أنّ النّبي (عليه السّلام!) قال إنّ هناك اثنتين وسبعين فِرقة ضالّة وواحدة فقط هي النّاجية. ويمكنني أن أخبرك بأنّ من هذه الفِرق الاثنين والسّبعين يوجد في بلدنا منها خمسون».

أجبته بأنّ الأنبياء هم وحدهم القادرون على تمييز الحقّ من الباطل، ونحن في أوروبا حيث لا يوجد من يساعدنا، نجد ذلك مهمّة صعبة جدّاً.

قال القاضي: «في أوروبا، سمعت أنّ رجال العلم هم أنبياؤكم».

علّقتُ قائلة: «وهم يجيبون بأنّهم لا يعلمون شيئاً، لقد اكتشفتْ أعينهم النّجوم، ومع ذلك لا يمكنهم أن يخبرونا عن معنى كلمة اللاّنهاية».

علّق القاضي: «إذا كنت تتحدّثين عن السّماء اللاّمتناهية، فإنّنا نعلم أنّها تتكوّن من سبع سموات».

«وماذا بعد السّماء السّابعة؟».

قال: «ألا تعلمين جنابك أنّ العدد واحد هو بداية كلّ الأشياء؟ وعندما تخبريني ماذا يأتي قبل الرّقم واحد، سأخبرك ماذا يوجد بعد السّماء السّابعة».

ضحك الباشا وقال إذا كان القاضي قد أنهى مناقشته فإنّه يرغب في أن يسألني ما هي الفكرة السّائدة في أوروبا في مسألة قراءة الأفكار. قال: «قبل شهر سُرق خاتم ثمين من منزلي ولم أتمكّن من العثور على اللّص. وقد سمع بالقضيّة أحد الأفنديّة من أصدقائي فجاءني وقال: «أعرف رجلاً في لبنان خبيراً في هذه الأمور». فقلت: «اعمل معروفاً، وأحضره لي». جاء الرّجل وبحث في حمص إلى أن وجد امرأة قد وُهِبت مقدرة الاستبصار، وعمل مترجماً لأفكارها إلى أن تكلّمت وقالت: «صفة اللّص كذا

وكـذا، وقد أخذ الخاتم إلـى بيته». بحثنا في البيت الذي حدّدتـه ووجدنا الخاتم. هذه هي تجربتي لحادثة وقعت أمام عينيّ».

أجبت بأنّ قارئي الأفكار في لبنان قاموا باستغلال مواهبهم على أحسـن وجه أكثر مما سمعته عن أيّ شخص في لندن، وقال الپاشا متأمّلاً:

«ربّما يكون السّـبب لأنّ المرأة التي في السّوق كان لديها شكوى ضدّ الرّجل الذي وجدنا في بيته الخاتم - الله وحده يعلم. تبارك لاسمه!».

وهكذا غادرنا منزل الپاشا.



شارع في حمص

عندما عدتُ إلى خيمتي وجدتُ بطاقة دعوة على طاولتي، تحمل الاسم والعنوان: «حنّا خبّاز، كاهن الكنيسـة البروتسـتانيّة في حمص». كُتب تحت هذا النّقش الرّسـالة التّالية: «يا سـيّدة ـ مسـتعدّ أنا وزوجتي لتقديم أيّة خدمة تحتاجينها في خدمة المسـيح والإنسـانيّة. كما أنّنا نجد أنّه من الواجب علينا زيارتك إذا تلطّفت وقبلت زيارتنا. وأنا خادمك المطيع». أرسـلتُ عبارة بأنّي أقبـل زيارتهما بكلّ امتنـان إذا جاءا في الحال، وقد ظهرا قبل غروب الشّـمس، كانا شخصين لطيفين جدّاً، متلهّفين جدّاً لاستضافتي، الشّـيء الذي لم يكن باسـتطاعتي الاسـتفادة منه. ولم يكن أسـفي كبيراً على ذلك لأنّ

الپاشا والقاضي كانا صحبة طيّبة بما يكفي لعصر ذلك اليوم، وعندما أنظر إلى الخلف إلـى الزّيـارة الصاخبـة لحمص، أجـد أنّ السّـاعة التـي أمضيتها مع هذين الشّـخصين المسلمين اللّطيفين كريمي الأصل تقف مثل ذكرى لملاذ محمي في ريح عاصفة.



الفصل التّاسع

غادرنا في اليوم التّالي عند ساعة مبكّرة، ولكنّ أهالي حمص نهضوا مبكّرين كي يأتوا لرؤيتنا نغادر. لم يكن هناك حلّ يقدّم لهم تسلية أكبر وأكثر من أن أستطيع المحافظة على هدوئي الظّاهري. عبرنا بعد ربع ساعة خلف بوّابة طرابلس، والمبنى الرّوماني الآجرّي، وخلف منظر صفّ الصّبية الصّغار الذي أصبح أبعد ما يكون؛ اجتاح جمال الصّباح الهادئ أحاسيسنا، والتفتُّ لأتعرّف على المرافقين الذين كان القائم مقام قد أمدّني بهم. كان عددهم أربعة، كان اثنان منهم أحراراً واثنان مقيّدين، كان الاثنان الأوّلان شرطيّين كرديّين؛ كلّف الأوّل بأن يدلّني على الطّريق إلى قلعة الحصن، ويقوم الثّاني بحراسة الاثنين الآخرين من المسافرين اللذين يرافقوننا، وهما سجينان كانا في قبضة القائم مقام قبل بضعة أيّام، وانتظر حتى استطاع إيجاد فرصة مناسبة، كالتي توفّرها رحلتي، لإرسالهما إلى القلعة في جبل النّصيريّة، ومن ثمّ إلى السّجن الكبير في طرابلس. كانا بائسين هزيلين ومكسوّين بثياب قطنيّة بالية وقد قيّدا معاً. وبينما كانا يسيران مجتهدين بشجاعة عبر الغبار والوحل، تفوّهتُ بكلمة تعاطف، وردّا بكلمات يرجوان فيها أن يطيل الله عمري، ولكن بالنّسبة لهما فقد كانت إرادة سيّدهما السّلطان التي جعلتهما يسافران مقيّدين سيراً على الأقدام. قاطعنا أحد الأكراد موضّحاً:

«إنّهما هاربان من جيش السّلطان، الله يجازيهما على أفعالهما! وأكثر من ذلك، فهما إسماعيليّان من السّلميّة، وهما يعبدان إلهاً غريباً يعيش في أرض الهند. ويقول بعضهم بأنّه امرأة، ولهذا السّبب هم يعبدونها. وهي ترسل كلّ سنة سفيراً إلى هذه

البلدة لجمع المال المستحقّ لها، وحتّى أفقر الإسماعيليين يزوّدونها ببعض القروش. وبعد ذلك يصرّحان بأنّهما مسلمان: مَن يعلم ما هو معتقدهما؟ تكلّم، يا خضر، وأخبرنا ما هو معتقدك؟».

أجاب السّجين المخاطَب بعناد:

«نحن مسلمون»؛ ولكن كلمات الجندي كانت قد أعطتني معلومات حيث كنت قادرة على المتابعة من خلال ذلك عندما زحف السّجينان سيّئا الحظّ وأصبحا بجانب حصاني وهمس أحدهما:

«يا ستّ، يا ستّ! هل سبق أن رحلتِ إلى أرض الهند؟».

قلت: «نعم».

«الله ينعم عليكِ! وهل سمعت هناك عن ملك عظيم يدعى الملك محمّد؟».

مرّة أخرى كنت على استعداد للرّد بالإيجاب، وأن أضيف حتّى بأنّي أنا نفسي أعرفه وتحدّثت معه، وذلك أنّ ملكهم محمّداً لم يكن سوى زميلي الآغا خان، ويفاخر دين السّجينين بأنّه قديم جديرٌ بالاحترام، وأنشأه الشّخص الذي كان يطلق عليه اسم شيخ الجبل. ولقد كانوا الممثّلين المتواضعين للطّائفة المروِّعة (وربما المؤذية) المعروفة بالحشيشيّة Assassins.

التقط خضر رِكاب فرسي بيده الطّليقة وقال بحماس:

«أليس ملِكاً عظيماً؟».

لكنّي أجبت بحذر، يُعدّ الآغا خان ملكاً عظيماً في العالم الحديث، ولنقل بأنّه غني إلى أبعد حدّ، ويمكن أن يكون من الصّعب الشّرح تماماً لمريديه ما ذاك الرّجل مصقول السّلوك والكريم الأصل في هذا العالم، الذي اجتمعتُ به في حفلة عشاء في لندن، والذي كان قد أعطاني نادي مالبورو Club Marlborough كعنوان له. لو استطاعوا فهم هذه الأمور، فليست هي التي يمكن أن تصدمهم؛ فالآغا خان هو قانون بذاته، ولو اختار أن يطلق العنان

وينغمس في تجاوزات إلى درجة أكبر بكثير من حفلات عشاء فإنّ تصرفاته ستُقدّس من خلال الحقيقة المجرّدة بأنّها إرادته. ولقد اعتاد والده إرسال رسائل تعريف للملك جبرائيل من أجل أن يضمن لأتباعه مكاناً جيّداً في الجنّة؛ كان الابن بثقافته الإنكليزيّة وألفته مع الفكر الأوروبي قد أحجم عن ممارسة هذا الامتياز، على الرّغم من أنّه في نظر أتباعه لا يزال ممسكاً بمفاتيح الجنّة. وهم يظهرون إيمانهم به بطريقة ماديّة عن طريق التبرّع في أجزاء مختلفة من آسيا وأفريقيا بمبالغ كبيرة تصل سنويّاً إلى عشرات الآلاف.



قهوة على جانب الطّريق

سرنا ما يقارب السّاعة عبر البساتين، وقابلنا مجموعة من العرب شُعث المنظر يمشون الهوينى إلى حمص على حميرهم حاملين معهم حليباً وخثارة اللّبن إلى السّوق، ووصلنا من ثمّ إلى السّهل خلف العاصي، الذي هو موطن هؤلاء العرب. كان منظر السّهل مألوفاً؛ فلم يكن متبايناً عن منطقة هضاب الدّروز، ومثل منطقة حوران فقد غطّته حجارة بركانيّة سوداء، وهو عبارة عن مقلع حجارة فسيح لمدينة حمص. يتمّ إحضار جميع الأحجار التي تُستخدم للبناء من المنطقة التي تقع وراء النّهر وتُنقل على ظهر الحمير. وهي تكلّف متليكاً واحداً في المدينة (والمتليك الآن عملة معدنيّة ذات قيمة متدنّية جدّاً وليس لها مقابل في أوروبا)، ويمكن لشخص لديه مجموعة

جيّدة من الحمير أن يكسب ما يقارب عشرة قروش في اليوم.

وفي فصل الرّبيع فإنّ العرب الذين يخيّمون في وعر حمص، وهو سهل حمص الحجري، هم عرق محتقر وذلك بسبب الخدمات التي يقدّمونها للمدينة، ويجب أن تلاحظ أنّه لا يوجد بدوي يحترم نفسه يمكن أن يكسب عيشه عن طريق بيع خثارة اللّبن أو عن طريق أيّة وسائل أخرى سوى القتال؛ ولكن في الصّيف فإنّ القبائل الكبيرة مثل الحْسِنة Hasench تستقرّ هناك لبضعة أشهر، وبعد الحصاد تأتي كذلك بعض بطون عْنِزَة 'Anazeh بإبلها كي ترعى. تشبه هذه القبائل الكبيرة سمك السّلمون في نهر يأتي من عرض البحر ويقدّم لحماً أقلّ للمقلاة.

عندما عبرنا في شهر مارس كانت هناك كمّيّة جيّدة من الماء الراكد في السّهل، وقد نمت الأزهار والأعشاب بين الأحجار؛ وعندما كنّا نتقدّم باتّجاه الغرب فوق أرض ارتفعت تدريجيّاً باتّجاه الهضاب، دخلنا منطقة كانت تشبه حديقة رائعة من الأزهار. رفعت مكاحل أزهار الزّنبق الزّرقاء الشّاحبة أجراسها العنقوديّة فوق كتل الأحجار المساميّة، وتناثرت أزهار السّوسن، وشقائق النّعمان الحمراء وعشبة الصّقر الصّفراء والخربق الأرجواني الجميل في منقطة العشب - وتبعثرت جميع محاصيل الرّبيع السّوري في ذلك اليوم تحت أقدامنا السّعيدة.

تبِعنا في السّاعات الخمس الأولى طريق العربات الذي يقود إلى طرابلس، مارّين بالخان الذي يحدّد المرحلة الأخيرة قبل مدينة حمص، وخطّ الحدّ بين ولاية دمشق وبيروت؛ وانعطفنا من ثمّ نحو اليمين ودخلنا ممرّاً خاصّاً بالخيول يمتدّ على أرض متموّجة العشب مزروعة جزئيّاً ومليئة بالأزهار أكثر ممّا هو في العادة على حوافّ الطّريق. كانت شقائق النّعمان باللّون الأبيض والأرجواني، والسّوسن الأزرق متعنقداً جانب الطّريق والزّعفران الأصفر على ضفاف النّهر. وكان العشب في عيون من كان قد عبر لتوّه جنوب سوريا أكثر روعة حتّى من الأزهار. كسيت أعلى القمم من جبل النّصيريّة بنبات أخضر بحيث لا يمكن لأيّ منحدر خصيب في السّامرة Samaria أو برّيّة اليهوديّة Judæa أن يتفاخر أمامها.



قلعة الحُصن

ارتفع الطريق ارتفاعاً قليلاً وهبطنا إلى قرية كرديّة، نصفها خيام عربيّة ونصفها سور طيني. ولا بد أنّ يكون سكّانها قد أقاموا في سوريا منذ مدّة طويلة، وذلك لأنّهم كانوا قد نسوا لغتهم الأصليّة ولا يتكلّمون سوى العربيّة، ومثلهم مثل الشّرطيَين فهم يتكلّمون على الرّغم من ذلك بلهجة سريعة تميّز الأكراد. وخلف القرية كان هناك سهل بعرض ثلاثة أميال تقريباً، هو سهل البُقَيعَة Bkei'a، الذي يمتدّ إلى سفوح هضاب جبل النّصيريّة الشّاهقة، ومن أعلى قمّة الجبل تطلّ القلعة الصّليبيّة العظيمة باتّجاه المكان الذي كنّا متّجهين إليه. كانت الشّمس تسطع على أبراجها، ولكن عاصفة سوداء كانت تزحف في الأعلى خلفها؛ استطعنا سماع الرّعد يدمدم في الهضاب، وقد انطلق البرق المرتجّ عبر الغيوم خلف القلعة.

كان الطّريق المباشر عبر البقيعة يستحيل عبوره على الفرسان، بسبب وجود المستنقعات الفائضة فيه، والتي كانت كما قال القرويّون عميقة بما يكفي لتبتلع بغلاً مع حمولته؛ ولذلك

انعطفنا على مضض إلى اليمين، وتقدّمنا شيئاً فشيئاً حول سفوح الهضاب. وقبل أن نذهب بعيداً قابلنا خيّالين خرجا للتّرحيب بنا من قِبل قائم مقام قلعة الحصن، وعندما كانا يلتحقان بنا هبّت العاصفة وغمرتنا بالمطر الغزير. وصلنا سفح الهضاب عند السّاعة الخامسة وقد رُشِشنا بالوحل الذي عبرنا فيه وتبلّلنا بالمطر، وهنا تركتُ قافلتي لتتبع الطّريق، وتسلّقت مع أحد فرسان القائم مقام عبر مسلك منحدر ضيّق خاصّ بالخيّالة يقود مباشرة إلى قمّة الهضبة. وهكذا وصلنا عند الغروب إلى بُرج معتم وسرنا عبر بوّابة عربيّة رائعة إلى ممرّ مقنطر، مبني فوق درج ملتفّ. كان داخله مثل اللّيل تقريباً؛ وسمحت بعض فتحات الرّمي بدخول ضوء الغسق الرّمادي من الخارج، وزوّدت ضوء النهار بأبلغ اعتذار.

مررنا بين فترة وأخرى بمداخل تؤدّي إلى ظلمة كهفيّة. كانت الدّرجات الحجريّة قليلة الارتفاع وعريضة لكن معظمها متكسّرة؛ وتعثّرت الجياد وقعقعت عليها ونحن نصعد أعلى وأعلى، ننعطف زاوية تلو أخرى، وعبرنا تحت مدخل بعد مدخل إلى أن وصلنا أخيراً إلى الفناء المكشوف في وسط الحصن. شعرت وكأنّي كنت أركب مع أحد فرسان الملكة الجنّيّة Fairy Queen ونصف متوقّعة أن أرى كتابات على الأقواس تقول: «كوني جسورة! كوني جسورة! ولكن غير متهوّرة!»، لكن لم يكن هناك ساحر في قلب القلعة – لا شيء سوى حشد من القرويين يمدّون رقابهم إلى الأمام لرؤيتنا، والقائم مقام مبتسماً وهو يعلن بودّ بأنّه لم يكن ليقبل بالتّفكير في أن يدعني أنصب مخيّماً في ليلة عاصفة ومبلّلة كتلك، وكان قد جهّز مأوىً لي في البرج.

إنّ قائم مقام قلعة الحصن رجل متميّز بالأدب، اسمه عبد الحميد بك رفعة زاده، قدِم هو وعائلته من مصر، حيث لا يزال الكثير من أبناء عمومته موجودين هناك. وهو يسكن في أعلى برج في القلعة حيث كان قد جهّز غرفة ضيوف على نحو ملائم وقد زُوّدت بالسّجّاد وديوان، وسرير له أربعة أعمدة وخزانة ثياب من خشب نفيس بباب مزوّد بمرآة تكسّر زجاجها إلى قطع صغيرة أثناء نقلها على جمل من طرابلس حيث كان من المستحيل على المرء أن يرى أصغر زاوية من وجهه من خلالها. كنت مبلّلة حتّى الأعماق، ولكن كان يجب مراعاة واجبات اللّباقة الاجتماعيّة الجيّدة، وحتّموا علينا الجلوس على الدّيوان

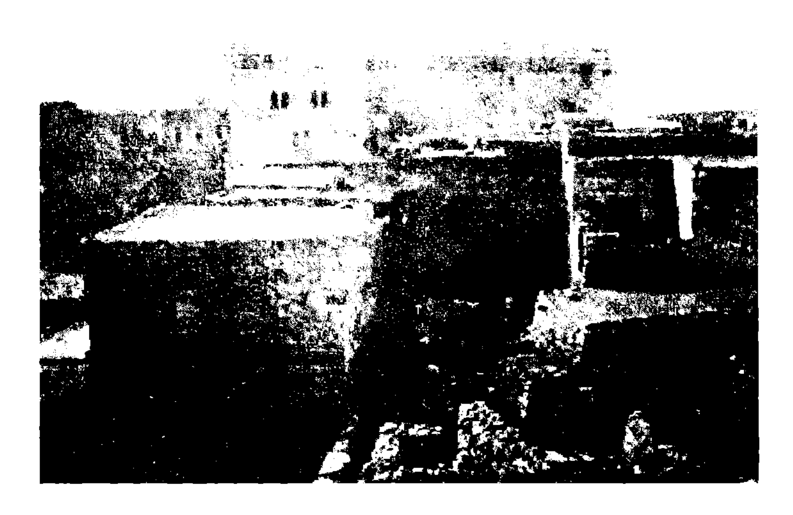
وتبادل عبارات مهذّبة بينما كنت أشرب كؤوس شاي خفيف. كان مضيفي مشغول البال وراغباً بوضوح في المحادثة الجارية - وذلك لسبب جيّد، كما استنتجت فيما بعد - ولكن عند إجابتي على تحيّته الأولى أطلق تنهيدة ارتياح وهتف:

«الحمد لله! جنابك تتكلّمين العربيّة. فقد كنّا خائفين بأنّنا لن نتمكّن من التّكلّم معك، ولقد دعوت مسبقاً سيّدة سوريّة تعرف الإنكليزيّة لتقضي المساء معنا من أجل التّرجمة».

واصلنا حديثاً غير مترابط لمدّة ساعة بينما كانت الرّطوبة تنفذ أكثر وأكثر بشكل كامل عبر معطفي وتنّورتي، ولم يكن ذاك إلاّ بعد وصول البغال بفترة طويلة والقيام بتنزيل حمولتها، حيث نهض القائم مقام واستأذن بالمغادرة قائلاً إنّه سيتركني كي أستريح. وفي الحقيقة، فقد سرنا اليوم لمدّة طويلة؛ وقد استغرق البغّالة إحدى عشرة ساعة حتّى وصلوا إلى قلعة الحصن. وبالكاد كان لديّ وقت لأبدّل ثيابي المبلّلة قبل أن أسمع قرعاً متحفّظاً على الباب الدّاخلي معلناً وجود مجموعة النّساء.

فتحتُ الباب في الحال، وأذنت لخادمة عذراء وزوجة القائم مقام وسيّدة مهذّبة أنيقة حيّتني بإنكليزيّة منمّقة جدّاً. كانت السّيدة الأخيرة تلك هي: السّت فريدة، الزّوجة المسيحيّة لمسّاح الأراضي الحكوميّة الذي هو مسيحي أيضاً. كانت قد تلقّت تعليمها في مدرسة تبشيريّة في طرابلس، ولم يستمرّ جهلي وقتاً طويلاً من حقيقة أنّها كانت كاتبة، وأنّ أعظم عمل لها كان ترجمة «آخر أيّام بومباي» إلى العربيّة. كانت زوجة القائم مقام امرأة شابّة بخدّين مثل التّفّاح، والتي يمكن أن تكون جميلة لولا أنّها بدينة على نحو غير طبيعي. كانت زوجته الثّانية؛ تزوّجها قبل شهر أو شهرين فقط، بسبب وفاة زوجته الأولى أمّ أطفاله. كانت خجولة جدّاً حيث مضى بعض الوقت قبل أن تغامر بفتح شفتيها وتتكلّم بحضوري، ولكن أنقذت السّت فريدة الوضع فتدفّقت بالكلام بلسان مهذار بالإنكليزيّة والعربيّة وتأكيد بمرح عن طريق تصرّفها الصّحيح لكونها مسيحيّة. كانت امرأة مرحة وذكيّة، ولقد استمتعتُ بصحبتها إلى حدّ بعيد أكثر من تمتّعي بصحبة مضيفتي. وعلى أيّة حال، فقد كانت الكلمة الأولى التي غامرت الخانم بالتّلفّظ بها هي كلمة ترحيب، حيث سألتني متى أفَضّل تناول العشاء. أجبت بحماس بأنّني أفضّله بأسرع ما يمكن، وعبرنا فناءً موحلاً ودخلنا غرفة مُدّت

فيها مائدة طعام سخيّة ووافرة. وهنا انضمّت إلينا سيّدة جليلة قُدمت لي كـ «صديقة جاءت كي ترى جنابك (تتفرّس في جنابك)» وجلسنا جميعاً لتناول أفضل عشاء مع جمع يُعدّ على الأقلّ أفضل منكّه لهذا العشاء، الذي هو حساء سميك وأربعة أطباق ضخمة من اللّحم والخضار، توّجت بحلوى أرز (أرز بالحليب) في نهاية الطّعام.



قلعة الحصن، داخل القلعة

عندما انتهى العشاء عدنا إلى غرفتي، وأحضروا كانوناً مليئاً بالفحم ونراجيل للسّيدات، وجلسنا لدردشة مسائيّة. رفضت السّيدة العجوز الجلوس على الدّيوان قائلة بأنّها معتادة جدّاً على الجلوس على الأرض، وجلست أقرب ما يكون إلى الكانون ومدّت يديها المعروقتين فوق النّار المتوهّجة. كانت ترتدي ثياباً سوداء، وغطّت رأسها بقطعة شاش بيضاء سميكة لفّتها بشكل جيّد على رأسها وجبينها، ثمّ حول ذقنها ممّا أعطاها شكل رئيسة دير عجوز في أخويّة دينيّة. خارج الغرفة البرجيّة كانت الرّيح تعصف والأمطار تضرب على النّافذة الوحيدة، ودار الحديث بشكل طبيعي عن الأعمال المرعبة وهذا النّوع من القصص المتهامس بها حول الجريمة والموت التي لا بدّ أنّها روّعت الأشباح في تلك الغرفة المظلمة لعدّة قرون وقرون. أصابت القائم مقام مأساة عائليّة رهيبة قبل عشرة أيّام:

فقد أُطلق نار على ابنه بيد زميله في المدرسة في طرابلس في شجار صبياني - وبدت النّسوة يفكّرن بأنّه ليس من غير الطّبيعي أن يؤدي غضب صبيّ مفاجئ إلى نتيجة كتلك. تمّ استدعاء القائم مقام برقيّاً؛ وكان قد نزل الطّريق الجبليّ الطّويل والخوف يقبض قلبه أن يجد الولد ميتاً، وكان حزنه أكبر من أن يستطيع تحمّله. هذا ما قالته السّت فريدة.

هزّت العجوز الجليلة نفسها فوق الكانون وتمتمت:

«القتل هنا مثل شرب الحليب! يا الله! لا يوجد إلا أنت».

هبّت عاصفة منعشة من ريح حول البرج، واستأنفت المرأة المسيحيّة القصّة.

قالت، وقد أومأت برأسها نحو المرأة التي قرب الكانون: «هذه الخانم تعلم أيضاً ما الذي يُبكي. فقد قتِل ابنها في مثل هذا الوقت في الجبال من قِبل لص ذبحه بسكّينه، وقد وجدوا جثّته ملقاة عارية قرب الطّريق».

انحنت الأم ثانية فوق الفحم، وأضاء الوهج وجهها المسنّ المتعب.

تأوّهت: «القتل مثل إراقة الماء! يا رحيم!».

كان الوقت متأخّراً عندما تركتني النّسوة. عرضت إحداهنّ أن تقضي اللّيلة في غرفتي، لكنّني رفضّت بلطف وحزم.

استيقظت في اليوم التّالي على صوت الرّعد وحبّات البَرَد تقرع على مصراع نافذتي. لم يكن هناك في هذه الحالة سوى قضاء أربع وعشرين ساعة أخرى تحت سقف القائم مقام مع الامتنان لوجود سقف نلجأ إليه اليوم. قمت باستكشاف القلعة من كلّ أطرافها بقناعة كبيرة للطّفل الأبدي الذي يعيش في روح كلّ منّا ويشعر بالكثير من السّعادة في الأبراج المحصّنة والشّرفات المفرّجة للقلعة أكثر من أي تذكار آخر من العصور القديمة. قلعة الحصن كبيرة جداً بحيث أن نصف سكّان القرية يسكنون في أقبية الحصن[1]، بينما

---

(1) هذا صحيح، ولقد قام الفرنسيون إبّان انتدابهم على سوريا (1920-1945) بإخلاء قلعة الحصن، وخصّوها بأعمال ترميم وافية ودراسة معماريّة وأثريّة بديعة قام بها الآثاري الشهير پول ديشان Paul Deschamps وربما نقوم بترجمته للسلسلة يوماً ما. واسم القلعة بالفرنسية:

تحتـلّ الحاميـة العسـكريّة الأبـراج العلويّة. ترتفع أسـوار الحصن من خنـدق داخل صفّ التّحصينـات الأوّل، وهو الصّفّ الذي عبرنـاه في اللّيلة الماضية عند الرّواق المقنطر. يقيم جزّار الحصن عند مدخل السّور الدّاخلي؛ ويذبح كلّ صباح شاة على العتبة، ويخطو هؤلاء الذين يخرجون عبر بركة دم وكأنّ بعض الذّبائح البربريّة تقدّم يوميّاً عند المدخل.



نوافذ قاعة الطّعام

يحـوي الحصن كنيسـة صغيـرة حُوّلت الآن إلى مسـجد، وقاعة طعـام بنوافذ على الطّـراز القوطي، وقد سُـدَّت الزّخرفة الشّـجريّة بأحجار لتحمي هـؤلاء الذين يقيمون داخلهـا مـن البرد. ويشـكّل البـرج الذي أقمـت فيه جزءاً مـن خطوط الدّفـاع الأعلى ويرتفـع فوق ثلاثـة طوابق من الأقبية. يقود ممـرّ ضيّق فيه إلى قمّة السّـور ويؤدّي إلى حجـرة واسـعة ورائعة، يوجـد خلفها برج دائري يحتوي غرفة مسـتديرة مسـقوفة بقبّة رباعيّة، زُوّدت بنوافذ بارزة بحُلي معماريّة ورديّة الشّكل وأخرى بارزة حول الأقواس. والحصن هو «قلعة الفرسـان» kerak of the Knights لتاريخ الحروب الصّليبيّة. كان يعود لفرسان المشـفى (الإسبتاريّة) Hospitallers، وقد جعله المعلّم الأكبر للمنظمة

Le Crac des Chevaliers أي قلعة الفرسان.

The Grand Master of the Order مقرّه. وقام السّلطان المصري الملك الظّاهر بأخذه منهم وجدّده، ووضع رَنكه الجذل فوق البوّابة الرّئيسيّة.

وهو واحد من الحصون العديدة الأكثر مثاليّة التي تشهد على الاختلاط الغريب للحماسة النّبيلة والتّعصّب والطّموح والجريمة التي اجتمعت لتكوّن تاريخ الحملات الصّليبيّة - وهي صفحة لا تستطيع الأمّة المسيحيّة النّظر إليها دون أن تشعر بالخجل أو أن تقرأها دون الشّعور بالشّفقة العفويّة المنتزعة من شجاعة غير مُجدية. ذلك لأنّ الموت من أجل سبب لا قيمة له هو قمّة الهزيمة. وترتبط قلعة الحصن Kerak إلى حدّ بعيد بفنّ العمارة العسكريّة في جنوب فرنسا، لذلك فهو يحمل آثاراً من تأثيرات شرقيّة حيث أنّ نظامه العظيم غير معيّن، على الرّغم من أنّ فرسان الهيكل خضعوا له على نحو كامل أكثر من فرسان المشفى Hospitallers بكثير. ومثل القلاع العربيّة المعاصرة فإنّ الأسوار تزداد سماكتها كلّما اتّجهت نحو الأساسات لتشكّل منطقة محصّنة منحدرة من مبنى متين يحميهم من هجوم نقّابي الخنادق، ولكن كانت الأبراج الدّائريّة بنتوئها الكبير من خط السور فرنسيّة الملامح بشكل كلّي. قيل إنّ الصّليبيين وجدوا قلعة على قمّة الهضبة وأخذوها من المسلمين، ولكني لم أجد أيّة آثار لعمل أقدم من أعمالهم. تُعدّ أجزاء من البناء الحالي متأخّرة عن أيّام الصّليبيين، وعلى سبيل المثال، هناك بناء ضخم عند الخندق الدّاخلي نُقشت على جدرانه أشكال أُسود لا تشبه الأسود السّلجوقيّة.

نزلت بعد الغداء أخوض في الهضبة الموحلة إلى القرية وعرَّجت على بيت السّت فريدة وزوجها. كان هناك زوج آخر من المسيحيين، كان الرّجل صاحب الصّندوق، الذي أعتقد أنه أمين الصّندوق. تحدث الرجلان عن أحوال الفقراء في سوريا. قال مسّاح الأراضي: لا أحد يموت من الجوع، وتابع بالقيام بحساب الميزانيّة السّنويّة للفلاّح العادي. يمكن لأفقر الفلاّحين أن يكسبوا من ألف (1000) إلى (1500) قرشاً في السّنة (ما يعادل سبعة إلى إحدى عشرة ليرة إنكليزيّة)، ولكنّه لا يحتاج للنّقود ما عدا ضريبة الرّأس ليشتري بديلاً عنه من أجل الخدمة العسكريّة. ويعدّ اللّحم رفاهيةً غير معروفة؛ ويكلّف برميل السّمن (وهو زبدة دسمة) ثمانية أو عشرة قروش على

الأكثر؛ وهو يساعد في جعل البرغل والحبوب الأخرى مستساغة المذاق، ويبقى عدّة أشهر.

وإذا قلَّت الحبوب أو السّمن فعلى الفلاح الخروج إلى الجبال أو إلى المناطق المكشوفة (الخالية من الشّجر) التي ليس لها مالك، ويجمع الأوراق الصّالحة للأكل أو يستخرج الجذور. وهو يبني بيته بيديه، وليس هناك تجهيزات أو فرش في داخله، ولا تكلّف الأرض التي يقف عليها أيّ شيء. وفيما يتعلّق بالملابس فماذا يحتاج؟ زوجاً من قمصان من الكتّان، وعباءة صوفيّة كلّ سنتين أو ثلاث سنوات، وشالاً قطنياً للرّأس. نادراً ما يُترك المريض والمسنّ دون عناية؛ وذلك لأنّ عائلاتهم تعتني بهم في حال كان لديهم عائلات، وإذا لم يكن لديهم أقارب فبإمكانهم دوماً كسب الرّزق عن طريق التّسوّل حيث أنّه في الشّرق لا أحد يرفض أن يعطي شيئاً ما في حال طُلب منه ذلك، على الرّغم من أنّ الفقراء نادراً ما يعطون نقوداً.



قلعة الحُصن، جدران السّور الدّاخلي

والقليل من الفلاّحين يمتلكون أرضاً خاصّة بهم؛ فهم يعملون مقابل أجر في ممتلكات الرّجال الأغنياء. والدّنادشة Danadishch هم ملاّك الأراضي الرّئيسيون حول قلعة الحصن، وقد جاؤوا من طرابلس. حتّى مدة قريبة لم تكن الحكومة تشغل القلعة؛ فهي تعود لعائلة من الزعبيّة Za'bich، التي امتلكتها لمدّة مئتي عام، ولا تزال تسكن في بعض الغرف على السّور الخارجي. وهنا تدخّل أمين الصّندوق وقال إنّه حتّى السكّان المسلمون يكرهون الحكومة العثمانيّة، ويفضّلون في النّهاية أن يُحكموا من قبل الأجانب، حتّى ولو كانوا كفّاراً- مفضّلين الإنكليز، وذلك لأنّ الرّخاء الاقتصادي في مصر كان له انطباع عميق في أذهان السّوريين.

❊ ❊ ❊

في ذاك المساء أرسل لي القائم مقام رسالة يسألني فيها إذا كنت أرغب في تناول العشاء لوحدي أو أن أشرّفه هو وزوجته بالذّهاب عندهما، وطلبت منه أن يمنحني الخيار الأخير. وعلى الرّغم من رغبته في أن يكون مضيفاً جيّداً فقد كان حزيناً واضح التّأثّر وصامتاً أثناء المراحل الأولى من تناول العشاء، إلى أن طرقنا موضوعاً سحبه من ذكرى حزنه. وخرج الموت القوي لينقذنا بكلمات على شفاههم جَبَرت القلوب الكسيرة لأجيال الإنسانيّة. كان القائم مقام ملمّاً بشكل جيّد بالأدب العربيّ وكان يحفظ قصائد الشّعراء الجاهليين عن ظهر قلب، وعندما وجد بأنّ لديّ معرفة ضئيلة بهم وحبّاً كبيراً لهم أخذ يورد بيتين إثر بيتين. لكن ذوقه الخاصّ كان مع الشّعراء الأكثر حداثة؛ وواضح أنّ المتنبّي من القرن العاشر كان شاعره المفضّل. كانت بعض النّار القديمة لا تزال تدخن من شعر المتنبّي وقد اشتعلت مرّة أخرى عند قراءة القائم مقام للقصيدة المشهورة التي يتحدّث فيها عن مُتع الشّباب:

وفي الجسم نفسٌ لا تشيب بشيبه — ولو أنّ ما في الوجه منه حرابُ
لها ظفرٌ إن كل ظفر أعدّه — ونابٌ إذا لم يبق في الفم نابُ
يغيّر مني الدّهرُ ما شاء غيرها — وأبلغ أقصى العُمرَ وهي كعابُ
تركنا لأطراف القنا كلَّ لذّةٍ — فليسَ لنا إلا بهنَّ لعابُ

أعـزُّ مكانٍ في الدّنا سَـرجُ سابحٍ وخيـرُ جليسٍ فـي الأنـام كتابُ

ختـم القائـم مقام كلامه قائلاً: «وسـعادتك يجب أن تعطـي دون ريب تلك الأبيات اعتباراً كبيراً».

عندما عدنا إلى غرفة الضّيوف سألني فيما إذا كان يستطيع أن يقرأ آخر قصيدة له، التي نظمها بناء على طلب من طلاّب الكلّيّة الأميركيّة في بيروت[1] (المؤسّسة الأكثر شهرة من نوعها في سوريا) للاحتفال بذكرى سنويّة كانوا على وشك إقامتها. قام أوّلاً بتقديم رسـالة الطّلاّب التي صيغت بعبارات منمّقة ومن بعدها أوراقه من المخطوطة، وألقى أشعاره بتوكيد لطيف لأسلوب إلقاء شرقي متوقّفاً من وقت لآخر ليوضح المعنى التّام لاستعارة أو ليعطي توضيحاً لبعض الأبيات الصّعبة. كان موضوعه عن تمجيد التّعلّم، لكنّه أنهاها على نحو غير منطقي بمديح مقيت باعث على الغثيان للسّلطان، وهي فقرة كان فخـوراً بها بشـكل كبير. وبقـدر قدرتي على الحكـم فلم يكن شـعراً عظيماً جدّاً، ولكـن مـاذا في ذلك؟ فليس هناك عزاء في المحنة مثل الكتابة، وخلال أقلّ من سـاعة كان القائـم مقـام قد نسـي مصيبته ودخل في مناطـق لا يوجد فيها لا مـوت ولا نواح. قدّمـت له تعاطفاً ومديحاً بنقاط مناسـبة وضحكت عندما وجدت نفسـي أتكلّم الهراء المعتاد نفسـه في العربيّة والذي اعتدنا أن نفعل مثله غالباً في الإنكليزيّة. خلت نفسـي جالسـة في قاعة اسـتقبال في لندن بدلاً من وجودي بين الجدران العارية لبرج صليبي، والعالم بعد ذلك كلّه، مصنوع من مادّة واحدة في كلّ بقعة وكلّ مكان.

---

(1) كانـت هـذه الكليّة تدعى آنذاك منـذ تأسيسها في عام 1866: الكليّة الإنجيليّة البروتستانتيّة Syrian Protestant College ثم تحوّل اسمها إلى: الجامعة الأميركيّة في بيروت American University of Beirut وهي أعرق جامعة في بلاد الشام، ومكتبتها هي الأفضل والأوسع وبخاصة فيما يخصّ المراجع التاريخيّة النّفيسة، ولولا هذه المكتبة (وتعرف باسم: نعمة شديد يافث) لما كان لي بالإمكان استكمال المصادر النّادرة لهذه السّلسلة، ومنها هذا الكتاب بالذات.



عرب من الفلّاحين

كانت لا تزال تمطر في صباح اليوم التّالي، فارتديت ملابسي وتناولت فطوري بنفس كسيرة، ثمّ كما لو قام أحدهم بتحريك عصا سحريّة فانقشعت الغيوم، وانطلقنا عند السّاعة السّابعة والنّصف في إشراقة شمس رائعة. عند أسفل منحدر الهضبة حيث تقع القلعة هناك دير إغريقي في وسط أيكة من شجر زيتون. وعندما وصلت إليه ترجّلت عن حصاني ودخلت لأحيي رئيس الدّير ولاحظت متعجّبة! فقد كان من معارفي القدماء وكنت قابلته في دير معلولا قبل خمس سنوات عندما كنت عائدة من تدمُر. كان هناك ابتهاج عظيم في تلك الصّدفة السّعيدة، وتمّ التهام الكثير من المربّى والماء والقهوة احتفالاً بذلك.

كان الدّير قد أعيد بناؤه فيما عدا كنيسة صغيرة على شكل سرداب ويقولون إنّ عمرها 1200 سنة. دُعمت القبّة بزوجين من الأعمدة الرّخاميّة وكسرت عند رأس

العمود وتمّت إعادتها داخل الجدار، وهو مخطّط غريب أكثر منه جذّاب. تأتي تيجان الأعمدة على شكل رؤوس زهر الزّنبق من نمط بيزنطي. وتوجد عند حاجز المذبح قطعة من الخشب الحديث محفورة بشكل جيّد كما توجد بعض قطع الآجر الفارسيّة الجميلة. وفي الجدار الغربيّ للدّير شاهدت باباً ضيّقاً جدّاً بين الدعامتين اللتين من الممكن بصعوبة الدّخول عبرهما، قال الرّهبان إنّه من المستحيل لأيّ شخص فعل ذلك إلاّ إذا كان نقي القلب. ولم أخاطر بسمعتي لمحاولة تخطّي الممر.

تابعنا سيرنا عبر وديان مشجّرة ضحلة مليئة بالأزهار؛ كانت أشجار الفاكهة قد أزهرت وأورقت أشجار صريمة الجدي ووقفنا لتناول الغداء عند مقبرة صغيرة جدّاً تحت بعض أشجار البلّوط المتبرعمة. امتدت أمامنا نقطة عصيبة من مسيرة يومنا. استطعنا رؤية حصن قلعة صافيتا على التّلّة المقابلة، ولكن كان هناك نهر فائض بيننا، وكان الجسر قد جُرف وأفادت الأخبار بأنّه من المستحيل الخوض في النّهر. عندما وصلنا ضفاف الأبرش Abrash رأينا النّهر يندفع إلى أسفل مجراه العريض، مشكلاً تيّاراً متواصلاً من المياه المتدفّقة والتي لا يمكن لبغل محمّل العبور خلالها. سرنا ما يقارب السّاعتين نحو أسفل النّهر، وبالكاد كنّا في الوقت المناسب عند الجسر الثّاني، جسر الواد Jisr el Wad، الذي كان في المرحلة الأخيرة من التّداعي، حيث كانت القنطرة الوسطى بالكاد متماسكة مع بعضها.

كانت التّلال في الضّفّة المقابلة مغطّاة بأشجار خفيضة وقد انتشر بينها السّوسن الجميل (Stylosa) منتصباً رافعاً تويجاته الزّرقاء، وأفعم المشهد بالحيويّة بشكل أبعد بالسّير المستمر لنصيريين بثياب بيضاء متّجهين إلى الأسفل نحو الجسر. كان معي شرطي كردي اسمه عبد المجيد وكان يعرف الجبال وكلّ سكّانها بشكل جيّد. وعلى الرّغم من أنّه كان مسلماً فلم تكن لديه أيّة مشاعر سيّئة ضدّ النّصيريين، وكان يجدهم دائماً أناساً غير مؤذين، وحيّاه كلّ واحد منهم بتحيّة ودّيّة عندما مررنا. أخبرني بأنّ جماعة الثّياب البيضاء كانت ذاهبة إلى مأدبة جنائزيّة لشيخ عظيم مشهور بتقواه بشكل كبير، وكان قد توفّي قبل أسبوع. تُقام المأدبة في مناسبات كهذه بعد يومين من الجنازة،

وعندما يأكل الضّيوف الطّعام يقوم كلّ رجل وحسب إمكانيّته بدفع مبلغ من المال لعائلة المتوفّى يتراوح ما بين ليرة إلى خمس أو ستّ ليرات. أن تمتلك سمعة مقدّسة في جبل النّصيرية فذلك أمر جيّد مثله مثل التّأمين على الحياة عندنا.

وبسبب دورتنا الطّويلة لم نصل إلى صافيتنا إلاّ عند السّاعة الرّابعة. رفضتُ ضيافة قائد الشّرطة، ونصبت خيامي على مرتفع من الأرض خارج القرية. كانت القلعة التي كنّا قد رأيناها من بعيد هي كلّ ما قد تبقّى من القلعة البيضاء التّابعة لفرسان الهيكل. وهي تقع على قمّة التّلّة مع القرية المتجمّعة عند سفحها، ومن قمّتها يمكن رؤية البحر المتوسّط والأجزاء الشّماليّة للسّاحل الفينيقي. رأيت عملة فينيقيّة بين العملات القديمة التي قُدّمت لي لشرائها؛ والتّمثال البرونزي الصّغير لإله فينيقي - كانت صافيتا على الأرجح حصناً داخلياً لأمّة التّجار. كانت القلعة مفاجأة معماريّة بارعة، لم تحتوِ على قاعة مقنطرة أو حجرة طعام كما يمكن أن يُتوقّع، ولكن على كنيسة كبيرة تشغل قلب القلعة. كانت الصلاة قد أقيمت عندما دخلنا وكان النّاس كلّهم في صلواتهم بتوهّج أحمر من غروب الشّمس الدّاخل عبر الأبواب الغربيّة. ومعظم سكّان صافيتا مسيحيّون، ويتكلّم كثير منهم اللّغة الإنكليزيّة بلهجة أميركيّة قويّة اكتسبوها بينما كانوا يجمعون ثروتهم الصّغيرة في الولايات المتّحدة الأميركيّة. واكتسبوا بالإضافة إلى اللّهجة ألفة ورفع كلفة في الكلام لم تعجبني وفقدوا بعض السّلوكيّات الجيّدة التي نشؤوا عليها.

قام عبد المجيد ضابط الصّف الذّكي بمرافقتي في تجوالي عبر البلدة، منقذاً إياي من قبضات المسيحيين المتأمركين، بارماً شاربيه العسكريين الكبيرين في وجه الصّبيان الصّغار الذين فكّروا بالسّير خلفنا، ولاحق انسحابهم باقتباسات لأظرف مفردات التّوبيخ التي حظيتُ شرف سماعها.

وفي وقت متأخّر من المساء أُعلِن عن وصول زائرَين وتبيّن في النّهاية أنّ أحدهما كان ضابطاً (قائد وحدة عسكريّة) والآخر موظّفاً أرسِل من قِبل القائم مقام في دريكيش للتّرحيب بي ودعوتي لقريته. ذهبنا نحن الثّلاثة معاً في الصّباح الباكر مع جنديين يسيران خلفنا، في طريق ملتفّ عبر التّلال، ووصلنا بعد ساعتين إلى وادٍ ملؤه

بساتين أشجار الزّيتون، حيث تقع قرية دريكيش على المنحدرات فوقها. وجدنا عند المجموعة الأولى من أشجار الزّيتون ثلاثة أشخاص مهمّين يرتدون الفراك (سترة رجّاليّة سوداء تبلغ الرّكبتين) وطرابيش ينتظروننا لاستقبالنا؛ وعندما اقتربنا امتطوا جيادهم وساروا في الموكب، الذي ازداد عدده أكثر ونحن نصعد شارع القرية من قِبل وجهاء آخرين على ظهور الجياد، إلى أن وصل مجمل عددهم إلى ثلاثين خيّالاً. استقبلنا القائم مقام عند باب بيته مرتدياً الفراك ومبتسماً بالرّسميات، وقادني إلى قاعة مقابلاته الرّسميّة حيث شربنا القهوة. وفي ذلك الوقت كانت المجموعة تتألّف من ثلاثين شخصاً تقريباً من الأشخاص ذوي الشّأن. وعندما انتهى الاستقبال الرّسمي أخذني مضيفي إلى بيته الخاصّ وقدّمني إلى زوجته، وهي امرأة دمشقيّة فاتنة، وتحدّثنا حديثاً قصيراً، كوّنت من خلاله معرفة شخصيّة جيّدة عنه.

يدين رضا بك العابد Riza Beg el 'Abid بوضعه الحالي إلى حقيقة أنّه ابن عم عزّت باشا، حيث لا يوجد أيّ رجل ينتمي إلى أسرة هذا الرّجل المهم إلاّ وكان له منصب قائم مقام على الأقلّ. وربّما كان رضا بك قد تسلّق السّلّم الوظيفي دون مساعدة؛ فهو رجل يتمتّع بصفات لطيفة على نحو استثنائي، معطاء بوفرة مع الذّكاء الحادّ الذي يتميّز به السّوريّون. والعائلة التي ينتمي إليها هو وعزّت من أصل عربي، ويدّعي أفرادها بأنّهم ينحدرون من قبيلة الموالي Muwali النّبيلة، الذين كانوا أنسباء هارون الرّشيد، وعندما تقابل عزّت باشا فمن الأفضل أن تهنّئه أيضاً لقرابته بذاك الخليفة، على الرّغم من أنّه يعرف أنك تعرف بأنّ الموالي ينكرون ادّعاءاته بازدراء ويعدّونه من إحدى سلالات عبيدهم كما يدلّ على ذلك اسمه العَبْد (الرقيق)[1]. وسواء كانوا عبيداً أو أحراراً فإنّ أفراد أسرة العابد قد ارتقوا على نحو بارع بحيث وضعوا أقدامهم فوق رقبة الأتراك، وسيبقون في ذاك الوضع الخطر إلى أن يسقط عزّت من عليائه.

أبدى وجه رضا بك طابعاً جدّيّاً عندما ألمحتُ إلى صلته العالية، وأدرك بأن تلك القوّة التي يتمتّع بها من قِبل عائلته كانت مسألة جدّيّة، وكيف أنّه سيكون سعيداً لو انسحب

---

(1) لم تفهم المؤلفة معنى اسم العابد وظنته العبد، والفارق للقارئ العربي واضح تماماً.

إلى منصب أقلّ شهرة من منصب القائم مقام! ومن يعرف فربّما كان الپاشا يفضّل أن يستبدل بمتع القسطنطينية منزلة أكثر تواضعاً وأكثر أماناً – وهو افتراض بإمكاني أن أؤمن بسهولة أنّ له أساساً جيّداً، وإذا كانت الشّائعات صحيحة فإنّ عزّت قد نال كلّ ما يتوقّع الإنسان أن يحصل عليه على نحو معقول في السّنوات التي كان يتمتّع فيها بالعطف الملكي. أكّدتُ للقائم مقام بأنّ عليّ الإصرار على تقديم احتراماتي للپاشا عندما أصل إلى القسطنطينية، وهو مشروع نفّذته في النّهاية بنجاح بحيث يمكنني الآن أن أعدّ نفسي في نفوذ عزت الخاصّ كواحدة ممّن يودّون أن يتمتّعوا بدوام صداقته.

في هذا الوقت أصبح الغداء جاهزاً، وانسحبت الخانم وقدِم ضيوف آخرون وكان عددهم أربعة، الضابط والقاضي واثنان آخران. كانت مائدة عامرة ووجبة غنية ممتعة. جرى الحديث بمرح حول المائدة، بتعزيز وتشجيع القائم مقام الذي عالج موضوعاً تلو الآخر بسلاسة مصقولة لرجل يعيش العالم. وعندما تكلّم كان لديّ سبب لأدرك مرّة أخرى كم هي لطيفة ورقيقة اللّهجة العربية السّوريّة الحديثة عندما تُستخدم من قِبل رجل مثقّف. كان كلام القاضي مقيّداً بالمكانة المرموقة التي يحوزها كمعلّم، والتي ألزمته أن يقيّد نفسه بلغة القرآن.

وقبل أن أغادر، أوضح القائم مقام بأنّي مازلت ضيفته لتلك اللّيلة. قال إنّه علِم أنّني كنت أرغب أن أخيّم عند آثار معبد حصن سليمان[1] Husn es Suleiman، وكان قد أرسل قافلتي إلى هناك تحت حراسة ضابط، وأرسل أيضاً خدماً ومؤناً مع أحد أبناء عمّه

---

(1) حصن سليمان موقع أثري في سوريا على بعد 14 كم من مصيف دريكيش، وهو الاسم العربي للحصن والمعبد واسمه القديم باثيوسي، وعنده أقام سكان جزيرة أرواد (أرادوس) الذين كانوا يسيطرون على جزء كبير من الساحل السوري، أقاموا معبدا لعشتروت وبعل، والحصن عبارة عن سور بحجارة ضخمة ويتوسط المكان هيكل للمعبد الأثري. أنشأه الآراميون عندما استوطنوا هذه المناطق الجبلية الحصينة هرباً من هجمات الآشوريين، وتم تكريسه في البداية لعبادة الإله بيتو خيخي. ثم جدده السّلوقيون هيكلاً هلّينياً قديماً لزيوس، وجدّده الرّومان لعبادة جوپيتر، قبل أن تبنى فيه كنيسة في العهد البيزنطي. أما اسمه الحالي فيعود للسكان المحليين الذين أثارت حجارته الضخمة اعتقادهم أن جنّ النبي سليمان هم من بنوا هذا المعبد وقاموا بنقل الأحجار الضخمة التي تزن أكثر من 70 طنًا.

ليسهر على راحتي ومتعتي. كان عليّ أن آخذ الضّابط معي، وراغب[1] أفندي الحلو Rā'ib Effendi el Helu، وهو شخص آخر من حفلة الغداء، وتمنّى أن أكون راضية. شكرته كثيراً على لطفه، وصرَّحت بأنّي تأكّدت من أصله العربي من خلال ضيافته الكريمة.

ارتفع طريقنا إلى قمّة تلال النّصيريّة وتابع على طول القمم، وهو طريق صخري جميل. كانت الهضاب منحدرة إلى حدّ بعيد، وعارية من كلّ شيء إلاّ من أعشاب وأزهار، ما عدا أماكن متفرّقة هنا وهناك على القمم الأكثر علوّاً، كانت هناك مجموعة من أشجار بلّوط كبيرة مع مزار نصيري بقبّة بيضاء تلمع وسط أغصانها الجرداء. ليس لدى النّصيريين مسجد ولا كنيسة، لكنّهم يبنون على قمّة كلّ جبل مزاراً يشير إلى وجود قبر. وعلى الرّغم من أنّ هؤلاء الأموات المتوّجين عالياً قد غادروا عالم الأحياء فإنّهم لم يتوقّفوا عن أداء أعمالهم الجيّدة، حيث أنّهم يُعَدّون حُماة الأشجار التي تحيط بأجسادهم، وتبقى هذه الأشجار من بين نوعها وحدها سليمة لا تمسّ.

يقع حصن سليمان Husn es Suleiman عند رأس وادٍ عالٍ في الجبال. ويتفجّر من تحت أسواره نبع صافٍ ويتدفّق حول منبسط من الأرض طبيعي من مرج أخضر عليه نصبنا خيامنا. ترتفع الهضاب على نحو مدرّج خلف المعبد، وينحدر الوادي بشدّة تحته، وتتمتّع الآلهة التي كُرّست لها بعزلة الجمال الخرِب لمزارها. كُسيت الأسوار حول مبنى الحرم (Temenos) باللّبلاب، وأزهار البنفسج في الشّقوق. تقود أربعة مداخل إلى السّاحة، حيث تقع بقايا المعبد في منتصفها، وعلى مساحة قصيرة إلى الجنوب من المصلّى توجد أساسات مذبح، وعليها أحرف يونانيّة جميلة مخصّصة لتروي كيف قام قائد مئة روماني يدعى ديتشيموس Decimus من فيلق فلاڤيوس Flavian (?) Legion هو وابناه وابنته بإنشاء مذبح من النّحاس لإله معبد بايتوكايتشِه Baitocaicé ووضعه على منصّة بناء في عام 444. والتّاريخ وفق التّقويم السّلوقي Seleucid ويوافق عام 132 للميلاد. وممّا يؤسف له أنّ ديتشيموس Decimus لم يرَ ضرورة ذكر اسم الإله الذي بقي غير محدّد في كلّ النّقوش.

والمدخل الشّمالي عبارة عن باب ثلاثي يقع مقابل باحة ثانية مستطيلة مسوّرة، وهي

---

(1) كذا قرأنا الاسم، وكتابتها له بشكل Ra'ib تبقى مبهمة.

تحـوي معبداً صغيـراً في الأجزاء المقابلة في الزّاوية الجنوبيّة الشّـرقيّة، والجزء النّاتئ نصف الدائري من الحَرَم في الجدار الشّمالي. وربما حمت هذه في النّهاية تمثال الإله غيـر المعروف، وذلك بسـبب وجود درجـات تصعد إليه وإلى أساسـات الأعمدة في كلّ جانب. وفي بعلبك كرّس المسـيحيّون الموضع لبناء كنيسـة تقع في السّاحة الثّانية عنـد الزّوايـا القائمة من الحرم الشّـمالي. والحجارة التي بُنيت بها الأسـوار الخارجيّة للسّاحتين كبيرة جدّاً، فقد يبلغ طول بعض الحجارة أحياناً من ستّة إلى ثمانية أقدام.

والتّزيينـات أكثـر بسـاطة مـن تلـك الموجودة فـي بعلبك، لكـن بعـض التّفاصيل المحـدّدة تذكّـر على نحو صريـح بالأخيرة والتي أغرتنـي بأن أخمّن أنّـه من الممكن أن يكـون المهنـدس المعماري ذاتـه هو الذي قام بالعمل في المكانيـن، وأنّه هو الذي نحت الجانب الأسـفل من الحُلي المعماريّة للبايتوكايتشِـه Baitocaicē وهي النّسور والملائكـة التـي اسـتخدمها لتزييـن عتبـة معبـد جوپيتـر Temple of Jupiter. يقول الفلاّحـون إنّـه توجـد أقبية عميقـة تحت كلّ مـن المعبد والسّـاحة. ويجـب أن يكون الموقع يستحقّ الاستكشاف الدّقيق بشكل كبير، على الرّغم من أيّ معلومات إضافيّة، لن تزيد من جمال المزار العظيم في التّلال.



الهيكل في حصن سليمان

لـم يقصّر القائم مقام في وعده. فقد أقيمت مذابـح للخراف والدّجاج وقدّمت لنا، وبعـد أن أكلنا أنا وأصدقائي جاء دور الجنـود والبغّالين كلّ في دوره. وتوهّجت نيران المعسـكر على نحو متألّق في هواء الجبل الصّافي الجادّ، كانت السّـماء حيّة بالنّجوم، وتدفّـق الجـدول مقرقراً فوق الحجـارة؛ وكان كلّ ما عدا ذلك صامتـاً لأنّ كلبي كُرت Kurt قد ضاع. لقد شرد في مكان ما بين التّلال وذهب ولن يعود. فُجعتُ لفقده، لكنّي نمت بسلام أكثر من أيّ وقت مضى.



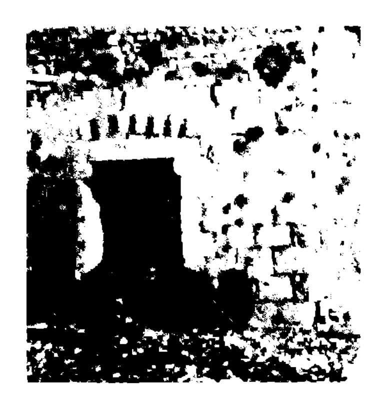
البوّابة الشّمالية في حصن سليمان

فـي اليوم التّالي، سـار معنا جميع أصدقائي والجنود إلـى الحدّ من منطقة دريكيش وهنـاك تركونـا بعـد أن أخرجـوا نصيريـاً بالإكراه من بيتـه في عين الشـمس Ain esh' Shems وأمـروه بمسـاعدة الضّابـط الـذي رافقنـا لإيجـاد أفضل طريق صخـري إلى مصيـاف[1] Masyād. وبعـد أن ذهبوا استدعيت ميخائيل وسـألتُه عن رأيـه في يومنا الممتع، فأعطى مرادفات عربيّة للازدراء في وجهه وقال:

«لابدّ أنّ جنابك تظنّين بأنّنا كنّا ضيوف القائم مقام. سـأخبرك ضيفة من كنتِ. لا بدّ أنّك شاهدتِ أولئك الفلاّحين النّصيريّة البؤساء الذين باعوك القطع الأثريّة في الخربة

(1) تصّر المِس بِل على كتابة اسم مصياف بالدّال، وهو مجرّد تصحيف.

هـذا الصّبـاح؟ لقد كانوا هـم مضيفوك. فكلّ ما قُـدِّم لك أُخِذ منهـم دون مقابل. وهم الذين جمعوا الحطب من أجل إشـعال النّار، والدّجاجات كانت لهم، وكذلك البيض والحمـلان كانت من قطعانهـم، وعندما رفضتِ أخذت المزيد قائلـة: «لقد اكتفيت»، قام الجنود بالاسـتيلاء على خروف آخر وحملوه معهم. والمبلغ الوحيد الذي استلمه الفلاّحون كان المتاليك التي أعطيتِهم إيّاها مقابل نقودهم القديمة. «ولكن إذا سمعت منّـي»، تابع ميخائيل على نحو غير منطقي، «عليكِ أن تسـافري عبر أراضي الأناضول دون أن تأخـذي ربع مجيدي مـن محفظتك. وعليكِ أن تذهبي من قائم مقام إلى آخر، وعليهم أن يستضيفوكِ في كلّ مكان - هذا النّوع من الضّيافة لا يتطلّع إلى دفع النّقود، فهم يرغبون من سـعادتك أن تقولي كلمة طيّبة بحقّهم عندما تذهبين إلى القسطنطينية. وسـوف تنامين فـي بيوتهـم وتأكليـن على موائدهـم، كما حصـل عندما سـافرتُ مع ساكس[1] Sacks....».



بوّابة المدينة في مصياف

ولكـن إذا كان علـيّ أن أروي كلّ ما جرى عندما سـافر ميخائيل مع مارك سـايكس Mark Sykes فلن أذهب أبداً إلى مصياف Masyād.

كان اليوم يوماً جديراً بالذّكر بشـكل كبير وذلك بسبب صعوبة الطّرقات الاستثنائيّة

(١) يعني به مارك سايكس.

وبسبب جمال الأزهار. وقد نَمَت على قمم التّلّة أزهار بخور مريم الألبيّة باللّون الزّعفراني والأصفر والأبيض والأرجواني، وكانت كلّ المنحدرات مغطّاة بأزهار الرّبيع؛ ونمت في المناطق الأكثر انخفاضاً أزهار السّوسن والنّرجس وأزهار السّحلبيّة باللّون الأسود والأخضر، والسّحلب الأرجواني، وشقائق النّعمان الأزرق متعدّد البتلات في أيكة من الآس. عندما وصلنا سفوح المنحدرات الأكثر ارتفاعاً أرسلتُ النّصيري سيّئ الحظّ إلى بيته مع منحة بسيطة، وكانت مقداراً كبيراً أكثر ممّا توقّع بالنّسبة لمغامرة كان قد بدأها بأمر من الجنديّة. وصلنا مصياف في السّاعة الثّالثة وخيّمنا عند سفح القلعة.

كانت مصياف Masyād مخيّبة للأمل. فقد كان هناك في الواقع قلعة كبيرة، ولكن حسب تقديري، فهي من عمل العرب وكذلك كانت الأسوار حول البلدة. يمرّ طريق روماني من حماة عبر مصياف، ولا بدّ أن يكون هناك آثار رومانيّة باقية في البلدة، لكنّي لم أر شيئاً. ولقد سمعت بقلعة في أبو قبيس Abu Kbesh على قمّة التّلال ولكنّها، كما قيل، تشبه قلعة مصياف، لكنّها أصغر فحسب، ولم أصعد إليها. ولقلعة مصياف سور خارجي وحصن داخلي يتمّ الوصول إليه عبر ممرّ مقنطر مثل ذاك الذي في قلعة الحصن. والحصن القديم مهدّم تقريباً، واستُبدل بقاعات وغرف مبنيّة على نحو تعوزه المتانة من قِبل الإسماعيليين قبل بضع مئات من السّنين عندما احتلّوا المكان، هكذا أخبرني رجل مسنّ يدعى الأمير مُصطفى ملحِم الذي ينتمي إلى الطّائفة وعمل كدليل لي. قال أيضاً إنّ عائلته كانت قد سكنت القلعة لمدّة سبعمئة أو ثمانمئة عام، ولكن من المحتمل أنّه كان يكذب على الرّغم من أن الإسماعيليين في الحقيقة كانوا قد قطنوها منذ هذه المدّة. وقد بُنيت في البوّابات الخارجيّة بعض تيجان أعمدة وأعمدة لا بدّ أن تكون قد أخذت من الأبنية البيزنطيّة. وتوجد بعض النّقوش العربيّة القديمة داخل البوّابة الثّانية والتي تسجّل أسماء بناة ذاك القسم من التّحصينات، لكنّها كانت مهشّمة.



تاج عمود في مصياف

أخبِرتُ فيما بعد بأنّه عليّ أن أزور مكاناً يدعى دير الصليب Deir es Sleb، حيث يوجد هناك كنيستان وقلعة صغيرة. وهو غير محدّد في الخارطة، ولم أسمع أيّ شيء عنه إلى أن أصبح خلفي بمسافة بعيدة. شاهدتُ قطعاً من الرّصيف، الطّريق الرّوماني، عندما سافرت في اليوم التّالي إلى حماة. وعند الجسر الذي يقع فوق نهر السّارود[1] Sarut، الذي يبعد أربع ساعات ونصف عن مصياف، توجد رابية ملفتة للنّظر مقابل القمّة ذاتها بجدار خشن مبنيّ من حجارة كبيرة. وجد ميخائيل عملة نقديّة رومانيّة في أخاديد الحقل عند سفح التّلّة. ومن النّهر كان أمامنا ساعتان ونصف من سفر مملّ حيث كنّا أصبحنا أكثر إشراقاً بوجود تركي مسنّ جذّاب، وهو موظّف تلغراف انضمّ إلينا عند الجسر وأخبرني قصّته ونحن نسير.

«أفندم، موطن أسرتي قرب صوفيا Sofia. أفندم، أنت تعرفين المكان؟ ما شاء الله إنّها أرض رائعة! وحيث كنت أسكن كانت الأرض مغطّاة بالأشجار، وأشجار الفاكهة

(1) السّارود مصطلح آرامي شائع في أرياف سوريا والعراق، ومعناه: مجرى مائي موسمي تجري فيه المياه في الشتاء من الينابيع أو مباشرة من المطر، ويجفّ في الصيف.

وأشجار الصّنوبر في الجبال وحدائق من الورد في السّهل. أفندم، الكثير منّا جاء إلى هنا بعد الحرب مع المسكوف Muscovite بسبب أنّنا لم نقبل أن نقيم تحت أيّة يد إلاّ يد السّلطان، وعاد الكثير منّا مرّة أخرى بعد أن جاؤوا. أفندم؟ ما هو السّبب؟ فهم لا يمكن لهم أن يعيشوا في بلاد ليس فيها أشجار؛ بالله، هم لم يستطيعوا تحمّلها».

عند هذا الحدّ من الحديث وصلنا حماة.



تاج عمود في مصياف



الفصل العاشر

أنت لا ترى حماة إلاّ عندما تصبح عندها تماماً - وليس هناك عبارة أخرى يمكن أن تصف الوضع للقادم الجديد. فالعاصي يتدفّق في تلك النّقطة بقاع عميق وتمتدّ المدينة كلّها مختبئة بين ضفافه. تمتدّ أمامك حقول الحبوب في السّـهل الرّئيسـي دون انقطاع إلى أن تصل إلى تشـابك مقابر حقيقي - عندما وصلنا كان عيد الموتى الأسـبوعي قد عاد مرّة أخرى، وكانت المقابر محتشـدة بالأحياء كما هي محتشـدة بالأموات. انقطع السّـهل فجأة تحت أقدامنا، ووقفنا على حافّة جرف والمدينة كلّها ممتدّة أمامنا، يسـير العاصي مع عجلات (نواعير) فارسـيّة[1] ضخمـة، وتوجد خلفه التّلّة المخروطيّة التي تقـع عليها قلعة حماة وإيبيفانيـا Epiphancia ومن يعلم ماذا يوجد بالإضافة إلى ذلك، حيث يعتبر الموقع أحد أقدم المواقع في العالم.

(1) تصرّ المؤلفة على تسمية النّواعير بالعجلات الفارسيّة، بينما هي ابتكار آرامي صرف يعود إلى ما قبل الميلاد، والآراميّون هم السكّان الأصليون لسوريا. وأقدم صورة للناعورة نجدها في لوحة من الفسيفساء يعود تاريخها للقرن الرابع قبل الميلاد، وقد تم العثور عليها في مدينة أفاميا الأثرية بالقرب من حماة، وهي موجودة اليوم في حديقة المتحف الوطني بدمشق.



ناعورة في حماة

برز جنديّان من الأرض ووقفا قربي ليوجّهاني إلى أرض للتّخييم، ولكنّي كنت متعبة ونزقة، وهي حالة ذهنيّة تحدث أحياناً في التّرحال، وبدت المواضع الجافّة بين البيوت حيث أخذانا كريهة بشكل واضح. وأخيراً أعلن التّركي الرّائع، الذي لم يكن قد تركنا بعد، بأنّه يعرف مكاناً جميلاً يمكن أن يسرّني؛ قادني على طول حافّة الجرف إلى النّهاية الشّماليّة القصوى من المدينة، وهنا أرانا مرجاً معشِباً كان موقعاً جميلاً كما نرغب. يخرج العاصي من المدينة الواقعة تحتنا وسط بساتين من أشجار مشمش مزهرة، وتمتد أشعّة الغروب الذّهبيّة خلف المآذن، وترتفع ناعورة ضخمة عالياً بأغنية جميلة للنّهر.

تُعدّ حماة النّهاية الحاليّة للخطّ الحديدي الفرنسي[1]، وهو مركز المتصرّف. أمدّني الخطّ الحديدي بدليل ومرافق في شخص رئيس المحطّة السّوري، وهو رجل ضئيل الجسم جاهل ومغرور كان قد تعلّم في مدرسة تبشيريّة واحتقر التّحدّث بالعربيّة عندما يستطيع أن يتأتئ بالفرنسيّة. أعلن أنّ اسمه هو السّيّد كبيس Kbes وأنّ هوايته علم الآثار، ولأنّه يمكن

(1) كتبت المؤلفة: سوف تبقى الحدّ النّهائي لمدّة شهر أو شهرين فقط ثم سيمدّ الخطّ حتّى يصل إلى حلب.

أن يثبت نفسه ليكون الأفضل في مجال الفكر الحديث، فقد نسب كلّ قطعة أثريّة في حماة إلى الحثّيين Hittites، سواءٌ كانت رأس عمود بيزنطي أو مخرمة تزيينيّة عربيّة.

اصطدمت مع المتصرّف فوراً بسبب إصراره على أن يزوّدني بثمانية جنود ليقوموا بحراسة مخيّمي في اللّيل، وهي قوّة منافية للعقل، آخذة بعين الاعتبار بأنّي كنت أكتفي بحارسين في كلّ المناطق الرّيفيّة. لذا يمكن أن تكون كثرة الحرّاس أمراً مزعجاً بشكل لا يحتمل، وذلك لأنّهم سوف لن ينقطعوا عن الكلام طوال اللّيل ولن يعرف المخيّم الهدوء، فقد صرفت ستّة منهم على الرّغم من احتجاجهم بأنّه يتوجّب عليهم إطاعة الأوامر العليا. وقد وفّقوا بين أوامر المتصرّف وبين رغبتي وذلك بقضاء اللّيلة في مسجد مهدّم على بعد ربع ميل، حيث استطاعوا الاستمتاع باستراحة ممتازة متحلّلين من المسؤوليّة.



القبّة في مسجد حماة

أمّا بالنّسبة للجمال الطّبيعي فلا يمكن لأيّ مدينة في سوريا أن تتفوّق على حماة. حيث يُعدّ النّهر العريض بنواعير مائه عنصر جمال متواصل، وتُعدّ أبراج المساجد المخطّطة بالأبيض والأسود مظهراً رائعاً من العمارة الهندسيّة، والطّرقات الضّيّقة

المقبّبة إلى حدّ ما مصائد لإمساك تأثيرات الشّمس والظّلّ منقطعة النّظير، والأسواق التي لم تشوّه بعد بالأسقف الحديديّة كما فُعل بشكل كبير في دمشق وحمص مما شوّه خصوصيّة تلك الأسواق.

كان الجامع الكبير في مركز المدينة كنيسة بيزنطيّة. وكان يسهل تلمّس آثار أبواب ونوافذ البناء القديم في جدران المسجد؛ ومن المرجّح أنّ القسم الأسفل من المئذنة الغربيّة كان قاعدة برج قديم؛ والسّاحة مليئة بأعمدة بيزنطيّة وتيجان أعمدة، ودُعّمت القبّة الصّغيرة الجميلة بثمانية أعمدة كورنثيّة، والتي لاحظت على واحدة منها المؤثّر البيزنطي في زخرفة أوراق الأقنثا المتفتّحة. عندما كانت هذه النّباتات أضعف من أن تبقي الأوراق في قالب عمودي، فقد قام النّحّاتون بمدّها برفق حول رأس العمود، وكأنّ الأوراق قد التوت بفعل الرّيح، وكان التّأثير جميلاً بشكل رائع وغريب.

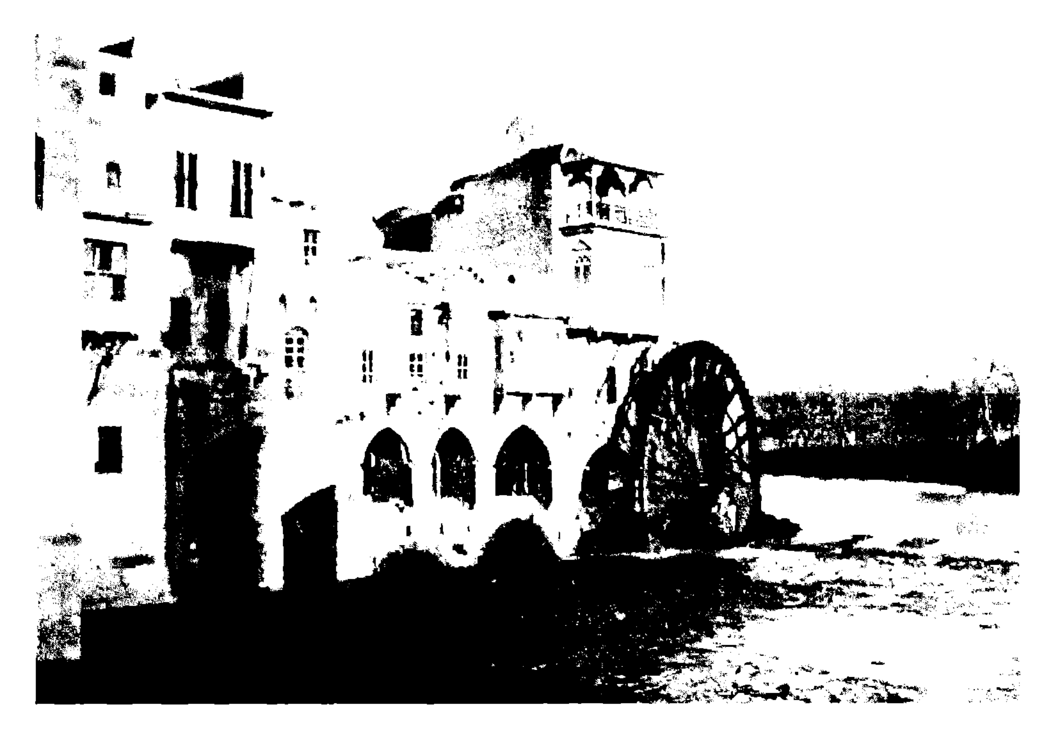
تسلّقت أنا وكبيس Kbes تلّة القلعة ووجدنا أن مساحة القمّة كبيرة، ولكن كانت حجارة التّحصينات المقطوعة كلّها قد نقلت واستخدِمت في بناء البلدة في الأسفل. وانطباعي هو أنّ عزلة التّلّة لا يُعدّ أمراً طبيعيّاً، لكنّه جرى بالحفر عبر الأرض الرّأسيّة والتي تنتأ نحو الخارج في الوادي، وبذلك تفصل جزءاً منها عن سلسلة التّلال الأساسيّة. وإذا كان هذا ما حصل فعلاً فلا بدّ أنّه عمل عظيم من أعمال العصور القديمة، ذلك لأنّ الخندق عريض وعميق.

كانت الفائدة الرّئيسيّة في ذاك اليوم في حماة قد تمّت من قِبل السّكّان. تتمتّع أربع عائلات مسلمة قويّة فقط بمكانة ارستقراطيّة في البلدة وهي: عظم زاده 'Azam Zadeh، طيفور Teifur، الكيلاني Killani، البَرازي Barazi، وقد قابلت أحد أفراد العائلة الأخيرة في دمشق. ربّما يصل مجموع الدّخل السّنوي لكلّ عائلة إلى ما يقارب ستّة آلاف ليرة ذهبيّة (جنيهاً)، وهذا يأتي كلّه من الأرض والقرى، حيث توجد حركة تجاريّة صغيرة في حماة. وقبل أن تكون الحكومة العثمانيّة قد وطّدت سلطتها كما هي الآن، كانت هذه العائلات الأربع هي سادة حماة والمناطق المحيطة؛ ولا تزال تحتفظ بشأن معتبر في إدارة البلدة، ويترك لهم موظّفو السّلطان تقريباً التّصرّف وفق طريقتهم الخاصّة، والتي هي ملتوية غالباً.

هنـاك قصّة شـريرة قديمة تروى كثيـراً عن آل عظـم زاده 'Azam Zadeh، ولا أحد ينكرهـا من قبل العائلة على حدّ علمي. كان هنا فيما مضى رجل من آل العظم اشـتهى مثـل الملـك آحـاب Ahab كَرْم جاره لكـنّ مالكه رفض بيعـه له[1]، وعليه قـام الرّجل العظيم بوضع مكيدة. لقد أمر بقتل أحد عبيده وقطّعه إلى قطع صغيرة ودفنه على نحو غيـر عميـق جدّاً في زاوية من المُلكيّة المشـتهاة، وبعد انتظار مدّة مناسـبة قام بإرسـال رسـالة إلى مالك الأرض قائلاً: «لقد دعوتني كثيراً لشـرب القهوة معك في بسـتانك؛ وسوف آتي. كن جاهزاً». سُـرَّ الرّجل بتلك الملاطفة وجهّز مأدبة. جاء اليوم الموعود ومعـه السـيّد من آل العظـم. كانت المائدة قد مُدّت تحت تعريشـة، ولكـن عندما رآها الضّيف أعلن أنّ المكان المختار لا يناسـبه، وذهب مباشـرة إلى المكان الدّقيق حيث كان عبده قد دُفِن. احتجّ المضيف قائلاً بأنّها كانت زاوية وضيعة قريبة من أكوام النّفاية، لكـن ابـن العظـم ردّ بأنّه كان مرتاحـاً، ثمّ بدأ بتنـاول الطّعام. فجأة رفع الضّيف رأسـه وقال: «أشمّ رائحة كريهة»، قال المضيف: «يا سيّدي إنّها من أكوام النّفاية». «لا»، قال الآخر: «هناك رائحة أخرى»؛ ثمّ اسـتدعى خدمه وأمرهم بحفر الأرض التي يجلسـون عليها. ظهر جسـد العبد المقسّـم إلى أرباع وتمّ التّعرّف إليه، ووجّه الاتّهام بالقتل إلى صاحب البستان واعتُقل وأخِذت ممتلكاته من قِبل السّيّد العظم على سبيل التّعويض.

---

(1) القصة معروفة في التوراة، سفر الملوك الأول، 22-21: كان للملك آحاب بن عمري ملك السّامرة، جارٌ اسمه نابوت اليزرَعيلي وله كَرمٌ بجوار قصر الملك، فأراد آحاب أن يضمّه إلى قصره ويجعله بستاناً، وطلب شراءه من نابوت بثمن غال من الفضة. فأبى الرّجل، فعمدت زوجة الملك إيزابل الصّيدونيّة (وهي من عبدة البَعل) إلى حيلة أنها أرسلت الى شيوخ بلدة نابوت وطلبت منهم ان يتهموه بالتجديف الى الله والملك وبرجمه عقاباً له مع أبنائه، ففعل الشيوخ ذلك وحاكموه بتهمه التجديف ثم حملوه الى خارج البلدة ورجموه وأبناءه. فأخبرت إيزابل الملك فقام إلى الحقل واستولى عليه، لأن العادة كانت أن يستولي الملك على ميراث الأموات الذين لا ورثة لهم. فغضب الله على آحاب وإيزابل، وأمر النبي إيليا أن يذهب إلى آحاب وهو في الحقل ويقول له: «في المكان الذي لحستْ فيه الكلابُ دم نابوت، تلحس الكلابُ دمك أنت أيضاً».



تكيّة الكيلانيّة في حماة

قـال كبيـس Kbes: ولم تتوقّـف هذه الطّـرق المنافية للعدالة حتّـى الآن. فمنذ مدّة قريبة جدّاً سُـرقت كمّيـة من البصل من دكّان يخصّ عبد القـادر العظم في الحيّ الذي يقـع تحت مخيّمي مباشـرة. فجـاء خدم عبد القادر إلى بيت شـيخ الحـارة وطلبوا منه ممتلـكات سـيّدهم، وطالما أنّه لا يعرف أيّ شـيء حـول القضية ولم يسـتطع أن يدلّ من يمكن أن يكون السّـارق، فقد قاموا باعتقاله هو وابنه، وجرحوا الابن برصاصة في يده، ثمّ سحبوا الاثنين إلى ضفّة النّهر، وقاموا بتعريتهما ثم ضربوهما حتّى شارفا على الموت، ثمّ تركوهما ليعودا إلى البيت بشقّ الأنفس. انتشرت الحادثة في جميع أرجاء حماة، ولكنّ الحكومة لم تأخذ أيّ خطوة لمعاقبة عبد القادر.

ذهبـتُ إلى منـزل خالد بك العظم الذي يُعـدّ أجمل بيت في المدينـة، وهو بجمال بيت العظم المشـهور في دمشـق. أدخلني خالد إلى الغرف التـي كانت كل بوصة فيها

مغطّاة بتزيينات متنوّعة بنماذج فارسيّة بجصّ فضّي وأشغال خشبيّة وفسيفساء. فتِحت هذه الغرف على ساحة محاطة برواق مقنطر من أفضل الأعمال العربيّة، مع نافورة في الوسط وأحواض من الحوذان المزهر والنّرجس في الزّوايا. ولنساء بيت العظم سمعة في المدينة، ربما أكثر من سمعة جمال القصر الذي يضمّهن؛ إذ يقال إنّهنّ أجمل النّساء في حماة كلّها.

زرت عائلة الكيلاني أيضاً في منزلهم السّاحر عند نهر العاصي، والتّكيّة الكيلانيّة. وهي تحتوي على ضريح، دُفن فيه ثلاثة من أجدادهم، وغرف تطلّ على النّهر تصخب بدمدمة دولاب فارسي[1] (ناعورة). وذهبت من هناك لزيارة المتصرّف، الذي كان رجلاً مسنّاً محنيّ الظهر ولا يتكلّم سوى اللّغة التّركيّة. وارتحت إلى حدّ بعيد عندما وجدت أنّه لا يحمل أيّ حقد تجاه تصرّفي العنيد في قضيّة الحرس.

وفي طريقنا إلى الغداء قابلنا أفغانيّاً هرِماً مرتدياً ثياباً بيضاء. كان اسمه درويش أفندي Dervish Effendi. أوقف ناظر المحطّة ليسأل عنّي من أكون، وعندما علِم بأنّي إنكليزيّة اقترب منّي بابتسامة عريضة وحيّاني وقال بالفارسيّة: «الإنكليز والأفغان أصدقاء حميمون». وقد كان في الحقيقة يعرف مثلما يعرف الشّعب الإنكليزي - وربّما يعرف أكثر - عن تبادل الزّيارات والمجاملات بين كابول Kabul وكالكوتا Calcutta؛ والمغزى من هذه الحادثة العرضيّة (التي تطوّرت إلى زيارة طويلة ومتعبة ولكن ودّية من درويش أفندي) هو التّقرير الذي يبيّن أنّ ما يحصل في أبعد بقعة من آسيا يُعرف تقريباً فوراً في أبعد نقطة في الجهة الأخرى، ولا أبالغ إذا قلت أنّه إذا عبر فوج إنكليزي على الحدود الأفغانيّة فإنّ السّائح الإنكليزي سوف يتعرّض للسّخرية في شوارع دمشق.

والإسلام هو الرّباط الذي يوحّد الأجزاء الغربيّة مع الأجزاء الوسطى من القارّة، كما لو أنّه التّيّار الكهربائي الذي تُنقَل بوساطته العواطف على نحو فعّال، وتزداد فعاليته في

---

(1) ذكرنا أعلاه أن النّاعورة ليست عجلة فارسيّة، بينما هي ابتكار آرامي صرف يعود إلى ما قبل الميلاد، والآراميّون هم السكّان الأصليون لسوريا.

الحقيقة بسـبب أنّه لا توجد مشـاعر قوميّة محلّيّة يمكن أن توازيـه. فعندما يقول تركي أو فارسـي «بلادي» فإنّه لا يفكّر بالطّريقة نفسها التي يفكّر بها إنكليزي أو فرنسي؛ لأنّ وطنيّتـه مقتصرة على البلـدة التي هو مواطنها، أو على الأغلب على المقاطعة التي تقع فيها بلدته، وإذا سـألته إلى أيّ قومية ينتمي سـيردّ قائلاً: «أنا شـخص من أصفهان»، أو «أنا من قونية»، كما هي الحال عندما سيجيب السّوري بأنّه مواطن من دمشق أو حلب - ولقد أشرت سابقاً بأنّ سوريا هي مصطلح جغرافي فحسب لا يربط أهلها أي شعور وطني سوري في صدورهم.

وبالتّالي فمن يسـتمع إلى حديث النّاس في الأسـواق، وأصحاب المحلاّت الذين ترتبط تجارتهم بشكل أساسي بالظّروف المحلّيّة في مناطق بعيدة جدّاً عن بلادهم، أو يسـتمع إلـى البغّالين الذين يحملون أكثر بكثير من طاقـة دوابّهم من البضائع من مدينة إلى مدينة، وتبدو قارّة آسيا كلّها مرتبطة معاً بسلاسل دقيقة من القرابة، وكلّ عمل بسيط من السّياسات الخارجيّة لأوروبا، من الصّين إلى حيث ترغب، ستكون له أهمّيّة كبيرة أو قليلـة علـى نحو دقيق في ميزان الرّأي العام. وليس من مهمّة المتجوّلين أو سـامعي الشّائعات أن يسـتخلصوا النّتائج. وليس بإمكاننا سوى كتابة التّقرير لأيّ شخص يهتمّ أن يستمع لما يقوله هؤلاء الذين يجلسون حول نيران مخيّمنا، أو من يسيرون معنا عبر الصّحاري والجبال، حيث أنّ كلماتهم تشـبه القشّ الذي يطفو على فيض السّياسـات الآسـيويّة، مظهراً مسـرى التّيار. وتتعرّف عليهم الخبرة الشّـخصيّة من خلال البضائع التـي يتاجرون بها والمفردات المسـتعملة في فن إدارة شـؤون الدّولـة. وهم معتادون علـى الحرب والتّفاوض والوسـاطة وفـي الرّعاية الطّويلـة والانتقام المخفـي بعناية. وسـواءٌ كانوا يناقشـون نتائـج العداوة الدّمويّة أو نتائج الحسـد الدّولي فـإنّ تقديراتهم تكون صائبة غالباً وظنونهم قريبة من النّقطة المطروحة على بساط البحث.

بالنّسبة للّحظة الرّاهنة، وحسب المدى الذي وصلت إليه خبرتي، فإنّ اسم الإنكليز يحمـل ثقلاً أكثر ممّـا كان عليه في أيّ وقت مضى. وقد لاحظـت اختلافاً واضحاً بين الموقف العام منّا وبين الذي لاحظته بألم قبل خمس سنوات، من خلال أسوأ اللّحظات

مـن حرب البويـر Boer. ولـم يكن اختلاف المشـاعر نحونا، حسـب ما اسـتطعت أن أحكم من خلال الأحاديث التي سـمعتها، بسـبب انتصارنا في جنوب أفريقيا، بقدر ما يعـود لإدارة اللـورد كرومـر Lord Cromer الرّائعة في مصر، وسياسـة اللورد كُرزون Lord Curzon في الخليج العربي، والتّحالف مع اليابانيين المنتصرين.



تاج عمود في مسجد حماة

* * *

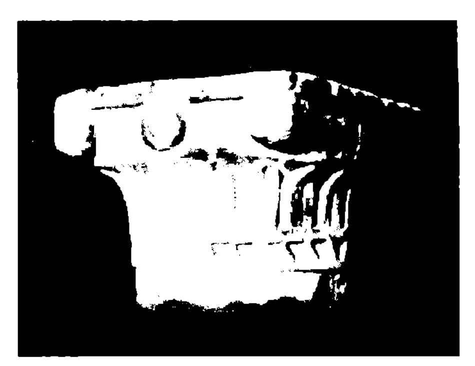
عندما تخلّصت أخيراً من الأفغاني وجلست وحدي على حافّة المرعى الذي يفصل خيمتي عن المدينة الواقعة في الأسفل على بُعد مئات الأقدام، تقدّم شخص مهمّ بعربته ليقدّم احتراماته. كان هذا الشّخص هو المفتي محمّد أفندي. وكان قد أحضر معه رجلاً ذكيّاً من بُصـرى الحرير Bosra el Harir في حوران وكان قد سـافر إلى قبرص ولديه الكثيـر ليقوله (منها أشـياء جيّـدة قليلة) حول إدارتنا هنـاك. كان المفتي رجلاً من نمط قاضي حمص والشّيخ نقشبندي نفسه: العينان الحادّتان والذّكاء الآسيوي الحادّ الذي تميّزه ملامح مشـوهة إلى حدّ ما بدهاء يعادل المكر. أجلس نفسـه على أفضل كرسـي في المخيّم، وأبدى ملاحظة بنوع من الرّضا:

«سـألت: هل تسـتطيعان أن تتكلّما العربيّة؟ وعندما أجابا بنعم أمـرتُ فوراً بتجهيز عربتي وقدمت».

كان كلامه عن اليَمَن، حيث كان قد أُرسِل قبل بضع سنوات ليعيد السّلام بعد الثّورة العربيّة الأخيرة. تحدّث عن رحلة الثّلاثة أيّام من السّاحل في الصّحراء الحارّة المتّقدة، وعن الجبال الدّاخليّة المغطّاة بالأشجار حيث تهطل الأمطار هناك دوماً صيفاً وشتاءً، وعن عناقيد العنب الضّخمة المعلّقة في الكروم، وعن التّنوّع اللاّنهائي للفواكه في البساتين، وعن المدن الكبيرة مثل دمشق المحاطة بتحصينات طينية ضخمة تعود لألف سنة. قال إنّ العرب كانوا سكّان مدن وليسوا بدواً، وقد كرهوا الحكومة العثمانيّة كما هي مكروهة في عدّة أماكن. وعندما خرجتْ جنود السّلطان ضدّهم كانوا معتادين على الفرار إلى الجبال، حيث يستطيعون تحمّل المكوث فيها عدداً غير محدّد من السّنين حسب رأي المفتي؛ ولكنّه كان على خطأ، فقد كانت شهور قليلة كافية ليحرِز جنود السّلطان النّصر، وقد تميّزوا بالجسارة والقدرة على تحمّل المسير في الصّحراء. والثّورة التي أخفقت مثلها مثل ثورات عديدة غيرها، بسبب أنّ القبائل العربيّة تكره بعضها بشكل مرير أكثر من كرهها للعثمانيين. ولكن، بعد إخماد الثّورات في تركية، عادت واندلعت الثّورة مرّة أخرى. أخبرني المفتي أيضاً بأنّهم يجدون في أيّ مكان يحفرونه في حماة أساسات قديمة، حتّى تحت مستوى النّهر.

تبع المفتي صديقي موظّف البرق التّركي الذي ابتهج برؤيتي مخيّمة بشكل جيّد، ثمّ تبعه المتصرّف مواصلاً قلقه وتقدّم مترنّحاً في مركبته عبر حبال خيمتي. أعارني المتصرّف عربته الڤيكتوريّة حيث يمكنني زيارة أجزاء المدينة التي تقع على الضّفاف الشّرقيّة لنهر العاصي، وركبت العربة أنا وكبيس مع اثنين من المرافقين كانا لا يرتديان على نحو استثنائي أسمالاً بالية. يُدعى الحيّ الشّرقيّ بالحاضر Hādir، وهو الحيّ البدويّ بشكل أساسي؛ وتقنّعت المدينة العربيّة هنا بالكلام الصّحراوي القوي، والأسواق تعجّ بالعرب الذين جاؤوا لبيع القهوة والتّبغ والعباءات المخطّطة. يوجد مسجد متهدّم صغير يقال إنّه سلجوقي يسمّى مسجد الحَيّات Hayyāt، بسبب أعمدة نوافذه الملتوية. وتوجد عند النّهاية الشّمالية للفناء غرفة تحوي تابوتاً من الرّخام لأبي الفداء أمير حماة، العالم الجغرافي المشهور، الذي توفّي في عام 1331 م؛ وقبره منحوت بنقوش جميلة تسجّل التّاريخ وِفق التّقويم الهجري.

أقمتُ دعوة عشاء في تلك اللّيلة لناظر المحطّة، والطّبيب السّوري سلّوم[1]، والكاهن اليوناني. تجاذبنا الحديث حتّى وقت متأخّر من اللّيل، وكان حديثاً أنيساً ممتعاً. كان سلّوم قد تلقى تعليمه في الكلّية الأميركيّة في بيروت، التي منها يأتي جميع ممارسي مهنة الطّبّ كباراً وصغاراً، الذين ينتشرون في جميع أنحاء سوريا. لقد كان مسيحيّاً، ولو أنّه من طائفة مختلفة عن طائفة الكاهن، ويمثّل كبيس Kbes أيضاً طائفة دينيّة أخرى[2]. قال الكاهن: إجمالاً هناك شعور بسيط معادٍ للمسيحيّة في حماة، وكان هناك أيضاً احترام قليل لثيابه؛ حيث أنّه في ذاك اليوم عندما كان يمشي عبر شوارع البلدة قامت بعض النّساء بإلقاء الحصى عليه من سطح منزل، مع بعض الكلمات الجارحة.



تاج عمود في حماة

---

(1) هو توفيق بن ناصيف بن نعمة بن سليمان سلّوم. كان طبيباً معروفاً، ولد في حماة 1872 وكان أبوه قد حلّ بها قادماً من حمص (أو محرِّده) قبل مدة قصيرة. درس الطب في الكليّة الإنجيليّة في بيروت SPC ونال شهادتها، أسره البريطانيون في الحرب العالميّة الأولى بفلسطين، ثم أطلق سراحه ليعمل طبيباً هناك. وبعد ذلك عاد إلى الوطن عام 1919 وعُيّن طبيباً في حماة وأسّس مستشفى صغيراً نما مع الزمن، وبعد ذلك أصبح رئيس أطباء حماة، ونال عدداً كبيراً من الأوسمة، وتوفي عام 1956. كما كان الرّجل شاعراً وله ديوان صغير طبع في عصرنا. ومعنى ذلك أنّ لقاء المس بل به في حماة كان إبّان شبابه وله من العمر 33 عاماً.

(2) ينتمي توفيق سلّوم إلى الطائفة الأرثوذوكسيّة. بينما الكاهن اليوناني يمثّل طائفة الرّوم الأرثوذوكس، والمفترض أنها ذات الطائفة التي ينتمي إليها سلّوم، إلا إنّ كانت تشير إلى طائفة السّريان الأرثوذوكس. أمّا كبيس فيبدو من كلامها أنه كان من الكاثوليك.

وناقش كبيس Kbes المنافع المكتسبة من سكّة الحديد (وهي مؤسّسة سيّئة الإدارة على نحو ملفت للنّظر كما أتخيّل) وقال إنّ حماة من دون شك قد انتفعت منها. ارتفعت الأسعار في السّنتين الأخيرتين، ومن ناحية أخرى فإنّ اللّحم الذي لم يجد سوقاً له يُرسل الآن إلى دمشق وبيروت، وهو نفسه عندما جاء أولاً كان قادراً على شراء خروف بفرنك واحد وهو الآن مضطر لدفع عشر فرنكات.

زوّدني متصرّف حماة بأفضل ضابط حصلت عليه في كلّ رحلاتي، وهو الحاج محمود Hajj Mahmud، مواطن من حماة. إنه رجل طويل القامة عريض المنكبين، كان في حرس السّلطان الخاصّ في القسطنطينية، وقام بأداء الحجّ ثلاث مرّات، مرّة كحاج ومرّتين كجندي مرافقة. ركِب برفقتي عشرة أيام، وأخبرني خلالها من القصص ما يملأ مجلّداً كاملاً، يصوغها بكلام جميل مثير للصّور الذّهنيّة حيث كان أستاذاً في ذلك. كان قد سافر مع عالم آثار ألماني، وتعلّم الميول الغريبة للأوروبيين في قضيّة الآثار والنّقوش.

قلتُ له عند قلعة المضيق Kal'at el Mudik: «إذا كنت تريد أن تنظر إلى حجر برسم حصان مع راكبه نُقش عليه، بنور الله! أستطيع أن أريك إياه!» تعجّب كثيراً بسبب ذلك، وكافأني بمبلغ من المال. «بالله وبمحمّد نبيّ الله! أنت أيضاً يا ستّ، عليك أن تحدّقي فيها».

والآن فإنّ مأثرة محمود هذه كانت لافتة للنّظر أكثر مما يمكن أن يظهر عند النّظرة الأولى، لأنّ إحدى الصّعوبات الكبيرة في البحث عن القطع الأثريّة القديمة تكمن في أنّ الأشخاص في الأماكن البعيدة لا يميّزون النقش عندما يرونه. ولن تندهش إذا علمت بأنّهم سيخفقون في الكلام عن الفرق بين النقش وبين الصّدوع الطّبيعيّة وبين تأثير الطّقس على الأحجار؛ ولكنّك تفاجأ عندما تسأل فيما إذا كان يوجد أحجار عليها صور رجال وحيوانات، وسيجيب محدّثك قائلاً: «والله! لا نعلم كيف تكون صورة رجل». وفضلاً عن ذلك، فإنّك إذا أريته كِسرة من نقش بأشكال منحوتة بدقّة عليها،

وكما هو الغالب فلن تكون لديه أيّة فكرة عما يمثّله النّقش.

ولكن كان رفيق محمود الرّحالة الأكثر ذِكراً على لسانه يابانياً وكان قد أُرسِل من قِبل حكومته، كما علمت فيما بعد، ليدرس ويكتب تقريراً عن طرق البناء المستخدمة في الأجزاء الشّرقيّة من الإمبراطوريّة الرّومانيّة - وكيف وجد الباحثون اليابانيون وقت فراغ ليشغلوا أنفسهم أثناء احتدام الحرب. ولقد استثير فضول محمود بوضوح بالرّجل الضّئيل، الذي كان بنو وطنه ينتزعون النّصر من الرّوس الفزعين.

«كان يركب طوال النّهار، ويكتب في كتبه طوال اللّيل. ولم يكن يأكل شيئاً إلاّ قطعة من خبز ويشرب شاياً، وعندما كانت تعترضه قضيّة رفضٍ كان يقول: نو، نو، Noh! Noh!) لأنّه لم يكن يتكلّم لا العربيّة ولا التّركيّة) وهذه كلمة فرنسيّة»، هكذا ختم محمود كلامه.

لاحظْتُ بأنّها لم تكن كلمة فرنسيّة وإنّما إنكليزيّة، وقد أعطت محمّوداً مادّة للتّفكير، وذلك لأنّه أضاف حالاً:

«لم نكن قد سمعنا باسمهم قبل الحرب، ولكن ولوجه الحقيقة! كان الإنكليز يعرفونهم».

❋ ❋ ❋

يشكّل نهر العاصي نصف دائرة بين حماة وقلعة شيزر (سيجَر) Kal'at es Seijar، وسرنا عبر وتر القوس، راكبين عبر السّهل المحروث الممحِل ذاته الذي عبرته في طريقي من مصياف Masyād. كانت القرى المبنيّة بالطّين والأكواخ التي تشبه خلايا النّحل منثورة فوقه؛ ولقد قابلنا مثل هذا الطّراز من القرى المقبّبة على السّهول طوال الطّريق إلى حلب، وهي لا تشبه أيّاً من القرى الأخرى فيما عدا تلك التي تظهر في الصور الإيضاحيّة لكتب الرّحلات في أفريقيا الوسطى. عندما يزداد غنى الشّخص يضيف خليّة أخرى ثمّ أخرى لبيته، إلى أن يصبح لديه ربّما دزّينة أو أكثر من الخلايا تتوضع حول الفناء، وتكون بعضها لسكناه هو وعائلته، وبعضها لماشيته، وتشكّل واحدة منها مطبخه، وواحدة مخزناً لقمحه.

رأينا على مسافة قرية تدعى مْحَرْدِه Al Herdeh، وقال محمود إنّها كانت قرية

مسيحيّة ينتمي أهلّها كلّهم للكنيسة اليونانيّة. عاش السّكّان معاً بسعادة وازدهروا إلى أن أصابتهم بليّة تتمثّل باكتشاف مبشّر لهم، فوزّع الكرّاسات الدّينيّة وحوّل ما يقارب ستّين شخصاً إلى الكنيسة الإنكليزيّة، ومنذ ذلك الحين لم تمرّ لحظة راحة دون شجار في مُحَرْدِه.

وبينما كنّا نسير أخبرني محمود قصصاً عن الإسماعيليّة والنّصيريّة. قال عن المذكورين أوّلاً بأنّ صورة الآغا خان موجودة في كلّ بيت، وقال: لكنّهم يعبدون امرأة. وكل مولودة أنثى تولد في السّابع والعشرين من رجب تُعزل وتُحفظ لتكون تجسيداً للألوهيّة، وتدعى الرّوضة Rozah. وهي لا تعمل، ولا يُقصّ شعرها ولا أظافرها أبداً، وتشارك عائلتها في التّقدير الممنوح لها، ويرغب كلّ رجل في القرية بحمل قطعة من ثيابها أو شعرة من جسدها مطويّة في عمامته، ولا يُسمح لها بالزّواج.

قلت: «ولكن ماذا لو رغبت في الزواج؟».

أجاب محمود: «سيكون مستحيلاً، لن يتزوّجها أحد، وهل يستطيع أحد أن يتزوّج الإله؟».

معروف أن لدى الطّائفة كتباً مقدّسة، ولكنّها لم تقع في أيدي دارسين غربيين. وقد رأى محمود وقرأ إحداها - وهي كلّها في مديح الرّوضة Rozeh، حيث تصف كلّ جزء من أجزاء جسدها بالمديح. قال إنّ الإسماعيليّة يقرؤون القرآن أيضاً. وروى قضايا أخرى غريبة، مثل مرويّات هيرودوتوس Herodotus، ولا أجد من المناسب أن أعيدها. يبدو أنّ العقيدة تنبعث من تقاليد غامضة من عبادة عَشتار Astarte، أو من تلك العقيدة الأقدم والأكثر عالميّة من الجميع، ألا وهي تبجيل الإلهة الأم the Mother Goddess؛ ولكنّ الاتّهامات بقلّة الاحتشام التي حيكت ضدّها والتي جمعتها كانت لا أساس لها[1].

(1) كتبت المؤلفة: إنّ صيغة الجمع الإسماعيلي في اللّغة العاميّة هي سَمعولي، ولا أعلم فيما إذا كانت هذه بالصّيغة الأدبيّة، ولكنّها الصّيغة التي كنت أسمعها دوماً.

أمّا عن النّصيريّة فقد كان لدى محمود الكثير ليقوله، لأنّه كان على اطّلاع جيّد بالهضاب التي يعيشون فيها، حيث كان موظّفاً لعدّة سنوات في جمع ضريبة الرّأس بين أبناء الطّائفة. وقال إنّهم لا يقرؤون القرآن ولا يعرفون اسم الله. وقد روى قصّة غريبة سوف أرويها لأنّها تستحقّ:

«يا ستّ، حدثت القصّة في الشّتاء عندما كنت أجمع الضّريبة. والآن في شهر ديسمبر يقوم النّصيريّة بعمل وليمة كبيرة وهو ما يحدث في وقت عيد المسيحيين نفسه (عيد الميلاد)، وفي اليوم السّابق للعيد، عندما كنت أركب مع اثنين آخرين في الهضاب، هطلت هناك كمّيّة كبيرة من الثّلج ممّا أعاقنا عن المسير لمسافة أبعد، فالتمسنا مأوى عند أوّل قرية في بيت شيخ القرية، لأن هناك دائماً شيخ في القرية، يا ستّ، وشيخ ديني، وينقسم السّكّان إلى مطّلعين (عارفين)، وغير مطّلعين. ولكنّ النّساء لا يعرفن أيّ شيء عن أسرار الدّين، بالله! لأنّ المرأة لا تستطيع أن تحتفظ بسر. استقبلنا الشّيخ بحسن ضيافة وآوانا عنده، ولكن عندما استيقظت في الصّباح التّالي لم يكن هناك أيّ رجل في البيت، لا أحد إلا النّساء. فصحتُ: «بالله وبمحمّد نبيّ الله! ما هذه الضّيافة؟ ألا يوجد أيّ رجل ليصنع القهوة إلا النّساء؟». فأجابت النّساء: «لا نعلم ماذا يفعل الرّجال، لأنّهم ذهبوا إلى بيت شيخ الدّين، ولا يُسمح لنا بالدّخول».

نهضتُ من ثم وذهبت بهدوء إلى البيت ونظرت عبر النّافذة، والله! كان المطّلعون (العارفون) جالسين في الغرفة، وكان شيخ الدّين يجلس في وسطها، وأمامه وعاء مملوء بالخمر وإبريق فارغ. وكان الشّيخ يلقي أسئلة على الإبريق بصوت منخفض، وبنور الحق سمعت الإبريق يجيب بصوت وقال: «Bl. .Bl.». ودون أيّ شك، يا ستّ، كان هذا سحراً. وعندما نظرت، رفع أحدهم رأسه ورآني. وخرجوا من البيت وقبضوا عليّ وأرادوا أن يضربوني، لكنّني صرخت: «يا شيخ، أنا دخيلك!» عندها تقدّم شيخ الدّين ورفع يده، فتركني في الحال كلّ من كان ممسكاً بي. وانكبّ على قدميّ وقبّل يديّ وهدب معطفي وقال: «يا حجّي! إذا لم تخبر أيّ أحد بما رأيت سوف أعطيك عشر مجيديّات!» وبحقّ نبيّ الله (عليه السّلام!) لم أخبر أحداً بذلك حتّى هذا اليوم يا ستّي».



قلعة شيزَر

بعد مسيرة أربع ساعات أتينا إلى قلعة شيزر (سيجَر) Kal'at Seijar. وهي تقع على هضبة حادّة القمّة طويلة مشقوقة في الوسط بنفق صناعي ومنحدرة بجروف عالية حتّى نهر العاصي، الذي يجري هنا في مجرى ضيّق بين جدران من الصّخر. كانت القلعة التي تتوّج الهضبة بين النّفق والنّهر تشكّل مظهراً رائعاً جدّاً من الأسفل. وهناك قرية صغيرة من أكواخ مزدحمة (على شكل خليّة النّحل) عند أسفل الهضبة. ولا بدّ أن تكون بلدة لاريسّا Larissa السّلوقيّة تقبع على المنحدرات العشبيّة نحو الشّمال، ويقدّر ذلك من عدد الأحجار المنحوتة المتفرّقة هناك.

نصبتُ مخيّمي عند الحدّ الأبعد للجسر في أيكة من أشجار المشمش، مكسوة بالثلج مع الأزهار وطنين النّحل. كان العشب مرصّعاً بكثافة بشقائق النّعمان والحوذان قرمزي اللّون. كانت القلعة ملك الشّيخ أحمد السّيجري Ahmed Seijari وهي في حوزة عائلته من ثلاثمئة سنة. ويسكن هو وأبناؤه في عدد من البيوت الصّغيرة الحديثة، المبنيّة بحجارة قديمة في الوسط من الحصون. وهو يمتلك مساحة كبيرة من الأرض وحوالي ثلث القرية، وقُسّم الباقي بنحوٍ غير متساوٍ بين عائلة الكيلاني من حماة والعرب السّماطيّة[1]

(1) السّماطيّة فرقة من لواحق عشيرة الموالي مستقرة في قرى الطّار بناحية محرّدة، وفي القرى المتاخمة للطّار في ناحية قلعة المضيق بقضاء المعرّة، وتعدّ نحو 300 بيت وتتألف من الفرق

Smatiyyeh وهي القبيلة نصف البدويّة التي تسكن في البيوت خلال الشّتاء.

كان معي رسالة تعريفيّة للشّيخ أحمد من مصطفى البَرازي، وعلى الرّغم من أنّ رأي محمود كان أنّي لن أجده في القلعة بسبب وجود مشكلة من زمن طويل بين آل السّيجري والسّماطيّة، فقد تسلّقنا إلى البوّابة وشاهدنا على طول الطّريق بقايا من قنطرة تشبه مدخل قلعة الحصن، وهكذا على كتل من خراب إلى أن وصلنا إلى القرية الحديثة حيث يسكن شيوخ آل السّيجري. سألتُ أين بيت أحمد، فأرشدت إلى باب خشبي كبير محكم الإغلاق. طرقتُ الباب وانتظرت، وطرق محمود أيضاً على نحو أعلى وانتظرنا ثانية. وأخيراً فتحت امرأة جميلة جدّاً مصراعاً في الجدار العلوي، وسألت ماذا نريد. قلت معي رسالة من مصطفى إلى أحمد وأريد أن أراه. أجابت:

«ليس هنا».

قلت: «أريد أن أسلّم على ابنه».

ردّت قائلة: «لا يمكنك رؤيته، إنّه في السّجن في حماة متّهم بالقتل».

وهكذا أغلقتْ المصراع، تاركة إياي أتساءل كيف يمكن للسّلوكيّات الجيّدة أن تساعدني في التّصرّف في تلك الظّروف الدّقيقة. وفي تلك اللّحظة جاءت فتاة إلى الباب وفتحت ترباسه اليدوي. أعطيتها الرّسالة وبطاقتي المكتوب عليها بالعربيّة، متمتمة ببعض كلمات من أسفي وذهبت. حاول محمود الآن أن يفسّر الموضوع. فلقد كان إحدى الحكايات التي تسمعها في الشّرق، من دون بداية ولا نهاية، ومن دون أيّ إشارة تبيّن أيّاً من أبطال الحكاية على حق، ولكنّ الاحتمال الملازم للقصّة يبيّن بأنّ الجميع على خطأ.

كان السّماطيّة Smatiyyeh قد سرقوا بعضاً من ماشية السّيجري، وكان أبناء أحمد قد نزلوا إلى القرية وقتلوا اثنين من العرب - وفي القلعة يقال إنّ العرب كانوا قد هاجموهم

الآتية: أبو حيات، الحليبات، الخوابرة، والهوارين. وقد انشقّت هذه الفرق واستقلت منذ بضع سنوات.

وقتلوهم دفاعاً عن النّفس - وانتهزت الحكومة، التي هي دوماً حذرة من الاستقلال النّسبي لحكم المشايخ، الفرصة لضرب آل السّيجري سواءٌ كانوا على خطأ أم لا؛ أُرسِل الجنود من حماة، وحُكِم على أحد أبناء أحمد بالموت، ووُضع اثنان آخران في السّجن، وأُخذت جميع الماشية. وأمِر بقية أفراد آل السّيجري بعدم التّحرّك من القلعة، وفي الحقيقة فإنّهم لن يستطيعوا القيام بذلك، وذلك لأنّ السّماطيّة Smatiyyeh كانوا عند بوّاباتها مستعدّين ومتلهّفين لقتلهم فيما إذا تجاوزوا الأسوار. هذا ولقد استغاثوا بحماة من أجل الحماية، وتمركزت حماية مكوّنة من عشرة جنود عند النّهر، إمّا لحماية حياة الشّيوخ أو لإبقائهم مسجونين على نحو أدقّ فقد كان من الصّعب تمييز ذلك.

أُرِّخت هذه الأحداث قبل سنتين، ومن ذلك الوقت لا يزال آل السّيجري سُجناء في حماة وفي قلعتهم، وليس بمقدورهم الإشراف على حراثة أراضيهم التي كانت تتحوّل بالنّتيجة إلى خراب ودمار. وأكثر من ذلك، يبدو أنّه لا يوجد هناك أمل في تحسّن الموقف. ثم وصل في وقت متأخّر من بعد الظّهر رسولٌ يقول إنّ عبد القادر شقيق أحمد سيكون مسروراً باستقبالي وسيأتي بنفسه للتّرحيب بي إذا استطاع مغادرة القلعة.



قلعة شيزَر، الفجّ المنحوت في الجبل

صعدت إلى القلعة من دون محمود وسمعت القصّة كلّها مرّة أخرى من وجهة نظر الشّيوخ، الذين لم يساعدوني للوصول إلى قرار نهائي، وذلك لأنّها كانت في كثير من نقاطها الأساسيّة قصّة مختلفة تماماً عن التي سمعتها من محمود. والنّقطة الوحيدة

التي لا تقبل الجدل (وقد لا تكون ذات صلة أساسيّة ظاهريّاً بالموضوع) هي أنّ نساء آل السّيجري كنّ جميلات على نحو رائع. فقد ارتدين ثياباً بدويّة بلون أزرق غامق، ولكنّ الثّياب الزّرقاء التي تتدلّى من رؤوسهنّ كانت قد ثبّتت فيها بإحكام حلي ذهبيّة ثقيلة مثل دبابيس الزّينة من كنز مسّينا Mycenaen، واحدة خلف كلّ صدغ. وعلى الرّغم من حسن ضيافتهن فقد اضطررت لقطع الزّيارة بسرعة بسبب عدد البراغيث التي تشارك الأسرة بيتها. نزلت اثنتان من النّساء الشّابّات معي عبر خرائب القلعة، ولكن عندما وصلنا إلى البوّابة الخارجيّة الكبيرة وقفتا ونظرتا إليّ وهما واقفتان على العتبة.

قالت إحداهنّ: «الله! ستذهبين الآن لتسافري عبر العالم كلّه، ونحن لم نذهب إلى حماة أبداً!».

رأيتهما عند البوّابة عندما التفتّ مرّة أخرى لألوّح لهما بالوداع. كانتا طويلتين ومعتدلتي القامة، وممتلئتي الجسم برشاقة وعذوبة، وترتديان أثواباً زرقاء ضيّقة، وأحيطت حواجبهما بالذّهب، وعيونهما تتبع الطّريق التي ربّما لن تسلكانه. وذلك لأنّه مهما سيحصل للشّيوخ، فلا شيء أكثر تأكيداً من أنّ النّساء الجميلات مثل هاتين المرأتين سوف يبقين سجينات من قبل أسيادهنّ في قلعة سيجَر (شيزَر).

❊ ❊ ❊

سرنا في اليوم التّالي في سهول محروثة إلى قلعة المضيق Kal'at el Mudik، وهي مرحلة قصيرة أقلّ من أربع ساعات. على الرّغم من وجود العديد من آثار البلدات المخرّبة - أذكر واحدة منها بوضوح عند قرية صغيرة تدعى شيخ حديد Sheikh Hadid، حيث كان هناك تل يبدو كما لو كان صرحاً إغريقيّاً (Acropolis) - ولم تكن الرّحلة لتبدو ممتعة لولا قصص محمود. جرى حديثه حول صفات العديد من السّلالات التي تشكّل الإمبراطوريّة التّركيّة، والتي كان على معرفة جيّدة بالعديد منها،

وعندما أتى على ذكر الچراكسة بدا أنّه يشاطرني في تحاملي عليهم[1].

قال: «يا ستّ، إنّهم لا يعلمون كيف يردّون المعروف. فالأب يبيع أبناءه، ويمكن للأبناء أن يقتلوا أباهم إذا كان لديه ذهبٌ في حزامه. وحدث ذات مرّة عندما كنت أركب من طرابلس إلى حمص، وقرب الخان - أنت تعرفين المكان - أن قابلت چركسيّاً يمشي وحده. قلت: «السّلام عليك! لماذا تمشي؟» لأنّ الچراكسة لا يسافرون سيراً على الأقدام أبداً. قال: «لقد سُرق حصاني منّي، وأنا أسير خائفاً على هذه الطّريق». قلت: «تعال معي، وسوف تذهب بأمان إلى حمص». ولكنّي جعلته يسير أمام حصاني لأنّه كان مسلّحاً بسيف، ومن يعلم ماذا يمكن لچركسي أن يفعل إذا لم تكن تستطيع مراقبته؟ ومررنا بعد قليل برجل عجوز يعمل في الحقول، وركض الچركسي إليه وتكلّم معه، وشهر سيفه كما لو كان يريد أن يقتله، فصحت به: «ماذا فعل ذلك الرّجل المسنّ لك؟» فأجاب: «بالله! أنا جائع، وطلبتُ منه طعاماً، وقال بأنّه ليس لديه طعام! ولذلك سأقتله». ثمّ قلت: «دعه في حاله. أنا سوف أعطيك طعاماً». وأعطيته نصف ما كنت أملك من خبز وحلوى وبرتقال.

وهكذا تابعنا سفرنا إلى أن أتينا إلى جدول وكنتُ عطشاناً، فنزلت عن فرسي ممسكاً بلجامها ووقفت لأشرب ورفعت بصري فجأة ورأيت الچركسي ورجله في ركاب فرسي في الجانب الآخر، فقد قرّر أن يعتلي الفرس ويهرب بها. والله! كنتُ مثل أمّه وأبيه، ولذا ضربته بسيفي فسقط على الأرض. ثمّ قيّدتُه وسرتُ به حتّى حمص وسلّمته للحكومة. هذا هو أسلوب تصرّف الچراكسة، عليهم من الله ما يستحقون!».

سألته عن الطّريق إلى مكّة وعن المشقّات التي يتحمّلها الحجّاج في الطّريق.

قال: «بوجه الله! إنّهم يعانون، يمشون عشرة أيام من معان Ma'an إلى مدائن

---

(1) علينا أن ننبّه هنا إلى أنه لا يجوز التعميم بحال من الأحوال، وخاصة عدم سحب الحالات الفرديّة على فرقة أو طائفة كاملة من النّاس، وعدّها قاعدة مطلقة. وفي أيّامنا لدينا من الچركس والدّاغستان والشّاشان بسوريا عدد غير قليل من الأصدقاء، وفيهم من الطّيبة والصّدق والأمانة ما يُذكر لهم بكلّ خير.

صالح Meda'in Saleh، وعشرة أيّام من هناك إلى المدينة، وعشرة من المدينة إلى مكّة، وآخر عشرة أيّام هي الأسوأ، وذلك لأنّ شريف مكّة والقبائل العربية يتآمرون معاً، ويقوم العرب بسرقة الحجّاج ويتشاركون الغنيمة مع الشّريف. ولا يشبه السّير سير الأشراف عندما يسافرون، لأنّه يكون في بعض الأحيان خمس عشرة ساعة بين الماء والماء، وفي بعض الأحيان عشرين ساعة، وتستغرق الرّحلة الأخيرة في السّير إلى مكّة ثلاثين ساعة. والآن تدفع الحكومة للقبائل أموالاً كي يدعوا الحجّاج بسلام، وعندما يعلمون أنّ الحجّ قد اقترب فإنّهم يتجمّعون على التّلال قرب الطّريق وينادون على أمير الحجّ: «أعطنا مستحقّنا يا عبد الرّحمن باشا!»[1]، فيعطي كلّ رجل وفقاً لما يستحقّه، فيعطي أحدهم مالاً، والآخر غليوناً وتبغاً، والثّالث منديلاً، والرّابع عباءة.

ومع ذلك فليس الحجّاج هم فقط الذين يعانون الكثير، ولكن أولئك الذين يحمون التّحصينات التي تحرس صهاريج المياه على طول الطّريق، حيث أنّ كلّ تحصينة أشبه بسجن. وحدث ذات مرة أن أُرسِلتُ مع الحرس العسكري، ومرض حصاني ولم يعد يستطيع أن يتحرّك، فتركوني عند أحد التّحصينات بين مدائن صالح Meda'in Saleh والمدينة حتّى يعودوا. أقمتُ ستّة أسابيع أو أكثر مع حارس التّحصينة، ولم نشاهد أيّ أحد، وأكلنا ونمنا في الشّمس، وأكلنا مرّة أخرى، ونمنا، ذلك لأنّنا لم نستطع الرّكوب خارج الحصن خوفاً من الحويطات Howeitat وبني عطيّة Beni 'Atiyyeh الذين كانوا في حالة حرب فيما بينهم. كان الرّجل يقيم هناك من عشر سنوات ولم يخرج أبداً مسافة ربع ساعة عن تلك البقعة، وذلك لأنّه يراقب المؤن التي تطعم الحجّاج عندما يمرّون.

قال محمود بإيماءة شاملة بيده من الأرض إلى السّماء: «وبنبي الله! فإنّه لم يشاهد خلال عشر سنوات شيئاً سوى الأرض والله! والآن لديه ابن صغير، والولد أصم وأبكم، ولكن عينيه تريان أبعد من عينيّ أيّ رجل، وكان يراقب طوال النّهار من قمّة

(1) المقصود به عبد الرّحمن باشا اليوسف، محافظ الحج الشامي بين 1892-1918 من بعد جدّه لأمّه سعيد باشا شمدين.

البرج. وفي أحد الأيّام جاء راكضاً إلى أبيه وأشار بيديه، وعلم الأب بأنّه رأى مجموعة من الغزاة من بعيد، فأسرعنا إلى داخل الحصن وأغلقنا الأبواب. اقترب الخيّالة، وكانوا خمسمئة رجل من بني عطيّة وقاموا بسقاية خيولهم وطلبوا طعاماً، فألقينا إليهم خبزاً وذلك لأنّنا لم نجرؤ على فتح الأبواب. وبينما كانوا يأكلون جاء عبر السّهل غزاة من الحويطات، وبدؤوا يتقاتلون معاً عند سور القلعة، واستمرّوا في القتال حتّى صلاة المغرب، ورحل من بقوا على قيد الحياة بعيداً، تاركين موتاهم الذين وصل عددهم إلى الثّلاثين. وبقينا طوال اللّيل داخل الأبواب المغلقة، ونزلنا عند الفجر ودفنّا الموتى.

تابع: «ولكن من الأفضل أن تعيش في حصن على طريق الحجّ من أن تخدم كجندي في اليَمَن، لأنّ الجنود هناك يخدمون دون أجر ولا ينالون من الطّعام كفايتهم، والشّمس تحرق مثل النار. في اليَمَن إذا وقف إنسان في الظلّ وشاهد محفظة ذهب ملقاة في الشّمس، والله! سوف لن يذهب لالتقاطها، وذلك لأنّ الحرارة مثل نار جهنّم. يا ستّ، هل صحيح أنّ الجنود في مصر يأخذون أجرهم أسبوعيّاً وشهريّاً؟».

أجبت أنّي أعتقد بأنّ الحال ينبغي أن تكون كذلك مثلما هي العادة في الجيش الإنكليزي.

قال محمود: «بالنّسبة لنا فإنّ أجرنا يُدفع لنا بعد نصف سنة، وغالباً يصل التّأخير إلى اثني عشر شهراً ولكنّنا نستلم أجر ستّة أشهر فقط. والله! لم أقبض في حياتي أكثر من أجر ثمانية أشهر لسنة كاملة»، وأضاف «كنت ذات مرّة في الإسكندرية - ما شاء الله المدينة الجميلة! منازل كبيرة مثلها مثل قصور الملوك، وكلّ الطّرقات فيها أطراف مرصوفة يسير عليها النّاس. رأيت هناك سائق سيّارة أجرة قاضى سيّدة من أجل أجرته، وقام القاضي بالحكم له. وبالحقيقة! إنّ أساليب القضاة مختلفة عنّا»، انتبه محمود مفكّراً؛ ومن ثمّ وبانتقال مفاجئ صرخ: «انظري، يا ستّ! هناك أبو سعد».

نظرت، ورأيت «أبو سعد» يمشي في الحقل المحروث، ومعطفه الأبيض نظيف كما لو أنّه لم يأتِ توّاً من رحلة بطول إحدى رحلات محمود، وكان عطفاه الأسودان مثنيّين بدقّة على جنبيه، وأسرعت لأرحّب بأبي الحظّ الجيّد، وذلك لأنّه في سوريا

الأولـى يُعـدّ اللّقلق الأوّل بمثابة السّـنونو الأوّل عندنا. وعلى أيّة حال فإنّه لا يسـتطيع أبـداً أن يصنـع صيفاً أكثر من السّـنونو، وركبنا ذلك اليوم إلى قلعـة المضيق Kal'at el Mudik في مطر غزير.



تاج عمود في حماة

تقـع قلعـة المضيـق Kal'at el Mudik فـي موقع أفاميـا Apamea السّـلوقيّة. وقد أوجدها سلوقس نيكاتور Seleucus Nicator، باني المدن العظيم الذي كان له الكثير من المدن المكرّسـة على اسم بناته: سلوقيا في بييريا Pieria، سلوقيا في كاليكادنوس Calycadnus، وسـلوقيا في بابـل Babylonia، وغيرها الكثير. وعلـى الرغم من أنّها دُمّـرت تمامـاً بفعل الـزّلازل، فما يزال هناك مـا يكفي من الآثار ليبرهـن على عظمتها القديمـة، الدّائـرة الواسـعة لأسـوارها، وعـدد معابدهـا وعظمـة شـوارعها المعمّدة. وبإمكانك أن تتبع شوارعها الرّئيسيّة من بوّابة إلى بوّابة عن طريق الكتل الكبيرة المكوّمة من صفّ الأعمدة، وتميّز القواعد الحجريّة للتّماثيل عند نقاط تقاطع الطّرقات. يوجد هنـا وهنـاك مدخل كبير مفتـوح على باحة، وقد سُـوّي القصر الذي كانـت مدخلا له بالأرض، أو ترى نقش فارسٍ مسـلّح يزيّن حجرة جنائزيّة سُـجّلت عليها الوقائع الحيّة بنموذجه الأصلي.

تابـع المسـيحيّون القصّة من حيث تركها الملوك السّـلوقيّون، وتوجد آثار لكنيسـة

عظيمـة مع فنـاء حوله أعمدة ملقاة على حافّة الشّـارع الرّئيسـي. وفيما كنت أغرق في أمطـار الرّبيع النّاعمة عبر العشـب العميـق والأزهار وأجمات البـرداق، إلى خيبة أمل البوم الرّمادي الذي جلس بعيون نصف مغمضة على أكوام الحجارة، بدا تاريخ البلدة وهندستها مثالاً للاندماج الرّائع بين اليونان وآسيا الذي حدث نتيجة احتلال الإسكندر لتلك البلاد. كان هنا ملك إغريقي عاصمته تقع على نهر دجلة، يقيم مدينة على العاصي ويطلق عليها اسم زوجته الفارسيّة - أيّ بنّائين شيّدوا صفوف الأعمدة التي زيّنت هذه المدينـة وتلـك البلدات الإغريقيّة الطّراز في سـوريا بنماذج تقليديّة استُخدِمت بروح من السّخاء الشّرقي؟ وأيّ مواطنين هم الذين مشوا بينها، مادّين أيديهم لأثينا Athens وبابل Babylon؟

إن الجـزء الوحيد المسـكون في قلعة المضيـق Kal'at el Mudik هـو القلعة ذاتها التـي تقع علـى جانب القلعـة السّـلوقيّة على هضبة تطـلّ علـى وادي العاصي وجبال النّصيريّـة. وهـي صنعة عربيّة في الدّرجة الأولى، على الرّغم من أنّ عدّة أيادٍ سـاهمت فـي بنائها، فالنّقوش العربيّة واليونانيّة منقوشـة على نحـو فوضوي في الجدران. وإلى الجنوب من القلعة يوجد جزء صغير من بناء تقليدي لم أرَ له أيّ تفسير. وهو يبدو كما لو أنّه جزء من خشـبة مسرح، بسـبب أنّ الأرض المرتفعة التي خلفه تنحدر بعيداً على شـكل قاعة استماع. وسيكون حفر بسيط جدّاً كافياً لإظهار فيما إذا كانت آثار المقاعد تمتدّ تحت الضّفّة العشبيّة.

يوجـد في الوادي مسـجد متهدّم وخـان جميل نصف متهدّم أيضاً. قدّم لي شـيخ القلعة قهوة، وأخبرني رواية أخرى عن قصّة آل السّـيجري، متناقضة مع الرّوايتين الأوليين، حيث هنّـأت نفسـي على كوني عقـدت العزم منذ البدايـة ألا أحاول إبداء أيّة مسـاعدة لحلّ تلك المشكلة شديدة التّعقيد. ومن قمّة القلعة يبدو وادي العاصي مغموراً كلّه بالماء؛ قال الشّيخ إنّـه كان المسـتنقع الكبير للعاصي الـذي يجفّ في الصّيف عندما تبقـى قرى الجزيرة (كما شـاهدت الآن) في أماكنها كأجزاء من السّـهل. نعم، فلقد كانت بكلّ تأكيد غير صحّيّة على نحو كبير، وكان السّكّان في الصّيف والشّـتاء يعانون من الحمّى، ويموت معظم السّكّان

وهم شباب - عجباً، إنّا لله وإنّا إليه راجعون! وفي الشّتاء والرّبيع يتبع هؤلاء النّاس قصيرو الأعمار نداء صيّادي الأسماك، ولكن عندما يجفّ المستنقع فإنّهم يتحوّلون إلى مزارعين وفق نموذجهم الخاصّ، فهم يقطعون القصب ويبذرون الذّرة فوقه ويضرمونها بالنّار، وترتفع الذّرة فوق الرّماد وتنمو - مثل طريقة الفينيقيين في الزّراعة.

* * *

في أفاميا Apamea قارب الكعك الذي كنت قد اشتريتُه في دمشق على الانتهاء - وهي تبدو مسألة جدّيّة في الوقت الذي تكون فيه قائمة الطّعام أقرب لأن تكون مملّة. كانت وجبة الغداء هي الأقلّ استساغة بين كلّ وجباتنا: بيضٌ مسلوق جافّ وقطع من لحم بارد لم يعد يثير الشّهيّة بعد خزنه لمدّة شهر أو اثنين. علّمت ميخائيل تدريجيّاً أن يُنوّع وجبتنا بكلّ الموارد التي يقدّمها البلد، من زيتون وحليب غنم وفستق مملّح ومربّى المشمش ونصف دزّينة من الأكلات اللّذيذة الأخرى بما في ذلك الكعك الدّمشقي. وبناءً على ما اعتاده الخادم المحلّي في إطعام السّائحين السّردين ولحم البقر المجفّف فإنّه يعتقد أنّ ذلك أقلّ من منزلة الأوروبي في أن يأكل طعاماً مثل هذا، وعليك أن تذهب معه وتعلّمه ماذا يشتري، أو يمكن أن تمرّ عبر البلد الأغنى وتموت من الجوع وأنت تأكل لحم الضّأن.



الفصل الحادي عشر

تنطبع رحلة اليوم التّالي في ذهني بحادثة يمكنني بصعوبة أن أقدّرها بتغيير اسمها إلى مغامرة - ودعوني أدعُها بليّة. لقد كانت شيئاً مملاً أثناء حدوثها وكأنّها مغامرة حقيقيّة (ولا أحد يعرف مثل مَن كان وسط أحداثها الكثيرة كم كانت مملّة)، ولم تترك وراءها تلك الذّكرى المتبّلة لخطر محتمل والتي تفعِم الذّكريات جانب الموقد بالحيويّة والنّشاط.

تركنا قلعة المضيق Kal'at el Mudik عند السّاعة الثّامنة وسط أمطار منهمرة، واتّجهنا شمالاً إلى جبل الزّاوية، وهو عبارة عن مجموعة تلال تمتدّ بين وادي العاصي وسهل حلب الواسع. تضمّ هذه السّلسلة عدداً من البلدات الأثريّة التي يعود تاريخها في الدّرجة الأولى إلى ما بين القرنين الخامس والسّادس، ولقد سُكنت من جديد بشكل جزئي من قِبل الفلاّحين السّوريين، ووصفها بالتّفصيل كلّ من دى ڤوغيه de Vogüé وبَتلر Butler.

توقّف المطر عندما كنّا نصعد امتداداً منخفضاً للتّلال حيث كانت كلّ الأراضي ذات التّربة الحمراء قيد الحراثة وتقبع القرى في أجمات زيتون. كانت المنطقة مشهورة بجمال ظاهر واسع خاصّ بها، والذي زاد من شهرتها وجود البلدات المتهدمة التي تنتشر بكثافة في أرجائها. في البداية كانت الآثار أقلّ بكثير من ركام الحجارة المنقوشة، ولكن في كِفْرَنْبِل Kefr Anbil كانت هناك بعض المنازل الجيّدة وكنيسة وبرج ومقبرة كبيرة جدّاً تحتوي قبوراً صخريّة منقوشة. هنا تغيّر المنظر، فقد تقلّصت

الأرض المحروثـة إلى بقـع صغيرة، واختفـت التّربة الحمراء وحـلّ محلّها امتدادات قاحلـة مـن الصّخر، تنبثـق منها خِرَب رماديّة أشـبه بجلاميد صخريّـة ضخمة متعدّدة. لا بـدّ أنّه كان هناك مسـاحات محروثة أكثـر عندما كانت المنطقة تعيـل عدداً كبيراً من السّـكّان ممثّليـن بالبلدات الأثريّة، ولكـن أمطار عدّة فصول شـتاء هدَّمت المصاطب الصّناعيّـة وجرفـت التّربة نحو الوديان، ولم يكن بإمكان السّـكّان السّـابقين أن ينتجوا منها ما يكفي لإعالتهم.

وإلى الشّـمال الشّـرقي من كِفْرَنْبل Kefr Anbil، وعبر متاهة من الصّخور، ظهرت أسـوار قرية جميلة هي خربة حاس Khirbet Hass، التي كنت متلهّفة لرؤيتها بشـكل خـاصّ. أرسـلت البغّاليـن مباشـرةً إلـى البـارَة El Barah، مـكان توقّفنا تلـك اللّيلة، واسـتأجرت قرويّاً كدليـل في ذاك القفر الحجـري، وانطلقت مـع ميخائيل ومحمود. تعرّج الطّريق في الدّاخل والخارج بين الصّخور وتناثرت حزم ضيّقة من العشب بوفرة مع الأحجار؛ وسـطعت شـمس بعـد الظّهر حامية فوقنـا، وترجّلـت وخلعت معطفي وربطته، كما ظننت، بقوّة إلى سرج فرسي، وتابعت مسيري إلى الأمام وسط الأعشاب والزّهور.



بيت في البارة

كانت هذه بداية البليّة. كانت خربة حاس Khirbet Hass قد هُجرت تماماً ما عدا خيمتين سوداوين. كانت شوارع السّوق خالية، وجدران المحلاّت قد سقطت فيها، وهجر المصلّون الكنيسة منذ زمن طويل، وكانت المنازل الفخمة صامتة كصمت القبور، والحدائق المسيّجة مهملة، ولم يأتِ أحد ليشرب الماء من الأحواض العميقة. جعلني سحرها وغموضها أتأخّر حتّى شارفت الشّمس على الغروب وهبّت ريح باردة لتذكّرني بمعطفي، ولكن عجباً! عندما عدت إلى الجياد لم يكن المعطف على السّرج. لا تنمو المعاطف الصّوفيّة الخشنة على كلّ الشّجيرات في شمال سوريا، وكان من الواضح أنّ جهداً يجب أن يبذل لاستعادة معطفي، عاد محمود تقريباً إلى كِفْرَنْبِل، وعاد بعد ساعة ونصف صفر اليدين. في ذلك الوقت كان الظّلام قد حل؛ وعلاوةً على ذلك كانت عاصفة تهبّ من جهة الشّرق، وكان أمامنا ساعة من الرّكوب والسّير عبر منطقة شديدة الوعورة. بدأت في الحال أنا وميخائيل ومحمود بتلمّس طريقنا على طول طريق مخفي تقريباً، وزيادةً في سوء الحظّ، هبّت فوق رؤوسنا عاصفة فور حلول الغسق، وأصبح اللّيل حالكاً جدّاً، ومع المطر الذي كان يضرب وجوهنا فقدنا ذلك الأثر للطريق. وفي هذه اللّحظة كانت أذنا ميخائيل قد تخيلتا سماع نباح كلاب، وأدرنا رؤوس خيولنا باتّجاه المكان الذي توقّعنا أن النّباح آتٍ منه.

كانت هذه المرحلة الثّانية من المصيبة، وعلى الأقلّ عليّ أن أتذكّر بأنّ ميخائيل كان دوماً أسوأ دليل، حتّى عندما كان يعرف اتّجاه المكان الذي يتّجه إليه. اكتشفنا، بسبب ضوء القمر الهزيل الذي سطع فوقنا، أنّ طريقنا لن يوصلنا إلى أيّ مكان، وعندما تأكّدنا من ذلك توقّفنا وأطلقنا طلقتي مسدس ظانّين بأنّه إذا كانت القرية قريبة فإنّ البغّالين سيسمعوننا وسيردّون بإشارة ما. على أيّة حال، لم يأتِ أحد وعدنا طريقنا إلى النّقطة التي أعمى فيها المطر أبصارنا، لنضلّ مرّة أخرى بذاك النّباح الوهمي ونبدأ مرّة أخرى بمطاردة كلبنا الهائج. وفي هذا الوقت كنّا نسير أبعد في نفس الاتّجاه في الحقول، والله يعلم أين كنّا سنصل في النّهاية لو لم أتبيّن بوضوح عن طريق ضوء القمر الضّبابي بأنّنا كنّا نسير على العكس إلى الجنوب في حين أنّ البارَة El Barah تقع في الشّمال.



حلية زخرفيّة في البارة، وساكفة في خربة حاس

عنـد ذلك انعطفنا متثاقلين في طريقنا، وبعد أن سـرنا قليلاً في طريق العودة ترجّلنا وجلسنا على جدار متهدّم لنناقش استحسان الإقامة اللّيلية في قبر فارغ وأن نأكل القليل من الخبز والجبن من خُرج محمود. تقدّمت الجياد الجائعة تشتمّنا؛ وأطعمتُ فرسي نصف نصيبي من الخبز، لأنّه بعد كلّ شيء كان قد تحمّل أكثر من نصف النّصيب من الجهد. أمدّنا الطّعام بالنشاط؛ وتابعنا سيرنا وفي طرفة عين وجدنا أنفسنا عند مفترق الطّريق الأصلي للمكان. ومن هنا أخذنا طريقاً ثالثاً. وخلال خمس دقائق وصلنا إلى

قريـة البـارَة El Barah التي كنا ندور حولها لمدّة ثلاث سـاعات. كان البغّالون نائمين نوماً عميقاً في الخيام؛ أيقظناهم بعنف إلى حدّ ما وسـألناهم فيما إذا كانوا قد سـمعوا إشـارتنا أم لا. أجابوا بابتهاج: «آه نعم ولكنّنا قرّرنا بأنّه كان لصّاً يسـتغلّ اللّيلة العاصفة ليقتل أحداً ما»، ولم يعيروا الموضوع إلاّ اهتماماً بسيطاً.

هذه هي قصّة المغامرة سـيّئة الحظ كاملة؛ وأنا أشـعر بالخجـل لروايتها. وعلى أيّة حال فقد علّمتني ألا أشـّك بصحّة حوادث مشابهة في حياة رحّالين آخرين ولديّ الآن كلّ سبب وجيه للتّصديق بصحّتها تماماً.

* * *

علـى الرّغـم من أنّ البـارَة يمكن أن تكون لا تطـاق في اللّيل فهي فـي النّهار الأكثر روعة والأكثر جمالاً. إذ أنها تشـبه مدينة الحلم التي يبنيها الأطفال لأنفسهم ليسكنوها بين موعد الرُّقاد وموعد النّوم، ويبنون قصراً بعد قصر تحت طرق الخيال المتألّقة، ولا توجد كلمات يمكن أن تعبّر عن سـحرها ولا عن سـحر الرّبيع السّوري. تمشي أجيال من الموتى معك أسفل الشّوارع، وتراهم يتنقّلون عبر شرفات منازلهم، ويحدّقون عبر نوافذ مكلّلة بالياسـمين الأبيض، يتجوّلون في حدائق مسيّجة لا تزال مزروعة بالزّيتون والكرمـة وفُرشـت أرضهـا بالسّوسـن، والصّفير وشـقائق النّعمـان. وبعد ذلـك، ربّما تبحـث عبثاً عن تسلسـل أحداث لهم؛ فهم لم يلعبوا أيّ دور فـي التّاريخ، لكنّهم كانوا راغبين في العيش بسـلام وأن يبنوا لأنفسـهم بيوتاً عظيمة ليسـكنوا فيها وقبوراً جميلة ليرقدوا فيها بعد أن يموتوا. والذي يثبت أنّهم تحوّلوا إلى المسيحيّة هو وجود المئات مـن الكنائـس المهدّمة والصّليب المحفـور على أبواب ونوافذ مسـاكنهم، وهي كافية نتظهـر بأنّهـم كانوا فنّانيـن بتزييناتهم؛ فقد أغنوا بهـا بيوتهم الواسـعة وبيوتهم الصّيفيّة وإصطبلاتهـم وأفنيـة منازلهم. وقد اخذوا عن اليونان نظام الزّراعة، ومن الفن حسـب حاجتهم، ومزجوا مع ذلك روح الجمال الشّرقي الذي لا يتنفّس دون أن يؤثّر بالخيال الغربـي؛ وعاشـوا براحة وأمـان مثل القليـل من معاصريهـم الذين استطاعوا التّعرّف عليهم، وجرفهم المدّ الإسلامي عن وجه الأرض.



قبر في سرجيلا

أمضيت يومين في البارَة El Barah وقمت بزيارة خمس أو ستّ قرى قريبة منها، وقام شيخ البارَة وابنه بمهمّة الأدلاّء لي. كان الشّيخ رجلاً مسنّاً مفعماً بالحيويّة يسمّى يونس، عمل دليلاً لكلّ علماء الآثار المميّزين في وقته، وتذكّرهم وتكلّم عنهم بالاسم - أو بالحري بأسماء من تركيبة بعيدة كلّ البعد عن الأسماء الأصليّة. واستنبطت وسيلة لإثبات أنّهم دي ڤوغيه de Vogüé ووادينغتون Waddington وعالم آخر كان اسمه غير مفهوم أبداً، وربّما قصد به زاخاو[1] Sachau.

وفي سرجيلا Serjilla، وهي بلدة تتمتّع بجوّ معتدل وقاسٍ من الاحترام والتي يصعب مضاهاتها، على الرّغم من أنّها من غير أسقف ومهجورة تماماً، قدّمني إلى قصره وقبره المجاور الذي تمنّيت أن أعيش وأموت بجواره، وعندما غادرت ركب معي إلى أن وصلنا إلى دير سنبل Deir Sanbil ليدلني على طريقي. كان قلقاً جدّاً

(1) المقصود المستشرق الألماني الشهير كارل إدوارد زاخاو Karl Eduard Sachau (1845-1930م)، شغل منصب أستاذ اللغات الشرقيّة في جامعة ڤيينّا عام 1869 ثم في جامعة برلين عام 1876 وعُيّن في عام 1887 فيها مديراً لمعهد اللغات الشرقيّة. قام برحلات متكررة في الشرق الأوسط ونشر عنها كتاباً بالألمانية بعنوان: "Reise in Syrien und Mesopotamien" «رحلة في سوريا والعراق» نُشر عام 1883. تميّز بعمله على اللغة الآرامية ولهجاتها السّريانيّة، وتولى فهرسة المخطوطات السّريانيّة بجامعة برلين. يسمّيه مثقفونا: سَخاو، وهذا غلط.

فـي ذلـك اليوم بسـبب اضطرابٍ حصل فـي قرية قريبة فـي الجوار، فقـد هوجِم رجل من قِبل شـخصين من القرية المجاورة رغبوا في سـرقته. لحسـن الحـظّ أتى رجل من قريته لمسـاعدته ونجحا معاً في ردّ الهجوم، لكنّ الصديق فقد حياته في الصّراع، وقام أقربـاؤه بالهجـوم على قرية اللّصوص وأخـذوا كلّ القطعـان. كان رأي محمود أنّه لم يكن من المستحسن أن يطبّقوا القانون بأيديهم.

قال: «والله! عليهم أن يعرضوا الموضوع على الحكومة».

ولكن يونس أجاب بمنطق مُفحم:

«وما الفائدة في الذهاب إلى الحكومة؟ فقد أرادوا أخذ حقوقهم».

سألتُ يونس في سياق الحديث إذا كان قد ذهب إلى حلب من قبل أم لا.

قال: «والله! وجلستُ أيضاً في الأسواق وراقبت القناصل وهم يمشون، كلّ واحد معـه رجـل أمامه يرتدي معطفاً ثمنه مئتا قرش، ومعهم السّـيدات وقد وضعن ما يشـبه الزّهـور فوق رؤوسـهنّ». (أتصوّر أنّها القبّعـة الأوروبية الأنيقة). أوضـح: «أنا أذهب دومـاً إلـى حلب عندما يكون أبنائي في السّـجن هناك، وأحياناً يكون السّـجّان شـفوقاً وتكفي نقود قليلة للسّماح لهم بالخروج».



الشّيخ يونس

دخلت تدريجياً في حديث قد يكون أرضيّة جيّدة بسؤاله كم ابناً لديه.

«ثمانية، الحمد لله! فقد أنجبتْ كلّ واحدة من زوجاتي أربعة أولاد وابنتين».

قلت: «الحمد لله!».

قال يونس: «أطال الله عمركِ!» وأضاف: «لقد كلّفتني زوجتي الثّانية مبلغاً كبيراً من المال».

قلت: «نعم؟».

«أنعم الله عليك يا ستّ! لقد أخذتُها من زوجها، والله (الحمد والشّكر له!) كان عليّ دفع ألفي قرش للزّوج وثلاثة آلاف للقاضي».

لقد كان هذا كثيراً جدّاً على شعور الحج محمود حول الآداب واللّياقة.



بيت في سرجيلا

قال: «أخذتَها من زوجها؟ والله! إن هذا تصرّف نصيري أو إسماعيلي. هل يأخذ مسلم زوجة رجل آخر؟ هذا حرام».

أوضح يونس: «لقد كان عدوّي، بالله وبنبيّ الله، لقد كانت هناك عداوة بيننا حتّى الموت».

سأل محمود: «هل كان لديها أطفال؟».

أجاب الشّيخ موافقاً شاعراً بالضّعة قليلاً أمام افتراض محمود: «إي والله! ولكنّي دفعت ألفي قرش للزّوج وثلاثة آلاف....».

صرخ محمود وهو لا يزال مستاءً: «بوجه الله! لقد كان عمل كفّار».

وهنا وضعتُ نهاية لنقاشٍ أبعد لاستحقاقات القضيّة بالسّؤال فيما إذا كانت المرأة راضية بترك زوجها.

قال يونس: «من دون شكّ، فقد كانت رغبتها».

لذلك من الممكن أن نستنتج أنّه لا يمكن للأخلاق أن تلعب دوراً كبيراً في هذا المجال، على الرّغم من أنّه عوّض عن الخسارة بمبلغ كبير لكلّ من الزّوج والقاضي.

قادنا هذا الحدث إلى نقاش المبلغ المعتاد دفعه للزّوجة.



قبر بيزوس

قال يونس بجوّ من التّباهي الاجتماعي: «في مثل هذه الحالة وكما فعلنا، فإنّ الفتاة لن تأخذ أقلّ من أربعة آلاف قرش، ولكن بالنّسبة لرجل فقير لا يملك مالاً فمن الممكن أن يدفع للأب بقرة أو عدّة أغنام، وسوف يكون راضياً».

بعد أن غادرنا ركبت وسرت حول رويحة Ruweiha على أمل أن أرى الكنيسة المشهورة التي يقع قربها قبر بيزوس Bizzos المقبّب. هذه الكنيسة هي الأكثر جمالاً في جبل الزّاوية، بمجازاتها الرّائعة المؤدّية إلى صحن الكنيسة ومداخلها المنقوشة، وبأقواسها القائمة على ركائز وممرّاتها المقنطرة العريضة في صحنها - وكم كانت ثقة البنّاء وسيطرته على مواد بنائه التي شجّعته أن ينشئ تلك الأقواس العظيمة من ركيزة إلى ركيزة والتي اختبِرت في الحقيقة بأنّ واحدة منها لا تزال تقف حتّى هذا اليوم.

لا يزال قبر بيزوس الصّغير كاملاً تقريباً كما كان عندما بُني أوّل مرّة. يوجد عند المدخل نقش مكتوب باليونانيّة:

«بيزوس Bizzos ابن پاردوس Pardos لقد عشتُ جيّداً، ومتّ جيّداً وأستريح بشكل جيّد الآن. صلّوا من أجلي».

إنّ الملامح الأكثر غرابة في فنّ العمارة كلّه في شمال سوريا هي الحوافز التّقليديّة نصف المتذكّرة التي وجدت طريقها في الحلي المعماريّة والتي هي غالباً قوطية في حرّيتها، والسطوح المعمّدة التقليديّة التي تزيّن نافذة أو عتبة كنيسة. كان مخطّط الزّخرفة السّوريّة في المقام الأوّل عبارة عن صفّ من دوائر أو أكاليل ممتلئة بثنيات ملتفّة أو بمونوغرام (حروف متشابكة) مسيحي؛ ولكن مع تطوّر مهارة النّحّاتين، فقد وصلوا دوائرهم معاً بمئات من الأشكال الرّائعة والغريبة من نبات الأقنثا الشوكي والنّخيل والغار، صانعين نماذج فيّاضة حول كنيسة أو قبر متنوّعة تنوّع الخيال الذي أبدعها. فالعشب تحت أقدامهم، والأوراق على الأغصان فوق رؤوسهم، ألهمتهم بوفرة من تصميم زخرفي أكثر مما دفعهم الفنّان وليَم موريس William Morris بعد ألف ومئتي سنة.

هناك كنيسة أخرى في رويحة Ruweiha أقلّ كمالاً من كنيسة بيزوس[1] Bizzos،

(1) تعرف باسم كرك بيزة وهي مدينة مدينة أثرية سورية، من المدن التي يُطلق عليها المدن البائدة وهي مجموعة من المدن والمواقع الأثرية سمّاها علماء الأثار المدن المنسية، وكرك بيزه سُكنت في نهايات القرن الثالث والقرن الرابع الميلادي وهي اليوم منطقة أثرية مهجورة، تقع

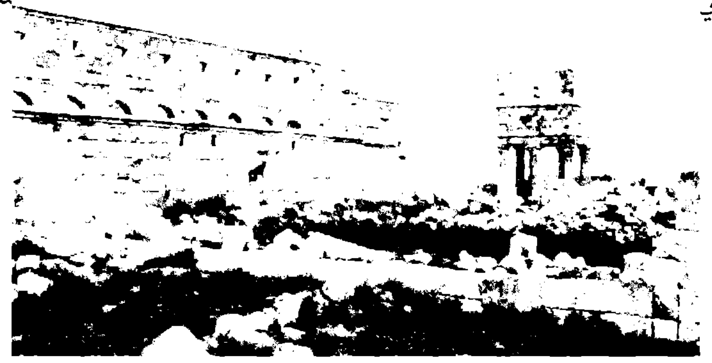
لكنّها ليست أكثر روعة في التّصميم. وهي متميّزة ببناء أثري يقع قريباً من الحائط الجنوبي، فُسّر على أنّه برج ناقوس، أو قبر، أو منبر وعظ، أو لم يوجد له تفسير على الإطلاق. وهو يتكوّن من طابقين، يحتوي الطّابق الأوّل على ستّة أعمدة تدعم رصيفاً، ويرتفع من الجدار السّفلي أربع ركائز في الزّوايا لحمل القبّة أو الظُّلَّة. والشبه لبعض القبور في شمال إيطاليا، كما هو على سبيل المثال مع نُصب رولاندينو Rolandino في بولونيا Bologna، ملفت للنّظر بشكل كبير بحيث أن المشاهد يحدّد بشكل عفوي هدفاً مشابهاً لهذا البناء الرّائع في رويحة.

خيّمنا تلك اللّيلة في الدّانا Dana، وهي قرية تفتخر بقبر هرمي الشّكل مع رواق مؤلّف من أربعة أعمدة كورنثيّة، متقنة في إنجازها وفي انسجامها المتوازن كأيّ شيء يمكن أن تحلم برؤيته. وفي طريقنا من رويحة Ruweiha مررنا بقصر يمكن أن آخذه كنموذج لهندسة العمارة المحلّيّة في القرن السّادس. وهو يقف منعزلاً، ينفصل ميلاً أو ميلين بمنطقة متموّجة بعيداً عن أيّ قرية، بشرفات مفتوحة متّجهة نحو الغرب ورواق جميل مبهج نحو الشّمال، ويمكن لرواق كهذا أن يزيّن أيّ منزل ريفي إنكليزي في هذه الأيّام. يمكنك أن تتخيّل مالك القصر في القرن السّادس جالساً على مقعد حجري فيه ويرتقب أصدقاءه – وهو لا يخشى وجود أيّ أعداء، وإلاّ لم يكن ليبني بيته بعيداً خارج القرية ويحرسه بسياج حديقة فقط.

وعند قصر البنات، كما يسمّيه السّوريّون، تأثّرت كما لم أتأثّر في أيّ مكان آخر

في ناحية حارم، محافظة إدلب، سوريا. ويبدو أن اسمها مشتق من كلمتين سريانيتين: كرك (أي حصن) واسم أحد الأسرتين اللتين كانتا تقطنان المنطقة: كرياكوس وبيزوس. يتم الوصول إلى الموقع بالاتجاه شمالاً من منطقة كنيسة قلب لوزة مسافة 500 متر تقريباً. أهم آثارها الكنيسة التي تقع في شمال القرية وبالقرب من الفيلا الأولى التي ترقى إلى القرن الثالث فتبدو وكأنها تكملة للفيلا المذكورة وترقى إلى الثلث الأول من القرن الرابع وهي بذلك بعد كنيسة دورا أوربوس على الفرات التي تعتبر من أقدم الكنائس في العالم ولا تزال بحالة سليمة ما عدا السقف، ولا شك أن هندسة هذه الكنيسة كانت النواة الأولى لهندسة الكنائس الكبرى في هذه المنطقة في القرن الخامس وما بعده، وتعتبر كنيستها من الكنائس الأولى المبنية في سوريا إبّان القرن الثالث.

بمستوى النّظام الاجتماعي العالي الذي وصل إليه جبل الزّاوية في ذلك الحين، فقد كان الأمان والغنى متوفرين هناك على نحو واضح، وكذلك أوقات الفراغ اللازمة من أجل رعاية الفنون؛ وبينما كنت أبتعد شعرت متعجّبة فيما إذا كانت المدينة هي بالفعل كما نظنَ في أوروبا، قوّة لا تقاوم جارفة نحو الأمام وتحمل على قمّتها أولئك الجديرين بالانتفاع من تقدّمها؛ أو فيما إذا كانت تشبه حركة المدّ والجزر ترتفع وتنخفض في ... شّاطئ.



كنيسة وقبر في رويحة

* * *

في وقت متأخّر من الليل جاء أحد أبناء الشّيخ يونس ليسألنا إذا كان والده لا يزال معنا. على ما يبدو أنّه عندما غادرنا ذاك المسنّ المغامر لم يعد إلى حضن عائلته القلقة، ولديّ شكّ بأن رغبته الودودة بأن يضعنا على طريقنا لم تكن إلاّ جزءاً من مؤامرة مدبّرة بعناية بوسائل كان يأمل بواسطتها أن يكون قادراً على أن يكون له يد في تلك الاضطرابات المحلّيّة التي كانت تشغله في فترة الصّباح. وعلى أيّة حال فقد انطلق حالاً بمجرّد أن أصبحنا خارج مرمى النّظر، ويفترض أن يكون قد أسرع لينضمّ إلى الشّجار. لم أسمع أبداً ماذا حصل له، ولكنّي على استعداد لأراهن بأنّه أيّاً كان شخص القتيل في قرية المغارة فلن يكون الشّيخ يونس.

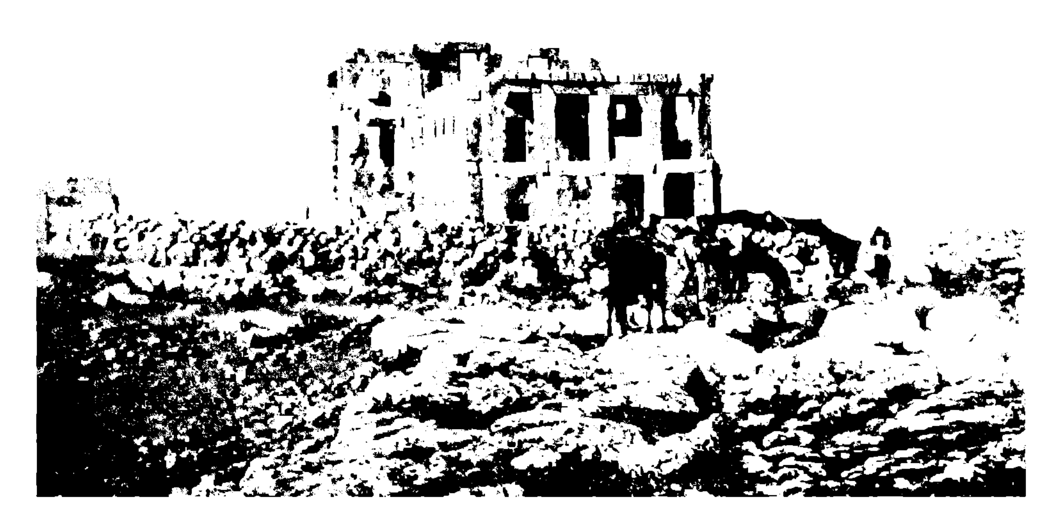
في الواقع تمتدّ ثلاثة أيّام مملّة بيننا وبين حلب. وكان من الممكن أن نقوم بالرّحلة في يومين، لكنّي قررت أن أتنحّى قليلاً نحو الشّرق من أجل أن أتجنّب طريق العربات،

الذي كان معروفاً بشكل جيّد، ومن أجل أن أجتاز منطقة كانت غير معروفة على الأقلّ، على الرّغم من أنّها ربّما لن تكون أكثر متعة، وبعد خمس ساعات ركوب من الدّانا Dana عَبر مرتفعات متموّجة مفتوحة وصلنا إلى تاروتين Tarutin. مررنا بالعديد من المواقع الأثريّة، والتي استوطنت مّرة أخرى من قِبل العرب نصف المستقرّين من قبائل الموالي Muwali، على الرّغم من أنّ الأبنية القديمة كانت مهدّمة بشكل كامل. وعلى طول كلّ الحواف الغربيّة من الصّحراء كان البدو قد بدؤوا بحراثة الأرض، لذلك فقد اضطروا إلى توطيد أنفسهم في بعض النّقاط الثابتة قرب محاصيلهم.

قال شيخ تاروتين Tarutin: «أصبحنا فلاحين»، وفي بعض العصور المقبلة، عندما يقوم كلّ العالم بالحراثة والحصاد وقتها لن يبقى هناك بدو في جزيرة العرب. في المراحل الأوّليّة يتابع هؤلاء المزارعون الجدد العيش في خيام، لكن الخيام ثابتة، وتتراكم الأوساخ المرافقة لهم، والقرية غير سارّة لأيّ من العقلاء. ولم تنسَ بعض العائلات في تاروتين Tarutin سلوكيّاتهم الصّحراويّة بعد، وقد وجدناهم أشخاصاً مقبولين، على الرّغم من الملاحظة الصّحيّة التي وردت أعلاه عن قريتهم المكوّنة من بيوت الشّعر.

لم يكن قد مضى على وجودي في المخيّم ساعة عندما حصل اهتياج بين رجالي، وجاء ميخائيل إلى خيمتي وهو يصرخ: «الأميركان! الأميركان!» لم يكن غزواً، ولكن بعثة پرينستون Princeton الأثريّة، التي سافرت في دمشق عبر طرق أخرى غير طرقنا، والتي كانت تعمل الآن في جبل الزّاوية؛ واعتبرها مخيّمي مصادفة سعيدة، حيث أنّ كلّ واحد منّا وجد معارف بين السّادة أو بين البغّالين، وكان لدينا الوقت للكلام، مثلما يتكلّم الأشخاص الذين يلتقون مصادفة في طريق خالٍ.

وفضلاً عن ذلك، فقد زوّدني اليوم الذي أمضيته في تاروتين Tarutin بدرس ذي موضوع رائع في علم الآثار. فعندما كشف أعضاء الحملة الآثار، وحلّوا شفرات النّقوش، خرجت بلدة القرن الخامس كلّها من رمادها ووقفت أمامنا: كنائس، منازل، حصون، مقابر منحوتة في الصّخر بأسماء وتواريخ وفاة قاطنيها محفورة على الباب.



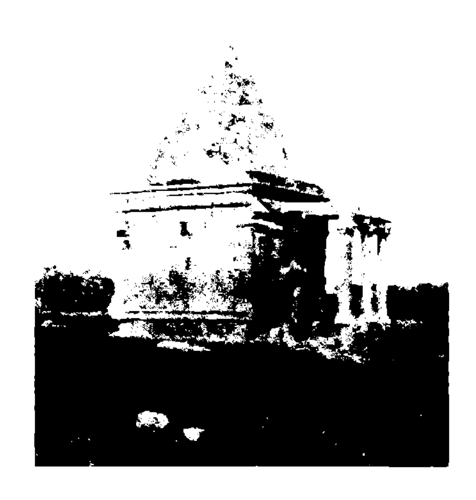
قصر البنات

في اليوم التّالي كان أمامنا مسيرة عشر ساعات. ذهبنا شمالاً، ومررنا بقرية طينيّة صغيرة تدعى حلبان Helban، وأخرى تدعى مغارة مِرزة Mughāra Merzeh، حيث كانت هناك بقايا من كنيسة وقبور منحوتة في الصّخر من طراز بسيط جدّاً. (ولا واحد من هذه الأمكنة مذكور في خارطة كيبرت Kiepert). والتففنا من ثمّ نحو الشّرق ووصلنا التلول Tulul، حيث أتينا فوق امتداد ضخم من مياه فائضة، تمتدّ جنوباً لمسافة اثني عشرة ميلاً على الأقلّ من المَطخ Matkh، وهو المستنقع الذي ينبع منه[1] نهر قويق Kuwek.

(1) هذا خطأ طبعاً، فنهر قويق (واسمه القديم باليونانيّة خاليس) ينبع من هضبة عنتاب في جنوبي تركية ويرفده نهر آق پينار Ak-Pınar (النّبع الأبيض) القادم من كلس، ويمرّ قويق في حلب ثم يصبّ في المطخ جنوبي المدينة. لكنه انقطع نهائياً عام 1950 بسبب إقامة سدّ عليه في تركية. أمّا اسم قويق فتركي الأصل: قَواق Kavak أي شجر الحور.

عند التلول Tulul كانت بعض النساء العربيّات يندبن على قبر حديث. وهنّ يبكين لمدّة ثلاثة أيام بعد دفن الميت عند جانب القبر؛ قال محمود في مكّة والمدينة فقط ليس هناك ندبٌ على الأشخاص الذين ماتوا. هناك عندما تغادر الرّوح الجسد تصرخ النّساء ثلاث صرخات ليعلِمن النّاس أنّ الرّوح قد خرجت؛ ولكن بعد هذه الأصوات لا يوجد نواح، وذلك لأنّه يحرّم أن تسقط تلك الدّموع فوق رأس الميت. فالله أعطى وهو أخذ.

ومن ثمّ ذهبنا جنوباً على طول الحافّة من الأرض المرتفعة إلى تلّة صغيرة تدعى تلّ سلمى Tell Salma، حيث التفنا شرقاً مرّة أخرى ودرنا حول مسيل الماء وركبنا على طول حافّته إلى قرية كبيرة تدعى مويمات Moyemāt نصفها خيام ونصفها أكواخ فقيرة الشّكل مبنيّة من الطّين. لا توجد مادّة أخرى للبناء سوى الطّين؛ ومن اللّحظة التي غادرنا فيها الأرض الصّخريّة التي تقع فيها تاروتين Tarutin لم نشاهد أبداً ولا حجرة واحدة - لا حجرة ولا شجرة، وإنّما حقل قمح متواصل لا ينتهي، مع بواكير أزهار الخزامى قرمزيّة اللّون التي ظهرت براعمها بين القمح الفتي.



قبر في الدّانا

لقد كان مسيراً ثقيلاً، على الرّغم من أنّه كان مريحاً لأقدام الخيول. ولو كان هناك مقدار أكثر بقليل من التّربة فوق تلال سوريا ومقدار أكثر بقليل من الحجارة فوق السّهل فإنّ السّفر سيصبح أسهل في تلك المنطقة؛ ولكن الله الذي لا إله غيره أمر على نحو مختلف. ركبنا من مويمات Moyemat نحو الشّمال الشّرقي إلى أن أتينا إلى قرية تدعى هوبر[1] Hober، عند قاع قمّة جبل الحص Hass، وحاولنا أن نخيّم هنا، لكن لم نستطع الحصول على الشّوفان ولا على شعير ولا حتّى على حفنة من تبن مقطّع؛ ولهذا ذهبنا إلى كفر عَبيد Kefr ʿAbīd الموجودة على الخارطة، ونصبنا خيامنا عند السّاعة السّادسة. من المحتمل أن القرى التي لم تكن معروفة لكيپرت Kiepert قرى مبنيّة حديثاً، وفي الواقع لا يزال الكثير منها نصف مخيّمات. وهي متعدّدة جدّاً؛ فقد عددت قرب هوبر Hober خمس قرى في مدى ميل أو ميلين. احتفظ العرب الذين يسكنون فيها بعاداتهم البدويّة في الثّأر، فلكلّ قرية حلفاؤها وأعداؤها في الدّم، وتعتبر علاقاتها السّياسيّة ضعيفة مثلها مثل علاقاتهم في الصّحراء.

تحتوي يوميّاتي على الملاحظة التّالية في نهاية اليوم: «العناقيّة ذات الأزهار الزّرقاء، السّوسن الأبيض من النّوع الذي كان أزرق في البارَة، الحوذان الأصفر والأحمر، اللّقالق والقبّرات». كانت هذه كلّها هي التي كسرت رتابة السّير الطّويل.

وعلى بعد نصف ساعة إلى الشّمال من كفر عَبيد Kefr ʿAbīd توجد قرية صغيرة فقيرة الشّكل تحتوي على لوحة فسيفسائيّة كاملة تماماً من نماذج هندسيّة. ويمكن العثور على الأجزاء الأخرى من الفسيفساء مبعثرة عبر القرية، بعضها في المنازل، وبعضها في الأفنية، وتحتاج المنطقة كلّها إلى استكشاف دقيق إذ يقوم المستوطنون الجدد بقلب الأرض وقد يهدمون ما يمكن أن يعثروا عليه.

وصلنا حلب في منتصف النّهار، وقدمنا إليها سائرين بجانب مصرف مياه مفتوح. وسواءٌ كان ذلك بسبب الرّائحة الكريهة أو بسبب السّماء الثّقيلة والرّياح المحمّلة

(1) تقع هوبر إلى الشمال الشرقي من سبخة المطخ، ومن القرى القريبة منها: بريدة، بويضة صغيرة، تل دادين، دلامة، عطشانة.

بالغبـار لا أعلـم فـإن الانطباع الأوّل عـن حلب كان مخيّبـاً للأمل. إن الاسـم بصيغته الأوروبيّة السّاحرة «آليبّو» Aleppo ينبغي أن يخصّ مدينة أكثر جاذبيّة، وحلب السّاحرة هي ليسـت كذلك بكلّ تأكيد، ذلك لأنّها تقع في مكان قاحل لا شـجر فيه، وعالم من دون ملامح، عند بداية منبسـطات ما بين النّهرين العظيمة. يشبه موقع البلدة فنجاناً في صحـن، تقع المنازل فـي الصحن وتقف القلعة على الفنجـان المقلوب، وتُرى مآذنها على بعد عدّة ساعات بينما لا يظهر أيّ أثر للمدينة حتّى الميل الأخير من الطّريق.

بقيـتُ فيها يوميـن، كانت تمطر خلالهما على نحو مسـتمرّ تقريبـاً، ولذلك فإنّي لا أعرف حلب- إنها مدينة شـرقيّة لا تسـمح لك بدخول دائرة خصوصيّاتها ما لـم تمكث أشـهراً داخل أسـوارها، ولن تحصل على ذلك أيضاً ما لم تعاني - لكنّي لـم أتركها قبل أن أدرك على نحو ضعيف بأنّ هناك ثمّة أشياء يجب أن تُعرف.



قرية على شكل خلايا النّحل

إنها لمدينة عربيّة رائعة؛ وعندما تسير في شوارعها الضّيّقة فإنّك تمرّ بمآذن ومداخل تنتمـي لأجمل مرحلة من الهندسـة العربيّة؛ وبعض المسـاجد والحمّامات والخانات (وخاصّـة نصـف المتهدّمة منها والمغلقة) كلّها من الطّراز نفسـه، وتُعـدّ القلعة أفضل مثال على صنعة العرب في القرن الثّاني عشـر في سـوريا كلّهـا، مع الأبواب الحديديّة مـن نفـس الحقبة - وقد أرّخت - وقطع جميلة من التّزيينـات. ولا بدّ أنه لا يزال هناك نشـاط محلّـي يتطابق مع تلك العلامـات من العظمة الماضية. ولكـن البلدة عانت من

أيّام سيئة، فلقد حوصرت بجشع الامتيازات الأوروبيّة للباحثين عن الفرص، وهي تعاني جدّاً، أكثر من معظم البلدات السّوريّة من السّيطرة الخانقة للدّولة العثمانيّة. وهي تموت ببطء بسبب حاجتها إلى منفذ على البحر، ولن تقوم لا سكّة الحديد الألمانيّة ولا الفرنسيّة بسدّ حاجتها. وحتّى الآن فالشّركتان منهمكتان بنشاط في معارضة إحداهنّ الأخرى. امتدّ الامتياز الأصلي لسكّة حديد رياق - حماة إلى حلب وشمالاً إلى بيرِه جيك Birijik - ولقد أُخبِرت بأنّ البطاقات إلى بيرِه جيك قد طُبعت عندما مُدّت السّكك أولاً في رياق. ومن ثمّ جاءت ألمانيا، بمشروعها العظيم لسكّة حديد بغداد. وقد حصلت على امتياز لخطّ فرعي من كِلِّس Killiz إلى حلب، وعملت ما استطاعت لتمنع الشّركة الفرنسيّة من التّقدّم إلى ما بعد حماة، بدعوة أنّ خط الحديد الفرنسي سيقلّل من قيمة الامتياز الألماني - وحسب معلوماتي، التي قد تكون متخيّلة، فهي ليست من أرشيف الإمبراطوريّة ولكن من مصادر محلّيّة في حلب نفسها.

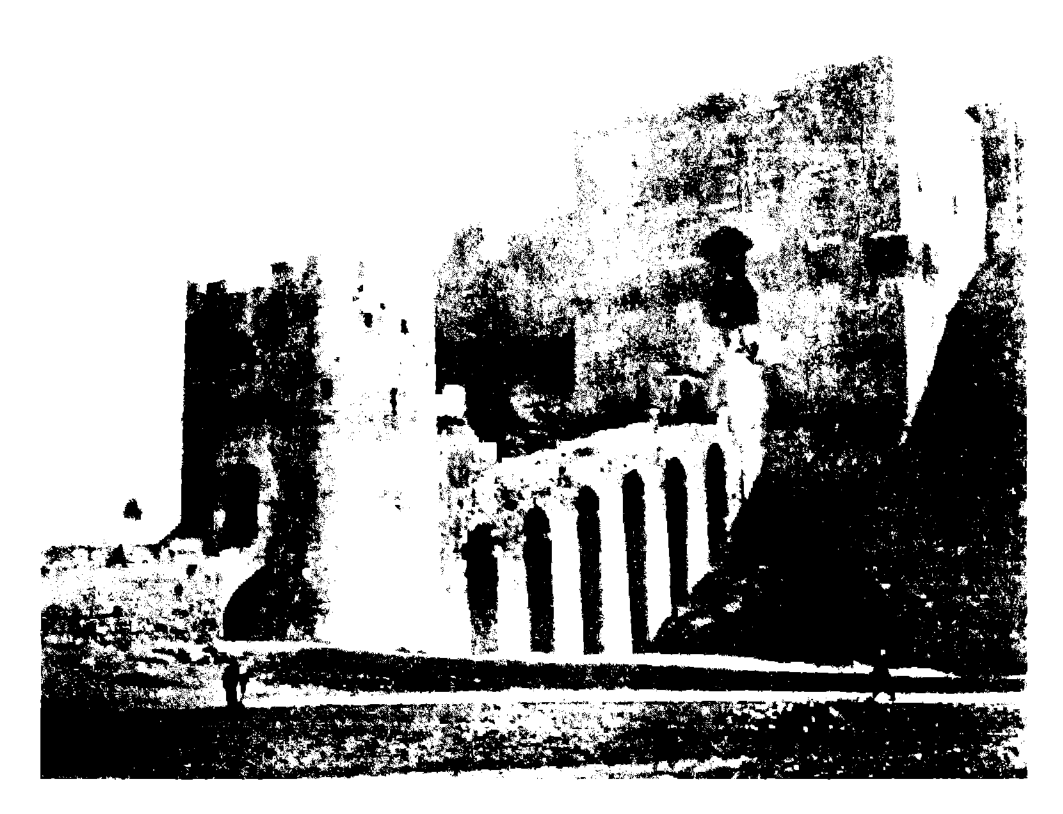
بعد أن غادرتُ سوريا تابع الفرنسيّون عملهم المتوقّف على خط رياق - حماة Rayak - Hamah على الرّغم من أنّه سيمتدّ إلى الأمام، ولكن حسب اعتقادي ليس إلى بيرِه جيك Birijik ولكن إلى حلب فقط على أبعد مدى[1]، ولن يكون له فائدة في البلدة، فتجّار حلب لا يرغبون بإرسال بضائعهم في رحلة تستغرق ثلاثة أيّام إلى بيروت؛ إنّهم يريدون مرفأ قريباً لهم، يمكّنهم من حيازة جميع المنافع من التّجارة، ويجب أن يكون المرفأ الإسكندرون Alexandretta.

وفي حال اكتمل خطّ حديد بغداد فإنّه لن يحققّ لهم الحصول على أيّة فائدة. وبالنّسبة للخطّ الفرعي الموجود سابقاً (وقد بُني من قِبل رأسماليين إنكليز وفرنسيين، لكنّه أصبح الآن تحت سيطرة الألمان) فإنّ سكّة الحديد ستصلّ إلى البحر في مرسينا Mersina (مَرسين) ولكن مرسين تبعد عن حلب كما تبعد بيروت عنها. وهذا خط يجب أن يمتدّ مباشرة من حلب إلى الإسكندرون وهو شيء يعتبر وقوعه بعيد الاحتمال إلى أبعد حد، طالما أنّ السّلطان يخاف أكثر من أيّ شيء من ربط طرق

(1) كتبت المؤلفة: والخط الآن مكتمل حتى حلب.

القوافل الدّاخليّة بالسّاحل، مخافة أن تجد الجيوش الأجنبيّة، وبشكل خاص البريطانيّة ذلك فرصة سهلة على نحو خطر في أن تقوم بإنزال العسكر من سفنها الحربيّة وتسير إلى البلد.

يجب على حَلَب أن تبقى، كما كانت في الأوقات الماضية، المركز الموزّع الكبير لبضائع الدّاخل، ولكنّ حركة النّقل اختنقت بسبب التّكرار المميت لمصادرة الحكومة لجِمال الأمتعة. وفي السّنة الماضية، حين كانت الحرب اليمنيّة قائمة ازدادت الشّكوى حيث تولّت الدّولة نقل الجنود من ثكناتها في الدّاخل إلى السّاحل من أجل ركوب سفن النّقل البحريّة والذّهاب عبر البحر الأحمر. ولأكثر من شهر كانت التّجارة راكدة والبضائع محزومة ومتراكمة فوق بعضها عند السّاحل انتظاراً للنّقل، وإذا استمرّت الحالة فترة أخرى فسيتوقّف نقل البضائع نهائيّاً - لأنّ مالكي الجِمال القادمين من الشّرق لن يجرؤوا على دخول منطقة الخطر لحيواناتهم. سمعت هنا، كما سمعت في المدن التّركيّة الأخرى، صرخة الإفلاس الرّسمي. لم يكن لدى الحكومة رؤوس أموال تباشر بواسطتها أغلب الأعمال الضّروريّة، فلقد كانت الخزائن فارغة تماماً.



قلعة حلب

على الرّغم من أنّ مكوثي كان قصيراً فإني لم أخرج من دون تعارفات شخصيّة، كان من بينهم الوالي، الشّخصيّة الأكثر أهمّية. إن كاظم باشاKiazim Pasha رجل ذو طابع مختلف تماماً عن والي دمشق. فقد كان الأخير رجل دولة طِبقاً لمواصفاته في حين لم يكن كاظم سوى رجل مهذار *farceur*.

استقبلني في قسم الحريم عنده، وسُررت عندما رأيت زوجته، التي كانت من أجمل النّساء التي يمكن أن تراها، فهي طويلة جليلة برأس صغير أسود الشّعر ينسدل على كتفين رائعين وأنف مستقيم صغير وذقن بارزة وحاجبين مقوّسين فوق عينين تشبهان بركتين سوداوين - لم أستطع أن أمنع نفسي من التّحديق في وجهها عندما جلسْت معنا. كانت هي وزوجها چركسيّين، الحقيقة التي جعلتني محترسة قبل أن يفتح الوالي

شفتيه. تكلّم كلاهما بالفرنسيّة، وكانت تتكلّمها بشكل جيّد جدّاً. استقبلني بأسلوب فظّ وكانت ملاحظته الأولى هي:

«Je suis le jeune pasha qui a fait la paix entre les églises».

«أنا الپاشا الشاب الذي أنهى الخلافات بين الكنائس».

كنت أعلم ما يكفي عن تاريخه لأدرك بأنّه كان متصرّف القدس في وقت عندما كانت المنافسات بين الطّوائف المسيحيّة قد انتهت بعدد من القتلى أكثر من المعتاد، ثمّ تمّ التوصّل بصعوبة كبيرة إلى تسوية، ولم أسمع إن كان قد حصل هذا عن طريق براعته أو بسبب ضرورات الحالة.

قال الپاشا: «كم تتوقّعين عمري؟».

أجبت بلباقة بأنّي أعطيه خمساً وثلاثين سنة.

قال بانتصار: «ست وثلاثون! ولكن القناصل كانوا يصغون إليّ. يا إلهي! Mon Dieu! لقد كان ذاك مركزاً أفضل من هذا، على الرّغم من أنّي الآن والٍ. هنا ليس لديّ مناسبة لأجتمع بالقناصل، ويحتاج رجل مثلي إلى مجتمع من الأوروپيين المثقّفين».

(ادّعاء لا يُصدّق: موظّف شرقي يعلن بأنّه يفضّل رفقة الأوروپيين).

قال: «أنا محبّ لإنكلترا بشكل كبير».

عبّرت عن إقرار بلادي بالجميل بعبارات مناسبة.

وأضاف بسرعة: «ولكن ماذا تفعلون في اليمن؟».

قلت: «سعادتك، نحن الإنكليز شعب مجاور للبحر، ولا يوجد سوى مكانين نهتمّ بهما في كلّ الجزيرة العربيّة».

استكمل: «أعرف، مكّة والمدينة».

قلت: «لا، عَدَن والكويت».

أجاب غاضباً: «وقد احتللتم كليهما» - نعم، أنا مضطّرة للاعتراف بأنّ نبرات صوته لم تكن تلك المولعة بالإنكليز.

بدأ توّاً بإخباري أنّه الوحيد بين الباشوات الذي حاز على الضّروريّات الحديثة. فقد عني ببناء طريق سكّة حديد جديد إلى إسكندرون Alexandretta - ليس لأنّها ستكون مستخدمة جدّاً، كما أظن، بل لأنّه لا يوجد جِمال للسّير عليها - كالطّريق التي كان قد بناها من السّامرة Samaria إلى القدس. كان ذلك طريقاً لا يوجد مثله في تركيّا - ألا أعرفه أنا؟ كنت قد سافرت عليه مؤخّراً، واغتنمت الفرصة لامتداح منشِئه؛ لكنّي لم أجد أنّ من الضّرورة ذكر أنّه معطّل عند أسفل التّلّة الوحيدة والهامّة ولم يُرمّم مرّة أخرى حتّى وصلت قمّة جبال برّيّة اليهوديّة Judaean.

هذا كلّ ما يجب أن يقال عن أساليب كاظم باشا Kiazim Pasha.

وعلى نحو أكثر لطفاً بكثير كان التّعرّف بمطران الرّوم الكاثوليك، وهو رجل دمشقي تعلّم في باريس وكان لبعض الوقت راعي أبرشيّة لطائفة الرّوم الكاثوليك في المدينة، على الرّغم من أنّه لا يزال شابّاً نسبياً. كنت قد أعطيته رسالة للتّعريف بي فاستقبلني بدماثة كبيرة في بيته. جلسنا في غرفة مليئة بالكتب، والنوافذ مفتوحة على فناء قصره الهادئ، وتكلّمنا عن المسارات التي يجول فيها الفكر في أوروبا؛ ولكنّي سُررت بأنّه مع كلّ ما تعلّمه ومع إقامته الطّويلة في الغرب، فإنّ رئيس الأساقفة هذا لا يزال شرقيّاً في قلبه.

قال: «لقد فرحت عندما أُمِرت أن أعود من باريس إلى بلدي. ففي فرنسا يوجد الكثير من العلم، ولكن القليل من الإيمان؛ بينما في سوريا، على الرّغم من وجود الكثير من الجهل، فإنّ الدّين يستند إلى أساس متين من الإيمان».

والخلاصة التي يمكن أن تؤخذ من هذا التّصريح ليست إطراءً للكنيسة، لكنّي أُحجم عن التّعليق.

ظهر في فترة بعد الظّهر ليردّ دعوتي - ويجب أن يراعي الجميع هذه القاعدة الاجتماعيّة من الوالي فنازلاً - واضعاً صليبه الذّهبي وحاملاً عصاه الأسقفيّة في يده. تدلّى من قبعته

الطّويلة التي ليس لها حوافّ خمارٌ أسود حتّى ظهره، وكان ثوبه الأسود ذا حواف أرجوانيّة، سار خلفه قسّيس متّضعاً. ووجد عندي زائراً آخر يجلس معي في ردهة النُّزُل، وهو نقولا حمصي Nicola Homsi، صاحب بنك غني من طائفته. ينتمي حمصي إلى عائلة مسيحيّة مهمّة تقيم في حلب، ولمصرفه فروع في مرسيليا Marseilles ولندن. كان بينه وبين المطران ثقة متبادلة جميلة وتعاون في معظم الأعمال مع أفضل الطّبقات المثقّفة في سوريا. وهما يعانيان من قبضات الأتراك - الكاهن، بسبب معارضة رسميّة عمياء لا معنى لها تقابل المسيحي في كلّ منعطف؛ والمصرفي بحسب اهتماماته يصرخ عالياً من أجل التّقدّم، والتّقدّم هو الذي لا يريد الأتراك أن يفهموه أبداً.

لذلك سألتهما ماذا يتوقّعان عن مستقبل البلد، فنظر كلّ واحد منهما إلى الآخر، وأجاب المطران:

«لا أعرف، لقد فكّرت عميقاً بالموضوع، ويمكنني أن أرى أنّه ليس هناك مستقبل لسوريا، في أيّ طريق التفتُّ».

كان هذا هو الجواب المعقول الوحيد الذي سمعته عن أي جزء من القضيّة التّركيّة.

رُتّب الوضع في حلب من قِبل السّلطان ليكون مناسباً بشكل خاصّ للباشاوات غير المرغوب بهم في القسطنطينية. والبلدة مليئة جدّاً بالمبعدين حتّى أنّ الزّائر العابر إلى أبعد حد يمكنه أن يكوّن معرفة شخصيّة بعدد قليل منهم. كان واحد منهم ينزل في فندقي، وهو شخص متشائم لطيف السّمة، والذي لا يمكن لأحد أن يتوقّع شيئاً عن تعاطفه الثّوري. ربّما لأنه لم يكن في الحقيقة مع الثّوريين، وإنّما يعود سبب نفيه إلى زلّة لسان ليس غير، نُقلت وبولغ فيها من قِبل عدو أو جاسوس.

وقد اعتدتُ أن أرى الكثير من هؤلاء المنفيين مبعثرين هنا وهناك في آسيا الصّغرى، ولم يستطع أيّ واحد من الذين قابلتهم أن يخبرني ما هو السّبب الذي جعلهم يعانون من عقوبة النّفي. ومن دون ريب، فلا بدّ أن يكون لدى البعض ما يريب، والبعض كان مدركاً تماماً وعلى نحو كامل لإساءته، ولكن غالبيتهم كانوا جاهلين على نحو بريء. والآن فإنّ

هـذا الأمر يلقي حِملاً أكبر على موضوع الشّعور الوطني التّركي أكثر ممّا قد يبدو للوهلة الأولـى؛ والحقيقـة هـي أنّ هـؤلاء الباشـاوات المبعدين هـم وطنيّون على نحو نـادر جداً ويدفعـون ثمـن إخلاصهم لهـدف وطني، ولكـن في الواقع هـم رجال أبعدهـم التّغيّر غير المحظـوظ للحوادث عن النّظام الموجـود. وإذا كان هناك أيّ فرصة يمكن أن تعيدهم إلى الامتياز فستجدهم متلهّفين على نحو عصبي، حتّى في المنفى، في أن يحجموا عن أيّ فعل يمكـن أن يفضي إلى زيادة الرّيبة الرّسـميّة؛ ويكون هذا فقـط عندما يقرّرون بأنّه لا أمل لهم طالما أنّ السّـلطان الحالي على قيد الحياة، ذلـك لأنّهم يتمنّون أن يقيموا صداقة على نحو حرّ مع الأوروبيين أو أن يتحدّثوا بانفتاح عن مظالمهم.

وحسـب رؤيتـي فليس هنـاك كتلـة منظّمة لرأي تحـرّري فـي تركيّا، ولكـن مجرّد استياءات فرديّة أُسِّست على محنة شخصيّة. ويبدو أنّه من المستبعد عند عودة المنفيّين إلى القسطنطينية بعد موت السلطان أن يقدّموا أيّة خطّة لإصلاح أو أن يظهروا أيّ رغبة لتغيير النّظام الذي يعيشـون فـي ظلّه من خلال ثورة المصالـح الطّبيعية عندما يجدون أنفسهم فيه مرّة أخرى أشخاصاً معتبرين.

هناك شكل آخر من النّفي يمكن أن يقابله الإنسان في تركيّا، وهو العقوبة المحترمة بتوظيـف فـي منطقة بعيدة. وأظنّ أنّ ناظم باشـا Nazim Pasha نفسـه ينتمي إلى تلك الفئة، وكذلك صديقي محمّد علي باشا الحلبي. فالأخير يُعدّ رجلاً مقبولاً في الثّلاثين مـن عمره تقريباً، وهو متزوّج من امرأة إنكليزيّة. لقد رافقني إلى منزل الوالي، وحصل على إذن لي بزيارة القلعة، وأوجد العديد من الطّرق ليجعل نفسه مفيداً. كانت زوجته سـيّدة صغيـرة لطيفة من بريكسـتون Brixton؛ كان قـد قابلها في القسـطنطينية وهناك تزوّجها، الأمر الذي ربّما وحسـب علمي كان السّـبب إلى حدّ ما في سـقوط حظوته، وذلك لأنّ الأمّة الإنكليزيّة جماعة غير مرغوب بها في قصر يلدز Yıldız Kiosk.

ومحمّـد علـي باشـا رجل نبيل بكلّ معنـى الكلمة، ويبـدو أنّه يحـاول أن يجعل زوجته سـعيدة؛ لكن يجب أن يكون مفهوماً بشـكل واضح بأنّي لم أسـتطع كقاعدة عامّة أن أزكّي الباشـاوات الأتراك كأزواج للآنسات من بريكستون Brixton. وعلى الرّغم من أنّها تلعب

التّنس في نادي التّنس، وذهبت إلى مجموعات الخياطة للجالية الأوروپيّة، فقد أُكرِهت على أن تطبق إلى حدٍّ ما عادات النّساء المسلمات. فهي لم تخرج إلى الطّرقات أبداً دون أن تكون محجّبة؛ قالت: «لأنّ النّاس سيقولون إنّ زوجة الپاشا تسير سافرة».

❊ ❊ ❊

وصلنا القلعة في السّاعة الوحيدة التي أشرقت فيها الشّمس خلال وجودي في حلب، وأُخِذنا في جولة من قِبل ضبّاط لطفاء، بثياب رسميّة فاخرة وسيوف ومهاميز مقعقعة، وكانوا قلقين بشكل واضح بأنّه يجب ألا تفوتني زيارة المسجد الصغير وسط القلعة، المشيّد على البقعة ذاتها التي حلب فيها إبراهيم بقرته. وقالوا إنّ الاسم الفعليّ لحلب يعود إلى حادثة تاريخيّة، ولا يمكن أن يكون هناك شكّ بأنّ صيغتها العربيّة Haleb (حلب) تتألّف من أحرف الجذر نفسه الذي يشكّل صيغة الفعل حَلَب[1].

وعلى الرّغم من الدّلالة العميقة للمسجد، فقد كنت مستمتعة جدّاً بالمنظر في قمّة المئذنة. حيث يقبع سهل بين النهرين، ممتدّاً أمامنا، منبسطاً كالمنصّة - ويمكن رؤية نهر الفُرات من ذاك البرج في نهار صاحٍ، وفي الحقيقة من الممكن أن تشاهد بغداد لولا الطّريق المتعِب الذي تحنيه الأرض الكرويّة، حيث لا يوجد أيّ حاجز أمام العين في كلّ هذا السّهل العظيم.

وإلى الأسفل منّا، كانت أسطح الأسواق والخانات، مع مناظر عُلويّة هنا وهناك للأفنية الرّخاميّة مع ذروة جميلة لمئذنة. كانت الأشجار والمياه مفقودة في المنظر، ويُعدّ الماء المشكلة الأساسيّة في حلب نفسها. فالنّهر الرّاكد الذي ينبع من المَطخ[2]

---

(1) قد يظن بعض الباحثين هذه التسمية مضحكة أو بعيدة عن الصّواب، لكن الواقع أن اسم حلب (ومثلها حَلبا في شمال لبنان، وحَلبون شمالي دمشق) يستمد من المفردة الكنعانية (حلب) حليب التي تعني: الأبيض. ومثلها (لبان) اللبن التي تشير إلى الأبيض أيضاً، ومنها في الكنعانيّة: لِبانون، البياض، أي اسم جبال لبنان. ولكن بالطبع لم يؤخذ اسم مدينة حلب من الفعل (حَلَبَ) بل من الاسم الذي يعني البياض.

(2) ذكرنا أعلاه أن هذا خطأ، فنهر قويق ينبع من هضبة عنتاب في جنوبي تركية ويمرّ في حلب ثم يصبّ في سبخة المطخ جنوبي المدينة.

Matkh يجـفّ في الصّيـف، والآبار مالحة طوال السّـنة حوله. ويجـب أن يُجلب ماء شرب جيّد من مسافة بعيدة، ويكلّف مصروف البيت الواحد من الماء قرشاً واحداً في اليـوم على الأقلّ وهو إضافة بليغة على تكاليـف الحياة. لكن المناخ جيّد، بارد قارس في الشّتاء ولا تدوم حرارة الصّيف العالية أكثر من شهر أو شهرين في الصّيف. هذه هي حلب المدينة العظيمة باسمها الرّنّان وآثار ماضيها الباهر.



حمّال الماء

* * *

الفصل الثّاني عشر

كانـت كلّ لحظة فراغ خلال إقامتي لمدّة يومين في حلب مشـغولة بتغيير البغّالين. بـدا ذلـك أمراً مهمّاً ولو أنّه إجراء يؤسـف له. في أنطاكيـة Antioch كان يتوجّب علينا الوصول إلى حدود السّـكّان الذين يتكلّمون العربيّة. فحبيب وأبوه لا يعرفان أيّة كلمة تركيّة، وكان ميخائيل يعرف بعض الأسـماء الأساسيّة مثل: بيض، حليب، قرش، بينما كنتُ بالكاد أكثر براعة.

خشـيت من الاقتحام بسـرعة مع مجموعتـي الصّغيرة في أراضٍ مـن المفترض أن نكـون غيـر قادرين فيها على فعـل أكثر من إظهـار حاجاتنا الأكثر إلحاحاً أو أن نسـأل عن الطّريق. كانت جدارة البغّالين الملحوظة في شـمال سـوريا فيها الكثير من التبجّح بالنّسـبة لي - فإنّ اسـم البغّـال هو في الحقيقة اسـم مغلوط، لأنّ حيـوان التّحميل في الحقيقـة فـي هذه المناطق هو فرس ضعيـف هرِم يرثى له، يُطلق عليه في العربيّة اسـم كديش Kadish، وأشكّ في أن نكون شاهدنا بغلاً من إسكندرون Alexandretta إلى قونية Konia، والواقع أنّنا لم نرَ في الحقيقة أبداً قافلة من البغال.

وفوق ذلك فقد سـمعت أنّه من غير المفيد أن أسأل عن وسيلة للسّفر المريح، دون إزعاج أو حمل للمسـؤوليّة، وعلى نحو موصول وبسـرعة حتّـى أتعرّف على خدمي، وكان ذلـك عندمـا أصل قونيـة Konia حيث يتوجّب علي أن أكـون قادرة على صرف قافلتـي إذا أحببـت، وكمـا أحب، وسـيجد الرّجال مـن حلب طريق عودتهـم بحمولة أخرى. وهكذا ودّعت رجالي البيروتيين - بسلام.

كان النّظام الذي سارت عليه الرّحلة من الآن فصاعداً نظاماً مجهداً. وكان المستغلّ رجلاً مسنّاً أدرد تعيساً، اسمه فارس ويتشارك مع أخيه إحدى أكبر مجموعات حيوانات التّحميل في حلب. وبسبب فقدانه لأسنانه فإنّه يتكلّم العربيّة والتّركيّة على نحو مبهم؛ أمدّني بأربعة من جياد التّحميل وركب هو على خامس، من أجل راحته وعلى نفقته، على الرّغم من أنّه حاول عبثاً أن يجعلني أدفع أجر ركوبه عندما وصلنا إلى قونية Konia؛ واستأجر غلامين بأجر الكفاف، ليقوما بكلّ أعمال التخييم والسّير، وأطعمهما طعاماً قليلاً.

سار هذان التّعيسان على أقدامهما (وقد زوّدهم اللّبنانيّون المستقلّون بالحمير)، وكان جزء من اتّفاقهما مع فارس أنّ عليه أن يعطيهما أحذية، لكنّه رفض أن يفعل ذلك حتّى تدخّلت وهدّدت بأنّي سأحسم من أجرته ثمن الأحذية وأشتري لهما حذاءين بنفسي. واضطررت أيضاً بأن أنظر في موضوع المؤن وأتأكّد من أنّ لدى الغلامين على الأقلّ طعام كافٍ يمكّنهما من العمل على نحو جيّد؛ ولكن على الرّغم من كلّ جهودي فقد كان الغلامان المستأجَران يفرّان عند كلّ مرحلة، وعانيت إزعاجاً متواصلاً من التّأخيرات النّاجمة عن صعوبة إيجاد آخرين، وأكثر من ذلك، من ضرورة تعليم كلّ زوج جديد تفاصيل عملهما - أين المكان المناسب لتثبيت الخيمة، وكيف يجب توزيع الأحمال، ومئات من الأمور الأخرى الصّغيرة لكن المهمّة.

كان عليّ أيضاً أن أحث فارس، الذي كان قد زُوِّد بعدد أكبر من الأعذار للتّهرّب من العمل أكثر من أيّ رجل في حلب، وذلك بالقيام ببعض المشاركة في واجبه، وأن يشرف ليلاً ونهاراً على إطعام خيولي، وإلاّ فإنّها ستهرب من الجوع شأنها شأن الغلامين المستأجَرَين. أخيراً وعندما وصلنا إلى قونية Konia، وجدت أنّ فارس كان قد ردّ عبديه الأخيرين إلى الشّارع، ورفض بشكل قاطع إعادتهما إلى بلدهما أضنة Adana، قائلاً إنّه عندما غاب عن ناظري استطاع أن يحصل على رجال أرخص منهما؛ وحيث أنّني لن أتخلّى عن الغلامين اللذين قاما بفعل ما أمكنهما لخدمتي، بالرغم مما كانا يبذلانه من جهدهما الغبي، فقد كنت مضطرة لمساعدتهما في العودة إلى بلدهما.

وعليّ أن أقول لألخّص الدّليل بأنّ هؤلاء الذين يزكون البغّالين من حلب ونظامهم البغيض لن يستطيعوا أبداً الإرشاد إلى مخيّم منظّم ومرتّب بشكل جيّد، حيث يسير العمل بانتظام مثل ساعة بيغ بن Big Ben، ويكون الرّجال طلقي الوجوه وماهري الأيدي، ولا يمكنهم أيضاً الحصول على خبرة في عمل حقيقي مثل الرّحلة، لأنّ هذا غير ممكن إلا مع خدم يظهرون شجاعة في الصّعوبات، ومغامرةً ودهاءً.

أسلّم بأنّ خبرتي صغيرة، وأؤكّد بثقة أنّها لن تكون أكبر، لأنّني سأجلب بغّالين من بغداد مفضّلة ذلك على التّعاقد مع فارس وأمثاله مرّة أخرى.

كان ذلك تماماً عندما تضاعفت مصاعب الرّحلة لأنّ فعالية ميخائيل ضعفت. فقد أمضى يومين وهو يشرب نخب صحّة رفاقه الرّاحلين الذين كان له معهم علاقات ممتازة، كما يجب أن يكون أعضاء مخيّم جيّد، وكان هذا اليومان كافيين لتحطيم تأثيرات شهرين من الرّزانة. ومن ذلك الوقت وحتّى الآن فقد تواجدت زجاجة العَرَق بشكل كبير في حقائب خُرجه، ومع أنّه من الممكن البحث عن الزجاجة والعثور عليها في حقائب خُرجه وكسرها بحجر، فليس هناك أيّ مقدار من الاحتراس يمكن أن يبقي ميخائيل بعيداً عن الخمّارة عندما نصل إلى أيّ بلدة.

تُعلّم المحنة دروساً عدّة؛ عدتُ بتفكيري إلى الخلف بمشاعر مختلطة إلى الأسابيع الأربعة العسيرة ما بين رحيلنا من حلب والوقت الذي أرسلت لي فيه العناية الإلهيّة رجلاً آخر أفضل ولقد قسّيت قلبي لأصرف ميخائيل من الخدمة، لكنّي لم أندم على التّعليم الذي فُرض عليّ.

وصل الحاج محمود في حلب إلى نهاية مهمّته، وودّعته على كُره وداعاً حارّاً جدّاً. زوّدني الوالي بضابط كان اسمه الحاج نجيب، وهو كردي بهيئة غير جذّابة، لكنه أثبت وعن اطلاع بأنّه رجل مفيد وميّال للمساعدة، خبير بالمنطقة التي سافرنا عبرها سويّاً، وبالنّاس الذين يقطنونها. كنّا قد تأخّرنا بالانطلاق، بسبب سُكْر ميخائيل من شرب العَرَق والبغّالين الذين تعوزهم البراعة في التّحميل.

كان النّهـار صاحيـاً (كان يوم الثّلاثين من مارس)، ولأوّل مرّة كانت الشّـمس حارّة على نحو بغيض. وعندما انطلقنا في السّـاعة العاشرة كانت متوهّجة بقوّة فوقنا، وعلى طول مسيرة يوم كامل لم يكن هناك أيّ مساحة قليلة من ظلّ على طول الطّريق القاحل. اتبعنـا لمسـافة ميل أو أكثـر طريق الإسـكندرون Alexandretta العـام، مارّين بمقهى حوله قليل من الأشجار، وسرعان ما انحرفنا بعده بعيداً نحو اليسار ودخلنا طريقاً قادنا إلى هضاب صخريّة جرداء، وبسرعة أصبحت صخريّة مثلها. وكان طريقنا نحو الشّرق مع انحراف قليل نحو الشّمال.

توقّفنا عند السّـاعة الثّانية عشـرة والنّصف من أجل تناول الغـداء، وانتظرنا وصول الأمتعة سـاعة كاملة، واسـتعرضتُ خلال هذا الوقت الضّائع سـرعة المسـير النّسـبيّة لخدمنا الجدد والقدامى والحرارة المحرقة للشّـمس التي لم تكن ملحوظة جدّاً عندما كنّا نسـير. مررنا بعد مسـير نصف ساعة بكوخ ياقِت عدس Yakit 'Ades، حيث اقترح نجيـب أن نخيّـم. لكنّنـي قرّرت بأنّ الوقت ما يـزال باكراً جدّاً، وبعـد أن أعطينا فارس أوامـر صارمة فيمـا يتعلّق بالطّريق الذي عليه أن يتّبعه والنّقطـة المحدّدة التي يجب أن نخيّـم فيها، حثثنا سـيرنا أنـا والضّابط، ولم تمضِ إلاّ فترة وجيـزة حتّى أصبحنا غائبين عن نظر البقيّة.

ركبنـا علـى طـول قعـر وادٍ أجـرد ملتـوٍ، مارّين بعـدّة أماكـن كانـت ملحوظة على الخارطـة على الرّغم من أنّها لم تكن أكثر من الكومات الأصغر من الخِرَب، وانعطفنا عند السّـاعة الرّابعة صاعدين المنحدر الشّـمالي للوادي ووصلنـا قرية صغيرة لم تكن معروفة لكيبرت Kiepert، وأخبرني نجيب أنّ اسـمها كباشين Kbeshin. وجدنا هنا، بيـن بعض الجـدران القديمة والعديد من أكـوام النفاية الحديثة، معسـكراً كرديّاً، وهو أحد المخيّمات الربيعيّة التي يسـكن فيها أنصاف البدو مع قطعانهم في فصل العشـب النّضـر. كانـت جدران الخيـام، إذا أمكن أن نسـمّيها خياماً، مبنيّة بشـكل فظّ من حجر يصـل إلى ارتفاع خمسـة أقدام تقريباً، ولكن كانت الأسـطح من نسـيج شـعر الماعز، ارتفعت في الوسط بواسطة سواري الخيمة.

احتشد حولنا الرّعاة الأكراد وتحدّثوا مع نجيب بلغتهم الخاصّة، والتي بدت مألوفة على نحو غامض بسبب شبهها باللّغة الفارسيّة. تكلّموا أيضاً بالعربيّة، برطانة غريبة مليئة بكلمات تركيّة. جلسنا لبعض الوقت على كومة من سَقَط المَتاع ننتظر حيوانات الأمتعة إلى أن اقتنعت، على الرّغم من توكيد نجيب، أنّه لا بد أن يكون قد حصل توقّف مفاجئ وربّما علينا أن ننتظر إلى الأبد عبثاً. وفي هذه اللّحظة أعلن شيخ الأكراد بأنّه حان وقت العشاء، ودعانا للمشاركة في الطّعام. إن إحدى إيجابيّات الحياة في الهواء الطّلق بالنّسبة للقليل من الطّعام هو أنّه لا توجد لحظة من النّهار تكون غير راغب أو مستعدّ لتناول الطّعام، وهكذا سررنا بهذا الاقتراح.

ليس للكردي اسم جيّد في حوليّات الرّحلات. ويمكن للتّقرير أن يصفه بأنّه عبوس ومشاكس، ولكن بالنّسبة لي فقد وجدته معطاءً ولديه معظم الصّفات للتّعامل الاجتماعي المقبول.



قلعة سمعان

أُدخِلنا إلى أكبر البيوت؛ كان مضيئاً وبارداً باعتدال، مهوّى ونظيفاً، وأعطته تركيبته المميّزة مزايا البيت والخيمة. كان الطّعام مكوّناً من خبز طازج وخُثارة لبن حامضة ومن پيلاف pillaf (أرز ولحم وتوابل) ممتاز، وقد استُبدل فيه القمح المجروش

بالأرز. مُدَّ الطعام فوق حصيرة، وجلسنا حوله على بُسط بينما قامت النّساء بخدمتنا. كانت السّاعة قد أصبحت السّادسة في الوقت الذي انتهينا فيه من تناول الطّعام ولكن لم تظهر القافلة. كان نجيب مرتبكاً جدّاً، وتعاطف مضيفونا بشدّة مع حالتنا، في حين أعلنوا بأنّهم يرغبون جدّاً بإيوائنا تلك اللّيلة.

انتهى تردّدنا بعد قليل بقدوم صبي صغير جاء راكضاً ومعه أخبار بأنّ قافلة شوهدت تعبر قرية فافرتين Fafertin على الجانب المقابل من الوادي، وستتّجه بعدها إلى قلعة سمعان هدفنا النّهائي. لم يكن هناك وقت لنضيّعه، فقد غابت الشّمس وكان لديَّ ذكرى قوية حول تجوالنا في اللّيل قرب البارَة El Barah في منطقة ليست متباينة عن تلك التي تمتدّ أمامنا، ولكن قبل أن نبدأ أخذتُ نجيب جانباً وسألتُه فيما إذا كان عليّ أن أدفع نقوداً مقابل ضيافتي. أجاب أنّه لا يمكن ولا بأيّ حال أن أفكّر بذلك، فالأكراد لا يتوقّعون أن يأخذوا ثمناً من ضيوفهم. جعلني ذلك كلّه أستدعي الأطفال وأوزّع قليلاً من المتاليك بينهم، عبارة رخيصة من السّخاء، وهو شيء لن يثير ضيق المشاعر الأكثر حساسيّة.

انطلقنا يقودنا نجيب وسرنا بسرعة على طول الطّريق الحجري الذي وجدت الصّعوبة الكبرى في مجاراته. كنت أعرف أنّ كنيسة القديس سمعان العمودي St. Simon Stylites العظيمة تقع على هضبة ويجب أن تُرى من بُعد، على الرّغم من أنّ عمود القدّيس المشهور، الذي بُنيت حوله الكنيسة، كان قد سقط منذ قرون.

بعد ساعة من الرّكوب المتعثّر أشار نجيب بصمت إلى التّلال المعتمة، واستطعت بصعوبة أن أميّز كتلة من شيء كان يبدو مثل قلعة تعترض خطّ الذّروة. أسرعنا وسرنا نصف ساعة أخرى ووصلنا الأسوار عند السّاعة السابعة والنصف في ظلام دامس. وبينما كنّا نسير عبر الكنيسة الضّخمة سمعنا ما يريحنا وهو صوت رنين أجراس القافلة الذي أكّد لنا وصول الخيام - وسمعنا أيضاً أصوات صراخ وتوبيخات ميخائيل الذي تحت تأثير جرعات العَرَق كان هائجاً مثل حيوان وحشي رافضاً أن يعطي البغّالين الجدد أيّة فرصة ولو صغيرة للتّعامل مع خيمتي الإنكليزيّة. وبما أنّني كنت الشّخص

الوحيد سّليم العقل الذي يعرف كيف توضع السّواري معاً بشكل مناسب، إذ يتمّ دقّ الأوتاد في الأرض ثم يُمدّ الأثاث، فقد كنت مضطرة إلى القيام بالقسم الأكبر من العمل بنفسي على ضوء شمعتين، وعندما انتهى ذلك كان عليّ البحث عن صندوق أدوات المائدة من أجل الخبز والسّمن من أجل البغّالين، وأصدرت أمراً لطّباخي المتمرّد بأنّ عليه أن يحضر وجبة العشاء المعتادة من الأرز وقد استقبِل هذا الطّلب بأصوات عويل ساخرة امتزجت بلعنات على الجميع كلّهم بلا استثناء. تعتبر مناقشة رجل سكران أمراً صعباً، ولكن بأيّ مشاعر استطعت الاحتفاظ بالصّمت متمنّية لو أنّ الملاك الذي يسجّل أفعالنا يغفل عن تدوين ذلك.



تتمّة صورة قلعة سمعان

أخيراً، وعندما أصبح كلّ شيء جاهزاً، تجوّلتُ بعيداً في اللّيلة الرّبيعيّة الجميلة، عبر الكنيسة الفخمة والهادئة أسفل الأسوار حيث كنّا نقيم، وسرعان ما وجدت نفسي في فناء مستدير مكشوف، يمكن الوصول إليه من جهات الكنيسة الأربع التي هي مثل اتّجاهات البوصلة. كان الفناء محاطاً بصف أعمدة منقطع النّظير حيث أنّ الكثير من الأقواس لا تزال قائمة، وارتفع في الأيّام السّالفة في وسطها العمود الذي عاش عليه القديس سمعان St. Simon ومات.

تسلّقتُ بعجلة أكوام الخرائب حتّى أتيت إلى القاعدة الصّخريّة المشقوقة لذاك العمود بالذّات، وهي عبارة عن كتلة عريضة من حجر متصدّع مع انخفاض في الوسط، بحيث يشبه إناءً صغيراً مملوءاً بماء مطر نقي، غسلتُ يديّ ووجهي فيه. لم يكن هناك قمر؛ ووقفت الأعمدة والأقواس في فخامة وهميّة متهدّمة، وامتدّ الهواء ناعماً مثل بركة هادئة تقاطرت من الرّوح مغتاظة ومرهقة، وتركته عارياً أمام السّماء والرّبيع. جلستُ وفكّرت كيف تلاعب قَدَر مخادع بقدّيس متجهّم. كان قد أعطى لليلة واحدة عرش أحلامه المريرة لشخص كانت أحلامه ورديّة بقناعة عميقة بأنّه سيكون أوّل المُدانين. وبتأمّل كبير ألقيتُ نظرة على نجم كبير كان قد ارتفع فوق خطّ الرّواق المقنطر المتهدّم، واتّفقنا معاً بأنّ السّفر بين الأرض والسّماء أفضل من الجلوس فوق عمود طوال أيّام عمرك.

كان أعضاء مسح الأراضي الأميركيّون قد رسموا بالتّفصيل وتحرّوا بتمكّن الجبال الشّماليّة حتّى قلعة سمعان، ولكن لا هم ولا أحد غيرهم من الرّحّالين قاموا بنشر تقرير عن المنطقة كثيرة التّلال إلى الشّمال الشّرقيّ من ضريح القدّيس[1]. أنا التي مشيت عبر تلك المنطقة، وزرت تقريباً كلّ القرى المتهدّمة، ووجدت بأنّها كانت معروفة عموماً للسّكّان في جبل سمعان، وأنا التي سوف أتحدّث عنها بهذا العنوان.

إنّ أبنية جبال سمعان Simon، مع جبل باريشا Jebel Barisha، إلى الجنوب الغربي، وجبل العلا Jebel el 'Ala الذي لا يزال على مسافة أبعد نحو الغرب، تنتمي كلّها إلى نظام معماري مشابه للذي في جبل الزّاوية، والذي كنّا قد مررنا به في طريقنا إلى حلب. وسيكون من الممكن إيجاد اختلافات في الأسلوب بين المجموعة الشّماليّة والجنوبيّة؛ وبإمكان السّيّد بَتلر Butler بخبرته الواسعة بالمنطقتين القيام بذلك، لكن بالنّسبة للمراقب المتعجّل فإن الاختلافات تبدو أنّها تعتمد بشكل أساسي على الظّروف الطّبيعيّة وعلى الحقيقة بأنّ المنطقة الشّماليّة تقع بشكل مباشر تحت

(1) كتبت المؤلفة: علمت بعد كتابة هذا الفصل بأنّ السّيّد بتلر Butler وفريقه قد وسّعوا استكشافاتهم إلى الشّمال من قلعة سمعان بعد رحيلي، وأنا أتشوّق إلى وصف تام للمنطقة في منشوراتهم المستقبليّة.

تأثير أنطاكية Antioch، المدينة التي كانت إحدى المنابع الأساسيّة للإلهام الفنّي (وليس لسوريا فقط) في القرون الأولى من الحقبة المسيحيّة.



قلعة سمعان، الباب الغربي

تعتبر المستوطنات في جبل سمعان أصغر والبيوت الشّخصيّة أقلّ سعة، ومن الممكن أن يكمن السّبب في أنّ الجبال الشّماليّة كانت أكثر وعورة وغير قادرة على إعالة سكّان بهذا الغنى والعدد الكبير؛ ويبدو أنّ الاستقرار بدأ في وقت أبكر ووصل إلى ذروة الازدهار في وقت متأخّر قليلاً، لكنّهم لم يعانوا من دور الانحدار الواضح في الجنوب خلال القرن السّالف للاجتياح العربي[1]. وتُظهر أروع كنائس القرن السّادس في الشّمال ترفاً منمّقاً تقريباً من زخرفة لا تضاهى في الكنائس الجنوبيّة

(1) كتبت المؤلفة: أودّ أن أقترح بأن الانحدار الذي حدث فيها يعود في جزء منه إلى الضرائب المرتفعة المرهقة التي فرضها الإمبراطور جستنيان Justinian على المقاطعات الشرقية من إمبراطوريته خلال جهوده لاسترداد المنطقة الغربية. إن قراء كتاب ديل Diehl العظيم عن جستنيان سوف يتذكرون كيف انهار النظام السياسي، والاجتماعي لملكياته تحت ضغط حروبه في إيطاليا وشمال أفريقيا، وكانت الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية هي الأغنى وقد عانت أكثر من سواها.

المتأخّرة، ويعود تاريخها جميعاً إلى قرن أبكر، ما عدا كنيسة بيزوس Bizzos في رويحة Ruweiha. ومن الممتع ملاحظة أنّ كنيسة رويحة، على الرّغم من أنّها متأخّرة قليلاً عن قلعة سمعان، فإنّها تتمتّع بزخرفة أبسط بكثير، ويمكن أن يضاف إلى هذه الملاحظة أنّه حتّى المنازل الصّغيرة في الشّمال وبشكل نادر لا تُظهر تنوّعاً أكبر ولا وفرة في الزّخرفة أكثر من تلك المعتادة في الجنوب[1].



قلعة سمعان، الفناء الدّائري

وعندما يقرأ الرّحّالة النّقوش الكتابيّة على الكنيسة والمساكن يجد أنّ التّواريخ تُقيّد على الدّوام في الشّمال حسب تقويم أنطاكية، فعندها يمكن أن يكون معذوراً لظنّه بأنّها كانت اليد العظيمة لأنطاكية التي لمست هنا العتبة وتاج العمود، والحلي المعماريّة والطّوق الحجري المنقوش. لم تكن كنيسة القديس سمعان St. Simon قد شُيّدت من قِبل جهد محلي فقط ولكن كتقدير للكاهن المشهور في كلّ العالم المسيحي، ومن المحتمل أنّها لم تُنفّذ من قِبل عمّال محلّيين ولكن من قِبل بنّائين ونحّاتين من أنطاكية؛ وإذا كان هذا صحيحاً فمن الصّعب ألا نعزو الكنيسة الجميلة

---

(1) كتبت المؤلفة: تمت ملاحظة ذلك من قبل السيد Butler في كتابه «فنّ العمارة وفنون أخرى».

في قلب لوزة Kalb Lozeh إلى القوى المبدعة نفسـها، واثني عشـر مثالاً أصغر، مثل الكنيسة الشّرقيّة في باقرحا[1] Bakirha التي يجب أن تخضع للمؤثّرات نفسها.

أمضيتُ الصّباح أتفحّص كنيسة القديس سمعان St. Simon والقرية عند سفح التّلّة، التي تحوي بعض البُنى الباسيليقية basilicas الرائعة وأنقاض منزل كبير لاستضافة الحُجّاج.

ظهـر هنـا عند وقت الغذاء كردي جذّاب جدّاً وذكي وقـد اخترته فوراً ليكون دليلي خلال الأيّام القليلة القادمة. كانت المنطقة التي اقترحتُ زيارتها مُهملة على الخارطة، وهـي حجريّـة وخالية مـن الطّرقات. كان اسـم صديقـي الجديد موسـى، وعندما كنّا راكبين معاً في فترة ما بعد الظّهر أسرّ في أذني الخاصّة بأنّه كان على المذهب اليزيدي Yezidi الـذي يدعو المسـلمون أتباعـه بعبّاد الشّـيطان، على الرّغم من أنّـي أميل إلى أنّهم أشخاص غير مؤذين وذوو نيّة حسنة. ويُعدّ الجزء الأعلى من بلاد ما بين النّهرين وطنهم، ومن هناك هاجرت عائلة موسى أوّلاً.

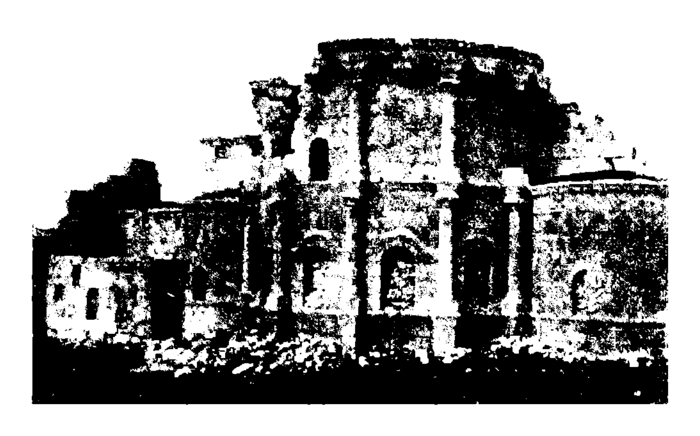


قلعة سمعان، الفناء الدّائري (تتمّة الصّورة)

(1) باقرحا مدينة أثرية بائدة على السّفح الشمالي لجبل باريشا بمنطقة حارم، تقع قرب رأس الحصن، عمرت بالمدنية من القرن الأول الميلادي إلى السّادس. تتألف من مساكن ومعاصر وأقبية وكنيستين ومعبد وثني، بعضها منقور في الصخر، وبعضها الأحدث من تصميم المهندس مرقيانوس كيريس. وتضمّ بعض الكتابات السّريانيّة واليونانيّة.

تكلّمنا حول المعتقدات ونحن نسير، وبشكل تدريجي، حيث كان تعارفنا الشّخصيّ لا يـزال حديثاً، واعترف موسـى بأنّ اليزيديين Yezidis يعبدون الشّـمس. قلتُ: «إنّها كيان مناسـب جدّاً للعبادة»، وفكّرت من أجل إسـعاده فتابعت بذكر أنّ الإسـماعيليين Ismailis يعبدون كلاً من الشّـمس والقمر، لكنّه بالكاد تمكّن من إخفاء اشـمئزازه من التّفكير بوثنيّة كهذه. قادني هذا في نفسي إلى التّفكير فيما إذا كان العالم قد أصبح أكثر حكمة من تلك الأيّام عندما جلس القديس سمعان St. Simon على عموده، ولم تكن النّتيجة التي وصلتُ إليها أكثر جاذبيّة.

قطـع المطـر جولاتنـا بيـن القرى عند سـفح جبـل الشـيـخ بـركات Jebel Sheikh Barakat، القمّـة العالية إلى الجنوب الشّـرقي من قلعة سـمعان، فانطلقنا نحو البيت، لكن الغيوم انقشعت مرّة أخرى باقتراب المساء، ورأيت، وأنا أراقب من الباب الغربي الرّائع، الهضاب تحوّل لون النّحاس الأحمر والأسوار الرّماديّة إلى اللّون الذّهبي.



قلعة سمعان، الواجهة البارزة

أمدّني ميخائيل الحزين والنّادم بعشاء فاخر، على الرّغم من أنّه كان عليّ أن أصرفه فيما لو استطاع القديس سمعان أن يزوّدني بطبّاخ آخر. في الواقع كنت ميّالة قليلاً إلى أن أعيده إلى حلب ليرسلوا لي رجلاً آخر، لكنّ الشّكّ فيما إذا كان عليّ ضمان خادم جيّد عن طريق

وكيل، إضافة إلى الرّأفة بعدم الإيلام، قادتني إلى نوع من التّراخي حاولتُ أن أبرّره بأمل أنّ ندم ميخائيل سيكون طبيعة دائمة. وهكذا قضينا شهراً على بركان بهيجانات عرضيّة كانت تنفجر في النّهاية. يكفينا الكلام عن تلك المواضيع المؤلمة.

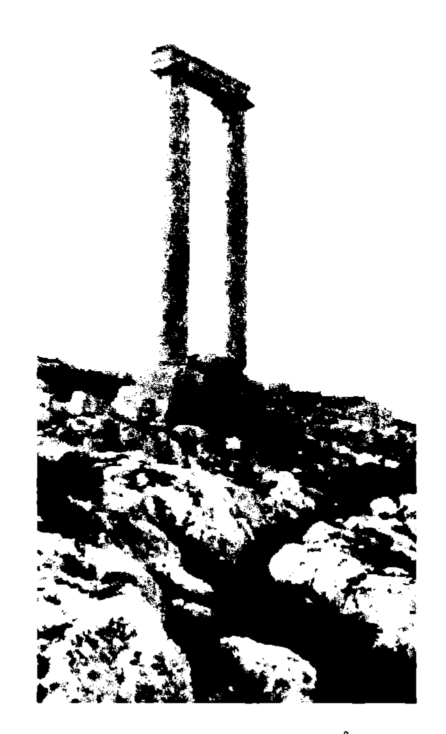
انطلقتُ في اليوم التّالي مع موسى لاستكشاف القرى في جبل سمعان نحو الشّرق والشّمال الشّرقي من كنيسة القديس سمعان St. Simon. سرنا نحو الشّرق تقريباً لأقلّ من ساعة تقريباً حتّى برجكِه Burjkch، التي تتمتّع بكلّ ملامح تلك القرى الواقعة في أقصى الشّمال. كانت تحوي البرج الطّويل المربّع، الذي هو عالميٌّ تقريباً. كانت أعمال الحجارة ضخمة، ولم تكن الكتل موضوعة في صفوف منتظمة غالباً، أو إذا حصل هذا فإنّ الصّفوف كانت تُظهر اختلافاً كبيراً بالعمق. كان للكنيسة جزء ناتئٌ مربّع، بُني خلف جدران الصّحن، وغطّت حلي معماريّة متكرّرة كلّ نافذة، مارّة على طول مستوى عتبة النّافذة من نافذة إلى أخرى، وانتهت خلف النّافذة الأخيرة بشكل لولبي، كما لو كانت جزءاً من وشاح جبل على شكل فساتين فوق الفتحات مع فائض تجمّع في الأعلى. تميّز هذه الحلي المعماريّة زخرفة القرن السّادس في شمالي سوريا. كانت منازل برجكِه Burjkch عبارة عن أكواخ مربّعة بسيطة جدّاً، بُنيت بحجارة مضلّعة.



قلعة سمعان، الباب الغربي

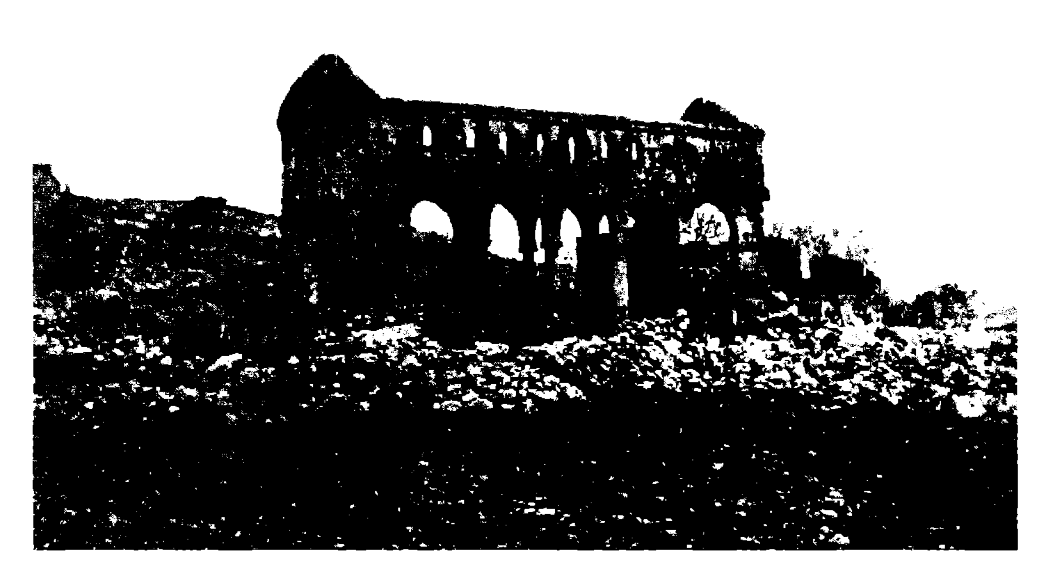
اكتشف موسى قبراً جديداً مفتوحاً قرب الكنيسة. لاقيتُ بعض الصّعوبة في الزّحف للأسفل إلى داخله، وقد كوفِئتُ عندما وجدت على إحدى الفجوات الجداريّة loculi التّاريخ 292 من تقويم أنطاكية، الذي يوافق سنة 243 للميلاد. وأسفل التّاريخ كانت هناك ثلاثة أسطر من نقش يوناني، مشوّه جدّاً.

تابعنا مسيرنا راكبين لمدّة نصف ساعة إلى سرقانيا Surkanya وهي قرية مهجورة، واقعة على نحو ساحر عند رأس وادٍ صخري قليل العمق وكان فيه أيضاً بضع شجرات. كانت المنازل كبيرة في بنيتها على نحو استثنائي، مع شرفات بحجارة ضخمة تشكّل مدخلاً مسقوفاً فوق الباب. أُرِّخ أحد هذه المنازل، وكانت السّنة 406 للميلاد. كانت الكنيسة مشابهة بشكل دقيق تقريباً لتلك التي في برجكِه Burjkeh.



نُصب جنائزي في قاطورا

مشـينا ثلاثة أرباع ساعة أخرى نحو الشّمال ووصلنا فافرتين Fafertin حيث بدأت تمطـر. اتّخذنـا ملجأً تحت نتوء مـن مبنى، كان كلّ ما تبقّى من كنيسـة هـي الأكبر بين كل ما شـاهدناه حتّى الآن ولكنّها بسـيطة في صنعتها[1]. تقطـن القرية بعض العائلات من الأكراد اليزيديين. ركبنا في المطر المنهمر لمدة سـاعة نحو الشّـمال الشّـرقي إلى خراب شـمس Khirab esh Shems لكنّنا لم نسـتطع فعل شـيء هناك بسبب الطّقس، وهكذا تابعنا شـمالاً إلى كالوتِه Kalotch إلى بـرج القاظ Burj el Kas حيث وجدت خيامي منصوبة على مرج رطب. كان موسـى مكروباً جدّاً بسـبب المطر الغزير، وقال إنّ ذاك الرّبيع الماطر قد سبّب كارثة لحقوله، فهو يجرف التّربة من الأرض العالية إلى الوديان. ولا تزال عمليّة التّعرية مسـتمرّة وهي التي تقلّل بشـكل كبير من الخصوبة في شمال سوريا.



خراب شمس

(1) كتبت المؤلفة: يعلن بتلر Butler في تقريره بأن هذه الكنيسة مؤرخة بـ 372 للميلاد والذي يعطيها امتيازاً في كونها الكنيسة الأقدم تأريخاً في سوريا، إن لم تكن الكنيسة الأقدم تأريخاً في العالم.

كان فـي بـرج القاظ Burj el Kas برج مربّع على قمّـة التّلّة وبعض المنازل القديمة التـي كانت قد رمّمت وسُـكنت مـن جديد من قبل الأكراد. رأيـت على إحدى القباب التّاريـخ 406 للميـلاد، وعلى عتبة أخرى نقشـاً يصعب حلّ شـيفرته. كانت نهاية هذه الحجرة مخفيّة بزاوية بيت أُعيد بناؤه، لكن وبإمعان النّظر فيه استطعت أن أثبت وجود نقش صغير عند النّقطة الأبعد. ذكر مالك المنزل بأنّ النّقش يمثّل دون أيّ شكّ السيّدة مريـم Lady Mary. يمكن لهذا أن يمثّل إضافة غريبـة للمجموعة الضّئيلة للنّحت في شـمال سـوريا، بالإضافـة إلى أنّه ابتـكار لاهوتي، وعبّرت عن أسـفي بأنّي لم أسـتطع رؤيته بشـكل أفضل. وعليه فقد جلب صديقي مِعولاً وكشـط زاوية بيته، وأثبت شـكل العذراء أنّه نسر روماني.



خراب شمس، نحت في قبر

عدت أنا ونجيب وموسـى إلى القرى التي مررت بها في المطر في اليوم السّـالف، وتركنا نجيب مع الخيول في كالوتِه Kaloteh ومشينا نحن إلى خراب شمس Khirab esh Shems حيـث كان الطّريـق صخريّـاً جـدّاً إلـى درجـة أنّـي تمنّيـت أن أوفّر على حيواناتي رحلة ثانية فوقه. تضمّ خراب شـمس كنيسـة جميلة، بطول إحدى وعشـرين خطـوة مـن الباب الغربـي إلى وتـر الواجهة البـارزة، وكانت الجـدران الخارجيّة نحو

الشّمال والجنوب قد تداعت، تاركة خمسة أقواس فقط على كلّ جانب من الصّحن مع منوَر جُهّز بعشر نوافذ صغيرة رأسيّة مستديرة، قطعة رائعة تشبه شرفة منفصلة.

وإلى مسافة أبعد فوق التّلّة وقفت كنيسة ضخمة، خالية من الأجنحة، لها واجهة بارزة بُنيت خارجاً وسُقِفت بنصف قبّة من بلاط مربّع، تشبه بيت المعموديّة في القرن الخامس في دير قيتا Dar Kita[1]. وجدنا في جانب التّلّة عدداً من القبور المنحوتة في الصّخر، ولقد سرّني أنّي اكتشفت في واحد منها بعض النّقوش الغريبة. وعلى التّجويف الصّغير إلى يسار الباب كان هناك أشكال أربعة أشخاص منحوتة بخشونة، وقد رُفعت أذرعهم بوضعيّة الصّلاة، وعلى الجدار الصّخري في زاوية مظلمة كان هناك شخص منفرد يرتدي قميصاً وقبّعة مستدقّة الرّأس، يحمل شيئاً غريباً، يشبه سلّة، في يده اليمنى.



تاج عمود في الكنيسة العليا بكالوته

(1) كتبت المؤلفة: بتلر Butler: فنّ العمارة وفنون أخرى، ص 139.

وبعودتنا إلى كالوتِه Kaloteh قمنا بزيارة كنيسة منعزلة على أرض مرتفعة قليلاً إلى الغـرب من القرية، وعلى الحائط عنـد الباب الجنوبي كان هناك نقش طويل باليونانيّة. كان صحن الكنيسة قد فُصِل عن الأجنحة بأربعة أعمدة على كلّ جانب (إذا حكمنا من خلال الكِسَر) فقد كان بعضها ذا أخاديد وبعضها الآخر أملس.

وينتهـي الرّواق المقنطر مقابل زاوية الواجهة البارزة بأعمدة محزّزة معشّـقة تحمل تيجـان أعمـدة كورنثيّـة جميلة. كانـت الواجهة البـارزة prothesis والقلّايـة الملحقة diaconicum موجـودة كلّها داخـل الجدار الخارجي للكنيسـة. ويُظهر الباب الغربي قوسـاً مجسّـماً قائمـاً علـى ركائـز فـوق عتبة بـاب عليا مكسـورة، زُخرفت بنسـق من المسننات. وإلى الجنوب من الكنيسة كان هناك بيت معموديّة منفصل، بساحة داخليّة تعادل تسعة أقدام مربّعة، ولا تزال الجدران تحمل الصّف الأوّل من القنطرة الحجريّة. ولا بـدّ أن الكنيسـة قـد سُـقفت بالآجر، ذلك لأنّـي رأيت عـدداً من الكِسَـر مرميّة في الصّحـن. أحاط جدار ضخم منيع بكلّ من الكنيسـة ومبنـى المعموديّة. ضمّت القرية في الأسفل كنيستين، يبلغ قياس الغربيّة 38 × 68 قدماً، والأخرى 48 قدماً × 70 قدماً. وتشـير الحلي المعماريّة حول الأبواب في الكنيسـتين كلتيهما بأنّـه لا يمكن أن يعودا إلى وقت أبكر من القرن السّادس. وكان هناك أيضاً بعض المنازل بشرفات حجريّة.

على بُعد سـاعة ونصف شـمال غرب كالوتِـه Kaloteh تقع بَـراد[1] Barād، القرية الأكبر والأجمل بين القرى في جبل سـمعان. وقد سُـكنت من جديد إلى حدّ بالأكراد. وجـدتُ مخيّمي قد نُصب في منطقة مكشـوفة مقابل نصب جنائزي جميل جدّاً يتألّف من ظُلّة حُملت بأربع دعامات اسـتندت إلى منصّة مرتفعة. وقف قربها تابوت حجري صخري ضخم وعدد من قبور أخرى، منحوتة جزئيّاً ومبنيّة جزئيّاً.

(1) تقع قرية براد على جبل ليلون شرقي باسوطة على مسافة 8 كلم منها، وفيها معبد وضريح ودكاكين قديمة، وفي وسطها كنيسة القديس يوليانوس التي تعود إلى عام 399-402 م، وهو الذي أشرف على بنائها، ويُعتقد أن مار مارون (347-410 م) مؤسس الطائفة المارونيّة مدفون فيها.



بَراد، قبر ذو ظِلّة

وعاينتُ كنيستين في مركز البلدة. وفي إحداهما كان الصّحن الذي يبلغ طوله 68.6 قدماً قد فُصِل عن الأجنحة بأربعة أعمدة ضخمة بعمق 6 أقدام من الشّرق إلى الغرب، مع فرجة بين الأعمدة بعرض 18 قدماً. كان عرض الصّحن 23 قدماً، والواجهة البارزة بعمق 12 قدماً، وتُعدّ الفرجة الواسعة بين الأعمدة برهاناً على تاريخ متأخّر نسبيّاً، القرن السّادس أو نحو ذلك.

كانت الكنيسة الثّانية لا تزال أكبر: 118.6 × 73.6 قدماً، ولكنّها متهدّمة بالكامل ما عدا الجدار الغربيّ وجزء من الواجهة البارزة. وإلى الشّمال منها كانت هناك كنيسة صغيرة بواجهة سليمة على نحو تامّ؛ يقع إلى القرب منها تابوت حجري ممّا يفترض أنّ الكنيسة الصّغيرة ربّما تكون ضريحاً. وتحتوي النّهاية الشّرقيّة للبلدة مجمّع أبنية لمبنى مضلّع، تضمّ سياجاً مربّعاً بحُجرة مربّعة في وسطه، ترتكز إلى قنطرة ربّما كانت قبراً. وفي أقصى الغرب في البلد يقوم برج جميل مع بعض البيوت الكبيرة والمضافة بشكل جيّد إلى جانبه، وتقع كنيسة صغيرة بينه وبين القسم الرّئيسي في البلدة.

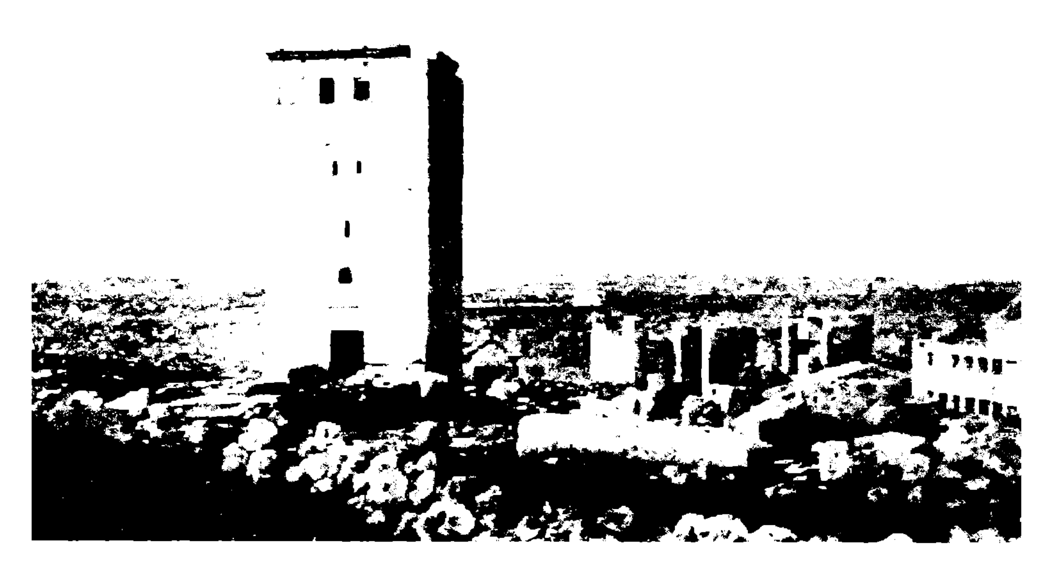
وقرب مخيّمي كان هناك بناء غريب بواجهتين غير نظاميّتين وضِعتا على الجدار الشّرقي. وأظنّ أنّه يعود إلى ما قبل المسيحيّة. وقفت الجدران حتّى بدء القنطرة التي

كانت سليمة تماماً. وعندما قمت أنا وموسى بقياس ورسم هذا البناء كنّا مراقَبين من قِبل شخصين يرتديان ثوبين أبيضين طويلين، ويضعان على رأسيهما عمامتين، وقد أظهرا الاهتمام الشّديد بتحرّكاتنا. قال موسى إنّهما كانا موظّفي حكومة، أرسلا إلى جبل سمعان لعمل إحصاء رسميّ للسّكّان بقصد جباية ضريبة الرّأس.

كان اليوم التّالي من أكثر الأيّام سوءاً، على ما أذكر. فقد امتدت حزمة من غيمة كثيفة في عرض السّماء مباشرة فوق جبل سمعان، تاركة إيّانا في ظلّ رماديّ بارد، بينما رأينا الجبال والسّهول في جهة الشّمال والجنوب تستحمّ بأشعّة الشّمس. سرنا شمالاً لما يقارب الساعة إلى كفار Keifār، وهي قرية كبيرة قرب الحافّة الأخيرة لجبل سمعان. وخلف وادي عفرين Afrrīn، الذي يربط الهضاب مع الشّمال الغربي، ارتفعت الدّعامات العظيمة الأولى لـگاور داغ Giour Dāgh. لاحظ موسى أنّه لم يكن هناك في الوادي وفي الهضاب الأبعد أيّ قرى أثريّة أخرى؛ فهي تنتهي على نحو مفاجئ عند حدود جبل سمعان، ويبدو أنّ الحضارة السّوريّة لم تخترق مناطق أبعد إلى الشّمال، ومن المتعذّر معرفة السّبب.

كان في كفار Keifār ثلاث كنائس متهدّمة جدّاً، لكنّها تظهر آثار زخرفة معالجة على نحو رائع، وبعض المنازل الجيّدة، وقبر مظلّل يشبه ذاك الذي رأيناه في بَراد Barād. وكان هناك تجمّع سكّاني كبير من الأكراد.

عدنا إلى بَراد وسرنا من ثمّ بجهة جنوب شرق إلى كفر نابو Kefr Nebu، لما يقارب ساعة ونصف بعيداً تحت مطر وريح صرصر. كان هناك نقش سرياني Syriac على عتبة باب، وشواهد قبر أو اثنين مكتوبة بالخطّ الكوفي، ومنزل فخم جدّاً مرمّم جزئيّاً، ولكنّني كنت أعاني من البرد الشّديد بحيث لم أعطها من الاهتمام ما تستحقّه. وصل البرد حتّى العظم وثبّط همّتي بشكل كبير بمحاولات أخذ وقت للاستكشاف في ريح عالية، سرت مباشرة إلى خيامي في باصوفان Basufān، التي تبعد مسيرة ساعة عن كفر نابو Kefr Nebu تاركة موقع خربتين غير مكتشفتين نحو الجنوب.



بَراد، بُرج إلى جهة الغرب من البلدة

يقع منزل موسى في باصوفان؛ قابلْنا والده في حقول الذّرة عندما وصلنا القرية فصاح موسى ملقياً التّحيّة المناسبة لمَن يعمل في الحقل: «الله يعطيك العافية!».

أجاب: «ويعافيك!» رافعاً عينيه الكليلتين إلينا.

أوضح موسى ونحن نتابع سيرنا: «إنّه مسنّ، وقد حلّت عليه مصيبة، لكنّه كان فيما مضى أجمل رجل في جبل سمعان والرّامي الأفضل».

قلت: «ما الخطب!».

أجاب: «كان أخي قد ذُبح بعداوة دم قبل بضعة أشهر، ولم نعرف من الذي قتله، ولكن ربّما كان أحد أفراد عائلة عروسه، ذلك لأنّه أخذها دون موافقتهم».

سألت: «وماذا حدث للعروس؟».

قال: «عادت إلى عائلتها، ولكنّها بكت بمرارة».



موسى وعائلته

تُستخدم باصوفان Basufān كمنتجع صيفي *Sommerfrische* من قِبل بعض يهود ومسيحيي حلب، الذين يأتون ويسكنون في بيوت الأكراد خلال الأشهر الحارّة، يقيم مالكو هذه البيوت أثناء ذاك الموسم في الخيام. وتوجد بعض الأشجار الكبيرة إلى الجنوب من القرية تظلل مقبرة كبيرة، التي تُشغَل في المقام الأوّل بالأموات المسلمين، الذين يُجلَبون إلى هذا المكان من عدّة أميال في الجوار.

ويفتخر الوادي في الأسفل بنبعة شهيرة، وهي نبعة لا تجفّ أبداً حتّى في السّنوات غير المطيرة، عندما تستنفد كلّ ينابيعها الشّقيقة.

اعتاد الأكراد على زراعة التّبغ على المنحدرات المجاورة، وكانت نوعيّة الأوراق قيّمة جدّاً، ولذلك كان المحصول يجد بيعاً سريعاً، حتّى أُسّست شركة التّبغ Régie الحكوميّة ودفعت للأكراد أسعاراً هزيلة حيث أصبحوا غير قادرين على جني الأرباح. وحيث أنّه لم يكن هناك سوق آخر، فقد توقّفت صناعته تماماً، وأُهملت زراعة الحقول باستثناء القليل من الذّرة: «والآن، نحن كلّنا فقراء»، هذا ما قاله موسى في الختام.

لم يكن قد مضى على وجودي في المخيّم ساعة حتّى انقطع المطر وأشرقت الشّمس، معيدة لنا معها نشاطنا. كانت هناك كنيسة كبيرة في باصوفان Basufān،

حُوِّلت في حقبة ما إلى قلعة بإضافة ثلاثة أبراج. كان الذي بقي من البناء الأصلي عملاً ممتازاً. وكانت الأعمدة المشغولة عند الواجهة البارزة قد زُينت بزخرفات محزّزة حلزونيّة - وهي أوّل ما أراه من هذا النّموذج - وكانت تيجان الأعمدة الكورنثيّة منحوتة على نحو عميق ودقيق.

أراني موسى نقشاً سريانياً Syriac في الجدار الجنوبي، نسختُه بمجهود كبير ونجاح قليل: وقد أخذ الأشرار كلّ النّقوش السريانية Syriac، أو أنّهم منحوها جميع الرّحالين بفطنة أفضل! وعندما حصل هذا كان لا يزال هناك ساعتان من ضوء ما بعد الظّهر، وعقدتُ العزم على أن أمشي فوق التّلال إلى برج حيدر Burj Heida وكفر لاب Kafr Lab اللّتين أغفلتُ زيارتهما في الصّباح بسبب المطر والبرد.

رافقني موسى وأخذ معه «شريكه» - هكذا قدّمه لي، ولكن لا أعلم في أيّ مشروع شاركه. وكان برج حيدر[1] Burj Heida جديراً بالزّيارة. إنه يحتوي على برج مربّع وثلاث كنائس، واحدة منها مصانة إلى أبعد حد، مع بناء جميل أضيف إليها، وربّما كان مسكناً لرجال الدّين. لكن الحملة كانت جديرة بالذّكر على نحو رئيسي بسبب المحادثة التي جرت مع مرافقيّ.

كنت قد عقدت مع موسى صداقة قويّة، خلال الأيّام الثّلاثة التي أمضيناها معاً، بُنيت من طرفي على عرفان بالجميل للخدمات التي كان قد قدّمها لي، واقترنت بتقدير حارّ للابتسامة المشرقة التي رافقت ذلك. كنّا قد وصلنا إلى نقطة حميمة حيث فكّرت أنّه من الممكن إلى حدّ ما أن أتوقّع منه أن يفيدني بمعلومات حول تعاليم اليزيديين Yezīdis، وذلك لأنّه، مهما كانت العادة في أوروبا، من غير اللائق في آسيا أن تسأل رجلاً بماذا يؤمن ما لم يكن ينظر إليك باعتبارك شخصاً حميماً. ولا يُعدّ ذلك ملائماً؛ فهو يوقظ ريبة دون أن يحقّق إجابة مُرضية.

---

(1) تُعتبر قرية «برج حيدر» من القرى الأثرية الهامة في جبل «ليلون» - منطقة «عفرين»، سُميت نسبة إلى أحد المالكين الذي سكنها منذ قرنين من الزمن وكان اسمه «حيدر»، أما بالنسبة إلى اسمها القديم فإنّ المصادر التاريخية تذكرها باسم «كفركيرا» التي تعني (قرية السّهم).

بدأتُ على نحو ضعيف عندما جلسنا عند المدخل في الكنيسة الصّغيرة في كفر لاب Kefr Lab بالسّؤال فيما إذا كان لليزيديين مسجد أو كنيسة.

أجاب موسى: «لا، فنحن نتعبّد تحت السّماء المكشوفة. ونعبد الشّمس كلّ يوم عند الفجر».

قلت: «وهل لديكم إمام يؤمّ الصّلاة؟».

قال: «في أيّام الأعياد الدّينيّة يؤمّ الشّيخ الصّلاة، ولكن في الأيّام الأخرى فكلّ شخص يتعبّد لوحده. ونحن نعتبر بعض الأيّام أيّام سعد وبعضها أيّام نحس. وأيّام الأربعاء والجمعة والأحد هي أيّام الحظ لدينا. إلاّ أنّ الخميس يوم نحس».

قلت: «لمَ هذا؟».

قال موسى: «لا أعرف، هكذا هو».

سألت: «هل أنتم أصدقاء مع المسلمين أم أنّهم أعداؤكم؟».

أجاب: «هنا في المنطقة حول حلب، حيث أنّنا قلّة، فهم لا يخافون منّا، ونحن نعيش معهم بسلام؛ ولكن يأتينا في كلّ عام من الموصل شيخ عالم يقوم بجمع الجزية منّا، ويذهل لرؤيتنا نعيش مثل الإخوة مع المسلمين وذلك لأنّه في الموصل حيث اليزيديون Yezīdis كثرة، هناك عداء مرير. في الموصل لا يخدم أفرادنا في الجيش، لكن هنا فإنّنا مثل الآخرين - وأنا نفسي كنت جنديّاً».

قلت: «هل لديكم كتب مقدّسة؟».

قال: «دون شكّ، سأخبرك ماذا تُعلّمنا كتبنا. عندما تقترب نهاية العالم سيظهر هادود مادود Hadūdmadūd على الأرض. وقبل مجيء أوانه فإنّ سلالة الإنسان ستتضاءل قامتها وبالتّالي ستكون أصغر من ورقة العشب - لكن هادود مادود عملاق جبّار. وفي غضون سبعة أيّام أو سبعة أشهر أو سبع سنين سيشرب كلّ البحار وكلّ الأنهار، وستصبح الأرض جافة قاحلة».

قال الشّريك الذي كان يتابع شرح موسى باهتمام: «ثمّ تنبثق من خلال التّراب دودة عظيمة، وتلتهم هادود مادود».

تابع موسى: «وعندما تلتهمه، سيكون هناك فيضان يستمر سبعة أيّام أو سبعة أشهر أو سبع سنين».

قاطعه الشّريك موافقاً: «وستغتسل الأرض وتصبح طاهرة».

قال موسى: «ثمّ يأتي المهدي، وسيستدعي الطّوائف الأربع: اليزيديين Yezīdis، والمسيحيين، والمسلمين، واليهود وسيعيّن نبي كلّ طائفة ليجمع أتباعه معاً. وسيجمع إيزيد[1] Yezīd كلّ اليزيديين، وعيسى كلّ المسيحيين، ومحمّد كلّ المسلمين وموسى كلّ اليهود. ولكن هؤلاء الذين تحوّلوا من دين إلى دين خلال حياتهم، فإنّهم سيُمتحَنون بالنّار، لتعرف ما هي العقيدة التي يقرّونها في قلوبهم. وهكذا سيعرف كلّ نبي أتباعه. وهذه هي نهاية العالم».

قلت: «وهل تعتبر أنّ أصحاب هذه الدّيانات كلّهم متساوون؟».

أجاب موسى (بدبلوماسيّة ربّما): «نعتقد بأنّ المسيحيين واليهود مساوون لنا».

سألت: «والمسلمون؟».

قال موسى: «... ... ...».

هذه هي معتقدات دين موسى، ولن أتجرّأ على قول ما تشير إليه، ولكن هادود مادود Hadūdmadūd على الأرجح هو يأجوج ومأجوج Gogmagog إذا كان ذلك يلقي أيّ ضوء على القضيّة.

* * *

كانت الشّمس تغرب عندما نهضنا من على درج الكنيسة وبدأنا نتسلّق بجهد باتّجاه المنزل فوق خِرب كفرلاب Kefr Lab. كانت هناك بعض الأراضي الوعرة خلف

---

(1) هكذا يلفظون اسمه، وليس يزيد، ويسمّون أنفسهم الإيزيديّة، وهم طائفة من الزّرادشتية.

القرية، ولاحظتُ فجوات كبيرة أسفل الصّخور عند قمّة التّلّة. توقّف شريك موسى أمامها وقال:

«في مثل هذه الأماكن نحن نبحث عن كنز».

قلت: «وهل وجدته؟».

أجاب: «لم أجد مطلقاً أيّ كنز، ولكن هناك الكثير من القصص. يقولون، إنّه ذات مرّة كان هناك راعٍ صغير أضاع عنزته وبحث عنها فوق التّلال، وأخيراً وجدها في كهف مليء بالنّقود الذّهبيّة. وبناء عليه أغلق مدخل الكهف وأسرع إلى البيت ليجلب حماراً يمكنه أن يحمل الذّهب عليه، وفي سرعته ترك المعزة في الكهف. ولكن عندما عاد إلى هناك وبعد بحث طويل، لم يكن هناك كهف ولا معزة ولا ذهب».

قال موسى: «في وقت آخر، كان هناك صبي نائم بين الخرائب في كفرلاب Kefr Lab وحلم بأنّه قد اكتشف كنزاً عظيماً في الأرض وأنّه حفر من أجله بواسطة يديه، وعندما استيقظ كانت يداه مغطّاتين بغبار الذّهب (التِّبر)، لكنّه لم يتذكّر المكان الذي حفر فيه».

وعلى أيّة حال لا تقدّم أيّ من هذه القصص معلومات مقنعة لتبرّر إرسال بعثة استكشاف للبحث عن الكنوز في جبل سمعان.

وعندما وصلنا باصوفان Basufān سأل موسى إذا كان يمكن لأخته وردة أن تتشرّف بتقديم احتراماتها إليّ. أضاف: «وهل من الممكن أن تقنعيها بأن تتزوّج؟».

قلت: «أن تتزوّج؟ ومَن عليها أن تتزوّج؟».

قال موسى بهدوء: «أيّ شخص، فقد أعلنت بأنّ الزواج مكروه بالنّسبة لها، وهكذا ستبقى في بيت والدنا، ولا نستطيع أن نغير رأيها. وعلاوة على ذلك فهي شابّة عذراء وجميلة».



فتاة كردية في باصوفان

بدت جميلة جدّاً، وقد وقفت عند باب خيمتي وهي تلبس ثوباً جميلاً تلبسه النّساء الكرديّات عادة، مع وعاء من القايماق[1] Kaimak في يديها، عبارة عن هديّة استرضائيّة لي؛ وأعترف أنّني لم أُصرّ على قضيّة الزّواج، معتقدة بأنّها استطاعت أن تدير شؤونها الخاصّة على نحو أفضل. وفي الصّباح التّالي أحضرت لي خبزاً طازجاً للإفطار، وتوسّلت إلي أن أزور بيت والدها قبل أن أغادر. وهذا ما قمت به، ووجدت العائلة كلّها، الأبناء وزوجات الأبناء والأحفاد قد تجمّعوا للتّرحيب بي؛ وعلى الرّغم من أنّي كنت قد أفطرت قبل قليل فقد أصرّ الوالد المسنّ على وضع الخبز وأوعية الكريمة أمامي: «هذا رباط حُسن الوفادة الذي يمكن أن يكون بيننا».

كانوا كلّهم أناساً رائعين وحسني التّربية بوجوه جميلة مشرقة بالابتسامة وقد كانت ابتسامة موسى أكثرها جاذبيّة. ومن أجلهم، ومن الآن وصاعداً سوف أحمل في وجداني مكانة كبيرة للعِرق الكردي.

---

(1) عبارة تركيّة تعني: قشدة الحليب، وما زالت بقيّة منها في العاميّة الدمشقيّة: قيمَع، وفي نجد: قيمَر.

الفصل الثّالث عشر

انطلقنا من باصوفان Basufan عند السّاعة الثّامنة من صباح الرّابع من أبريل، وسرنا جنوباً، عبر طرقات حجريّة على نحو لا يصدّق، تاركين قلعة سمعان إلى الغرب منّا وملتفّين حول الجوانب الشّرقيّة لجبل الشيخ بركات Jebl Sheikh Barakāt. أعلن موسى بأنّ عليه أن يرافقنا في الجزء الأوّل من طريقنا حتّى دارة عزّة[1] Deiret 'Azzeh، وهي قرية مسلمة كبيرة تتكوّن من ثلاثمئة أو أربعمئة منزل. وهنا تركنا، ونزلنا إلى سهل سَرمَدا Sermeda الخصيب، والتففنا حول المنحدرات من جبل حلقة Jebel Halakah.

وصلنا عند منتصف النّهار إلى قرية الدّانا Dana الكبيرة، وتناولنا غداءنا قرب المعبد المشهور من القرن الثّالث الذي تحدّث عنه دي فوغيه de Vogüé في كتابه، وبالنّسبة لي فإنّه الأجمل من بين النّصُب الأصغر في شمال سوريا ويستحقّ ببساطته الواضحة أن يقف إلى جانب نُصب قائد الكورس ليسيكراتيس Lysicrates في أثينا.

لم يكن هناك شيء آخر يبقينا في الدّانا Dana، وجعلنا حيوانات المتاع لتأتي، وكنت قد أرسلتها مع ميخائيل ودليل محلّي، وقد اتّفقت معهم أن نلتقي بهم أنا ونجيب عند خِرب داحس[2] Dehes. وبعد تشاور بسيط تردّد نجيب والدّليل المحلّي

---

(1) قد تكتب أحياناً: دارتعزّة. وكثيراً ما يرد اسمها في الأحداث الدّامية في حرب 2012.

(2) توجد موقعها اليوم قرية باريشا في جبل باريشا، على بعد 11 كم جنوب شرق حارم. وتسميتها تعني بيت الرأس ويفسر ذلك موقعها في أعلى الجبل. وقد أقيمت القرية على أنقاض آثار تعود

حول المنطقة المعروفة لديّ من روايات الرّحّالين فقط، لكنّهم لم يقرّروا ذلك إلى أن وصلنا واكتشفت بأنّنا كنّا في ماحس Mehes بدلاً من داحس Dehes. وعلى أيّة حال، فقد كان الأمر سواء، طالما أنّنا ووجدنا المكان الذي سيكون أرض تخييم ملائمة.

ومن الدّانا Dana أخذني نجيب شمالاً على طول الطّريق الرّوماني قرب قوس نصر روماني، اسمه باب الهوى، وهو واقع على نحو رائع عند مدخل وادٍ صخري. ركبنا على طول هذا الوادي لمسافة ميل أو ميلين، مارّين بكنيسة خربة، ومخترقين التّلال نحو الغرب من خلال ممرّ ضيّق أدّى بنا إلى نجد عريض قريب من قرية كسيبة[1] Ksejba المهجورة.

تابعنا سيرنا إلى قرية بابسقا Bābiska، عبر منطقة موشّاة بالأزهار ومجموعات من المنازل المتهدّمة والكنائس؛ ووثب القلب عند هذا المنظر من الجمال المبهر. كان من الصّعب على قمم هذه التّلال تحديد أين تقع باقرحا Bākirha، المدينة التي رغبتُ بزيارتها، لكنّنا وجدنا قرب بابسقا Bābiska زوجاً من خيام الرّعاة، وسألنا أحد السّكّان عن الطّريق. كان الرّاعي رجلاً صعب المراس؛ وقال إنّه لم يكن هناك طريق إلى باقرحا Bākirha، وأصبح الوقت متأخّراً جدّاً لمشروع كهذا، وعلاوةً على ذلك فقد كان هو نفسه منطلقاً باتّجاه آخر ومعه سلّة من البيض ولا يمكنه مساعدتنا. على أيّة حال أنا لم أقطع أميالاً كثيرة لكي أهزم في النّهاية، فقمنا بتخويفه تارةً وإقناعه تارةً أخرى إلى أن أغريناه بأن يدلنا على الطريق المؤدّي إلى سفح التلة الذي تقع عليه باقِرحا. لقد سار معنا لمدة ما يقارب الساعة، وأشار إلى قمة جبل باريشا Bārisha وقال: «ها هي باقرحا»، ثم غادرنا فجأة وعاد إلى سلّة البيض.

في أعلى سفح الجبل رأينا الآثار تستحم في شمس الظهيرة، وعندما لم نعثر على ممر دفعنا خيولنا في طريق مستقيم بين الصخور وكتل النباتات ذات الأشواك. لكن

إلى القرن الأول الميلادي، أهمها خربة داحس، وإلى شرقها يقع ضريح محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب.

(1) كتبت المؤلفة: قامت البعثة الأمريكية بزيارة البلدات القديمة في جبل باريشا ووصفتها.

هنـاك حـدوداً للتحمّل حتى بالنسـبة إلـى الخيول السـورية، وقـد كادت خيولنا تصل إليها بعد إمضاء يوم طويل من التسـلق الشـاق فوق الأحجار. كان علينا أيضاً أن نصل إلـى المخيَّـم، والله وحده يعلم كم يبعد، لكنني لـم أسـتطع مغـادرة الجدران الملتمعة التـي أصبحت في غاية القرب منا على التلـة، وطلبت من نجيب الممانع بأن ينتظر في الأسفل مع الخيول بينما أصعد لوحدي.



قبر في الدّانا

كاد النهار أن ينقضي، فتعجّلت بالتسلّق؛ لكنَّ هذا الاستعجال وما تخلّله من تعثّر فوق الصخور شديدة الانحدار المنطمرة إلى منتصفها بالأزهار والحارة بسبب الشمس الشاقولية، كان ذكرى لن تُمحى بسهولة. وبعد انقضاء نصف ساعة وقفت في مدخل البلدة، تحت آثار باسيليقا basilica غنية بالتنوع الجمالي للتزيينات والتصاميم. كانت الشوارع المتهدّمة المقفرة تقع وراءها على طول سفح الجبل، وكذلك البيوت ذات الشرفات المنحوتة وعتبات الأبواب المنخفضة، بالإضافة إلى الأسواق ذات الأعمدة وأشعة الشمس الذهبية التي تغمر كل شيء.

تابعتُ زيارتي لمعلم آخر هو طريق عريض ملتو يصعد فوق البلدة إلى أن يصل إلى حدود المنحدرات المليئة بالأزهار، ولا يوجد سوى تلّةٍ صخرية صغيرة تقع وسط الأرض المنبسطة حيث ينتهي الممر وقمة السلسلة الجبلية. كان الجبل متصدّعاً في هذا الاتجاه، كاشفاً عن ممرات ضيّقة شديدة الانحدار تطوّق جروف السهل الخصب المشمس، وفي أعلى هذه الممرّات وعلى حافة ضيّقة من الأرض يوجد معبد صغير رائع. جلستُ قرب البوّابة التي عَبَر العبّاد من خلالها يوماً ما إلى ساحة المعبد. وتقع أسفل مكان جلوسي المنحدرات الشّماليّة لجبل باريشا Jebel Bārisha، ووديان جميلة فسيحة والطّبقات المكسوّة بالثّلج لجبل جاور داغ Giour Dāgh المحتجبة بسديم دافئ.



باب الهوى

كان كلّ من المعبد والبلدة وجانب التّلّة مهجورة فيما عدا راع صغير كان يجلس في البعيد على رعن صخري يعزف بمزماره لحناً برّيّاً عذباً لقطعانه المتفرّقة. كان لحن القصبة هو صوت العزلة بالذّات؛ صاخباً وواضحاً وخالياً من العاطفة وقد ارتفع إلى بوّابة المعبد، وقد حُمل على موجات عميقة من هواء الجبل الذي عُطّر بالأزهار ولُوِّن بأشعة الشّمس الغاربة. جاء الرّجال وذهبوا، واصطخبت الحياة على جوانب التّلال وتراجعت مرّة أخرى تاركة الآلهة القديمة لتستأنف سيطرتها فوق الصّخر والشّوك المزهِر، بسلام ووحدة وجمال.

هكذا وعلى بوّابة الحرم قدّمتُ تمجيدي وشُكري ثم مضيتُ في طريقي وأنا مبتهجة.

استقبل نجيب عودتي بتعابير ارتياح.

قال: «والله! لم أدخّن ولا سيجارة واحدة منذ أن غبتِ جنابك عن ناظري، وكنت خلال هذه السّاعة أقول: أرجو الله ألا تقابل لصّاً بين الصّخور».

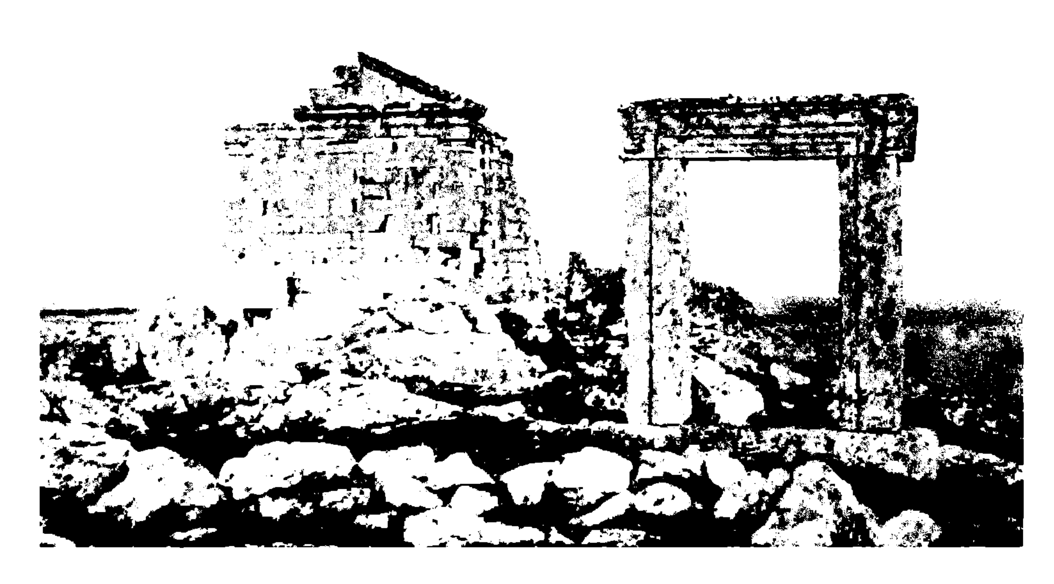
بعد ذلك مباشرة، وللتّعويض عن فرصة ضائعة، أشعل سيجارة حيث أنّ قلقه لم يمنعه من لفّها أثناء غيابي، وعلى الرّغم من أنّي لم أكن لأجزم بأنّها كانت الوحيدة في الواقع، فقد كان الشّعور مُرضياً. فكّرت في ذلك الوقت (ولكن مسيرة اليوم التّالي أثبتت أنّي كنت مخطئة) بأنّنا ركبنا نازلين إلى سهل سَرمدا Sermeda عبر الطّريق الأكثر وعورة في العالم. وعندما وصلنا إلى سفح التّلّة انعطفنا صاعدين وادياً نحو الجنوب، وهو شريط ضيّق من أرض محروثة يتلوّى بين سلاسل صخريّة. لقد اتسع في الحال، ومررنا بقرية كبيرة حديثة، حيث تلقّينا أخباراً سارّة بأنّ مخيّمنا قد شوهِد أمامنا؛ وشققنا طريقنا بجهد في السّاعة السّادسة والرّبع إلى ماحس Mehes أو داحس Dehes، أيّاً كان اسمها، شاعرين بأنّ خيولنا سوف تموت إذا طُلب منها أن تمشي ميلاً آخر.

كانت ماحس Mehes مخيّماً ساحراً، ولكن لم أكن أستطيع غالباً أن أنصب خيامي

بعيداً عن كلّ المساكن. تاق البغّالون إلى اللّبن الخاثر الحامضة وغير ذلك من وسائل التّرف المتمدّنة، وبالفعل فقد افتقدتُ اللّبن الخاثر أيضاً، لكن سحر المخيّم المنعزل واساني إلى حدّ بعيد. كان اللّيل ساكناً وصافياً، وأوينا إلى صحن كنيسة صخري، ونمنا نوماً مباركاً بعد ركوبنا الطّويل.

كانت هناك خربة أخرى قرّرتُ زيارتها قبل أن أترك التّلال. كانت كنيسة قلب لوزة Kalb Lozeh التي بدت من الأوصاف بأنّها (كما هي بالفعل) البناء الأجمل بعد قلعة سمعان في شمال سوريا كلّه.

أرسلتُ حيوانات المتاع لتلفّ عبر الوديان، بأوامر دقيقة ولكن عديمة الجدوى إلى فارس بأنّ عليه ألا يضيّع الوقت سدى، وانطلقنا مع ميخائيل ونجيب لنجتاز على ظهر الحصان سلسلتين جبليتين: جبل باريشا Jebel Barisha وجبل العلا Jebel el 'Ala. من الأفضل تسلّق الصّخور على الأقدام؛ ولكن إذا كان أحد ما يريد أن يعرف القدرة الكاملة للقوى الرياضيّة لحصان، فإنّ عليه أن يمتطيه فوق جبل العلا إلى قلب لوزة.



بوّابة المعبد في باقرحا

كنت أظنّ نفسي متمكّنة جدّاً على نحو مقبول في الموضوع، لكنّني وجدت بأنّ البعثة قد وسّعت خبرتي على نحو غير قليل. سرنا على خطّ مستقيم فوق تلّة حجريّة على نحو لا يطاق إلى الغرب من ماحس Mehes، هكذا حتّى وصلنا إلى قمّة جبل باريشا Jebel Barisha. كانت الأرض هنا مقطعة جداً بالصّخور، ولكن كان بينها أيكات زيتون صغيرة وياردات مزروعة بالكرمة، وحقول ذرة صغيرة مبعثرة. كان كلّ طنف وتجويف عبارة عن حديقة من أزهار بريّة؛ نشرت أزهار سوسن زرقاء طويلة براعمها الهزيلة أسفل أجمات من الغار زكيّة الرّائحة، وعُطِّر الجوّ برائحة الغار الأرجواني.

كان يسكن هذه الجنّة فلاّح فظّ مكفهر الوجه، هو الأقلّ لطفاً والأكثر سكوتاً بين الرّجال. وبعد مساومة غير ناجحة بشكل كبير (فالسّعر الذي وضعه لأيّ خدمة يمكن أن تُقدَّم لنا كان مستحيلاً، ولكنّنا كنّا في قبضته وقد أجبرنا على الاستسلام له)، وافق على أن يقودنا إلى قلب لوزة Kalb Lozeh وسلك بنا حالاً أسفل جبل باريشا عبر طريق شديد الانحدار شُقّ بين الصّخر القوي. كان منحدراً جداً وضيّقاً حيث أنّه عندما قابلنا مجموعة من النّساء قادمات من المنحدرات المنخفضة يحملن حزماً من أغصان مقطوعة - أغصان مقطوعة! كان نبات غار مزهر - وجدنا صعوبة كبيرة في التنحّي جانباً ليمررن. وعند أسفل هذا المنحدر الخطر جدّاً كان هناك وادٍ عميق فيه بحيرة في إحدى نهاياته، وارتفع أمامنا جبل العلا Jebel el ʿAla، ووفق أفضل تقدير لي فهو عبارة عن جدار من صخر، يستحيل تماماً على الخيول أن تتسلّقه.

أشار الفلاّح قليل الكلام الذي وجّهنا - وأنا سعيدة بأنّي لا أتذكّر اسمه - بأنّ طريقنا يقع فوقه، ويبدو أنّ نجيباً سيذعن لذلك، تبعته بقلب محطّم. كان شيئاً يفوق الوصف. قفزنا وتعثّرنا فوق أسطح الصّخر وقفزت حيواناتنا وتعثّرت في إثرنا، وهي تزحف على طول الحافّة من الجروف الضّيّقة، حيث لو سقطت فلا بدّ أنّها ستكسر كلّ عظمة من عظامها. رعتنا العناية الإلهيّة فوصلنا سليمين إلى منطقة جميلة بجمال تلك التي كنّا قد تركناها على قمّة جبل باريشا. رجع دليلنا عند مدخل أيكة زيتون، وفي غضون دقائق قليلة وصلنا قلب لوزة.

لا أعـرف فيما إذا كان هناك الكثير من المسـتوطنات حول الكنيسـة الكبيرة؛ ولكن توجد الآن بقايا قليلة من المنازل، وهي تقف وحيدة تقريباً. تقف بشكل منقطع النّظير تقريباً بيـن النُّصُـب الأثريّة للفـنّ السّـوري. إنّ المجـاز الصّاعد المـؤدّي إلى صحن الكنيسـة، والفسحات الواسعة بين أعمدة الصّحن، والواجهة البارزة المزخرفة بأعمدة معشّـقة، وجمـال الزّخرفة الـذي لا يُضارع ودقّة التّناسـب المصانة فـي كلّ جزء، هي الملامح التي تذهِل المشـاهد أوّلاً؛ ولكن عندما يمعن النّظر سيدرك بأنّ هذه ليست هـي الكلمـة الأخيـرة في تاريخ فنّ العمارة السّـوري، التـي تُقال عند نهايـة عدّة قرون مـن السّـعي، لكنّها أيضـاً البداية لفصل جديد فـي فنّ العمارة في العالـم. كان الجمال البسـيط والمرهف للرومانِسـك Romanesque قد وُلد في شمال سـوريا. وقد يكون من الفضول أن نقدّر التّطوّرات التي كان يمكن أن تصل إليها عبقريّة هؤلاء المهندسين المعمارييـن لو لـم تُكبـح بالاجتياح العربي. وبالتّأكيد فلا بدّ أنّنا أمام مدرسـة مسـتقلّة لبنّائين عظيمين، تأثّروا بقوّة ربما بُعرف تقليدي وأيضاً بشكل كبير جدّاً بالشّرق، ولكن نلاحظ في كلّ مكان شـخصيّة واضحة جسـورة، وأيضاً خياليّة ومرهفة. وثمّة سـلوان صغيـر فـي الفكـرة التي تعتبر أنّ قـوّة الإبداع التي هـي واضحة في قلب لـوزة لم تجد الوقت أبداً لتمرّ في مرحلة التّدهور.

كنـت قـد سـمعت أو قـرأت أنّه وُجِـد في الجبـال قرب قلـب لـوزة Kalb Lozeh بعـض القـرى الدّرزيّة، التي قطنهـا مهاجرون من لبنان، ولكن طالمـا أنّني لم ألتقِ بهم فقد نسـيت وجودهم تقريباً. وقفت قرب الكنيسـة نصف دزّينة من الأكواخ التي خرج قاطنوها ليروني وأنا أصوّر. وعلى نحو غير مقصود تقريباً استوقِفت بنظرة معروفة جدّاً مـن العيون المسـودّة بالكحل، ومزايا سـلوك محدّد يصعب تفصيلـه ولكنه ذاك الذي يتّحد ليشكّل انطباعاً من سهولة وألفة ودودة وربّما مع لمسة من رعاية فيها.

وعندمـا انضمّت النّسـاء إلى الحشـد القليل لفتـت نظري سلاسـل الفضّة والحلي المعدنيّـة التي كـنَّ يرتدينها، فتذكّرت علـى نحو غامض أنّي لاحظتهـا في مكان آخر. وعندما قاربنا على الرّحيل، تقدّم منّا رجل مُسـنّ بعض الشـيء وعرض أن يسـير معنا

لمدّة ساعة، قائلاً إنّ الطّريق في الأسفل المؤدّي إلى حارم يصعب العثور عليه، ولم نكن قد مشينا خمسين ياردة معاً قبل أن أفهم معنى إدراكي اللاواعي.

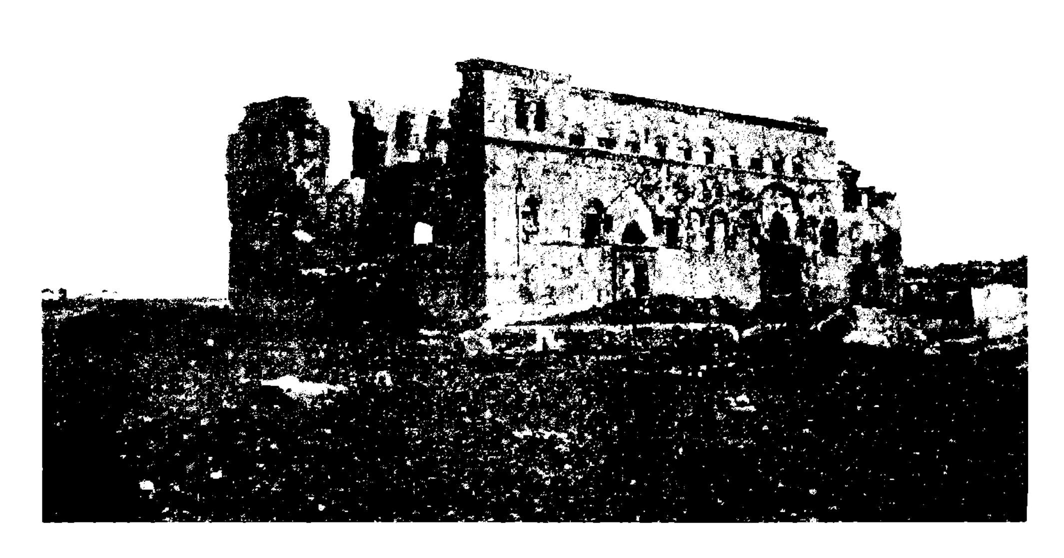
قلت: «ما شاء الله! أنتم دروز».

نظر الرّجل حوله بقلق نحو نجيب وميخائيل اللذين كانا يسيران قريبين في أعقابنا، أحنى رأسه وتابع سيره دون كلام.

قلت: «عليك ألا تخاف، فالجندي والخادم متحفّظان».

عندها سكن قلبه وقال:

«يوجد القليل منّا في الجبال، ونحن نخاف المسلمين ونخفي عنهم أنّنا دروز، وإلاّ فإنّهم سوف يطردوننا من المنطقة. فنحن لسنا أكثر من مئتي بيت في المجموع».



كنيسة قلب لوزة

قلـت: «كنت آمـل أن أجدكم، ذلك لأنّي أعرف المشـايخ في حـوران، وقد أروني الكثيـر مـن اللّطـف. لذلك فأنـا أرغب بأن أحيـي كلّ الـدّروز في أيّ مـكان يمكن أن أقابلهم فيه».

قال: «الله! هل تعرفين الطّرشان؟».

قلت: «والله!».

«شبلي وأخوه يحيى؟».

«أنا أعرف يحيى، ولكنّ شبلي مات».

صرخ: «مات! يا رحيم! مات شبلي!».

وبذلـك انتـزع منّي كلّ أخبار الجبل، واسـتمع باهتمام منتشٍ إلـى القصص التي لم أفكّر أنني سأجد أذناً مصغية لها بعيداً جدّاً عن صلخد. وفجأة توقّفت أسئلته وانحرف بعيداً عن الطّريق باتّجاه كرم عنب كان فيه رجل شاب يقلّم الكروم.



الواجهة البارزة في قلب لوزة

صرخ: «آه يا ولدي! لقد مات شبلي الأطرش! أعرني حذاءك، لأنّ حذائي ممزّق وقد أسير مع السّتّ إلى حارِم».

دنا الشّاب وهو يرمي بخفّيه الجلديين الأحمرين.

قال: «إنّا لله! لقد شاهدت شبلي قبل سنة فقط». وأعيدت الأخبار له بالتّفصيل.

تابعنا رحلتنا على طول القمم الجبليّة الحجريّة، مندفعين عبر أزهار الغار الأرجوانيّة التي نمت بوفرة رائعة، وكنّا نتحدّث ونحن نسير كما لو كنّا صديقين قديمين تفرّقنا من زمن طويل. عندما أتينا إلى حافّة جبل العلا Jebel 'Ala رأينا حارِم أسفل منّا، وألححتُ بأنّ على رفيقي أن يوفّر على نفسه مشقّة السّير لمسافة أبعد. وافق على العودة بعد معارضة شديدة، ووقف يغدق عليّ ببركاته لمدّة خمس دقائق قبل أن يقول لي وداعاً، ثمّ عاد إلينا مرّة أخرى لكي يتأكّد ربّما بأنّنا أدركنا الطّريق.

قال: «وعندما تأتين في المرّة القادمة من جبل العلا Jebel el 'Ala عليك أن تحضري مخيّمك إلى قلب لوزة Kalb Lozeh وتبقي لمدّة شهر على الأقلّ، وسنعطيكِ كلّ ما تحتاجينه ونريكِ كلّ الآثار. والآن نرجو الله أن تذهبي بأمن وسلام! وأن تعودي بصحّة وسلامة في السّنة القادمة».

قلت: «أرجو الله أن يمدّ في عمرك ويسلّمك!».

وهكذا افترقنا وقد تدفّأ قلبي بعاطفة لشعبه ليس من الصّعب أن تضطرم من جديد. يمكن أن يكونوا قساة في المعركة - فالدّليل ضدّهم ساحق؛ ويؤكّد البعض بأنّهم غدّارون، والبعض يجدهم طمّاعين، لكنّي عندما أقابل درزيّاً فإنّي لن أتردّد في أن أحييه كصديق، ولا يتوجّب عليّ أن أتغيّر حتى أثبت لقناعتي أنّها في غير محلّها.

* * *

تقع قلعة حارِم على رابية عند مدخل أحد الممرّات الضّيّقة القليلة التي تشكّل مدخلاً لجبل العلا Jebel el 'Ala. يمتدّ خلفها سهل العاصي الكبير الذي كان منطقة تنتج الحنطة بوفرة في العصور الماضية لمدينة أنطاكية Antioch. كان قسم كبير من

الجزء الشّمالي للسّهل تحت الماء، وامتدّت البركة السبخيّة التي يطلق عليها السّوريّون البَحرة El Bahra بسبب الأمطار الأخيرة حتّى حدّها الأقصى. انعطفنا جنوباً من حارِم وركبنا على طول التسفح في منحدرات جبل العلا إلى سَلقين، وهو مسير جدير بالذّكر بسبب الجَمال المفرط للأرض التي مررنا بها. فلم أرَ من قبل مثل هذا الخصب الغزير في سوريا كلّها. تقاسمت أيكات الزّيتون واللّوز الأرض الخصبة مع الشّعير والشّوفان؛ أجمات متشابكة من الجَولق والوزّال (الرّتم)، والغار والعُلّيق حفّت الطّريق، وكانت كلّ بقعة مشمسة زرقاء اللّون بزهر القزحيّة الزّرقاء iris stylosa.

تمتدّ سَلقين نفسها في وادٍ مشجَّرٍ وسط عدد لا يُحصى من أشجار الزّيتون التي امتدت تقريباً حتّى العاصي ولعدّة أميال بعيداً. ترجّلنا عن خيولنا قبل أن نصل إلى البلدة في بقعة مكشوفة بين بساتين الزّيتون. كانت السّاعة الخامسة ولكن لم يكن فارس قد وصل بعد، ونظّمنا أمرنا على نحو مريح تحت الأشجار لانتظاره. سبّب مجيئنا بعض الإثارة بين السّكّان الذين كانوا يجلسون على العشب ويستمتعون بهدوء المكان؛ وبعد قليل جاء رجل، كان من الواضح أنّه شخص معتبر، جاء مسرعاً نحونا وبرفقته خادم ودعاني كي آتي وأستريح في بيته. كان رجلاً مهيباً، على الرّغم من أنّه بالكاد قد وصل منتصف العمر، وكان محيّاه لطيفاً؛ قبلت دعوته ظنّاً مني أنّه من الممكن أن أرى أيضاً ما لدى سَلقين لتقدّمه. يجب أن تتمسّك دوماً بالمناسبات التي توسّع دائرة معارفك الشّخصيّة وخاصّة في الأماكن الأجنبيّة.



حارم

وجـدت حالاً بأنّي قد وقعت في يديّ أغنى سـكّان البلدة. محمّد علي آغا وهو ابن رسـتم آغا، الچركسـي الأصل الذي كان خادماً في عائلة كاخيا زاده Kakhya Zadch الكبيرة من هَمَذان Hamadan – وهذا هو اسـمهم العربي، ويسـمّيهم الفرس: كَتخُدا زاده Kat Khuda Zadeh. هاجـرت عائلـة كاخيا زاده إلى حلب منذ قرنين؛ بمثل هذه الصّفقات المألوفة عند الچراكسـة، وأصبحوا أغنيـاء إلى أبعد حد وهم الآن من أقوى الأُسَر في حلب[1]. شارك خَدَمهم في نجاحهم، وادّخر رستم آغا، كونه رجلاً حريصاً، ما يكفي من المال ليشتري أرضاً في سَلقين قرب ضيعة سيّده الكبير في وادي العاصي. وسانده الحظ جدّاً حيث طلب يد إحدى بنات الكاخيا لابنه.

لم أعلم كلّ هذه التّفاصيل في الحال، وقد دهشت عندما جلست عند حريم محمّد علـي حيـث أدركت الاختلاف في الطّريقـة التي تصرّف بها مع زوجته، متسـائلة لماذا تعامل هذه السّيّدة الصّغيرة حادّة الملامح، برّاقة العينين والتي لم تنجب له أبناء، بمثل هـذا الاحتـرام من قِبـل زوجها، ذلك لأنّي لـم أكن أعرف بعد بأنّها كانت أخت رشـيد آغـا كاخيـا زاده Reshid Agha Kakhya Zadch. لـدى محمّد علي طفلة واحدة، في السّادسة من العمر، وعلى الرّغم من أنّها من جنس غير مفيد، فقد كان من الواضح أنّها قـرّة عيـن والدها. تكلّم معي طويلاً عن تعليمها وإمكاناتها بينما كنت آكل أفضل أنواع الزّيتون ومربّى الكرز الذي وضعته خادماته أمامي. كانت الخانم كريمة جدّاً حيث أنّها حضّرت القهوة بيديها، وعبّرت عن إعجابها بالقبّعة المصنوعة من اللبّاد البالية المرميّة بجانبي على الأريكة، التي غطّيت إلى حدّ ما بوشاحها الفضّي والأرجواني.

قالـت: «أوه، القبّعة الأوروبيّة الجميلة! لماذا تضعين منديلاً فوقها بينما هي جميلة جدّاً؟».

عندها جرّدتها من الوشـاح الحريري والحبل المصنـوع من وبر الجمل، ووضعتها بـكلّ قذارتهـا المجرّدة فـوق ضفائر ابنتها السّـوداء، وأعلنت بأنّها كانـت أفضل غطاء رأس جذّاب في العالم.

---

(1) ما تزال العائلة معروفة في حلب باسم: آل الكيخيا، وهم من سراة حلب وأعيانها.

عنـد السّـاعة السّادسـة وردت أخبار بـأنّ دواب أمتعتي قد وصلـت، ولكن قبل أن يُسمح لي بالعودة إلى خيامي كان عليّ أن أزور رستم آغا. كان مستلقياً على أريكة مُلئت بأغطية حريريّة ملتفّة في غرفة علويّة تطلّ على الجدول المتدفّق وشجرتين كبيرتين من السّـرو تضيفان الكثير لروعة جمال سَـلقين. تقف هاتان الشّجرتان كحارسين أسودين طويلين أمام بوّابة المنزل، الذي يُعدّ البيت الأوّل والأكبر في طريق القرية الملتوي.

كان رسـتم آغـا مُسـنّاً جـدّاً ومريضاً جدّاً. بـرز وجهه كوجـه جثّة فوق بطّانيـات الحرير الحافلة بزهر الرّبيع الشّـاحب. بدا وكأنّه سُـرَّ بزيارتي على الرّغم من أنّه عندما فتح شـفتيه ليرحّب بي اجتاحته نوبة سـعال شـديدة حتّى كادت روحه تخرج من جسـده. وما إن استرد عافيته حتّى سـأل عن الأنباء الأخيرة بشـأن روسـيا واليابان. تعجّبتُ منه، وقد بدا أنّه قريب جدّاً من نهايته، كيف كان لديه الصّبر ليسـأل عن أيّ شـيء يتعلّق بنا، ولكن سـواءٌ علينا إذا استطعنا رؤية المدّخر المتكئ يعرج بمنجله بين شجرتي السّرو عند الباب.

عندما جلسـت لتناول الطعام في خيمتي ترنّـح خادمان من خَدم محمّد علي داخل معسكري يحملان جرّة كبيرة من زيتون ينمو في بساتين سَلقين محفوظ بزيته الخاصّ. وجلبا أيضاً طلباً من سيّدهما فيما إذا كان يستطيع أن يأتي ويمضي معي ساعة، فأرسلت بالتّالي رسـالة ممتنّة بأنّ هذا سيشـرّفني. ظهر بعد قليل، مع شـخص أو شـخصين في حاشـية كي يحملوا نرجيلته، وجلس موطّناً نفسـه لمحادثة مريحة مع مرافقة قرقرة ماء النّرجيلة، وهو صوت مهدّئ ولطيف يساعد في المحادثة.



سَلقين

أخبرني بأنّ سَلقين كانت واحدة من الكثير من المدن السّلوقيّة، وقد أُسّسها سلوقُس الأول Seleucus I ذاته كمنتجع صيفي لسكّان أنطاكية. قال إنّ البقعة التي خيّمت عليها والمقبرة التي خلفها شكّلت موقع البلدة السّلوقيّة، «وإذا حفرنا قبراً في أيّ مكان منها فإنّنا نخرج أحجاراً منقوشة وأحياناً مكتوبة». ويبدو أنّه ليس من غير الطّبيعي أن تكون سفوح التّلال الخصبة قد تمّ اختيارها من قِبل سكّان أنطاكية من أجل بيوتهم الرّيفيّة، لكنّي لا أجد دليلاً آخر لدعم هذه الرّواية. قال أيضاً إنّ نسيبه رشيد آغا، كان يقيم عنده، وقد عبّر عن أمله بأن أزوره في اليوم التّالي قبل أن أغادر.

وإذا كان رشيد آغا كاخيا زاده القطب الرّئيسي في المنطقة فهو أيضاً العتلّ الرّئيسي. فقد وجدته في الصّباح الباكر جالساً تحت أشجار السّرو قرب الجدول المزبد وبوجه أكثر شرّاً في أجمل جلسة وقد أضيء بشمس ساطعة في وضع يصعب تصوّره، كان رجلاً طويل القامة بسلوك متغطرس؛ وتخفي جبهته عالماً من الأفكار الشّرّيرة، وقد نظرت عيناه شزراً على نحو رهيب، ودمدمت شفتاه المكتنزتان الشّهوانيتان عندما نطقتا عن المفاخر التّافهة والأوامر القاسية التي شكّلت قوام حديثه. كان قد لُفّ بثوب حريري باهت اللّون، وجلس يدخّن نرجيلة قد حلّي فمها بالجواهر. وضع إلى جانبه باقة من أزهار الرّبيع، التي جعل يحملها ويشمّها عندما كان يتحدّث، وأخيراً قدّم أفضل زهرة لي. هذه إحدى امتيازات الرّحّالة المستهتر حيث أنّه لا يستطيع تجنّب زيارة مجموعة من الأوغاد، ولمّا وجدت أنّ صديقي محمّد علي كان على وشك أن يرافق رشيد آغا إلى بيت الأخير في العلاني[1] Alani وهي تقع على طريقي فقد وافقت على اقتراحهم بأنّ علينا أن ننطلق سويّة.

كانت الدوابّ قد أُخرِجت، وركبنا تحت شجرتي اللّوز وخببنا بعيداً عبر أجمات الزّيتون باتّجاه وادي العاصي. ركب رشيد آغا فرساً عربيّة رائعة؛ لمع جلدها الأسود بسبب التّنظيف الذي كانت قد تلقّته. كانت ملجمة برفق، وكان عِذارها عبارة عن

---

(1) العلاني قرية صغيرة تقع إلى الغرب من سلقين بمسافة 7 كلم، وهي ليست أثرية بل تعود إلى مطلع العهد العثماني، أسّسها بعض الإقطاعيين.

سلسلة من الفضّة، ورُصّع لجامها بزخارف من الفضّة، وكانت كلّ حركة من حركاتها مسرّة للنّاظر. ناشد صاحبها على نحو متكرّر محمّد علي، الذي عدا إلى جنبه على بغل جميل، ناشده الإعجاب بفرسه، وعندما كان الأخير يجيب بتذلل بكلمات الثّناء المطلوبة، كانت كلماته تؤخذ وتعزّز من قِبل رجل مُسنّ بدين ركب معنا على فرس هزيل. كان مضحكاً ومداهناً ويعمل في خدمة الكاخيا زاده Kakhya zadch وإذا كان محيّاه قد تكلم بدقة، فهو أيضاً قواد إلى حدّ كبير لرذائله ويتستّر على جرائمه – وقد ألفيتُ نفسي بين تلك المجموعة الغريبة في ذاك الصّباح من أبريل. هرول الحاج نجيب بسرور خلفنا، ولكن ميخائيل الذي كان حسّه بالآداب قويّاً، استطاع بالكاد أن يكتم استنكاره، وعندما يخاطبه المهرّج أو رشيد آغا كان يجيب بكلمة واحدة، على الرّغم من أنّه قد تحدّث من دون رسميّات مع محمّد علي، الذي اعتبره، وبحقّ، من طينة أخرى. ركبنا لمدّة ساعة على أرض رطبة ناعمة، وكان رشيد يشير إلى جَمال ممتلكاته ونحن نسير.

قال: «كل بساتين الزيتون هذه هي ملكي، بالله وبنبيّ الله! ليس هناك مثل هذا الزّيتون في الدّنيا. كلّ سنة آتي من حلب وأرى حصاد الزّيتون بعينيّ مخافة أن يقوم الخدم الأوغاد الذين يعملون عندي بخداعي، لعنة الله عليهم! ولهذا فقد بنيت لنفسي بيتاً في العلاني Alani – يعلم الله، فعلى الإنسان أن يهيّئ لنفسه راحة وحياة لائقة. ولكن يجب أن تشاهديه لأنّ عليك أن تأكلي معي؛ فمائدتي تُمدّ لكلّ القادمين. وحول البيت قمت بزراعة حقول من أشجار التّوت؛ عشرة آلاف شجرة فتيّة قمت بغرسها في السّنوات الخمس الأخيرة. وسوف أُنشئ مصنعاً لأعمال الحرير بأرقام كبيرة، إن شاء الله! يا يوسف! أَرِها صناديق البيض التي جاءت من فرنسا».



مسافرون

أخـرج المهرّج من صدره صندوقاً صغيراً من كرتون ممهور بعلامة تجاريّة لشـركة فرنسـيّة؛ ولكن قبل أن أتمكّن من إظهار احترامي لصناعة الآغا كان انتباهه قد انصرف قِبل بعض الفلاّحين الذين كانوا يقلّمون أشجار الزّيتون على نحو لم يعجبه، فاستحث فرسـه نحو الأشجار وصبّ وابلاً من الشتائم واللّعنات على الرّجال التّعيسين، ثم عاد إلى جانبي واستأنف قصّة شجاعته.

كان البيـت كبيـراً وجديداً، وقـد أُثّث في كلّ مكان بالمخمـل والمرايا ذوات الأطر الذّهبيّـة. لا شـيء يمكـن أن يُرضي الآغا أكثر ممـا أقوم به من رؤية وإبـداء الإعجاب في كلّ زاوية، وأعطاني المهرّج دليلاً في الثّناء والتّهاني. اسـتنتجت منه بأنّي قد دُعيت بشـكل رئيسـيّ كي أمجّد مزايا المواقد الحديديّة التي كانت بارزة في كلّ الغرف - ولا شـكّ أنّها أضيفت من أجل الرّاحة إن لم يكن من أجل منظر رائع للبناء. وعندما انتهينا جلسـنا على أريكة ننتظر حتى يجهز الغداء. شـغل الآغا الوقت وهو يروي لي بسـخط شـديد جدّاً عن صراعاته ضدّ فساد واستبداد الحكومة التي عاش في ظلّها، لكنّه أغفل أن يذكر بأنّ ما عانى منه على أيدي هؤلاء الذين هم أعلى منه قد مرّره وعلى نحو زائد لهؤلاء الذين هم أدنى منه.

دمدم: «بالله! لقد رأيتِ كيف أعمل بين أشجار الزّيتون وكيف أزرع أشجار التّوت وكيف جلبتُ بيوض دود الحرير من مكان بعيد، حيث من الممكن أن أنشئ تجارة جديدة في العلاني. وهل الوالي مقرّ بالجميل؟ لا والنّبي! فهو يرسل رجاله ويقولون: توقف! حتّى نرى مقدار الضّريبة التي يمكن أن نأخذها منك! وعندما نصبت طاحونة عند النّهر لطحن قمحي، قالوا: توقّف! إنّه عمل غير قانوني. ثمّ استدعوني في منتصف الحصاد، وركبت سريعاً إلى حلب، وجعلوني أنتظر يوماً بعد يوم وأسبوعاً إثر أسبوع ومنعوني من أن أغادر المدينة.

وصرخ الآغا «والله!»، ضارباً بقبضته على طاولة صغيرة مرصّعة «لقد أربكتهم! ذهبت إلى القاضي وقلت: ممّن صدر القرار؟ قال: من الوالي، فذهبت إلى الوالي وقلت: «من أصدر القرار؟» فأجاب: «لا أعرف، ربّما القاضي، وأمرتهم أن يكتبوه، لكنّهم لم يجرؤوا، وهكذا تركوني أمضي».

وفي وسط هذه الحكايات أُعلِن عن وصول ثلاثة زوّار. أخذوا مقعداً محترماً على الأريكة المقابلة، وأنفقوا وقتهم بالتّحيّات والتّملّقات. استقبلهم الآغا كما يستقبل الإمبراطور رعاياه، واستغلّ أحدهم الفرصة حالاً قائلاً لي بهمس مسموع من الجميع: «أنت ترين أيّ نوع من الرجال هو الآغا؟ إنّه مثل ملك في هذه المنطقة». ومن أجل ذلك أصبح الآغا أكثر زُهوّاً على نحو ملَكي.

جلسنا أخيراً إلى مائدة مليئة بأشهى المأكولات السّوريّة اللّذيذة، وقليلة هي المطابخ التي تستطيع أن تنافس السّوريين في أفضل ما لديها. تكلّم الآغا وأكل بنفس الشّهية، مقدّماً طبقاً إثر آخر لضيوفه. وعندما كانت الوليمة في أوجها قدِم خادم وقال إنّ هناك فلاحاً يرغب أن يتكلّم معه.

قال الآغا بلا مبالاة: «دعه يدخل!» ظهر فلاح رثّ الثّياب عند المدخل وحدّق بعينين نصف حزينتين، نصف خائفتين من الجماعة ومن الوفرة في الوجبات اللّذيذة.

بدأ كلامه: «السّلام عليك يا آغا!».

ولكن ما إن شاهد الآغا المتوسِّل حتى نهض على قدميه في نوبة غضب شديد. احمرّ وجهه وجحظت عيناه الحقودتان من رأسه وضرب الطّاولة بقبضته المطبقة عندما صرخ:

«انصرف! لعنة الله عليك وعلى نسلك، ويخرب بيت أبيك! انصرف، أقول لك، وأحضر المال، أو سوف أرسلك إلى السّجن مع زوجتك وعائلتك، وسوف تعاني من الجوع هناك حتّى تموت».

قال الرّجل بكرامة وقفت في وجه غضب الآغا: «يا آغا! قليلاً من الوقت. امنحني قليلاً من الوقت».

صرخ الآغا: «ولا يوم! ولا ساعة! انقلع! وعليك أن تحضر لي النّقود هذه اللّيلة».

اختفى الفلاح من المدخل دون أيّ كلمة أخرى، وجلس الآغا وتابع حديثه المنقطع وطعامه المعترض؛ وتابع الضّيوف الآخرون طعامهم كما لو أنّ شيئاً لم يحدث، لكنّي شعرت بشيء من الخجل بسبب وجودي على يمين رشيد، ولم أشعر بالأسف بأن أطلب الإذن بالرّحيل.

أرسَلَنا الآغا إلى الأسفل إلى العاصي وأركبنا بقاربه من أجل عبور النّهر. وعندما وصلنا إلى الجانب الآخر أخذ ميخائيل بتباهٍ قطعة من الخبز من كيسه وبدأ يأكلها.

قلت: «ألم تأكل في العلاني؟».

أجاب ميخائيل بعنف: «أنا لا آكل مع شخص كهذا».

ونجيب الذي لم يكن ليتردّد بالاستمتاع بالتّرف النادر لطعام وافر، أومأ برأسه وقال: «الآغا رجل شرير، عسى الله أن يجازيه على أعماله، إنّه يعتصر من الفقراء آخر متليك لديهم، ويصادر أراضيهم، ويخرجهم من بيوتهم إلى الجوع والحرمان».

قال ميخائيل بتجهّم: «وأسوأ من ذلك».

قال نجيب: «والله! كلّ رجل لديه زوجة جميلة أو ابنة جميلة يبقى في خوف منه،

لأنـه لـن يرتاح حتّى تصبح المـرأة بين يديه. بالله وبمحمّد نبي اللـه! وقد قتل أكثر من رجل لكيّ يضم زوجته إلى حريمه، وليس هناك رجل مكروه أكثر منه».

قلت: «ألا يمنعه القانون؟».

قال نجيب: «ومن عليه أن يمنعه؟ إنّه غني – الله يخرب بيته!».



أنطاكية

قلـت ونحن نتلمّـس طريقنا عبر الحقول الموحلة: «يا ميخائيل! لقد سـافرت كثيراً في بلادك ورأيت وتعرّفت على الكثير من الأشخاص، ونادراً ما التقيت برجل فقير إلاّ ووجدتُ أنّي أسـتطيع أن أختاره كصديق ولم أتعرّف إلى غني دون أن يلازمني شـعور الرّغبة بتجنّبه. والآن كيف هذا؟ هل الثّروة تغيّر القلب إلى حدّ بعيد في سوريا؟ ولهذا، انظـر في بلادي ليس الأقوياء أفاضل، ولكن ولا كلّهم أوغاد. وسأسـألك أنت ودروز قلب لوزة Kalb Lozeh وموسى الكردي فيما إذا كنتم ستصبحون أشراراً لو أصبحتم أغنياء مثل رشيد آغا؟».

قـال ميخائيل: «يا سـتّ، القلب هو نفسـه، ولكن في بلادك الحكومـة عادلة وقويّة

ويتوجّب على كلّ إنكليزي أن يطيعها حتّى الغني؛ في حين بالنّسبة لنا لا توجد عدالة، ولكن الرّجل الكبير يأكل الصّغير، والرّجل الصّغير يأكل الأصغر، والحكومة تأكل الكلّ بالطّريقة نفسها. وكلّنا نعاني من بعضنا وندعو الله أن يساعدنا، طالما أنّنا لا نستطيع أن نعين أنفسنا. ولكن على الأقل فأنا لم آكل خبز رشيد آغا». هكذا لخّص ميخائيل كلامه على نحو مختصر مفيد.

وعند هذه النّقطة نكّستُ أنا ونجيب رأسينا.



تتمّة صورة أنطاكية

ثمّ تبع ذلك خمس ساعات من أسوأ مراحل السّفر، ويمكن أن يكون ذلك عقوبة لي ولنجيب لجلوسنا على مائدة الشّرير، ولكن، مثل أغلب عقوبات العناية الإلهيّة، فإنّها تقع على نحو نزيه على العادل والظّالم، فبالنّسبة لميخائيل فقد تحمّل مثل ما تحمّلنا. فكلّ الذي عانينا منه في اليوم السّالف من الصّخور عانينا منه الآن عند الطّرف المقابل من الوحل. كان العذاب أقسى بألف مرّة. فقد عبرنا لمدّة خمس ساعات تلالاً من التّراب والتي لم يكن عليها حجر واحد، وإنّما وحل لزج في المنحدرات التي تناوبت بمستنقعات عميقة حيث غاصت خيولنا حتّى أحزمة سروجها، وعندما خرجنا

أخيراً من هذا المستنقع في وادي العاصي كان الناس والدوابّ منهكين تماماً.

ارتفعت الآن الأرض المرتفعة التي تركناها إلى حوافّ صخريّة وقمم، كان الوادي العريض يمتدّ عن يميننا، ممتلئاً إلى نصفه بالماء الفائض، وقامت خلفه سلسلة جبال رائعة. لم يكن قد مضى وقت طويل حتّى شاهدنا الأبراج والأسوار البيزنطيّة تتوّج السّلاسل الجبليّة عن يسارنا، وتعثّرت خيولنا بين حواجز من شجر الغار المزهر على طول الرّصيف المتهدم للطّريق الرّوماني الذي يقود إلى أنطاكية Antioch. كان الطريق قد امتلأ أيضاً برافد من نهر العاصي الذي تدفّق بجذل على الرّصيف. ولقد كان ذلك مع بعض الإثارة حيث حدّقتُ بمدينة أنطاكية، التي كانت لعدّة قرون مهد الفنون وموقعاً من أكثر مواقع الحضارات الرّائعة التي عرفها العالم.



على ضفاف العاصي في أنطاكية

تشبه أنطاكية الحديثة المهرّج الذي يلبس ثياباً واسعة جدّاً على ساقيه الهزيلتين؛ وتمتدّ جدران القلعة صاعدة على الصّخرة والتّلّة، تحيط بمنطقة حيث تقع البلدة منكمشة بعيدة عنها. لكنّها لا تزال من أجمل الأماكن، بهضبتها العظيمة المسنّنة التي تقع خلفها، متوّجة بالأسوار، وتمتدّ أسطحها الحمراء المتعنقدة في الأسفل حتّى وادي العاصي العريض الخصب. وقد قلبت الزلازل وفيضانات النّهر المتغيّرة وطمرت

بالطّمي قصور الإغريق والمدينة الرّومانيّة، وعرفت وأنا أقف عند غروب الشّمس على منحدر المقبرة النّصيريّة المغطّاة بالأعشاب تحت جبل سِلپيوس Mount Silpius أين كان مخيّمي قد نُصب، ورأيتُ الأسقف الحمراء تحت هلال القمر، وأدركتُ بأنّ ذاك الجَمال إنّما هو ميراث أنطاكية الذي لا يقبل التّحوّل.

❊ ❊ ❊

الفصل الرّابع عشر

لـم يخرّب التّعرّف الأكثر علـى أنطاكية Antioch انطباعات المسـاء الأوّل. فكلّما تجوّلتُ عبر الطّرقات المرصوفة الضّيّقة كلّما ظهرت أكثر بهجة. ما عدا الطّريق الرّئيسي العام، الذي هو السّوق، فقد كان خالياً تقريباً؛ وكانت خطواتي على الطّريق المرصوف بالحصى تخترق سـنين من الصّمت. ولقد أعطت الجملونات الرّقيقة المغطّاة بالآجرّ الأحمر سـحراً وسـمتاً مميّزاً جدّاً للمدينـة كلّها، وبرزت الشّـرفات المزوّدة بمصاريع إلـى الخارج من بيت إلى بيت. ولا يوجد أيّ أثـر يُذكر للماضي. زيّن تابوتان جميلان من الحجر بالشـرائط وأكاليل الزّهر مع تزيينات لأسـود من طراز آسيوي مألوف، كما أتصوّر، تلتهم ثيراناً، وهما موضوعان في السّـرايا Seraya، وتابوت آخر مشـابه لهما، ولكـن أقلّ تعقيداً عند حافّة طريق دَفنة Daphne. رأيتُ أيضاً جزءاً من سـطح تقليدي معمّـد فـي فناء منـزل تركي، ومنحـدر جدار في الشّـارع الرّئيسـي يمكن بـلا ريب أنّه يعود لتاريخ أبكر من المدّ الإسـلامي - وقد شـابهت صفوفها من القرميد المتناوبة مع الحجارة تلك الموجودة في الأكروبوليس Acropolis.

أمّـا أنطاكية التي شـيّدها سـلوقُس نيكاتـور فإنّها مدينـة الخيال فقـط. وقد اختفت الجزيـرة التـي بنيـت فوقهـا تلـك المدينة بسـبب التّغيّر فـي قـاع النّهر، لكـنّ الأماكن التّقليديّـة موجـودة فوق المدينة الحديثـة. ولا بدّ أنّ ضفاف العاصي قد أُنشـئت عليها دارات فخمة؛ وقد أخبِرتُ بأنّ أساسـاتها كانت تظهر كلما حفر إنسـان بعمق كافٍ في الطّمي، وكانت تلك الأشـياء قليلـة القيّمة، مثل النقود المعدنيّة والبرونزيّة، تُسـتخرج

غالباً. لقد أحضر لي الكثير منها للبيع، ولكنّي قدّرت أنّها مزيّفة على نحو غير متقن، وأكّدت رأيي برفعت آغا وهو پاشا تركي يشغل وقت فراغه بصنع مجموعة من الأشياء القديمة. إنه يمتلك مجموعة رائعة من النّقود السّلوقيّة والأقدم منها جيّدة مثل أفضل الصّقليّة Sicilian، والأحدث منها سيّئة مثل أسوأ العملات البيزنطيّة، وكان أحد هذه المصابيح البرونزيّة على شكل رأس إله الحب إيروس Eros المجعّد الشّعر، وهو مثال جميل للعمل الرّوماني. أهداني الآغا رأساً صغيراً، يُعدّ نسخة للرّأس في أنطاكية بالتّاج العالي، وعلى الرّغم من أنّه كان مجرّد عمل مصنوع على نحو غير متقن، فإنّ له بعض التّميّز لكونه منسوخاً عن نموذج أصلي عظيم.



سوق الحبوب في أنطاكية

قبـل أربعين سـنة كانـت الجدران والأبراج فـي الأكروپوليـس Acropolis لا تزال كاملة تقريباً؛ وهي الآن مخرّبة كلّياً تقريباً. ويؤكّد سـكّان أنطاكية بأنّ المدينة يُخسـف بها كلّ نصف قرن حتّى أساساتها، وهم في الوقت الحالي يتوقّعون ارتفاعاً آخر لقشرة الأرض، وقد كان آخر ارتفاع للقشرة الأرضيّة قد حصل في عام 1862؛ ولكنّه الازدهار وليس الزّلزال هو الذي صنع الخراب في القلعة.

تقع البلدة على نحو رائع في واديها الغني، وتتّصل بميناء إسكندرون Alexandretta بطريـق جيّـد إلـى حدّ ما؛ ومن الممكـن أنّها أصبحت بـلا ريب مركزاً تجاريّـاً عظيماً، وحتّى تحت الحكم التّركي فقد نمت إلى حدّ بعيد في الخمسين سنة الماضية، ونمت على حساب الأكروپوليس.

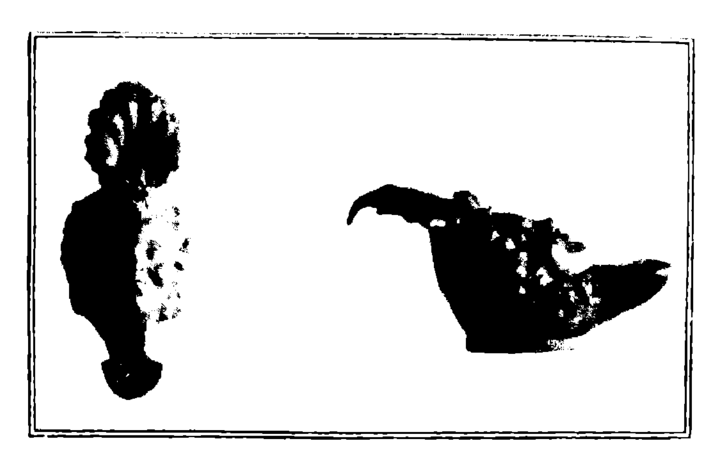
لا يمكـن لأيّـة صعوبـة أن تقف فـي وجه الرّجل الشّـرقي لكـي يجنّب نفسـه مصاعب اسـتخراج الحجـارة من المقلع، وعلى الرّغم من العمل في نقـل أحجار القلعة المزينة إلى سطح التّلّة العالية جدّاً التي تقع عليها القلعة، فقد بُنيت كلّ البيوت الحديثة من مواد أُخذت منها. وأعمال الهدم مسـتمرّة؛ فالواجهات الحجريّة تختفي بسـرعة من الأسـوار بحيث لم يبقَ سوى الحصى والملاط الذي يتلاشى في وقت قصير بسبب عوامل الطّقس.

ذات صباح قمت بجولة شـاملة في القلعة اسـتغرقت ثلاث سـاعات. وإلى الجنوب من قمّة جبل سِلپيوس Mount Silpius يوجد شقّ صدع صخري جانب التّل. كان مليئاً بالقبور الصّخريّة المنحوتة، وهناك فوق مخيّمي تماماً قناة قديمة تجتازه. وعلى اليسـار من الصّدع هبط خط السّور بصخور شديدة الانحدار إلى الوادي. وحيث بقيت الشّظايا الكبيرة فقد كان من الواضح أنّ حجارة الواجهة قد أبدِلت بزمر من القرميد، وفي بعض الأحيان حتّى الحجر نفسه تنوّع بمجموعات في كتل من الأحجار بأحجام أصغر وأكبر.

تطوّق الحصون منطقة واسـعة، ويؤدّي الجزء الأعلى بمنحدرات لطيفة مغطّاة بأغصان مقطوعة وأساسـات مهدّمة إلى قمّة التّلّة. وفي الجدار الغربي كان هناك باب حجري ضيّق وكبير، بعتبة من كتل حجريّة ذات مفاصل وقوس بارز فوقها. كان السّـور الشّـمالي متهدّماً قرب الأبراج؛ وكانت القلعة الأساسـيّة تقع في الزّاوية الشّـماليّة الشّـرقيّة. ومن هنا هبطت

الأسوار للأسفل مرّة أخرى بانحدار شديد باتّجاه المدينة ومرّت على مسافة إلى الشّرق منها. أعتقد أنّه من الممكن تقفّي آثارها حتّى العاصي. لم أقم بتعقّب مسلكها، ولكنّي هبطت من القلعة عن طريق حجري إلى ممرّ ضيّق عميق يقطع الطّرف الشّرقي للتّلّة.

تمّت حماية هذا الممرّ الضّيّق بجدار قوي من القرميد والحجارة ويسمّونه بوّابة الحديد، وتصعد خلفه التّحصينات على الطّرف المقابل من المنخفض وتستمرّ بالصّعود على طول قمّة التّلّة. ولا أعرف مقدار مسافة امتدادها؛ وكانت الأرض وعرةً جدّاً وكُسيت بشكل كبير بالأجمات حيث رجف قلبي وعدت أدراجي. كان هناك الكثير من الأزهار بين الصّخور، كالقطيفة (الآذريون)، والبروق، وبخور مريم، والسّوسن.



مصباح روماني في مجموعة رفعت آغا

خلف ممرّ البوّابة الحديديّة، على جانب التّلّة المواجهة للعاصي، يوجد كهف يطلق عليه في العرف كهف مار بطرس St. Peter. وقد أقامت الطّائفة اليونانيّة كنيسة صغيرة على مدخل الكهف. ويوجد بعيداً وعلى طول التّلّة بقايا أكثر غرابة لأنطاكية القديمة، وهو رأس أبي الهول Sphinx منقوش بشكل نافر فوق صخرة بارتفاع 20 قدماً تقريباً. وقد لفّ حول جبينه غطاء ينسدل على كلّ جانب من وجهه وينتهي حيث تلامس الحنجرة الصّدر الظّاهر. وتلتفت ملامحه الرّتيبة نحو أعلى الوادي، كما لو كان يرقب أحداً سوف يأتي

قادماً من الشّـرق. ولو اسـتطاع أن يتكلّم فربّما يخبرنا عن الملوك العظام والمواكب البهيّة، وعـن المعركـة والحصار، حيث أنّه رآهم كلّهم من صخرتـه على جانب التّلّة. وهو لا يزال يتذكّر اليونان الذين عرفهم وقد مشـوا من بابل Babylonia، وحيث أنّ الرّومان لـم يعلّموه بـأنّ العالم الحيّ يمتـدّ في الغرب، فأنا لـم أتمكّن من أن آمل بتنويره، ولذا فقد تركته يترقّب بعض الأشياء الجديدة القادمة من الشّرق.

كان هناك حجّ آخر يجب القيام به من أنطاكية: لقد كان إلى دَفنة Daphne المزار المشهور الـذي ميَّز المكان حيث صدّت الحوريّة رغبـة الإله، ويدعى بالعربيّة بيت المياه. وهو يمتدّ إلـى الغرب من البلدة، على مسـافة ركوب سـاعة تقريبـاً على طول سـفح التّلال، وهو في الرّبيـع فاتن جدّاً لا يتوفّر وجـوده دائماً. ويمرّ الطّريق عبر أيكة رائعة من البراعم الخضراء، النّامية بشـكل كثيف بالزّعرور البرّي المزهر واللّون الأرجواني الغريب لشـجرة الزمزريق؛ ومن ثـمّ يعبر رعناً منخفضاً وينزل إلى وادٍ منحدر يتدفّق عبره جدول نحو العاصي.



رأس أبو الهول (سفينكس) في أنطاكية

ليس هناك أيّ أثر باقٍ للمعابد التي زيّنت هذا الحرم الأكثر جمالاً بين الأماكن المقدّسة. لقد جرفتها الزّلازل والانهيارات الجبليّة إلى أسفل الوهد. ولكن جمال الموقع لم ينقص منذ الأيام التي كان سكّان أكثر العواصم ترفاً في الشّرق يداعبون هناك الفتيات اللاتي خدمن الله. لا يندفع السّيل بجلبة من جانب الجبل؛ فهو يولد في بركة ساكنة عميقة تمتدّ محاطة بغطاء من سرخس كزبرة البئر، في أجمات «تُبطِل كل ما يسعى إلى فكرة نضرة في ظلّ أخضر». ومن البركة ينبثق نهر شفّاف مصقول السّطح، ضيّق وعميق؛ وهو يجري في دوّامات وتيّارات معاكسة ثمّ في شلّالات مزبدة وشلّالات تقذف الرّذاذ الأبيض بين أغصان شجر التّوت والدّلب. تقف تحت الأشجار إحدى عشرة طاحونة؛ والطّحانون رثّو الثّياب هم وحدهم سكّان مزار أپولّو Apollo. وقد جلبوا لنا جوزاً لنأكله على حافة الجدول، وجواهر أثريّة صغيرة كانت قد سقطت من حلي أولئك الذين بحثوا عن المتع على نحو ربّما أقل براءة من متعنا عند ضفاف ذاك الجدول ذاته.



دَفِنه

من المستحيل أن تسافر في شمال سوريا دون أن تكتسب اهتماماً شديداً بالملوك السّلوقيين، مبطّناً باحترام عميق لإنجازاتهم في الأمور السّياسيّة والفنون؛ ولذلك فقد عقدتُ العزم على زيارة موقع سلوقيا پييريا Seleucia Pieria، ميناء أنطاكية حيث قبر

سلوقيا پييريا قبل أن أواصل طريقي شمالاً.

بـرزت العاصمة الدّاخليّـة والميناء البحري إلى الوجود في اللّحظة ذاتها، وكان كلّ منهما جزءاً من تصوّر عظيم حوَّل الألسـنة المنبسـطة الأكثر انخفاضاً من نهر العاصي إلى سـوق غني ومزدحم بالسّـكّان - واسـتطاع الملوك في تلك الأيّام أن يُنشِـئوا مدناً مشـهورة عالميّـاً بتلويح مـن الصّولجان، ولـم يكن السّـلوقيّون متأخّرين فـي اللّحاق بالمثـل الـذي كان الإسـكندر Alexander قد وضعه لهم. ومثل أفاميـا Apamea فإنّ سـلوقيا قد انكمشـت إلى حجم قرية صغيرة، أو ربّما سـيكون من الأصحّ أن نقول إنّها تناثرت إلى عدّة قرى صغيرة تحت اسـم السّويديّة Sweidiyych. (إنّ التّسمية مربكة، لأنّ لكلّ مجموعة من المزارع أو الأكواخ لقباً مستقلاً).

يعود التّباعد بين السّـكّان عند مصبّ نهر العاصي إلى العمل الذي يمارسـه سـكّان القـرى. فهم يقومون بتربية دودة القزّ، وهي صناعة تحتاج لإقامة قرابة شـهر في الرّبيع برعايـة مسـتمرّة هائلـة، حيث يجـب على كلّ رجـل أن يقيم في مركز أجمـات التّوت التّابعة له، وبناءً على ذلك فقد فُصلت بمسافة عن جيرانهم.

وبعد ركوب ثلاث سـاعات عبـر منطقة فاتنة من أجمات من نبات الآس وبسـاتين التّـوت وصلنا إلى السّـويديّة Sweidiyych، وهي مركز عسـكري وتعـدّ الأكثر أهمّيّة بين القرى المتناثرة. هنا وللمرّة الأولى والوحيدة في رحلتي استوقِفت من قِبل ضابط، وهو الأسوأ بسبب العرق (àrak) وطلب جواز سفري. لم يكن لديّ جواز سفر وقتها، فقـد أضعته فـي جبل الزّاويـة Zawiyyeh عندما فقدتُ معطفي، وهـذا برهان على أنّ الموظّف التّركي قليل الالتزام بالقانون يمكن أن يرى بأنّي سـافرت نصف المسافة من الإمبراطوريّة العثمانيّة دون ورقة تظهر اسمي.

وفـي هـذه المناسـبة فقـد شـرح الضّابط الـذي كان معـي ببعـض الانفعال أنّـه لم يكن ليُسـمح له بمرافقتي لو لـم أكن شـخصاً جديراً بالاحترام ومفوَّضاً، وبعد جدال قصير سمح لنـا بمواصلـة طريقنا. وسـرعان ما اتّضح السّـبب في هـذه الدّقّة الشّـديدة: إذ تحتوي قرى السّـاحل على جاليات كبيـرة من الأرمن Armenians وهم محاطون بمحطّات عسـكريّة،

لتمنع السّكّان من التّسلّل سواء من المنطقة الدّاخليّة إلى أجزاء أخرى من الإمبراطوريّة أو عن طريق البحر إلى قبرص Cyprus، وتتمّ مراقبة القادمين والخارجين من الغرباء بدقّة.

وأحد الموضوعات التي ينبغي للرّحّالة أن يعدّ نفسه لها دوماً هو تجنّب الوقوع في حبائل القضية الأرمنيّة. ولقد كانت إدانة ضمنيّة للمثقّف خلال القرون الوسطى حيث لا توجد قضيّة غير قابلة للتّفسير كهذه القضيّة. فثمّة قضايا قدّمت ربّما صعوبات خطيرة، ولكنّك إذا طرحتها أمام الرّجل المنصف - على سبيل المثال بعض العرب في إسپانيا عالم كلّيّاً، بسبب الدّراسة، بالتّفاصيل التي من الأفضل عدم الاستفسار عنها - فسيعطيك جواباً حاسماً. المشكلة الحقيقيّة هي أن تجد رجلك فقط. وعلى كلّ حال فقد تخلّينا عن ذاك المعتقد. ويا للأسف! فقد ثبت لنا بالتّجربة أنّه يوجد الكثير من المعضلات التي لا تُحلّ بالنّسبة للعقل البشري، وتمتلك الإمبراطوريّة التّركيّة من تلك المعضلات نسبة جديرة بالاعتبار. تُعدّ القضية الأرمنيّة إحدى هذه المعضلات، وكذلك القضيّة المقدونيّة ويكمن الجنون في تلك الاتّجاهات.

كان من العزم ألا تتردّد في قرار كان قد قُدِّم، وعلى نحو كبير فلم يكن لديّ أيّ شكّ بأنّي أقوم برحلات سعيدة وناجحة، عندما ركبت هابطة إلى Chaulik، ميناء سلوقيا Seleucia القديم. ووجدت بأنّ قراري أقلّ صعوبة في تنفيذه بسبب أنّ الأرمن لا يتكلّمون إلاّ اللّغة التّركيّة والأرمنيّة، وعلى أيّ مستوى فإنّ الكلمات العربيّة التي يعرفها البعض منهم كانت كافية جدّاً لتمكّنهم من الدّخول في وصف مفصّل عن مظالمهم. وكان الشّخص الذي خدمني ذاك المساء كدليل رجلاً مرحاً وكان اختياره بالتّأكيد بالأفضليّة كموضوع غير اعتيادي.

كان اسمه إبراهيم، برّاق العينين ذكيّاً، وكان مرحه يستحقّ الثّناء، نظراً لأنّ دخله السّنوي لا يعادل أكثر من 400 قرش، أي ما دون جنيهين من العملة الإنكليزيّة. ومن هذا المبلغ قرّر أن يوفّر ما يكفي ليرشو الموظّفين الأتراك في الميناء لعل ذلك يجعلهم يتغاضون عن هروبه في قارب مكشوف إلى قبرص Cyprus، قال: «لأنّه لا توجد صناعة هنا باستثناء دودة القزّ، وهي تعطيني عملاً لمدّة شهرين في السّنة، وبالنّسبة

للأشـهر العشـرة الأخـرى فليس لـديّ أيّ شـيء لأعمله وليس هناك طريقة لكسب المال». وأخبرنـي أيضاً بأن النّصيريّة Nosairis الذين يقطنون القرى المجاورة جيران مقيتون.

قلت: «هل توجد بينكم عداوة؟».

«إي واللـه!» قالهـا بموافقـة مؤكّـدة، وروى بأمثلة موضّحـة القصّـة الطّويلة لنزاع حديث والذي بدا، بقدر ما أمكن فهمه، أنّه يعود كلّيّاً لاعتداءات الأرمن.

وعندما أنهى كلامه قلت: «لكنّكم بدأتم السّرقة».

قال: «نعم، إن النّصيريّة Nosairis ...». وأضاف بابتسـامة: «لقد سُـجنت في حلب لمدّة سنتين فيما بعد».

قلت: «والله! لقد كنت تستحقّ ذلك».

قال بمرح كعادته: «نعم».

ويسـعدني أن أقـول، إنّ هـذا كان كلّ ما سـاهم بـه إبراهيم من مخـزن الدّليل على القضيّة الأرمنيّة.

ليس خليج سـلوقيا Seleucia بعيد الشـبه بخليج نابولي Naples وليس أقلّ جمالاً بكثيـر. تشـكّل حافّـة التّلال شـديدة الانحدار، التـي نُخِرت بقبور وحجـرات منحوتة بالصّخـر، خلفيّـة لحدائق التّـوت، وتطوّق أرضـاً منجرفة الخليج في الشّـمال. وتمتدّ أسـفل منهـا بوّابات ماء الميـناء، وقد ملئت بطمي الأرض وفصِلت عن البحر بشـاطئ رملي. ويتدفّق العاصي عبر الرّمال ويمتدّ الرّمل إلى مسـافة أبعد نحو الجنوب، ويُغلَق المنظر بسلسـلة شـاهقة من التّلال تبلـغ أقصى ارتفاعها في النّقطـة الجنوبيّة عند القمّة الجميلـة لجبل كاسـيوس Mount Cassius التي تأخذ مـكان جبل ڤيزوڤ Vesuvius في المنظر الطّبيعي.

نصبتُ مخيّمي قرب الحاجز الشّـمالي في تجويف صغيـر انفصم عن بقيّة الخليج

برعـن منخفـض امتدّ إلى أرض رأسيّة مغطّـاة بالخِرب التي سيطرت علـى انجراف السّاحل كلّه، ومتّعتُ نفسي بالتّخيّل أنّه كان يوجد على هذه البقعة الهيكل وقبر سلوقُس نيكاتـور Seleucus Nicator، علـى الرّغم من أنّي لا أعرف فيما إذا كان موقعه الدّقيق قد تمّ تحديده في أيّ وقت مضى. وإلى الأسـفل منه على الشّـاطئ تقبع صخرة منفردة تـمّ اكتشـاف قاعة معمَّدة فيها. كانت تلـك القاعة معطّرة بعطر البحـر وتنتعش بالرّياح المالحة التي عصفت خلالها: معبد حقيقي للحوريّات وأنصاف الآلهة (Tritons).

أخذنـي إبراهيم أعلى وأسـفل واجهـة الجروف شّـديدة الانحدار عبـر طرقات صغيرة بجانب طريق عربات قديم يؤدّي إلى المدينة على القمّة من النّجد. قال إنّ السّير حول السّور الذي يطوّق المدينة العليا يسـتغرق سـتّ ساعات، ولكن الطّقس كان شديد الحرّ بحيث لا يمكن وضع إفادته موضع الاختبار. تسـلّقنا داخل عدد كبير من الكهوف الاصطناعيّة التي لـم يكن يوجد فـي الكثير منها فجـوات جدارية loculi. ومـن الممكن أنّهـا أُعِدَّت لتكون مسـاكن أو مخازن بدلاً من كونها مقابر. وتمتلئ كلّها في هذا الوقت من السّـنة بمربّي دودة القزّ، الذين يكونون الآن في أكثر أوقاتهم انشغالاً، فاليرقة قد خرجت لتوّها من البيضة.

كان مدخـل كلّ كهف قد سُـدّ بسـتار من أغصـان خضراء لتجنّب دخول الشّـمس، ويرشَّـح ضوء شمس العصر بلطف عبر الأوراق النّاشـئة. وعند النّهاية الجنوبيّة كانت هنـاك مقبرة كبيرة تحتـوي على كهوف صغيرة أحيطت بفجوات loculi، وعلى تابوت حجـري زخرفـت، إذا كانت قد زخرفـت مطلقاً، بإكليـل الزّهور مثـل ذاك الذي يزيّن التّابوت الحجري في أنطاكية Antioch. كانت المجموعة الأكثر أهمّيّة في هذه القبور موجودة عند النّهاية الشّماليّة من الجرف. والدّخول إليها يتمّ عبر رواق معمّد يقود إلى كهـف مزدوج. احتـوت الغرفة الأكبر على بعـض الفجوات الجداريّـة loculi يتراوح عددهـا ما بيـن الثّلاثين إلـى الأربعيـن إضافة إلى زوج مـن قبور مظلّلـة، وقد صنعت الظّلال من الصّخرة الحيّة؛ وحوت الغرفة الأصغر ما يقارب نصف العدد من الفجوات الجداريّة، كان سطحها قد دعم بأعمدة ودعامات، ولاحظتُ فوق القبور وجود تصميم نُحت على نحو فجّ يحتوي على لفيفة بشكل نبات اللّبلاب وعلى أوراق مثلّمة.



الكهريز

يبدو أنّ بنّائي سلوقيا Seleucia كانوا مشغولي البال بشكل كبير بتوزيع الإمداد المائي. وأراني إبراهيم على طول واجهة الجرف قناةً بعرض ما يقارب قدمين وارتفاع خمسة أقدام نُحتت خلف سطح الصّخر بثلاثة أو أربعة أقدام، وقد حملت المياه من طرف المدينة إلى طرفها الآخر. تتبعنا مجراها من خلال فتحات هواء عرضيّة في جدار الصّخرة الخارجي. ولا بدّ أنّ المشكلة الأكثر صعوبة هي إدارة السّيل المتدفّق إلى الأسفل من ممرّ ضيّق إلى شمال المدينة.

وقد شُقّ دهليز عظيم عبر الرّعن إلى الجنوب من مخيّمي لتصريف المياه إلى البحر ومنعها من جرف المنازل الواقعة في سفح الجرف. والاسم المحلي لهذا الدّهليز هو كهريز Gariz. وقد بدأ من فوهة وهد ضيّق ثم يسير كنفق عبر كتلة صخر ضخمة لمسافة عدّة مئات من الياردات، ثمّ يستمر بعد ذلك كنفق عميق مكشوف حتّى يصل إلى نهاية الرّعن. وعند مدخل النّفق كان هناك نقش بأحرف منحوتة بشكل واضح مطلعها كما يلي[1]: "Divus Vespasianus"، ولكنّ البقيّة كانت قد طُمرت في الأرض الصّخريّة. وكانت هناك كتابات أخرى عديدة على طول الطّريق الأبعد للكهريز Gariz، كانت كلّها باللاّتينيّة: وأتصوّر أنّ العمل لم يكن سلوقياً ولكن رومانيّاً.

أغراني إبراهيم بمشهدٍ إضافي آخر. وأعلن بأنّي إذا تبعته عبر بساتين التّوت أسفل الجرف فسوف يريني «شخصاً مصنوعاً من الحجر». كان فضولي قد أُنهِك إلى حدّ ما بالحرّ والسّير الطّويل، لكنّي جاهدت عائدة بضجر فوق الحجارة وغيرها من العقبات لأجد إلهاً، حُمِل وسُرق، ثم وُضع تحت أشجار التّوت. لم يكن إلهاً رائعاً جدّاً؛ كان وضعه الجسماني متصلّباً ورثّ الهيئة، وقد ذهبت قمّة رأسه، ولكنّ الشّمس الواهنة قد موّهت كتفه الرّخامي وهمست أغصان التوت باسمه القديم. جلسنا إلى جنبه، وقال إبراهيم معلّقاً:

«هناك شيء آخر مدفون في هذا الحقل، امرأة، ولكنّها على نحو عميق جدّاً تحت التّراب».

قلت: «هل رأيتها؟».

قال: «نعم، لقد دفنها مالك الحقل لأنّه فكّر في أنّها يمكن أن تجلب له حظّاً تعساً، ولو كنتِ أعطيتيه نقوداً لربّما حفر وأخرجها لك».

لم أقبل الاقتراح؛ ومن المحتمل أنّه كان من الأفضل تركها في حيّز الخيال.

رأيت قرب التّمثال طنفاً مزخرفاً طويلاً كان يُرى بوضوح، على الرّغم من أنّ الجدار

---

(1) إشارة إلى الإمبراطور الرّوماني ڤسپازيان.

الذي توّجه كان قد دُفن في حقل ذرة، وعلى نحو كثيف جدّاً يغطّي التّراب الآثار السّلوقيّة. وذات يوم سيكون هناك الكثير ليتكشّف هنا، ولكنّ الكشف عن الآثار سيكون مُكلفاً إلى أبعد حدّ بسبب الطّمي العميق وبسبب متطلّبات مُلاّك بستان التّوت وحقل الذّرة. وموقع البلدة هائل، وسيتطلّب سنوات من الحفر ليكون الاكتشاف كما ينبغي.



التّمثال في بستان التّوت

يجري قرب خيامي جدول بطيء عبر أجمات من سوسن أصفر ويشكّل بركة في الرّمل. وقد وفّر الماء لحيواناتنا ولقطعان الماعز التي كان رعيان الأرمن الصّغار يرعونها صباحاً ومساءً على طول شاطئ البحر. كانت البقعة جذّابة جدّاً والطّقس سارّاً جدّاً حيث أمضيت يوماً بطّالاً من العمل هناك، وفي الواقع فهو اليوم البطّال الأوّل منذ أن غادرت القدس، وطالما أنّني لم أستطع أن آمل بتفحّص سلوقيا Seleucia على نحو كامل، فقد قرّرت ألا أرى أكثر ممّا كان مرئيّاً من باب خيمتي.

ولقد منحني هذا القرار الممتاز أربعاً وعشرين ساعة لأنظر إلى الخلف برضا غامر، على الرّغم من أنّه لا يوجد شيء ليدوّن عنها فيما عدا أنّني لم أكن لأهرب بسهولة

شـديدة مـن المصاعب الأرمنيّـة كما كنت آمل. وفـي الصّباح تلقّيت زيـارة طويلة من امـرأة كانـت قد نزلت من كابوسـة Kabuseh، وهي قرية على قمّة الممـرّ الضّيّق فوق الكهريـز Gariz. تكلّمت بالإنكليزيّة، اللّغة التي اكتسـبتها في المدارس التّبشـيريّة في عنتـاب Aintab، فوطنهـا فـي الجبـال الكرديّة، وكان اسـمها قيمَـت Kymet. كانت قـد تركـت عنتاب بُعيد زواجهـا، وهي خطوة ما تـزال نادمة عليها، علـى الرّغم من أنّ زوجها كان رجلاً جيّداً وأميناً، لكنه كان فقيراً جدّاً وهي لـم تعرف كيف ستعيل طفليها. وبالإضافـة إلـى ذلك قالت إنّ الأشـخاص الذين يسـكنون حول كابوسـة Kabuseh، سـواء مـن النّصيريّة أو من الأرمـن كانوا كلّهم لصوصاً، وقد توسّـلتْ إليّ لأسـاعدها بالهـروب إلـى قبـرص Cyprus. أخبرتنـي جزءاً غريباً مـن تاريخ العائلـة، الذي أظهر مقـدار الألـم الذي تعاني منـه طائفة الأقلّيّة التـي تعيش في قلب مدينة مسـلمة، إذا لـم يكن بإمكانها أن تستشـهد بمثال عن الاضطهاد الرّسـمي. كان والدها قد أسـلم عندما كانت طفلة، لأنّه رغب بشكل أساسي أن يتزوّج امرأة ثانية. كانت والدة قيمَت Kymet قـد تركتـه وأعالت أطفالها بأفضل ما يمكن، مفضّلـة ذلك على أن تخضع للإهانة التي فرضها عليهـا، وقالـت قيمَت إنّ الشّـجـار المرير كان قد أوقع الكآبة في فترة شـبابها كلّهـا. وفـي الصّباح التّالي أرسـلت زوجها مع دجاجة ونسـخة من أشـعار مكتوبة من قِبلهـا باللّغـة الإنكليزيّة. دفعتُ ثمن الدّجاجة، أما الأشـعار فكانت لا تقدّر بثمن وهي تقول:

أهلاً أهلاً يا أعزّ الغوالي، نحن سعداء بقدومك!

مرحباً بمجيئك! مرحباً بقدومك!

لننشد بمرح، بمرح

بمرح، يا أبنائي، بمرح!

تشرقت الشّمس الآن بوضوح مع القمر، ضوء جميل ساطع جدّاً، يا أبنائي الأعزّاء؛

مرحباً بوصولك! مرحباً بابتسامتها!

أرسلت الأشجار لنا، يا أبنائي الأعزّاء، وبسعادة تبتهج العصافير؛

ترحّب بعبيرها اللّطيف! ترحّب بها بنشيدها!

سأبقى،

المخلص لك،

GEORGE ABRAHAM.

أسرِع وأضيف، لئلاّ يُعدّ الشّعر جامعاً لشخصين، بأنّ كاتب هذه الأشعار لم يكن جورج أبرهام George Abraham، الذي، كما تبين أثناء المفاوضات على الدّجاجة أنّه لم يكن يعرف كلمة من اللّغة الإنكليزيّة؛ كانت قيمَت Kymet قد استخدمت اسم زوجها فحسب لتشكّل توقيعاً أكثر تأثيراً من اسمها. وأكثر من ذلك فإنّ الأولاد الذين ألمحتْ إليهم كانوا تشبيهاً بلاغيّاً. ولا أستطيع أن أقدّم أيّ إيحاء للشّيء الذي كانت الأشجار قد أرسلته لنا؛ ويبدو أنّ النّص محرَّف عند تلك النّقطة. وربّما يجب أن تعتبر «نحن» في حال نصب مفعول به.

تركت سلوقيا Seleucia بأسف حقيقي. وقبل الفجر عندما نزلت للاستحمام في البحر، كانت حزمة رقيقة من الغيوم تمتدّ على طول واجهة التّلال وعندما سبحت في المياه الدّافئة السّاكنة ارتطم الشّعاع الأوّل من الشّمس بقمّة جبل كاسيوس Mount Cassius المغطّاة بالثّلج والتي أغلقت على نحو ساحر منعطف الخليج.

عُدنا برحلتنا إلى أنطاكية Antioch كما كنّا قد أتينا، ونصبنا الخيام خارج المدينة قرب الطّريق العام. وبعد يومين انطلقنا عند السّاعة السّادسة والنّصف، في سفر طويل إلى إسكندرون Alexandretta. كان الطّريق رديئاً عند الأميال القليلة الأولى، تتخلّله دوّامات من الوحل، ومن هنا وهناك تمتدّ قطعة من رصيف منحت ما هو أفضل بقليل من الوحل ذاته.

ووصلنا بعد ثلاث ساعات إلى قرية قرامُرت Karamurt، وبعدها بثلاثة أرباع السّاعة تركنا الطّريق وانطلقنا مباشرة صاعدين التّلال قرب خان مخرب يعرض آثاراً

مـن عمل عربي جميل. سـار بنا الطّريق أعلى وأسـفل منحدرات شـاهقة من الأرض، بين أجمات من شـجيرات مزهرة، الجولق والأرجوان وشجرة قريضة cistus صغيرة. وشـاهدنا إلى اليسار قلعة بغراس Baghras الرّائعة (المثيرة للصّورة الذّهنيّة) أي پاغرا Pagrae القديمـة، تتـوّج تلّة بارزة: ولا أعتقد أنّ مجمع الجبال الواقعة شـمال أنطاكية قد تمّ اكتشـافها على نحو منظّم، وفيما إذا كانت قدّمت أيضاً بقايا من حصون رومانيّة وسلوقيّة حرست طريق المدينة.

وللتوّ اكتشـفنا الطّريق القديم المرصوف الذي يتبع مسـاراً أكثـر انحداراً من طريق المركبـات الحديث؛ وقد قادنا هذا الطّريق عند السّـاعة الواحـدة (وكنّا قد توقّفنا لمدّة ثلاثة أرباع السّـاعة لتناول الغداء في مكان ظليل على ضفّة النّهر) إلى القمّة من مضيق بيـلان Pass of Bailan، حيـث التحقنـا بالطّريـق الرّئيسـي من حلب إلى إسـكندرون Alexandretta. لم يكن هناك أثر لحصن، حسـب ما رأيت، عند البوّابات السّوريّة في المكان الذي اسـتدار فيه الإسكندر Alexander وسار عائداً إلى سهل إيسوس Plain of Issus ليلاقـي داريـوش Darius، لكنّ الممـرّ ضيّق جدّاً ولا بدّ أنّه كان من السّـهل الدّفـاع عنه ضدّ الغـزاة القادمين من الشّـمال. وهو الممرّ الوحيد السّـالك لجيش عبر جبل أمانوس Mount Amanus الوعر.

تقع قرية بيلان Bailan على مسافة ساعة في موقع جميل على الجانب الشّمالي من الجبال وتطلّ على خليج إسـكندرون وعلى سـاحل كيليكيا شـديد الانحدار وسلسلة طـوروس Taurus البيضاء. ومن بيلان هناك ما يقارب أربع سـاعات ركوب للوصول إلى إسكندرون.



المجرى الأسفل للكهريز

عندما كنا نعدو ببطء هابطين باتّجاه البحر السّاطع عبر المنحدرات الخضراء والمزهرة التي تشكّل نهاية سوريا، دخلتُ أنا وميخائيل في محادثة. فقد استعرضنا، كما سيفعل الرّحالون الرّفاق، حوادث الطّريق وتذكّرنا المغامرات التي واجهَتنا في الطّوفان والحقل، وقلتُ في النّهاية:

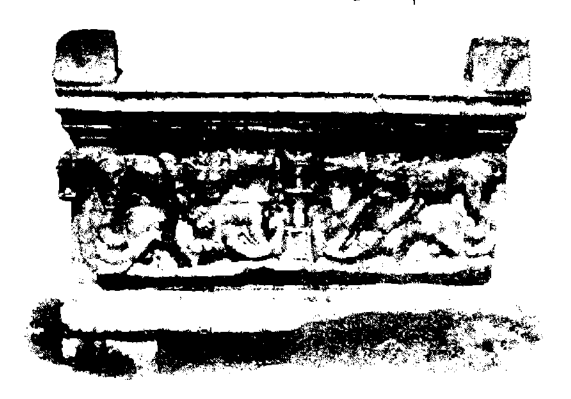
«يا ميخائيل، هذا عالم مُبهج، على الرّغم من أنّ البعض يتكلّم عنه بسوء، ولأنّ معظم أبناء آدم طيّبون وليسوا أشراراً».

قال ميخائيل: «إنّه وفق إرادة الله».

قلت: «بغير شكّ، ولكن تَفكّر ملياً الآن، هؤلاء الذين قابلناهم في رحلتنا، فكّر كيف

كانوا كلّهم سعداء لمساعدتنا، وكيف كان حسن صنيعهم لنا. في البداية كان هناك نجيب فارس Najib Faris، الذي مشى معنا في بداية طريقنا، ونمرود وقبلان ــــ»

قاطعني ميخائيل: «ما شاء الله! لقد كان قبلان إنساناً رائعاً. لم أرَ مشرقيّاً قليل الطّمع مثله، فنادراً ما كان يأكل الطّعام الذي أعددتُه له».



ناووس في سرايا أنطاكية

تابعت كلامي: «والشّيخ محمّد النصّار، وابن أخيه فايز، وقائم مقام قلعة الحصن، الذي آوانا لليلتين وأطعمنا كلّنا، وقائم مقام دريكيش الذي أقام استقبالاً عظيماً لنا، والضّابط محمود ــــ» (هنا نخر ميخائيل لأنّه كان على وشك الشّجار مع محمود). تابعتُ بسرعة: «والشّيخ يونس، وموسى الكردي، الذي كان أفضل الجميع».

قال ميخائيل معلّقاً: «لقد كان رجلاً شريفاً، وقد خدم سعادتك على نحو جيّد».

تابعتُ: «وحتّى رشيد آغا، الذي كان شرّيراً، فقد عاملنا بحسن ضيافة».

قال ميخائيل: «اسمعي، يا ستّ، سوف أوضح لك الأمر. النّاس قاصرو النّظر، ويرون فقط ما يبحثون عنه. بعضهم يبحث عن الشّر ويجد الشّر؛ وبعضهم يبحث عن الخير ويجد الخير، وأكثر من ذلك بعضهم محظوظون وهؤلاء يجدون دائماً ما يريدون. الحمد لله! وأنت تنتمين لهؤلاء ونرجو الله أن تتابعي رحلتك بسلام وتعودي

بأمان إلى بلادك، وهناك ستلتقين بأبيك وأمّك وكل إخوتك وأخواتك بصحّة وسعادة، وكلّ أقاربك وأصدقائك»، وأضاف ميخائيل بإدراك: «ومرّة أخرى عسى أن تسافري في سوريا بسلام وأمان ونجاح، نرجو الله!».

قلت: «نرجو الله!».



فهرس الكتاب

العامر والغامر

«ملكة العراق غير المتوّجة» أو «الخاتون» كانت ألقاباً لامرأة غير عادية، لعبت دوراً محورياً في رسم مستقبل العراق السياسي لسنوات عديدة بعد الاحتلال البريطاني، وكان لها دور كبير في تأسيس الحكومة العراقية الجديدة. كانت هي وتوماس إدوارد لورنس (لورَنس العرب) وراء تنصيب الشّريف فيصل ملكاً على العراق، ولعبت كذلك قبلها دوراً في إطلاق الثورة العربية الكبرى. تلك هي غرترود لوذيان بل (مس بل)، صاحبة المكانة البارزة والنّفوذ الواسع في العراق بُعيد الحرب العالميّة الأولى.

يضمّ كتابها الحاضر هذا وقائع أولى رحلاتها في المشرق العربي، من القدس الشّريف إلى أنطاكية عام 1905، وفيه نقرأ رواية شخصيّة ممتعة تطفو عليها آراء المؤلّفة الرّحالة وتفاعلاتها الإيجابيّة والسّلبيّة مع ما صادفها من مجتمعات وأشخاص وأماكن، كما نلمح فيه صوراً حيّة وجذّابة عن حياة المجتمع السّوري في تلك الفترة، وعن أوضاع الدّولة العثمانيّة وهيئتها الحاكمة، إضافة للأحوال الاجتماعيّة السّائدة، وملامح من حياة عامّة النّاس آنذاك ممّا تغيّر كثيراً اليوم بعد مضي قرن وسبع سنوات على رحلتها الجريئة والرّائدة التي قامت بها بمفردها، وهذا في عُرف ذلك العصر أمر يخرج عن المألوف بشكل صارخ.

السعر 85 درهماً





